

المنبر الحر

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

المنبر الحر

د. علي بن حمزة الغمري
رئيس جامعة مكة المكرمة المفتوحة

www.ALOMAREY.net

Email: ALi@4shbab.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ،
والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد ﷺ

إهداء

إلى أشهر خطباء العالم الإسلامي اليوم..
 إلى الرجل الذي دوى اسمه عبر الأجيال..
 إلى فارس الكلمة وسيد المنبر وأستاذ التأثير..
 إلى الشيخ المناضل الذي ربط منبره المحلي بأعظم قضية
 عالمية..

إلى خطيب منبر الدفاع عن الأقصى
 الشيخ الجليل، والداعية الرباني:

أحمد بن عبد العزيز القطان

الذي دعاني لصعود المنبر الحر، ودعا لي قبل يوم من
 صعوده.

أهديه هذا العمل.

داعياً المولى جلّ جلاله أن يطيل عمره على حسن عمل،
 وأن يرزقه الصلاة في المسجد الأقصى،
 ونحن خلفه شهود.

علي



الافتاح



لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

ولا يعرف المنبر إلا ذووه...!

إن الإنسان بإمكانه أن يعظ ويذكر وينصح في كل مكان، وبألف أسلوب، ولكن موعظة المنبر لها هالة خاصة، ومكانة مميزة.

أليس في حضور الملائكة واستماعها للخطبة، وإغلاقها ديوان الحاضرين بمجرد صعود الخطيب المنبر، أليس ذلك دليلاً على منزلة الخطبة ومكانة المنبر؟

أليس في التشديد على المصلي أن يصغي فلا يلغو ولا يمس الحصى آية على علو رتبة الخطبة وشريف مرتبة المنبر؟

إن المنبر ليس مجرد مرقاة يرتقيه الإنسان ليكون صوته أبلغ وأسمع...!

كلّا... فلو كان ذلك كذلك لما نزل أبو بكر رضي الله عنه درجة من المنبر الذي كان يرقاه النبي ﷺ، ثم نزل عمر رضي الله عنه درجة أخرى، ثم نزل عثمان رضي الله عنه الدرجة الأخيرة ليقف على الأرض.

إن ثمة أمراً ارتبط في نفوس أولئك الخطباء الأكابر حملهم على ذلك.

أتدرون ما هو؟

إنه شعورهم العميق بأن الذي يقف على المنبر خطيباً ينوب عن الرسول المبلغ ﷺ.

ومن هنا نبدأ فصول الحكاية...

وأظن أن لي الحق في رواية فصل من فصول حكاية المنبر وأنا واحد من الخطباء الذين بدأوا الخطابة من الصفر إلى الصفر!

بدأتها شاباً صغيراً يحمل هموم أمته ومجتمعه، ليس له مكانة في عالم الخطابة، وتركبتها مكرهاً وقد استوت الخطب وجاءت على وجهها!

أليس لي الحق أن أروي ولو فصلاً عن الخطابة، وأنا لا أملك لحظة هذه الكتابة سوى البيان دون الإفصاح باللسان؟!

أليس لي الحق أن أروي ولو فصلاً عن الخطابة، وقد كانت رسالة عندي وهدفاً أساسياً من أهداف الدعوة، وليست مجرد وسيلة؟!

أليس لي الحق أن أروي ولو فصلاً عن الخطابة، وقد شرقتُ وغرّبتُ، فصاحبت المنبر وصاحبني، فكنا نفرح ونحزن، ونبتسم ونتألم، ونحاور ونناور، ونصبر ونغضب، ونسالم ونقاوم، وندافع ونهاجم، ونصالح ونواجه...؟!

قد نظير بأشواقنا إلى حيث الروحانية ورقة الفؤاد، غير مجترئين لكلمات مخصوصة، أو عبارات مسجوعة، أو صياغات مرسومة، بل

عبر خطبة روحانية تزيدها الآيات نوراً، والأحاديث عطراً، والأشعار
جمالاً، والسَّير بهاءً، وأمالي النفس ألحاناً عذاباً.

وقد نجمع قلوب المفترقين، ونهدئ الغاضبين، ونحنن
المتخاصمين، فيغدو كلامنا من القلب بكل ما فيه من محبة ورقة،
وإخلاص في رغبة الصلاح والإصلاح.

وقد يثور الأسد، ويرعد البرق، فلا يفل الحديد وقتها إلا
الحديد، حيث كلمة الحق التي لا يخاف فيها لومة لائم!

وقد تطير الكلمات من عشها إلى أفق أرحب، وفضاء فسيح،
للمشاركة في المناسبات والظروف المقدرة فرحاً أو ترحاً، خيراً أو
شراً، للتوجيه والتسديد.

وهكذا بقي المنبر حراً...

فلم أتقاضَ (هلهة) على خطبة، ولم أنتظر (خطبة جاهزة) ألقها،
وما أعدتُ - يعلم الله - ثلاثة عشر عاماً خطبة واحدة ولا نصف
واحدة!!

ولم أتقمص شخصيتي فأزور خطبةً لغيري!!

لأن المنبر لا بد أن يكون حراً.

يوم كان المنبر منبراً...

كان النادم يجد رقة القلب، والظالم يكف أذاه عن الخلق.

يوم كان المنبر منبراً...

كان الشاب المراهق تخفُّ صبوته، والعاق لوالديه يزول طيشه.

يوم كان المنبر منبراً...

كان يعود الجائع طاعماً، واليتيم مجبوراً، والمدين مستوراً.

يوم كان المنبر منبراً...

كان الحيران يستعيد وعيه، والمهموم يزول همه.

يوم كان المنبر منبراً...

كان ينشط الكسلان، ويحذر اليقظان، ويبادر الوسنان.

يوم كان المنبر منبراً...

لم تختفِ قواميس اللغة، ولم تعجز ألفاظها عن موضوع كائناً ما كان سياسياً أو أخلاقياً أو دعوياً أو غير ذلك.

يوم كان المنبر منبراً...

كان العقل يغلب الثورة، والسيرة تحيي الهمة، والنية تُنبئ الثمرة.

يوم كان المنبر منبراً...

كان فقه السيرة، وظلال التفسير، وإحياء الدين، وما ليس من

الإسلام.

هكذا عاشت المنابر...

وهكذا والله عشت مع (المنبر الحر) أخصب مراحل عمري.

كنتُ - والله يشهد - أمكث في كتابة الخطبة عشر ساعات أحياناً، وأعود إلى عشرات المصادر والمراجع، مستفيداً ومقتبساً، ولولا كثرتها وطول العهد بها لقيدتها. وأحياناً قليلة تغلبنى الهموم فتكون المراجع ما أحمله من فكر وما أضمره من حرقه، وما أرجوه من حكمة، وما أسطره من وعي، رضي من رضي وسخط من سخط!

لم أكن أظن - وأنا والله العبد الضعيف - أن أطلب من مصلي جامع سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز بجدة أن يتقاربوا ليتركوا الفرصة لإخوانهم الواقفين بالجلوس. ولا والله، ما تمنيت ولا فرحت، ولكن قادتني الأقدار!

كلما سألني أحدهم عن فن الخطابة أبتسم ولا أحسن الإجابة! إننا وللأسف لم نول أمر الخطابة حقها من الاهتمام والمدارسة. بل لم نول أنفسنا حقها في المطالبة بخطب عاقلة راشدة يحركها الضمير!

لن يكون حل لهذه الأزمة إلا أن يجتمع العقلاء باختيارهم لتنظيم ورقة عمل حول فنون الخطابة وتقويم أعمال الخطباء.

ولو تفرغ طائفة من دعاة الأمة، ومشرفي الرسائل الجامعية، ومسؤولي الدورات التدريبية لتحليل خطب الناجحين المعاصرين لكانت المسيرة في الطريق إلى النضج، شريطة أن يكون هؤلاء ممن مارس الخطابة وركي المنابر إذ لا يكفي التنظير، وأن يأخذوا أنفسهم بالتأمل العميق دون الرأي الفطير؛ لئلا يتصوروا في لحظة حماسة أن الخطبة وسيلة عرض حديثة هدفها الإمتاع والإبهار فحسب! ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

وأرى أن الخطيب الناجح هو الذي لا يكف عن قراءة الكتب المؤثرة في عالم الخطابة، وفنون الإلقاء والتأثير، ليزداد نجاحاً مع نجاحه. ومن جرب عرف.

ولن أنسى أبداً أنني كنت في نهاية العام أقدم استبانة مطبوعة عن واقع خطبي وعلاقتي بالحضور، قيدتها في نهاية الكتاب للاستفادة.

ومن اللازم التذكير أن الخطبة اليوم لدى كثير من الخطباء تفتقد إلى العقلية البنائية، والمسيرة الخطابية!

فإذا لم تتجدد قراءة الخطيب، ولم يطل النظر والفحص والمدارسة لما ينبغي أن تكون عليه الخطبة من حسن التوجيه والنفع والوعي للمستجدات، وإذا لم يستوعب الخطيب الأسلوب المؤثر، وملامح الخطبة المختارة والمركّزة، وحبك الأداء بكل إخلاص وموضوعية ورحمة وحكمة، فستحول خطبته إلى موعظة لا تفكر!!

وكم أتمنى أن لا يرقى خطيبٌ ناشئ أعواد المنابر، إلاّ بإجازة خطابية من أهلها!

فيكفي ما حمله الناس من أحزان إلى أحزانهم نقلها جملة من الخطباء للأسف في خطب كاملة، بين حماسة من غير وعي، إلى شلل في قدرتهم على العمل، أو التوبة والأمل، مروراً بتلخيص وتجميع لآراء العلماء حول مسائل فرعية كروية الهلال، والإنكار على مؤدي التكبير الجماعي في الأعياد!

فهل يعقل بعد تواتر مثل هذا أن نتسامح مع من لا يعرف حقيقة الخطبة وواقع الناس دون نصح، بكل أدب ورغبة في الإصلاح؟!

إن على الخطباء الجادين الواعين دور مهم - ففيهم خير - أن يستثمروا ما حباهم الله به لتوعية إخوانهم الخطباء، فهو واجبهم الخطابي الآخر!

وبعد، فلست أدري لماذا أحس بصعوبة هذه المقدمة أكثر من غيرها، هل لأن في نفسي الكثير؟ ربما!

أرجو أن تتحدث خطب (المنبر الحر) عن مكنونات نفسي، معبرة

عن مرحلة تفصح عنها المواضيع التي آمل أن تكون مرضية على
العموم!

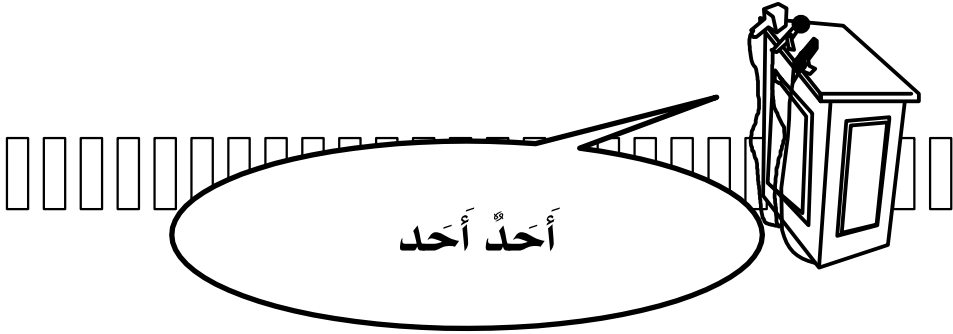
ورجائي أن لا يقرأها من نظر فيها بنفس الخطبة فحسب، بل
بنفس التجديد والإصلاح، على خطى الإسلام، وأصول المهنة،
وشرارة القرن الواحد والعشرين!
والسلام.







في شؤون التاريخ والشخصيات



نحن اليوم على موعد مع أستاذ من أساتذة الحياة فُسح الطريق له، ليعلم الدنيا فنون الحب وقوانين المشاعر، في وقت المحنة والألم. والله لم أقرأ في سيرة الحب الصافي والأحاسيس والمشاعر المتدفقة، مثل ما قرأت في سيرة هذا الرجل.

لقد ملأ الدنيا بصوته الحاني الجميل وهو يردد الأذان، حتى عشق المؤمنون نغمته. فلا تلوموا العاشقين إن غاب سرورهم بغياب صوته.

إنه سيد الحب وصوت العذاب، رافع لواء الحق، إنه ابن حمامة، مؤذن الإسلام، بلال بن رباح رضي الله عنه وأرضاه.

نشأ هذا الفتى الأسمر، النحيف النحيل، أحذب الظهر، العبد المولى الرقيق. نشأ في عصر ذلة العبيد، وتسخيرهم للخدمة بالنار والحديد. نشأ في عالم المساكين والفقراء، في عالم المسكنة...

وما كان يدري ما تخبئه له الأقدار.

كان يسافر إلى الشام وحده في تجارة أمية بن خلف. إذا جاء الليل صفعه ببرده القارس، وإذا جاء النهار مشى حافياً فتلسعه حرارة الرمضاء، وتلفحه حرارة الشمس.

يواصل الليل بالنهار، ولا يوجد في قواميس قريش أي كلمة ثناء أو شكر على جهده وعمله.

كان الناس بمكة يجتمعون، يسهرون ويتسامرون، وبلال يطرد معزولاً، لا يحق له أن يشاركهم أو يفرح معهم.

وكان على هذا العبد الحبشي أن يرعى غنم سيده أمية، والأجر الذي يعطاه في آخر اليوم بضْعُ تمرات لا تكفي لوجبة واحدة. لم يكن في منطقهم إسداء الجميل، أو إعطاء الأجير حقه. هكذا نشأ ابن حمامة، وهكذا عاش بلال معيشة العبيد. معيشة العبيد هي:

أن يقول كما يُقال فلا اعتراض ولا ردود
هي أن يسير مع القطيع وأن يُقاد ولا يقود
هي أن يعيش كما يُراد ولا يعيش كما يريد

وظلت أيام بلال مستعرة بالشقاء والنكد الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

وكان مسجوناً في سجن القهر طيلة بقائه مع أمية وقومه... إلى أن جاءت ليلة من الليالي انهزم فيها ظلام الليل، وبرز فيها نور الفجر، فانتقلت إلى أسماع بلال الحبشي أنباء دعوة رسول من رسل الله، نقلها إليه أحد أصحابه...!

أحد أصحابه؟!!

وهل لبلال العبد الحبشي الأسود أصحاب؟ وهل للرقيق والخدم والأرقاء أصحاب؟ من يصاحبه ويؤانسه؟ نعم، إنه صاحبٌ ونعم الصاحب، إنه حرٌّ غني كريم، إنه أبو بكر الصديق. عرفه أبو بكر

بدعوة محمد ﷺ ورسالته، فأيقن بلال بعظمة ما يدعو إليه هذا النبي الكريم، وأن الله خالق السماوات والأرض، المطلع على كل السرائر، العالم بما انطوت عليه النوايا والضمائر، وأن المسلمين إخوة، وأحب محمداً ﷺ ولم يره، لأنه أحس بدعوته الصادقة ومعانيه العظيمة، أحبه بما سمع من أخلاقه وشيمه ودعوته ورسالته، أحبه حباً استولى على سمعه وبصره وقلبه. إنه العبد الرقيق، إنه الأسود الحبشي، ولكنه في دنيا الناس يحب، وله في عالم الحب أسرار.

وفي هجعة الليل والنجوم ساكنة، يسير على رمال مكة أبو بكر وبلال. إلى أين؟ إلى أين تمضيان؟ إلى أين تسيران؟ ماذا تريدان؟ وبماذا تفكران؟...

هذا العبد سيصبح بالإسلام حراً، وسيصبح بعد المذلة عزيزاً.

سيكون له بالإسلام شأن، ولن يكون تائهاً أو نسياً منسياً.

وما إن وصل بلال إلى النبي محمد ﷺ ورآه حتى فاضت دموعه، واحتضنه وضّمّه، وبدأت عروق قلبه تمتلئ بالحب لمحمد ﷺ ورسالته. وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

وعاد بلال إلى الحياة بنفس جديدة، وإيمان حي لا يتشاءب، ورسول الله ﷺ لا يملك له إلا هذه الجلسة، إلا هذه النظرات الموحية بالرضا عن هذا الفتى، والدعاء له بالثبات. يودّعه في جنح الليل، ويمد له يده. ماذا يملك له أكثر من هذا؟

يا بلال، الثبات الثبات.

ويرجع بلال إلى أمية و قومه، وتبدأ مرحلة المساومة على الإيمان، والضغط على الثبات. ويعلم أمية أن بلالاً أسلم ونطق

بالشهادتين، وكفر بالآلات والعزى، كفر بكل ملة سوى الإسلام، كفر بكل مبدء سوى الدين. ولن يذل نفسه بعد اليوم لأحد، لأن الله واحد أحد. جلس جلسة واحدة مع النبي ﷺ فأيقن بعظمة الله وقدره الله. وتبدأ مرحلة المعاناة والمحنة، ويبدأ الجلادون والسجانون، ويبدأ أرباب المعتقلات، ويبدأ الظلمة، ويجرد بلالٌ من ثيابه، ويربط بالسلاسل والأغلال في يده ورجله، فكانوا يخرجون به في حرّ الظهرية عندما تتحول الصحراء إلى جهنم محرقة فيطرحون ظهره على رمالها الملتهبة. ثم يأتون بحجر مستعر كالحميم ينقله من مكانه بضعة رجال، ويلقون به فوق صدره! واستمر على هذه الحال أياماً، وقد منع أمية بن خلف عنه الطعام والماء.

وتفنن أمية بن خلف في تعذيبه. فإذا جاء المساء، ربطه بالحبل في عنقه وجره، وأمر صبيانه أن يطوفوا به جبال مكة وشوارعها وهو مكبل مربوط، يرتطم بكل صخرة. وهو يردد نشيد المؤمن: أحد أحد.

ويراه ورقة بن نوفل، ويفاجأ من فعل الصبيان ويسمع بلالاً وهو يقول: أحد أحد، فيمشي خلفه... ويقول له: «أحد والله يا بلال»، فيقول أمية: بل ربه الآلات والعزى، فيقول بلال: «بل أحد أحد».

أحد يا ابن خلف، أحد يا ابن خلف.

أحد أحد... أحد أيها الظالم... أحد أيها الفاجر.

أحد أحد... أحد أيها المتآمرون... أحد أيها المنافقون.

أحد أحد... أحد يا أيها اليهود... أحد أيها النمروذ... أحد

يا فرعون.

أحدٌ أحد... أحدٌ أيها المظلوم... أحدٌ أيها المسجون... أحدٌ
أيها المقهور.

أحدٌ أحد... أحدٌ أيها الداعية... أحدٌ أيها المربية.

أحدٌ أحد... أحدٌ أيها المجاهدون... أحدٌ أيها الصابرون.

أحدٌ أحد... أحدٌ أيها المبتلون... أحدٌ أيها المرضى
والمنكوبون.

أحدٌ أحد... أحدٌ أيها الثكلى... أحدٌ أيها الجوعى.

أحدٌ أحد... أحدٌ أيها الخدم المظلومون... أحدٌ أيها الأجراء
المستحقرون.

أحدٌ أحد... أحدٌ أيها المغضوب... أحدٌ أيها المنكوب.

أحدٌ أحد... أحدٌ يا رجال الأقصى... أحدٌ يا بواشل الإسرائ.

أحدٌ أحد... أحدٌ يا أبطال النزال... أحدٌ يا فوارس القتال.

أحدٌ أحد... ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١).

هذا الرقيق تراه عند	مد الرّوع في قلب الأسود
متبسماً والدهر غضـ	بانّ يزمجر بالوعيد
فإذا رماه بالخطو	ب رماه بالعزم الجليد
وإذا دعتـه الواجبات	فحمّلتـه بما يؤود
وجدته صلب المراس	فلا يخر ولا يמיד

(١) الإخلاص، الآية (١).

هو في الرخاء وفي الشدائد للجميع أخ ودود
لا الفقر يذهله ولا الـ إثراء ينسيه العهد
الحب ملء فؤاده والحب كنز لا يبيد
لا حاملٌ حقدًا فما أشقى الحياة مع الحقود
هو مؤمن راسي اليقيـ ن كأنه الجبل الوطيد
غال، فما يرضى مبيـ ع النفس بالثمن الزهيد
الله منه قد اشترا ها وهوَ أوفى بالعقود

هكذا خرج بلال رضي الله عنه من هذه المحنة ثابت المبدأ، طاهر النفس، قوي المجاهدة، أياً في الحياة. خرج للدنيا وقد باع نفسه كلها لله. خرج للتاريخ وهو يشهد له بثباته، كما شهد له بذلك إخوانه، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد رضي الله عنهم. فأما رسول الله فمنعه الله بعمه. وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه. وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحدٌ أحد»^(١).

لقد علّم بلالٌ شبابَ الأُمَّة الذين سلكوا طريق الإيمان ووجدوا معاناةً وصداً من أهلهم.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٣٢)، قال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده حسن.

لقد علّم بلالٌ دعاة الأُمّة وهم يتلقون صنوف الأذى والمحن من طغاة وجبابرة الأرض.

لقد علّم بلالٌ المولى الحبشي المؤمن الموحد المرابط، علّم هؤلاء كلهم معنى «أحدٌ أحد»، معنى لا إله إلا الله، معنى المحنة في أظنع صورها وكيف تهون النفس محبةً ورغبةً واستشعاراً بل ولذةً من أجل الله.

علّمهم بلال أن الإيمان ليس كلمة تقال، إنما حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال. فلا يكفي أن يقول الناس: آمناً، ولما يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم، خالصة قلوبهم، حتى تسلم الروح الطاهرة لخالقها.

وهكذا تمضي أيام المحن وشدة الفتنة القاسية، ولكنها العاقبة الحسنة، والذكر الطيب لمن صبر. قانون في الحياة ليت المؤمنين والدعاة يفتنون له.

وينضم بلال رضي الله عنه إلى زمرة المؤمنين الأطهار، ليشهد له التاريخ أنه من أوائل من أسلم، وليكون له شرف التأسيس لحضارة الإسلام الأولى، ولا يزال بلال يتذكر في أيام الإسلام الأولى موقف عمر رضي الله عنه وقد جاء ليشوّه التاريخ بسل سيفه ليقتل النبي ﷺ، عندما توجّه إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم، فوجد بلالاً الحبشي على الباب. فقال بلال: «من أنت». فقال: «عمر بن الخطاب»، فأوقفه حتى استأذن رسول الله ﷺ، وقال بعزة المؤمن الذي لا يهاب: «عمر بالباب». وشهد بلالٌ إسلام هذا العملاق، شهد عرس البطولة، شهد احتفال إسلام الفاروق الملهم رضي الله عنه.

الله... الله... ها هي أيام بلال تتجلى وتتحلى... وها هو قد أصبح الناطق الرسمي لدولة الإسلام الأولى ورافع لواء الحق فيها. والمعلن الأول، والمؤذن الأول، والصادح الأول بأذان المسلمين. وينتفض بلال أول مؤذن في التاريخ، ليحرك ضمائر المؤمنين خمس مرات في اليوم واللييلة، ويهتف بصوته الشجي الحنون، يذكّر المؤمنين:

الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر.

أشهد أن لا إله إلا الله... أشهد أن لا إله إلا الله.

أشهد أن محمداً رسول الله... أشهد أن محمداً رسول الله.

وتَجُمَلُ الدنيا مع نغمات بلال الحبشي... وتتناغم الأصوات مع هتافه الخالد.

بلال الحبشي العبد الذي لم يكن يسمع له، بلال الحبشي الذي لم تكن له مكانة... ها هو يتكلم، ويؤذن بصوته، وتصمت الدنيا كلها تسمع صوته، تهدأ الكائنات، تخرس الأصوات كلها إلا صوت بلال، يتعالى يهتك حجب الفضاء.

كان هذا الرجل الإيمانى يأتي إلى صلاة الفجر في الليلة الشاتية الباردة، ويؤذن أحياناً وما في المسجد أحد، فيقول النبي ﷺ: «ما شأنهم يا بلال؟»، فيعتذر لهم بلال الخلق الأديب، فيقول: كَبَدَهم البرد - أي: شقّ عليهم - بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فيدعو لهم الرحيم الحبيب ﷺ: «اللهم أذهب عنهم البرد».

وتأتي غزوة من الغزوات وبلال رضي الله عنه في عداد حرس

الجيش. فيقول عليه الصلاة والسلام^(١): «من يوقظنا للصلاة؟»، فيقول بلال: أنا يا رسول الله. ويسكن الجيش، ويتدثر بثوب الظلام الساكن، وبلال يرعى الجيش وقبيل الفجر بلحظات يغالبه النعاس فتغفو عينه، وينام بلال وتحين الصلاة، ورسول الله نائم، والجيش نائم، وبلال نائم، وتطلع الشمس، ويتنبه أبو بكر رضي الله عنه، وإذا بالشمس قد طلعت وحارس الجيش نائم، ثم يستيقظ عمر رضي الله عنه، فيتساران كلاماً على أسي، ماذا سيقولان لرسول الله؟ وكيف سيوقظانه؟ استحيا أن يكلماه ويقولوا: قم يا رسول الله... فاهتدى عمر رضي الله عنه إلى طريقة يتأدب فيها مع رسول الله ﷺ وهي أن يؤذن! فاستيقظ رسول الله ﷺ مستغرباً، ليس هذا صوت بلال، ليست هذه نغمات بلال. فنادى رسول الله ﷺ: «أين بلال؟»، فذهب الصحابة رضي الله عنهم فأيقظوه.

ويسأله الحبيب الكريم: «ما أيقظتنا يا بلال؟»، فيجيب جواب صاحب الفطرة الصافية النقية: أخذ بعيني الذي أخذ بعينك يا رسول الله! ويتبسم له رسول الله ﷺ.

أكرم بخلق نبي زانه خلق
بالحق مشتمل بالبشر متسم
كالزهر في ترف والبدر في شرف
والبحر في كرم والدهر في همم
يا رب أزكى صلاة منك دائمة
على النبي بمنهل ومنسجم

ويعيش بلال رضي الله عنه حياة الإسلام كلها لحظة بلحظة، يعيش مرحلة الصبر والرباط، ومرحلة التأسيس والبناء، ومرحلة التربية

(١) انظر: البخاري (١٢٠/١)، ومسلم (٦٨٢)، من حديث عمران بن حصين، وروي من حديث ابن مسعود عند أحمد (٣٧١١).

والتعليم، ومرحلة القتال والجهاد، ويأتي اليوم الذي يشارك فيه إخوانه المسلمين في غزوة بدر، فيحمل سيفه، وفي قلبه عزّة الإسلام، و ينتظر لحظة البدء ليدكدك عروش الباطل، ويمرغ وجه المعتدي في التراب. وتبدأ ساعة الصفر، وينطلق البطل في ساحة الوغى إلى الميدان، ويتقدم ويتوغل - لله دره - فيقاتل في سبيل الله، ويطيح برؤوس العلوج المجرمين، المعتدين على حرمة الإسلام وأهله، ويتلمس بلال في ساحة الهيجاء أمية بن خلف رئيس الكفر، الذي كان يقول له: ربك اللات والعزى، ليريه من الحي الباقي. وفي لحظة قدر يلمح بلالاً أمية، إنه يعرفه ولو طال الزمان، ويصيح: «رأس الكفر... أمية بن خلف... لا نجوت إن نجا». فيرفع سيفه تجاهه، فيراه عبدالرحمن بن عوف قائلاً: «أي بلال... إنه أسيري». ويتعجب بلال، أسير؟!!

أسير والحرب مشبوبة ودائرة؟ أسير وسيفه قبل قليل يقطر دماً مما كان يصنع في أجساد المسلمين؟ فرفع بلال صوته: «يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا». فهوت عليه السيوف، حتى سقط هامداً ثم اقترب نحوه بلال مسرعاً وقال: «أحد... أحد».

ويكون هذا المشهد موقفاً عملياً من بلال رضي الله عنه للأمة كي لا تنسى ما فعله الظلمة بدماء الأبرياء، كي لا يترحم المغفلون على أرباب الجور وسفكة الدماء من أحزاب الكفر والضلال.

ولكن بلالاً لم يزل رحيماً يريد الخير والهداية للأمة، فهذا هو ذا بلال يطل من جديد إلى ساحة أفق أرحب، مما يدل على رفته وقلبه الأبيض الطيب، تقول امرأة من بني النّجار: كان بيتي من أطول البيوت حول المسجد، وكان بلال رضي الله عنه يؤذنّ عليه للفجر كل غداة،

فيأتي بسحر فيجلس على البيت ينتظر الفجر، فإذا طلع الفجر قال: «اللهم أحمداً وأستعينك على قریش أن يقيموا دينك»، قالت: ثم يؤذن، ووالله ما علمته كان تركها ليلة واحدة^(١).

أما قلت لكم أيها السادة أنه سيد الحب والرحمة في أشد لحظات المعاناة والشدة. إنه لم يزل داعياً ربانياً يشفق على قریش، يرفع يديه إلى السماء في لحظة السحر الآخر قبيل الفجر، ويتمنى لها الهداية والخاتمة الحسنة.

رضي الله عن بلال ما أوفاه وأتقاه.

لم يكد بلال ينجو من البلاء الجسمي، حتى وجد ابتلاءً آخر في الطريق، إنه ابتلاء النفس، الذي لا يصمد أمامه إلا الثابتون.

ها هو بلال الحبشي الذي رفعه الإسلام، ولم يعد يجد سيرة القبيلة والقومية الأرضية في جو الإسلام الطاهر، وبينما هو في مجلس مع إخوانه يتبادلون الأحاديث الأخوية، إذ يدور بينه وبين أخيه أبي ذر كلام، فيصيح في وجهه أبو ذر الغفاري: يا ابن السوداء!^(٢)، إنها كلمة ليست في قاموس تربية الإسلام الراقية، وليست في عرف الخلق الشريف. وتحملها بلال في ذات الله. تحمّلها بلال لأنه يعلم أنها مجرد كلمة خاطئة صدرت من أخيه عن غير قصدٍ، ووجد لها في صدره الرحب عذراً، ولو كانت في وجهه، ولو كانت في مجلس عام وبحضرة الرجال! ولا يتحمّل كلمة الأخ القاسية إلا مؤمن رفيع القدر،

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٣/٢٣٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢١٤٣٢) قال محقق المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

عالي المناقب، سمح السجايا. ولا يتورّط في الخصام إلا قليل الإيمان، صريع الشيطان، أسير الهواجس والأفكار والأوهام.

احتملها بلال المسلم الداعية الرباني الصادق، وسكت. ولكن الرسول الكريم لم يفوّت خطيئة أبي ذر رضي الله عنه وجريسته، لأنّ خطيئته تفتك بعُرى الإخوة، وتهزم الأخلاق، فقال له: «أتعيّره بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية». إنها الرسالة الواضحة الصريحة لمن تجاوز الحد. وما هي بأول صدمة يتلقاها بلال، فإن الرجال من علّمتهم المحنّ الصبر الجميل الحسن، وقد تنزل القرآن الكريم من قبل مراعيّاً حال هذا العبد الحبشي وإخوانه صهيب الرومي وسلمان الفارسي، وعمّار بن ياسر، وخباب بن الأرت. عندما قال القوم من قريش: يا محمد، أراضيت بهؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم اتبعناك. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ﴾^(١).

ولكن بلالاً وجدّ من يقدره وينزله المنزلة اللائقة به. فها هو عمر رضي الله عنه يقول: «بلالٌ سيّدنا وأعتقه سيّدنا».

وتمر الأيام وتتسارع، وتأتي أيام مكة من جديد، أيام الفتح، أيام العزة الإسلامية... ويدخل بلال مع جموع المؤمنين الفاتحين، وتتراقص في ذاكرته الذكريات.

هنا يا بلال عُذِّبت، هنا ضُربت، هنا كان العبدُ يخدم، هنا كان المولى الأسود يرعى الغنم، ويمر شريط الذكرى القاسي، إنه يتذكر الأيام العصيبة، وفجأة يقطع فكره صوت النبي ﷺ: «أين بلال؟»،

(١) الأنعام، الآية (٥٢).

فيقول: لبيك يا رسول الله ﷺ. فيقول: «اصعد على الكعبة وأذن». وهنا يصعد بلال الحبشي أول رجل يؤذن في يوم الفتح الأكبر. فينظرُ إلى بيوت مكة، ثم يؤذّن فيُسمع كل من فيها، كل ذرّة، كل نسمة، كل حي، كل جماد، كل بيت، ويهتف بصوته الجميل الحنون، العذب الندي الشجي معلناً أذان الإسلام، فيزلزل بصوته القلوب، ويحرك الشجون.

ولا يزال بلال يؤذن، يؤذن في الأرض التي كانت تعبد الصنم، يؤذن في أرض الإلحاد والمادية، يؤذن ويعلن التوحيد في الأرض التي لم يكن يتخيل أحد أن تهزم، ويستمر في الأذان وينادي: حي على الصلاة، وقد كان يُدعى حول هذا المكان إلى كل أنواع الخطايا... ويستمر في الأذان ويكبر، ويبكي الرسول ﷺ وهو يتذكر المعاناة، يتذكر المحنة، يتذكر ساعات الألم، ويستشعر نعمة الله وفرجه ووعدته.

وتمر اللحظات الروائع، والمواقف العظيمة الخالدة، ويعيش بلال مع بقية إخوانه، مع الجيل التأسيسي الأول، لحظات الوداع، لحظات الفراق، اللحظات التي لا بدّ منها، لحظات وداع الحبيب، المربي، الأب، الأخ، الصديق، المعلم، الموجّه، بل كلّ شيء. يعيش اللحظات الأخيرة مع حبيبه الأول الذي التقاه في أول أيام الإسلام وساعاته الأولى. وتأتي هذه اللحظات الصاعقة على بلال بخبر وفاة النبي ﷺ، فتغلق الدنيا كلها في وجهه، ويجمع عواطف الحزن كلها في قلبه، ويقرر مغادرة أرض المدينة إذ لا بقاء فيها بعد موت أعز عزيز عنده، ما عادت له القدرة على الأذان، مات الذي كان يحنو عليه وهو حبشي، مات الذي شرّفه بالأذان، مات الذي أحبه وشغل باله عن كل شيء. ويغادر بلال المدينة إلى الشام، وتمضي الأيام، وحب

المدينة وساكنها لم يزل في قلبه، وفي ليلة من الليالي يرى بلال رسول الله ﷺ في منامه وهو يقول: «هَجَرْتَنَا يَا بَلال، أَلَا تَزُورُنَا؟!»^(١)، فيحدوه الشوق إلى المدينة لزيارة رسول الله ﷺ. ومشى بلال إلى المدينة، ولكنه في هذه المرة الشيخ الهرم الكبير، وسافر على بساط الحب ليزور حبيبه المصطفى ﷺ كما أمره.

ويصل بلال يدفعه الشوق إلى المدينة ليلاً، فيأتي الروضة ويصلي ويسلم على الرسول ﷺ، ويبقى في جنح الظلام في عالم الذكريات والمواقف، بلال لوحده في المسجد، والصحابة نائمون.

بقي في هذا الليل يتلمس الحصى، ينظر إلى المحراب، يتذكر حبيبه الأول، يتذكر صوته، مواقفه، ولم يزل قلبه يرجف ويخشع مع كل لحظة تدبر. وبينما هو في هذه اللحظات يحين الفجر، ويتأخر المؤذن لحكمة أَرادها الله، فلم يجد بلال بداً من أن يؤذن، وقد أنهكه المشيب. لم يعد يطيق الأذان بعد رسول الله ﷺ، ولكنه واجب البلاغ الآن، فنادى المؤذن الأول. وعاد بلال، وعاد صاحب الصوت الشجي، عاد العبد الأسود مؤذن رسول الله ﷺ إلى المسجد النبوي. ليؤذن في لحظة الليل الروحانية أذان الفجر، ويصعد المنارة، ويبدأ الأذان، فتلتقط آذان الصحابة هذا الصوت. إنه أذان بلال! فتسارع إليه، وتختلط دموع الحزن بدموع الفرح، ويقف الناس، الرجال والنساء، أهل المدينة، بلال يؤذن، وهم واقفون يسمعون، ينظرون إليه وهو في المنارة، في مشهد روحاني مهيب، ويؤتمُّ بلالُ أذانه، ثم ينزل من المنارة فيتلقاه إخوانه، تتعانق الأرواح، وتتساقط الدموع، وتكرر

(١) تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر (١٣٧/٧)، وتاريخ الإسلام، الذهبي (٢٧٣/٤)، وقال إسناده جيد، ما فيه ضعيف لكن (إبراهيم) مجهول.

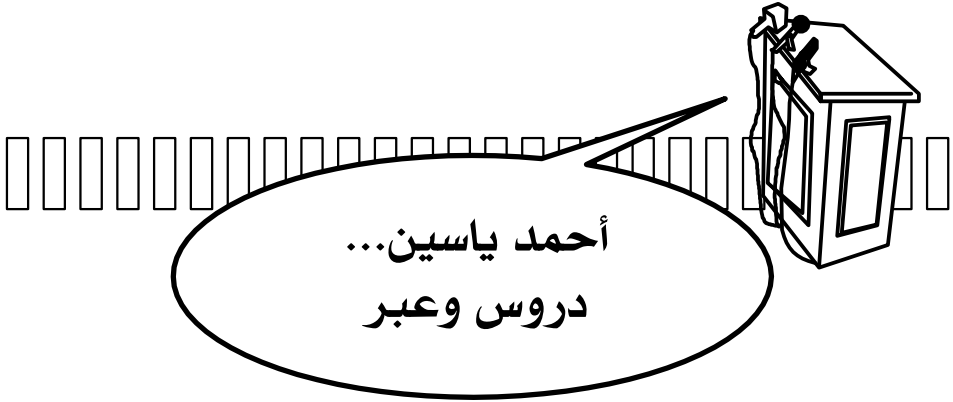
مشاهد الحب والوفاء والإخاء، مشاعر المودة والحب في الله، مشاعر الإيمان والروحانية الصادقة. ويصلي معهم بلال. ويعيش معهم لحظات الأنس والمني، ويطلبه إخوانه بالبقاء معهم، ويناشدونه أن يبقى مؤذناً، ولكنه اعتذر؛ إذ لا طاقة له، وإنما جاء ليحبيب دعوة خاصة. ثم نظر نظراته الأخيرة إلى الأرض الشريفة، إلى المحراب، إلى الحجرة، إلى الروضة، إلى إخوانه، وعاد بعدها الشيخ الكبير الجليل، عاد بلال إلى الشام، وهناك استقبلته الملائكة بأمر ربها ليودّع بلال الحبشي الحياة بعد رحلة طويلة، بعد صبر وتقوى، بعد مواقف خالدة، ودروس ثابتة. لقد ارتاح بلال من الدنيا، ولحق بالرفقة محمد وصحبه، وترك خلفه سجلاً حافلاً من العبر لكل رجل من رجالات هذا الدين.

سلام عليك يا بلال، فقد بقي اسمك الأوحد الذي إذا سُمع تذكرك الناس. فلنعم الصاحب أنت، ولنعم الأخ أنت، وليت الأمة تعلّمت منك فنون الحب والمشاعر، والأحاسيس الصادقة، وتعلّمت منك مبادئ الثبات، وقول الحق والصبر، وتعلّمت منك معاني الوفاء لمن رباهم وأدبهم وعلمهم، وتعلّمت منك معنى الأخوة والحب في الله.

وإلى الملتقى في جنات عدن إن شاء الله يا سيدي، ورضي الله عنك وأرضاك في الأولين والآخرين وفي الملائكة الأعلى إلى يوم الدين...

وإنا على الطريق الإيماني إن شاء الله لثابتون صابرون، وعلى نهج الدعوة محتسبون.





أحمد ياسين... دروس وعبر

رفقاً بقلبي أيها اللوام
عونا أحياء الجهاد لمهجتي
عونا فإن الخطب ليس بهين
أنا لستُ معترض القضاء وحكمه
فشهيدنا للموت شيخ طائع
هل يا ترى ينسى الزمان مآثراً
من ذا سيؤتي مثل غرسك بعدما
فلقد عهدتك لا تهادن ظالماً
أسفي على يتم البطولة بعدما
لا يا حبيب القلب قد علمتنا
إن الشجاعة منحة موهوبة
هذي حماس تخوضها عمرية
فلتخسؤوا خدام أمريكا ويا
ودم الشهيد ملاحق أنذالكم
طب يا شهيد الحق موعدنا غداً

وقع الذي أخشى فكيف أنام
فلقد رمت بسهامها الآلام
أولا ترون الجرح لا يلتام
فلربنا في خلقه الإبرام
ما دام في ذات الإله يرام
طبعت لها في جيلنا أختام
شبّ النبات وفُتّحت أكمام
بل كان يخشى بأسك الظلام
فجع العرين وصرع الضرعام
أن الحياة توثب وصدام
بين الرجال وبينها أرحام
وبغيرها لن تثبت الأقدام
خدّام رؤس إنكم آثام
من أرض مكة واصرخي يا شام
عند المليك يحفنا الإنعام

طُر في فراديس الجنان مغرّداً فهوأك ذاك ونعمت الأحلام
فتزيني حور الجنان تزيني فالعرس قام، ورقّت الأنغام
ما متّ إذ فارقت يا علم الهدى وهل الشهيد يموت يا أقوام؟

هنيئاً للأمة الإسلامية، هنيئاً لأهل فلسطين، هنيئاً للقادة
المسلمين، هنيئاً للشعوب الحرة الأبية، هنيئاً للعلماء والدعاة وشباب
الصحوة، هنيئاً لأبناء الأمة...

هنيئاً لهم شرف استشهاد شيخ المجاهدين في فلسطين الشيخ
أحمد ياسين...

على الرجال أن يفرحوا، وعلى النساء أن يغردن ويغنين ويزغردن
بأهازيج البشارة، نعم، نzf البشري للشهيد، ونقيم العرس للشهيد،
فلنعمت الأمانة ولنعمت الخاتمة...

هنيئاً لك والله يا أحمد ياسين، وهنيئاً لنا نحن المسلمين بهذه
الخاتمة الشريفة السعيدة، وما أروع أم محمد زوجة الشهيد الشيخ
أحمد وهي تمالك نفسها تختلط دموع الحزن بدموع الفرح، والناس
لا يعزونها فحسب بل يهنئونها بهذه المكرمة الربانية. أخذت تروي
أم محمد لكل المهنيين والمعزين قصة زوجها قبل استشاده بأيام
لتزيد من فرحتهم وتثبت معاني الوفاء في نفوسهم عن زوجها الشهيد
أحمد ياسين قائلة: (إن الشيخ أحمد كان يشعر في الأيام الأخيرة
أنه سوف يستشهد، وأبلغ أهل بيته بذلك، وقال لهم قبل استشاده
بيوم: «أشعر أنني سوف استشهد وأنا أطلب الشهادة، أبحث عن
الآخرة ولا أريد الدنيا»، وكنا نشعر بالخطر الكبير حتى إنّ بناتي
الثلاثة كن يبتن خارج البيت في الليل، وأما أنا فكنت أبيت دوماً

في البيت مُسَلِّمةً أمري إلى الله عزَّ وجلَّ، وكان الشيخ منذ سنتين يبيت في آخر الليل خارج البيت، وفي ليلة استشهاده قضى ليلته في المسجد يصلي ويقوم الليل، وبعد أداء الصلاة والشيخ في طريق عودته لبيته سمعتُ القصف اليهودي، وعلمتُ أنَّ الشيخ هو المستهدف، وقد خرجت مسرعة دون أن أنتبه ولم أجد الوقت لارتداء حجابي، وذهبت لأراه فلم أرَ جسده، بل كان أشلاء ممزقة، رحم الله زوجي فقد كان صائماً ذلك اليوم كعادته في صيام كل إثنين وخميس).

يا أيها الشهيد	يا طاهر الدماء
أبشر بيوم عيد	للروح في السماء
فالحور في انتظارك	والصحب والملائك
فأبشر بخير دار	منعماً هنالك
سبيلك الأبوية	يا زينة الرجال
دماؤك الزكية	تعطر الرمال

يا أيها الشهيد، يبشرك رسولك ﷺ بقوله: «في الجنة مائة درجة أعدّها الله تعالى للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»^(١) رواه البخاري.

وفي الحديث الصحيح يقول عليه الصلاة والسلام: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له أولُ دُفْعة من دمه، ويُرَى مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأْمَنُ من الفزع الأكبر، ويُحَلَّى حلة الإيمان، وبزوج من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من

(١) أخرجه البخاري (٩/٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أقاربه»^(١)، وما سمي الشهيد شهيداً كما قال النووي رحمه الله:

١ - إلا لأنه حي شاهد عند ربه.

٢ - ولأن ملائكة الرحمة تشهده فتقبض روحه.

٣ - ولأنه ممن يشهد يوم القيامة على الأمم.

٤ - ولأنه شهد له بالإيمان، وخاتمة الخير بظاهر حاله.

٥ - ولأن له شاهداً بقتله، وهو دمه.

٦ - ولأن روحه تشهد دار السلام، وروح غيره لا تشهدها إلا يوم القيامة.

الله أكبر... ما أجملها من حياة، وما أسعدها من خاتمة...

دعنا نسافر في دروب إبائنا ولنا من الهمم العظيمة زاد
ميعادنا النصر المبين فإن نُمْتُ قبلاً فعند إلهنا الميعاد
دعنا نمت حتى ننال شهادة فالموت في درب الهدى ميلاد

لقد استطاع هذا الشيخ ابن السابعة والستين من عمره أن يصدع
بالحق، ويهدد اليهود، ويقود الكتائب لنصرة القدس والأقصى.

اعتقل عدة مرات، ونفي إلى بعض الدول خارج أرض فلسطين،
عذب الشيخ في معتقلات اليهود مراراً، حتى فقد بصر عينه اليمنى من

(١) أخرجه الترمذي (١٦٦٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.. وابن ماجه (٢٧٩٩)، وأحمد (١٧٢٢١) عن المقدم بن معدي كرب رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

شدة الضرب عليها، وأصيب بالتهاب في أذنه، وحساسية في رثتيه، ولم يزل مع هذا يواصل المسير نحو أشواق الآخرة.
ولنا أيها الأحبة مع حياة هذا المجاهد البطل رحمه الله وقفات وتأملات.



□ أولاً: الشيخ أحمد ياسين داعية ورجل عامة:

إن هذه الشهرة الكبيرة والمحبة العظيمة لهذا الرجل لها أسرار عجيبة، ولعل كثيراً لا يعرف عن الشيخ أحمد ياسين سوى أنه مجاهد بطل، وقائد حركة حماس المؤمنة، ومرشد حركة الإخوان المسلمين في فلسطين، بينما الشيخ مع هذا كله هو رجل عامة، يشارك الناس أفراحهم وأحزانهم، وآلامهم وآمالهم، ويكاد يكون قاضي فلسطين كلها. يروي أهل فلسطين أن الزوجين لو اختلفا لم يقبلا حَكماً عَدلاً سوى الشيخ أحمد ياسين! وأن الأم إن أغضبها ولدها قالت له: سأشتكيك للشيخ أحمد ياسين، فيهدأ! وأن طالب العلم الفقير، وصاحب الحاجة المسكين، وراغب الزواج العفيف، لا يلجؤون بعد الله إلا للشيخ أحمد ياسين ليعينهم ويساعدهم.

لقد ظن الكثير أن الشيخ مختفٍ عن الساحة لا يراه العامة ولا الخاصة. كلا بل هو مع المسلمين في كل فلسطين يشاركهم لحظة بلحظة، حتى إن أحدهم إذا قسا قلبه وضاق نفسه، استعان بالله وذهب للشيخ ياسين يذكره ويوجهه ويرفع من معنوياته.

نعم أيها الإخوة، إنه شيخ مقعد كبير السن إلا أنه كان يحمل من روح التفاؤل وبشائر النصر الشيء الكثير.

□ ثانياً: الشيخ أحمد ياسين يربي أتباعه على الخوف من الله وحده:

لقد تعرض لعدة محاولات اغتيال وأنجاه الله. نعم يأخذ بالأسباب ويحتاط بأمور بشرية، ولكن يبقى الحي القيوم، يبقى ذو الجلال والإكرام، يبقى الإله الذي لا ينام، ثم أراد الله أن يختار هذا العبد الصالح ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾^(١). ولعل من حكمة الله أن يكون هذا اليوم المبارك في هذا الشهر شهر صفر منطلقاً بإذن الله للمقاومة والجهاد. ففي شهر صفر أذن الله تعالى لرسوله ﷺ بالقتال، وفي هذا الشهر نزلت آية القتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٢).

سيكون دم أحمد ياسين وقوداً للمجاهدين الأبطال في حماس، وسيهيج عرائس الحور لتبذل أرواحها في سبيل الله، ليكون الملتقى بهم هناك مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، يفرحوا بما آتاهم الله من فضله، وليتركوا الخونة والمستعبدين في استنكارهم المقيد لحريات الشعوب، ووقوفهم المسلسل بثقل الأرض ليلعنهم التاريخ، وتسخر بهم جماهير الغاضبين.

إنّ يوم الإثنين ٢ صفر ١٤٢٥ هـ هو يوم الثورة، والانتقال للمعركة الجديدة في تاريخ وذهن الأمة، كما كان ١١ سبتمبر يوم التحركات التحالفية الأمريكية الصهيونصليبية. وستبقي كلمات شيخ الانتفاضة نوراً على نور وهو يقول: (القضية الفلسطينية ليست قضية

(١) آل عمران، الآية (١٤٠).

(٢) الحج، الآية (٣٩).

لاجئين يحتاجون إلى حل إنساني دولي، كما أنها ليست قضية أنصاف حلول وتفريط بأجزاء من الأرض المسلمة في فلسطين أو قبول خارطة الطريق. فالحق لا يتجزأ، ولا يوضع موضع المساومة). ومن أدار خده اليوم لأحد فلا بدّ أن يُدار الخد مرة أخرى. ولئن خانك العدو يوماً فالذنب ذنبه، ولئن خانك مرة ثانية فالذنب ذنبك، وما أخون اليهود في ألف مرة ومرة.

وداعاً يا ياسين، فقد نلت ما كنت تتمناه وفتحت الباب لراغبي الشهادة، ولئن خطفوك من بيننا لن ينزعوك من صدورنا.

❑ **ثالثاً: الشيخ أحمد ياسين رجل مشلول مقعد، ولكنه لا يرضى أن يقال له: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾^(١):**

نعم، قد تمضي وحدك في أول الأمر، لربما نأت بك الديار ولم تجد معيناً، لربما سافرت لمنطقة أو هجرة ليس فيها عمل للدعوة، أو أن الناس قد فتروا وكسلوا، وضاعوا وانغمسوا في دنياهم. فقم أنت ولو في أقصى المدينة لتسعى في نشر رسالة الإسلام: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾^(٢). إنه رجل مشلول مقعد أحس بالمؤامرة على فلسطين والقدس، فتحرك جسماً وهو على كرسيه، وفكر عقلياً، وتفاعل روحياً، فربى جيلاً مؤمناً يدافع عن قضية الإسلام الكبرى.

رَجُلٌ وَالرَّجَالُ قَلٌّ وَمَا يَعْـ جُمُ عودَ الرجالِ غيرُ الصمودِ
فهو رجل لكنه بأمة، أو أمة في رجل، فهو واحدٌ من المؤمنين

(١) التوبة، الآية (٤٦).

(٢) يس، الآية (٢٠).

لكنك تراه كأنه جماعة من الناس! اجتمع فيه من ضروب الكمال ما لا يكاد يجتمع في العصابة أولي القوة، قدوته في ذلك إبراهيم عليه السلام، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾^(١).

□ رابعاً: بالصالحات رُفعت أعمال الشيخ أحمد ياسين (إن شاء الله):

في يوم الإثنين، اليوم الذي ترفع فيه الأعمال إلى الله تعالى استشهد الشيخ أحمد ياسين وهو صائم وبعد أن صلى صلاة الفجر في جماعة وهو مشلول مقعد، لتشهد الملائكة أنه ليس متخاذلاً ولا منافقاً؛ لأن أثقل الصلاة على المنافقين صلاة الفجر.

لكن هذا المجاهد الكبير كان يخرج وهو يتحرك بكرسيه ليجتمع مع الأطهار البررة في صلاة الفجر... وفي الفجر يظهر من بكى ممن تباكى...

فالعظماء كتب تاريخهم في صلاة الفجر... عمر قتل في صلاة الفجر، وعلي قتل في صلاة الفجر، وصلاح الدين الأيوبي دخل المسجد الأقصى بعد صلاة الفجر، وعمر المختار قاوم الطليان الإيطاليين وهو نازل من جبال سويف مع إخوانه بعد صلاة الفجر، ودخل محمد الفاتح ابن الثامنة عشر من عمره، وقت صلاة الفجر وقال كلمته المشهورة: لا يؤمنُّ بنا اليوم في فتح القسطنطينية - التي قال في شأنها رسول الله ﷺ: «لنفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش جيشها»^(٢) - إلا رجل ما فاتته صلاة الفجر جماعة منذ أن

(١) النحل، الآية (١٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٩٧٧) عن عبدالله بن بشر الخثعمي. قال الأرناؤوط: إسناد =

بلغ!! فالتفت الناس إلى العلماء والقواد وطلبة العلم فما قام أحد!! ثم قال محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية: أما أنا فوالله ما فاتتني صلاة الفجر جماعة منذ أن بلغت. وهكذا يحقق الله النصر لمن انتصر على شهوات نفسه، وقاوم ملذات هواه، وحينها لن يجد الاحتلال له نصيراً، ولن تنفعه قواه الحربية.

والطريق طريقان: إما أن يختار الإنسان الراحة في الفجر، والدعة والسهر، ويرضى بأن يكون مع الخوالف فأولئك قوم بال الشيطان في آذانهم، ومن بال الشيطان في آذانهم فليسوا أهلاً أن توضحهم الملائكة بدمائهم الزكية.

وإما أن يختار طريق الرجال، ويتحمل تكاليف المشاق والجهد، فيقاوم اللذة والشهوة، ويدفع التطلع نحو النفس، ويرفض طبيعة النفاق والضعف، ويصطف في صلاة الفجر مع رجال الآخرة. وحينها توهب له الحياة الحقة، ويكون أهلاً لأشواق الجنة.

❑ رسالة إلى قادة العرب والمسلمين:

ستلتقون يوم الإثنين القادم إن شاء الله في أرض تونس، أرض الجامعة العريقة، أرض العلماء والدعاة والأخيار، تذكروا في هذا اللقاء رحلة الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، تلك الرحلة المختارة من اللطيف الخبير التي تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيين ﷺ وتربط بين الأماكن المقدسة لنشر رسالة التوحيد. وكأنما أريد بهذه

= ضعيف لجهالة عبدالله بن بشر الخثعمي، انفرد بالرواية عنه الوليد بن مغيرة ولم يوثقه غير ابن حبان.

الرحلة العجيبة إعلان وراثته الرسول الأخير ﷺ لمقدسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات، واحتواؤها آماداً وآفاقاً أوسع من الزمان والمكان.

يا قادة العرب والمسلمين:

القدس تنادي غاضبة	وتريد الجيش المحتشدا
القدس يحررُها جيش	سيل عرم يغشى السدا
القدس تفتش عن بطل	كصلاح يهديها المجدا
ويطارد أحزاب الشر	ويقود الجيش المتحدا
القدس حبيبنا تبكي	وتعاتبنا فرداً فردا
من يملك رداً يقنعها	والأقصى ينتظر الردا

الأقصى ينتظر الرد منكم يوم الإثنين القادم الذي ترفع فيه الأعمال الصالحة إلى الله. وإن شئتم دماً فخذوا من دمنا حتى ترضوا.

قولوا للعالم من نحن؟

نحن لسنا شعوباً متدابرةً تتوارى وراء خطوط الطول والعرض،
نحن شعوب مسلمة تربطنا روابط مقدسة.

نريد أن ننازع اليهود، نريد أن نرث المسجد الأقصى، نريد أن
تدور المعركة الفاصلة معهم...

□ رسالة إلى أمريكا:

لقد آن لنا أن نقول لكم جميعاً: أيها السادة، لقد انتهى دوركم!
فنحن نجهر بها كلمة صريحة واضحة لا تردد فيها ولا خفاء: إن
الإسلام إسلام، وإن اليهود يهود، وإن الجهاد جهاد، حماس قادمة

لتدافع عن حقها في أرضها، والكتلة الإسلامية هناك قد صبغت بصبغة الله، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(١).

لقد اتهمتم الشيخ ياسين وتلاميذه بأنهم إرهابيون ورضيتهم بما جرى، ولم تنطقوا حتى بكلمة إدانة أو استنكار لحادثة الاغتيال التي حدثت بإذنكم وبصواريخكم. لقد فهمنا اللعبة ولن نخدع بعد اليوم منكم.

لا نحب أن نجادل أحداً ولا أن نخادع أحداً، من شاء أن يسالمننا على هذا الأساس فليسالم ومن شاء أن يخاصمننا على هذا الأساس فليخاصم، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

(لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا) لا والله يا أيها الأمريكان، ويا أيها اليهود لا نخلي بينكم وبين إخواننا.

هذا هو شعار المؤمنين الذي أخبر عنه النبي ﷺ في حديث الملحمة، حديث المقتلة لأعداء الإسلام. ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق - وهي اسم بلد - فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قال الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله، لا نخلي بينكم وبين إخواننا»^(٣).

(١) البقرة، الآية (١٣٨).

(٢) يوسف، الآية (٢١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٩٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا. لا والله، يا يهود ويا أبناء يهود، لا نخلي بينكم وبين إخواننا.

دمكم في فلسطين هدر، ومعيشتكم في القدس حرام، انتهى الليل وراح، وجاء إشراق الصباح، لقد أشعلتم عود الثقاب بأنفسكم وستحرقون به إن شاء الله، ﴿يُخْرِجُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَأْأُولِ الْأَبْصَارِ﴾ (١).

لقد خططوا ومكروا ودبروا وراقبوا وتابعوا وقرروا وقذفوا، وعين الله - ويحهم - لم تتم.

إن أعدوا حفلاً لاغتيال الشيخ أحمد ياسين فقد أعد له الحي القيوم إن شاء الله موعداً مع الحور العين.

❑ يا تلاميذ أحمد ياسين:

لا نريد اعتذاراً، نريد أن ترفعوا السلاح، نريد أن تهزوا أركان المجرم اليهودي، أسمعوه دوي القنابل والرصاص، أروه اللون الأحمر القاني، اجعلوا أتباع القردة الغادرين كالمجانين، ادفعوا بأبنائنا إلى ساحات الوغى، لن نرضى منكم إلا بصوت الحرية، وإن شئتم دماً فخذوا من دمنا حتى ترضوا وقولوا لشارون:

يا ذئب غدر نصّبوه راعياً والذئب لم يك ساعة بأمين
يا من زرعت الشرّ لن تجني سوى شرّ وحقد في الصدور دفين
سيزول حكمك يا ظلوم كما انقضت دُول أولات عساكر وحصون

امضوا في طريقكم تقاتلون في سبيل الله فتقتلون وتُقتلون.

(١) الحشر، الآية (٢).

امضوا في واجبكم المقدس تطهرون الوادي من أرجاس القراصنة.

امضوا في طريقكم عاصفة تدمر كل شيء بأمر ربها. تدمر الاحتلال وأوتاده وأعدائه.

امضوا في طريقكم تطلبون الموت فتوهب لكم الحياة أو توهب لكم الشهادة. فلكم إحدى الحسنيين على كل حال.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٠) (١).

رسالة إلى عبدالعزيز الرنتيسي^(٢) وخالد مشعل:

لن يكون الأمر نزهة قريبة بالنسبة لكم... إنما هي تضحيات، ودماء ودموع، وعذاب ومعاناة، ولأواء وابتلاء، وجهد دائم لا يهدأ، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ (٣).

لا بد من ثمن تدفعونه جزاء تفريطنا في دين الله، ولا بد من جهد تبذلونه لتعودوا بالأمة إلى الطريق.

ولكن عزاءنا، وأنتم تقدمون الشهداء، وتحملون العذاب، وتبذلون الدماء والدموع، عزاءنا أنكم تجاهدون في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا، ولتكونوا ستاراً لقدر الله الذي سيمكن لهذا الدين.

(١) آل عمران، الآيتان (١٦٩، ١٧٠).

(٢) استشهد بعده بشهر - رحمه الله.

(٣) آل عمران، الآية (١٤٠).

وعزأونا أَنَّ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ الْجَنَّةَ، ورضوان الله، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٦) ﴿١﴾.

□ رسالة إلى فريق الاتحاد والأهلي:

ستلتقون اليوم في المباراة الختامية ليلاً، فأتمنى منكم لو وصل إليكم هذا الصوت أن تضعوا على قمصانكم صورة فلسطين أو الشيخ أحمد ياسين، أخبروا الجماهير الطيبة التي أتت لتشجيعكم بأن لكم قضية.

لقد وقف الأسبان الأسبوع الماضي في الملعب الدولي دقيقة صمت وحداد لإعلان الألم على ما جرى في أرضهم، إلا أننا نتمنى أن تذكروا هذه الجماهير التي رأيتها ليلة البارحة في الساعة الواحدة ليلاً تصيح وترفع أصواتها لأجلكم ذكروها بقضيتها الكبرى، وأعلنوا أنكم غاضبون على ما جرى في فلسطين.

□ رسالة إلى الشباب المسلم:

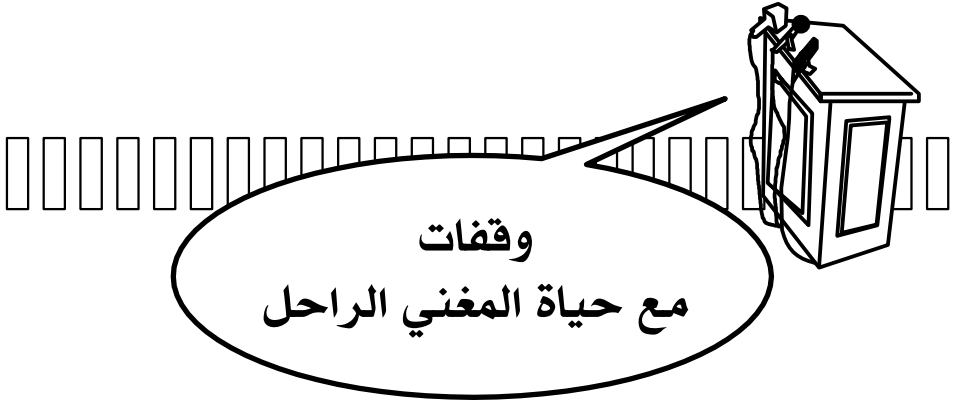
يا من تحملون هم الجهاد... إن المطلوب هو إعداد العدة بالتربية الصحيحة على العقيدة السوية والمنهج الأصيل.

إن الغضب والثأر لدماء المسلمين في فلسطين لا يكون بالأعمال الغوغائية أو الاستفزازية لا يكون بالتفجيرات هناك وهناك، ولا يكون

بالفوضى هنا وهناك، هذا ليس من منهج الإسلام، ولا من منهج السيرة.

المطلوب الدعاء الصادق لله أن يفرج هم المسلمين، والمطلوب الصدقة بالأموال لإخواننا هناك، والمطلوب التربية الجادة، أن يربي الأب والأم أبناءهما، أن يربي المعلم طلابه، أن يربي الشيخ تلاميذه التربية الصحيحة، ويربطهم بدينهم، والله معنا ولن يترنا أعمالنا.





وأخيراً... ترحل الفارس.

ونزل المجاهد من صهوة المجد، وارتدى جسده على أرض
الخلود، وسقطت القيثارة الفرنسية، بل سقط السيف والحسام الفرنسي!
أبكىك أيها الراحل، كما بكك المحبون من أمتك الإسلامية.
وما وضعت المنابر أيها الإخوة إلا لتشارك الناس الآلام والآمال
والهموم والطموح.

أحسن الله العزاء، وعظم الله الأجور!

أبكىك يا فريد الأمة الخالد، يا أيها الصوت الساحر!

لقد عزفت قيثارتك لحناً حرّك القلوب الفاترة، وهيج الضمائر
النائمة.

سمعتُ بلهيب صوتك الكائنات في أنغوشيا ووقف الشوك في
أدغال أفريقيا.

وانتشرت السنّة في الهند، وبُنيت المعاهد في السند بهذه الألحان
العذبة، والكلمات المنعمّة!!

أخرجت هذا الإنسان المخلوق في كبد، إلى عالم الرقة والروحانية والأنس والراحة النفسية!

أخشى أن يخونني التعبير، وتتيه مني الحروف فلا تتناغم. وها هو ذا قلبي يبكي، ولكن ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة^(١). فأستأذن حضراتكم إذاً لأقيد لكم عزاء المسلمين من شتى بقاع الأرض في وفاة المغني الراحل فقيده الأمة الإسلامية!

ها هو ذا أحدهم يخرج من صمته، ويكتب بيده، متحدثاً عن المغني الراحل قائلاً: «إنني أتساءل: بدونك كيف تمر الأيام والساعات، والدقائق والثواني؟ كيف تمرُّ وأنت النبض في قلبي، وأنت الدم في عروقي؟! إنني أتساءل: بعد أن أشعلت برحيلك حرائق الدنيا في أعماقي، مَنْ غيرُك يُسكت «السنة الذهب»؟ بالله عليك أخبرني كيف أعلن حظر التجول في ذاكرتي ولو لجزء من الثانية في يومي؟! إنني أتساءل: بعد أربعين سنة، كنت فيها ذلك الضوء الذي التف حوله كل الناس، هل انطفأ في يوم الجمعة؟ هل انطفأ الشعاع؟!».

وكم كنت أتوقع أن يستشهد هذا الأخ الفاضل الذي عبّر عن شعور إخوانه المسلمين، حينما وصف الراحل يوم موته بأنّ الدنيا قد أظلمت، وأن الشعاع قد انطفأ، أن يستشهد بحادثة موت الرسول ﷺ!! كما قال أنس رضي الله عنه: «لما كان اليوم الذي دخل رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا

(١) الثكلى: هي من فقدت ولدها، يقال: امرأة ثكلى وثاكل. انظر: النهاية في غريب الحديث (١٢٥).

قلوبنا»^(١).

لماذا كل هذا الحزن؟! وهذا رجل إنساني آخر يقول عن الراحل بأعلى صوته: إنه لم يمت، إنه حيٌّ باقٍ في قلوبنا!، وتمنيت أن لو أتم كلامه فقال: «إنه لم يمت إنه حيٌّ باقٍ في قلوبنا، ومن قال: إنه مات قطعت عنقه!!».

وإليكم خبر أحد الواعظين، يقول عن الراحل: «إنا لله وإنا إليه راجعون. مات قيثاره الفن، مات الإنسان ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾»^(٢)، ولكن لم يمت الفنان، فهو في قلوبنا وعقولنا وأسماعنا، ترك لنا إراثاً لن ننساه أبداً... لا نحن، ولا أولادنا، ولا أحفادنا. سيبقى هذا الفنان أسطورة مرسومة بحروف فنية، وإنني أقترح كي يبقى اسمه محفوراً في الذاكرة، أن يتم اختيار اسم من أسماء الشوارع المعروفة باسمه!».

وأختار لكم أيها الإخوة هذه البرقية الأخيرة «ورغم هذا الرحيل المفاجئ للعملاق، سيظل محفوراً في ذاكرة الأجيال، فقد ترك رصيذاً وافرأ، إذ تجاوزت أعماله ألفاً ومائتي أغنية على مدار أربعين عاماً!! وسنظل محتفظين بالوفاء لأصحاب السيرة العطرة».

هكذا كانت حياة هذا المغني الراحل أسطورة حقاً، مُلئت بها جنبات الصحف، بمثل هذا المستوى من الإطراء والمديح والتبجيل والتعظيم!!^(٣)

(١) أخرجه الترمذي (٣٦١٨) وقال: حديث غريب صحيح، وابن ماجه (١٦٣١)، وأحمد (١٣٨٥٧). قال الأرنؤوط في تحقيق المسند: إسناده قوي على شرط مسلم، ورجاله رجال الشيخين غير جعفر بن سليمان فمن رجال مسلم.

(٢) آل عمران، الآية (١٨٥).

(٣) هو المغني الراحل: طلال مداح - رحمه الله -.

ونحن لسنا ملزمين بالحكم على الأشخاص، فالأمور موكولة إلى الله. ولا يجوز لأي بشر أن يحكم على أحد أياً كان. ومن معتقد أهل السنة والجماعة: «أن صاحب الكبيرة تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء رحمه». فلا يجوز لنا يا أيها الإخوة، أن نحكم على أحد من المسلمين أياً كان بجنة أو نار أو رحمة أو عذاب.

كيف؟ والأمر لله، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها. رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فيُعرض عليه صغارها، فيقال له: عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر. وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تُعرض عليه. فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة. فيقول: رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا». قال أبو ذر: رأيت رسول الله ﷺ يضحك وبدت نواجذه»^(١).

هكذا تجاوز الله عن صاحب هذه الكبائر، وعفا عنه برحمته وفضله. فإننا لا ندري قد يكون بين العبد وربّه أعمالٌ صالحة، رحمه الله تعالى بسببها.

وفي الصحيحين من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبيته: إذا أنا مت فأحرقوني ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً، فلما مات فُعل به ذلك، فأمر الله

(١) أخرجه مسلم (١٩٠)، والترمذي (٢٥٩٩) عن أبي ذر رضي الله عنه.

الأرض. فقال: اجمعي ما فيك ففعلت. فإذا هو قائم. فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك يا رب! أو قال: مخافتك. فغفر له^(١).

إن رحمة الله أيها الإخوة واسعة، ولا يجوز لأحد أن يتألى على الله «فقد دخلت امرأة بغى الجنة - وهي مشهورة بفعل هذه الكبيرة - رحمها الله لما سقت الكلب شربة ماء»^(٢).

وإننا مأمورون بأن نذكر محاسن الموتى وما فعلوه من عمل صالح.

ولكن!!

علينا أن نعرف أن هذه الحفلات الغنائية التي تستمر إلى آخر الليل عملٌ غير صالح، لأنها تشغل الناس بالمعصية في وقت التنزل الإلهي المبارك، الوقت الذي يقول الله فيه: «هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من سائل فأعطيه؟»^(٣).

ولا ريب أنَّ هذا الوقت شريف عظيم، وهذه الحفلات تصدُّ عن ذكر الله في هذه اللحظات الشريفة، والنبى ﷺ يقول: «ما من قوم يجلسون مجلساً لا يذكرون الله فيه ولا يصلون فيه على الرسول ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة»^(٤).

فكم هي هذه الحسرات التي تحيف بأولئك الذين غفلوا عن

(١) أخرجه البخاري (٤١٢/٧)، ومسلم (٢٧٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
 (٢) أخرجه البخاري (٢٧٩/٣)، ومسلم (٢٢٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
 (٣) أخرجه البخاري (٣٨٩/١٣)، ومسلم (٣٩٠)، ومسلم (٧٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
 (٤) أخرجه الترمذي (٣٣٨٠)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٢٤٢)، وأحمد (١٠٨٣٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال محقق المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم.

طاعة الله وذكره، وجلسوا في هذه الحفلات ونسوا فيها الله ورسوله ﷺ.

ورحم الله الإمام سفيان الثوري إذ قال: «لأن تلقى الله بسبعين ذنباً فيما بينك وبين الله، أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد».

نعم، لو كانت هذه الذنوب فيما بين الإنسان وربّه لكانت الرحمة أقرب، ولكن! عندما تكون هذه الذنوب مشاركة بين الناس، فإن الفساد ينتشر، والبلاء يعم.

وليت أولئك العاشقين، والكتاب في الصحف، ليتهم جميعاً تذكروا هذه القصة العجيبة الفظيعة. والله، لولا ثبوت هذه القصة وصحتها لما ذكرتها، ولكن لثبوتها ولحرصى على مشاركتكم في الانتفاع بها ذكرتها. تقول القصة:

كان العباس رضي الله عنه يسأل الله كثيراً أن يريه عمر بن الخطاب في المنام. حتى أكرمه الله فرآه في المنام بعد فترة. يقول العباس: «فأريته في المنام مقبلاً من سوق المدينة، فسلمت عليه وسلم عليّ. ثم قلت له: كيف أنت؟ قال: بخير. قلت: ما فعل الله بك؟ قال: الآن حين فرغت من الحساب، والله، كاد عرشي يهوي لولا أنني وجدت رباً رحيماً».

يقول هذا وهو أمير المؤمنين وأحد العشرة المبشرين بجنة رب العالمين.

والله، لقد كاد أن يهلك عمر لولا رحمة الله. ومن هو عمر؟ عمر الذي أحكم بنیان الخلافة، وكسر بسيف الشرع ظهر كسرى، عمر

الذي جاع يوم الرمادة حتى شبت الرعية، ولبس المرقع، وطعن وهو ساجد.

عمر الذي كان يخطب، ويذكر بالله، وينصح ويوجه، ويدعو للكتاب والسنة، لا للغناء والهيام.

عمر الذي أتته المرأة وهو على المنبر، فقالت له: يا عمر بن الخطاب، هكذا... لم تقل: يا أمير المؤمنين، ولا يا خليفة المسلمين. لا، يا عمر بن الخطاب اتق الله! فنزل من المنبر يبكي، وبقي في بيته ثلاث ليالٍ مغشياً عليه، ثم قُتل في اليوم الرابع!

عمر الذي كان يضع جبهته على الأرض، ويقول لابنه عبدالله: «ضع جبهتي على الأرض، علّ الله أن يرحمني. ليت أم عمر لم تلد عمر».

عمر الذي كان يقول: لو نادى منادٍ من السماء: «يا أيها الناس، إنكم داخلون الجنة كلكم إلا واحداً لقلت: إنه أنا».

عمر مع هذا كله. كاد أن يهوي ويهلك لولا أن تداركته رحمة الله!

لقد كانوا يخافون على أعمالهم. وهم والله سادة أهل الخير والإصلاح.

دخل أصحاب أبو سليمان الداراني عليه وهو في لحظات الموت فقيل له: أبشر فإنك تقدم على رب كريم. فقال لهم: ألا تقولون تقدم على رب يحاسب بالصغيرة ويعاقب بالكبيرة!

وها هو إبراهيم التيمي يقول: لقد أدركت ستين من أصحاب رسول الله في مسجدنا، هذا أصغرهم (الحارث بن سويد) وسمعته يقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (١)، حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٢) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٣). فأخذ يبكي ويقول: إنَّ هذا الإحصاء شديد. إي والله، إنه إحصاء شديد، إنه حساب على الذرة.

لقد تساهل البعض منا في الكبيرة، معولين على النصوص التي تدلّ على أن أهل التوحيد حتى لو دخلوا النار، فإنهم سيخرجون بعد ذلك إلى الجنة!

ولكن يا أيها الإخوة، إنَّ لحظات النار صعبة على أصحاب الكبيرة. وهؤلاء القوم نصحهم أبو الدرداء فقال لهم: «يُلْقَى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون بالطعام، فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، وبطعام ذي غصة، ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ (٤)، ويستغيثون بالشراب، فيُرفع إليهم الحميم بكلاليب من حديد، فإذا دنت من وجوههم شوهتها، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (٥).

فيقولون: ادعوا خزنة جهنم ليخففوا عنا يوماً من العذاب. فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (٦). فيستغيثون

(١) الزلزلة، الآية (١).

(٢) الزلزلة، الآيتان (٧، ٨).

(٣) المزمّل، الآية (١٣).

(٤) محمد، الآية (١٥).

(٥) غافر، الآية (٥٠).

مالكاً فيقولون: ﴿يَمْلِكُ لِقَضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾^(١)، فيرد عليهم مالك بعد ألف عام، ﴿إِنَّكُمْ مَكَثُونَ﴾^(٢).

فيستغيثون بالله فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾^(٣)، فيرد عليهم: ﴿اُخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾^(٤)، وحينئذ يياسون، ويكثر الزفير والويل. ويرحم الله من يشاء، فيخرج الموحدون من النار إلى الجنة.

فلنتق الله ربنا، ولنتدارك أعمارنا، فما نار الدنيا والله بهينة، فكيف بنار الآخرة؟ وليس من الأدب والحياء مع الله أن نعصيه باستخفاف، وأمام الملاء، وقد ستر علينا. فلنستغفر الله ولا نتمادى ونستمرئ الغفلة، ونعوذ بالله من سوء الخاتمة، وتكشّف عيوب الحرام في الدنيا، والفضيحة في الآخرة.

ونسأل الله أيها الإخوة أن يرحمنا، وأن يلطف بنا، وأن يسامح جميع المسلمين. اللهم اغفر لجميع موتى المسلمين الذين شهدوا لك بالوحدانية، ولنبيك بالرسالة، اللهم اغفر لهم وارحمهم، وعافهم واعف عنهم، ووسع مدخلهم، وتجاوز عن سيئاتهم.



(١) الزخرف، الآية (٧٧).

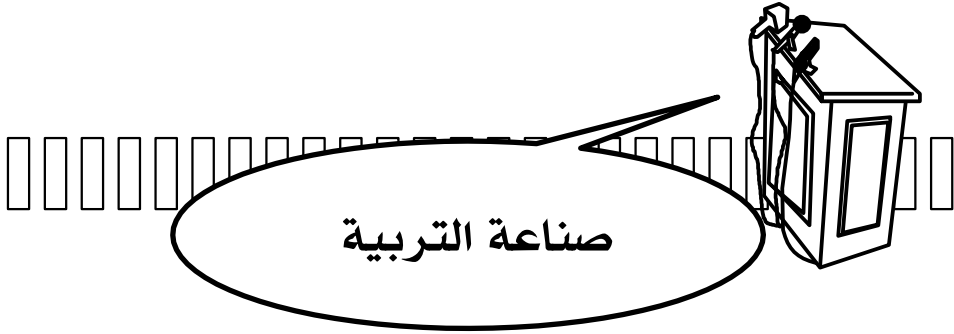
(٢) الزخرف، الآية (٧٧).

(٣) المؤمنون، الآية (١٠٦).

(٤) المؤمنون، الآية (١٠٨).



في شؤون الأسرة والشباب



قد نملك الشيء لا ندري نفاسته حتى يضيع فنأسى بعد ما ضاعا
كثيرون في الحياة ينطبق عليهم وصف حال هذا الشاعر المتأوه.

(قد نملك الشيء لا ندري نفاسته): نملك أن نعيش أحراراً، أن
نفرح، أن نحزن، نملك الطاقات، الإمكانيات، الثروات، ولكننا لا
ندري ولا نحس ولا نستشعر قيمة ما لدينا، ولا نتنبه لهذا. (حتى
يضيع فنأسى بعدما ضاعا): وحينها فقط نعاود النظر في حياتنا من
جديد. بعد أن نكون قد خسرنا، وضاع ما كان بأيدينا.

هل تتخيلون رجلاً يملك أموالاً طائلة - بالملايين - ولكنه لا
يضعها في مكان آمن؟! ويملك ثروات وحلاًلاً نفيسة ولكنه لا يضعها
في حرز محفوظ؟! وهو مع هذا وذاك لا يستشعر قيمة ما لديه، ولا
نفاسة ما بين يديه؟! وفجأة فقد كل ما يملك، وخسر كل ما بناه في
مسيرة حياته؟! أظن - والله أعلم - أنه لن يبقى أحد يعرفه أو لا يعرفه
إلا وينال منه بكلمة أو جملة أو نكتة أو مسبة أو تعليق أو حتى رسمة
كاريكاتير!

إن هذه الحكاية هي المعادل الرمزي لواقع نعيشه، يتكرر كل

حين، إنه الأب... إنها الأم اللذان يملكان أكبر، وأعلى شركة، شركة البيت الأسري الجميل. ويملكان أعظم وأجمل وأنفس وأحلى وأعلى ثروة، ثروة الأبناء والأولاد، الذين هم زينة المنزل، وحديقته المونقة، ونغمته الجميلة، وبهجته الضاحكة، وحركته المفرحة.

إنهم الأبناء، سلوة الروح، وشاغلو النفس، ومؤنسو الضمير. لا يقر بدونهم قرار، ولا يهنأ من غيرهم بال.

إنهم حديث الأمس واليوم والمستقبل.

إن مَرَضَ أحدهم طاب لأجله السمر، وإن سافر أحدهم قدم الأرق والكدر، وإن تأخر حصل القلق والضرر.

يُسْكِبُونَ الدمعة الساكنة، ويهيجون النفس الهادئة.

قد يعجب العذال من رجل	يبكي ولو لم أبك فالعجبُ
هيهات ما كل البكا خور	إني وبى عزم الرجال أبُ
بالأمس كانوا ملء منزلنا	واليوم ويح اليوم قد ذهبوا
وكأنما الصمت الذي هبطت	أثقاله في الدار إذ غربوا
إغفاءة المحموم هدأتها	فيها يشيعُ الهمّ والتعبُ
أين الضجيج العذب والشغب	أين التدارس شابه اللعبُ
أين الطفولة في توقدها	أين الدُمل في الأرض والكتبُ
أين التشاكس دونما غرض	أين التشاكس ماله سببُ
ذهبوا، أجل ذهبوا ومسكنهم	في القلب ما شطوا وما قربوا

إنهم الأولاد أغلى ثروة إنسانية، وأجل عطية ربانية. هم دفقة العاطفة، وخفقة القلب، ورعشة الوجدان، وهزة النفس، ورقة الروح، وسبحة الخيال.

كم ذا بذلت حشاشتي لهم ووهبتهم روعي وما بذلوا
وحرمت نفسي كل مطلبها وحبوتهم كل الذي سألوا
فهم العذاب له عذوبته وهم النظام جماله الخلل
وهم الهموم تقض مضجعنا وهم الغد المرموق والأمل
وهم الهناء والهناء معا فمقامهم وفراقهم جلل

ولكن مع كل هذه المشاعر المتوقدة، والأحاسيس الدافئة،
والنفس العذب، والبسمات الحلوة، والمعاني الحانية، تحولت هذه
المكونات الداخلية والمشاعر القلبية والرحمات الإنسانية إلى صراعات
ومخاصمات وضربات ولكمات. لقد انفصمت الشخصيات وأصاب
البيت الجميل الهانئ تصدعات وتشوهات.

دعوني أقولها وبصراحة: إننا خسرنا أغلى ثروة، خسرنا
الأولاد، بسبب التصرفات الغريبة، والطريقة الخاصة في التعامل مع
الأولاد. إن تجارب البيوت التاريخية تحكي قصصاً من الآلام، تحكي
عن السلطة القهرية أو القسرية، تحكي عن تربية الرقابة لا الاستشارة،
تحكي عن تربية الأوامر لا المشاعر، تحكي عن تربية اليوم لا
المستقبل، تحكي عن تغذية الجسد لا الروح، تحكي عن الصياح،
عن الضرب، عن الانتقاص أمام الناس، تحكي عن إظهار الخطأ في
كل مكان في البيت، في مجلس الأقرباء، في مجلس الطعام، في
مجلس الأصدقاء.

تحكي عن تربية الماضي لا عن تربية العصر... تحكي وتحكي
وتحكي.

أنا أعلم أن كثيراً من الآباء والأمهات لم يقصروا في شيء -

جزاهم الله خيراً - وأنّ أبناءهم هم السبب في توتر العلاقة الأسرية، والانحرافات الداخلية، والمشكلات العائلية.

ولكن في نفس الوقت أعلم أن كثيراً من تصرفات الأهل هي السبب الرئيسي وراء ما يجري، وهي الفتيلة التي تشعل نيران الغضب، وتؤجج لهيب الفتن، وتهدم العلاقة في الوقت الذي تريد أن تصلح فيه. وتخسر أعظم ثروة في الوقت الذي تريد أن تنميها!

وقد حملتني هذه المواقف المتتالية، والحكايات المتكررة على أن يكون موضوع اليوم (صناعة التربية) أو (صناعة السعادة الأسرية).

وابتداءً لا بدّ أن أؤكد أننا جميعاً ندافع عن الوالدين، ونقر بشرف مكانتهما، وطول صبرهما، وصدق قلوبهما، ونلثم بفخر واعتزاز قدميهما، ونسعى بكل شرف لخدمتهما وتلبية طلبهما، ونتمنى أن لا نموت إلا وقد أقر الله أعيننا برضاهما، ومع كل ذلك فنحن نتمنى أن يفتح الصدر لأبنائهما، وأن يقيما مملكة الحب في بيتهما، وأن يشاركا في الصناعة الحقة، ونناشدهما أن لا يخسرا أعظم ثروة أنعم بها عليهما ربهما.

صناعة التربية:

- تكون في البداية الصحيحة، والاختيار الناجح للزوجة المثالية، والأم المربية، «اظفر بذات الدين تربت يداك».

- صناعة التربية تكون بتكريم الأم عملياً أمام الأولاد لا قولياً، واحترامها وتوقيرها، وعدم رفع الصوت في وجهها، وشكرها على خدمتها وطبخها وكنسها، وحملها ورضاعها. تكون بالطلب من الأولاد أن يسمعوا كلام أمهم، وأن يروا عملياً محبة الأب لأمهم، وأن يدخل الهدية عليها، وأن يستشيرها ويسمع لرأيها.

- صناعة التربية أن يؤدي دور الاستشارة مع الأولاد كما يؤدي دور الرقابة، وأن يُمارس دور المرشد والموجه والمهندس للحياة.
- أن يعطي الابن حقه من الكلام والتعبير عن الرأي، ولو كانت تعبيراته خاطئة، وأفكاره جامحة. وأن يحاوره في القرار الذي يفترض أن يتخذه هو بنفسه، وفي حدود حقه، وأن يتفاهم معه بالأسلوب الراقي والأدبي.
- مساعدته في لحظة وقوف الدنيا في وجهه، وإغلاق فرص الحياة أمام عينيه. فلربما يتخرج من الثانوية ويتمنى أن يدخل جامعة أو معهداً، فيفاجأ بإغلاق الجامعات والكليات والمعاهد أمام وجهه، والتي ما عاد يعينها مستقبل الجيل وصناعة الحضارة! فيكون دور الأب والأم فتح باب التفاؤل له، وتشجيعه ولو للدراسة بالانتساب أو عن طريق الجامعات المفتوحة عبر الإنترنت، ودوام تشجيعه، وأن ما قدره الله له هو الخير بتمامه.
- وليحذر الأب في مثل هذا المقام من تعنيف الولد وانتقاصه، وتجريحه بمقارنته بغيره، وأنه لو أتى بنسبة كذا وكذا لكان كابن فلان وعلان. إنه ابنك يا أخي، ولدك، حبيبك، فلذة كبذك. إنه الإنسان، إنه الروح، إنه المشاعر، إنه الأحاسيس. لديه الطاقة، والإمكانات، والقدرة، والإبداع ولكن أيضاً لديه عقل خاص، وقدرة محدودة يجب أن يقبل بها.
- عدم مطالبته بكل شيء، فلا يمكن أن يكون في نفس الوقت سائقاً، وعاملاً، ومطالباً، ومضيفاً، وذكياً، وقاعداً في البيت لخدمة إخوانه! هو إنسانٌ لديه هموم، وأحاسيس، ومشكلات،

وتغيرات، عنده أفق يتجدد، وأحوال من حوله تتبدل، وهو بحاجة إلى الموازنة، والنصيحة الصادقة الشفافة المخلصة، الهادئة المؤثرة. بحاجة إلى الثقة بنفسه وبقدرته، وأن يجد المشاعر والأحاسيس المساندة ولو بنظرة العين ولمسة اليد. أليس هو ابنكما، وإن لم يكن هذا في البيت فعند من إذاً يجده؟

● صناعة التربية بأن يتعلم من صغره فن الذوق والجمال، وتهذيب سلوكه، وترتيب أغراضه، والعناية بأسنانه، وطريقة كلامه، وهيئة جلوسه.

● صناعة التربية أن يُتفاهم معه في وقت الخطأ والفشل، فالابن ليس إنساناً كاملاً، بل هو بشر كغيره، يصيب ويخطئ، وقد يتعثر في حياته، وحينها هو بأمس الحاجة إلى من يقف معه، ويعينه على تجاوز محنته، هو بحاجة إلى والده الحاني الذي يحسن أن يبذل له كل ما يستطيع وبأحسن أسلوب، ليتجاوز هذه المحنة، بل ويبادل مشاعره وأحاسيسه، ويقول الولد في نفسه عن والده:

فبكائي ربما أرّقته وبكاهُ ربما أرّقني
ولقد يشكو فما أفهمه ولقد أشكو فما يفهمني
غير أنني بالجوى أعرفه وهو أيضاً بالجوى يعرفني

● صناعة التربية تكون بالاستمرار في العملية التربوية إلى أن يشق الولد طريقه في عالم النجاح والفلاح بإذن الله، والصبر على ذلك، واحتمال كل ما في هذا الطريق من متاعب. إن من الخطأ أن يترك الولد بعد المرحلة الثانوية، ونسمع كثيراً: لقد صار كبيراً، وعليه أن ينفرد بنفسه ليبنى مستقبله! هذا خطأ كبير،

وظلم للإنسانية! من قال: إن الابن في هذه السن قد انتهت حاجته النفسية والإنسانية؟ من قال: إن الدور التوجيهي والإرشادي ليس له كبير قيمة؟ من الذي حدد سناً معينة لإيقاف العملية التربوية؟ كلاً أيها الإخوة، بل العملية التربوية والتوجيهية بالأسلوب الجميل والمناسب لسن الولد، لا بد أن تستمر، حتى يستقل بحياته الزوجية، فتخف المسؤولية حينئذٍ بلا شك. وإن كانت مستمرة كذلك في بعض جوانبها.

● صناعة التربية بإحاطة الابن برفقة صالحة، متزنة واعية، تكمل البناء والتربية، فإن إكمال الشخصية، وتنويع المعارف يكون بتنوع مصادر التلقي النافعة الرشيدة، في المدارس، وحلقات القرآن، والنوادي الثقافية المفيدة الموثوقة، وأمثال ذلك.

● صناعة التربية تكون بتكامل المنهج الأخرى مع المنهج الديني، فالتربية ليست توفير الاحتياجات المادية من الملبس والمشرب والسكن، وأفضل وسائل الراحة والاتصال والركوب فحسب، هذه تغذية للجسد، وهي ضرورية ولا شك. ولكن أين العناية بالتربية الأخروية؟ أين صدق المشاعر، وقوة المشاعر لو غاب الولد عن صلاة الفجر، أو تخلف عن طاعة؟ ورحم الله الجيل الأول الذي وعى هذه المسألة، فأخرج جيلاً قيادياً مربياً مؤثراً ناجحاً في الدنيا وعاكلاً للآخرة.

هذا الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة والجماعة. أتعرفون كيف كانت تربيته الأولى؟ يقول عن نفسه: «كانت أُمِّي توقظني قبل صلاة الفجر، فأستعد للصلاة وأتھيأ لها، وأنا ابن سبع سنين! ثم تبخر ثيابي، وتذهب بي في جناح الظلام إلى المسجد لأصلي جماعة مع

المسلمين، فإذا ما ذكرت الله بعد الصلاة، خرجت لأجدها خارج المسجد تنتظرني». انظروا إلى دور الأم المربية في إتمام الدور التربوي الأخرى في حياة هذا الابن العظيم. انظروا إلى الجانب العملي في صناعة التربية.

وهذا معاوية بن قرة التابعي الجليل يقول لأبنائه بعد أن قضوا صلاة العشاء: يا بني، ناموا علَّ الله أن يرزقكم من الليل خيراً.

إننا للأسف اعتنينا كثيراً بالجانب المادي في حياة الأولاد، وأهملنا الجانب الروحي، ولربما غضب الوالد والأم إن رُسب الولد في مادة دراسية، ولكنهم لا يغضبون ولو بنسبة ١٪. إن رُسب في مادة الإيمان، ونام عن الصلاة المكتوبة. واسمعوا أيها الإخوة لهذه القصة العجيبة:

يقول أحد الأولاد: أيقظت والدي يوماً لصلاة الفجر فما استيقظ إلا بعد طلوع الشمس بفترة. فسألته: يا والدي، حاولت إيقاظك ولكنك لم تستيقظ. قال الوالد: يا ولدي، كنت ليلة البارحة أراجع الدروس لأخيكَ الصغير، ومن شدة الإعياء نمت والكتاب على صدري. والنبى ﷺ يقول: «رفع القلم عن ثلاث - ومنهم - النائم حتى يستيقظ»^(١).

وفي اليوم التالي حاول الولد إيقاظ والده فلم يستيقظ إلا بعد طلوع الشمس. فقال له الولد: يا والدي، حاولت أن أوقظك لصلاة الفجر فلم تستيقظ. قال: يا ولدي، تأخرت ليلة البارحة في شراء بعض

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٩٨)، والترمذي (١٤٢٣) عن علي رضي الله عنه، وأخرجه النسائي (١٥٦/٦)، وابن ماجه (٢٠٤١) عن عائشة.

الاحتياجات للبيت، ونمت من الإعياء متأخراً. والنبى ﷺ يقول: «رفع القلم عن ثلاث - ومنهم - النائم حتى يستيقظ»!

وتمر الأيام والليالي وتأتي فترة الامتحانات النهائية، ويأتي القدر أن يستيقظ هذا الأب كعادته بعد طلوع الشمس بفترة، وإذا به يجد ابنه نائماً! فسأله بحرقة وغضب: يا ولد، قد ذهب موعد الاختبار النهائي، ما الذي جرى لك، كيف نمت، وما انتبهت؟ قال: يا والدي، كلفتني ليلة البارحة بأن أراجع الدروس لأخي الأصغر، وهذا ما حصل، ومن شدة الإعياء نمت والكتاب على صدري، وما استيقظت إلا الآن. والنبى ﷺ يقول: «رفع القلم عن ثلاث - ومنهم - النائم حتى يستيقظ»!! فما كان من الأب إلا أن صفع وجه ولده على هذا الجواب السخيف! وقال له: هذا عذر الأبله والمغفل والأحمق والغبي والذي لا قلب له حي. ولو كان قلبك حياً لتنبهت...!

وهكذا يعيش مثل هذا الأب آباءً وأمهات كثير يقولون ما لا يفعلون، ويخططون للعالم لا للآخرة، وترتفع درجة الضغط عند أحدهم لو رسب في مادة في الدنيا، ولا يكون منهم أي إحساس لو رسب أحدهم في مادة الإيمان عند غيابه عن صلاة الفجر، والتي يقول عنها النبى ﷺ: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء والفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً»^(١).

● صناعة التربية تكون بالقدوة الصالحة الواضحة، فكما تدين تدان، وما أذنت لنفسك به من فعل بعض ما تأباه كأب، كشرب الدخان، أو النظر للبرامج التافهة، أو التأخر في الليل، فإن هذا

(١) أخرجه البخاري (٢٢٤/١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يؤخذ بتمامه من غير توجيه! ومن أراد أن يكون أبناؤه في أحسن صورة إيمانية واجتماعية فلا بد أن يفهم هذه الحكمة الرائعة التي تقول: إذا أردت أن تكون إمامي فلا بد أن تكون أمامي.

● هكذا هي صناعة التربية، جهد ومصابرة، وحسن معاملة، وعلى قدر العطاء التربوي على قدر النتيجة، ورحم الله شوقي وهو يخاطب الأم قائلاً:

إن شئتِ كان العَيْرُ أو إن شئتِ كان الأسدا
وإن تردُّ غيًّا غوى أو تبغِ رشداً رشدا
والبيتُ أنتِ الصوت فيه وهو للصوت صدا
كالغبغا في قفص كلمته فقلدا
وكالقضب اللدن قد طاع في الشكل اليدا

ما أجمل أن تعود أيها الأب إلى بيتك وأنت فرح بأولادك، فرح بهذا الكنز العظيم، فرح بابتسامتهم، ولعبهم، ومشاركتهم ورأيهم، فرح بتربيتهم وتوجيههم، فرح بنعمة الله عليك، فرح وأنت تسلم عليهم، وتحضنهم وتدعو لهم، فرح بهم وإن أخطأوا، فهم أولادك أنت، وأحبابك أنت، وفلذات كبذك أنت، ونور بيتك أنت.

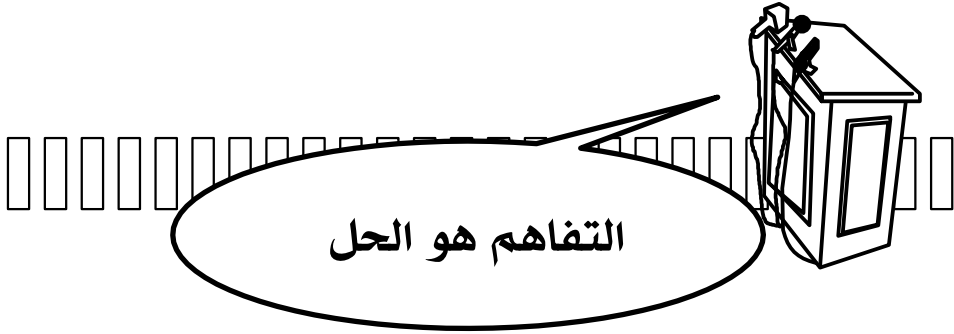
وما أجمل أن يعود الولد إلى بيته، كما يعود الطير المهاجر إلى عشه ليجد المأوى والحنان، ليجد الكلام الصادق، والعبارات النظيفه، واللحمة الهائنة، ليجد الراحة والعطف، ليعود إلى والديه، حبيبه ونور عينيه، ويدعو لهما: ﴿رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ ﴿٢٤﴾^(١).

(١) الإسراء، الآية (٢٤).

وحينها فقط لا ينطبق قول الشاعر:

قد نملك الشيء لا ندري نفاسته حتى يضيع فنأسى بعد ما ضاعا
جمع الله قلوبنا على المحبة، وزين بيوتنا وقلوبنا بزينة الإيمان،
وأحيا الله أرواحنا بالرضا عنه وعن رسوله، ورزقنا الله بر والدينا أحياء
وأمواتاً.





«أبٌ يقتل ابنه في مدينة الطائف، بعد خصام بينهما».

«بدء تجربة تربية الكلاب على شواطئ الكورنيش من قبل الشباب في مدينة جدة».

«سبعة عشر ألف حالة طلاق في الأسر السعودية العام الماضي».

«ارتفاع نسبة الطلاق في مدينة الرياض أحد أكبر مدن المملكة إلى ثلاثة آلاف حالة طلاق سنوياً مقابل ثمانية آلاف وخمسمائة حالة زواج سنوياً».

«تزايد حالات فسخ الخطوبة إلى ٦٠٪ في العام الواحد في المملكة».

هذه العناوين البارزة التي أعلن عنها في الأسبوع الماضي في وسائل الإعلام المختلفة، كما أن هذه الإحصائيات الرسمية المذكورة هي من وزارة التخطيط في المملكة العربية السعودية.

هذه العناوين المفزعة أيها الإخوة والحقائق المعلنة في بلادنا، وليست في بلاد الغرب. قتل الأب ولده في بلادنا، تربية الكلاب في الشوارع في بلادنا، هل تصدقون هذا؟

٦٠٪ من حالات الخطبة لا تتم، بعد أن جلس كل منهما مع الآخر، وصارت بينهما الرؤية والراحة والألفة. لا تكاد تمضي على هذا الحال بضعة أيام أو أسابيع إلا وتنتهي هذه القصة. هل تصدقون هذا؟

تشريد سبعة وأربعين أسرة يومياً بسبب حالات الطلاق. هل تصدقون هذا؟

نعم، يجب أن تصدقوا هذا؛ لأن هذه هي الحقيقة، هذا هو الواقع، هذه هي الحال التي وصلنا إليها معاشر المسلمين للأسف.

لم يجد الأب، الأب الحنون الحريص على أولاده وفلذة أكباده، لم يجد حلاً مع ولده إلا أن يفرغ في رأسه الرصاص، لينتهي من هذا الهم الذي يجده.

لم يجد بعض شبابنا سبيلاً للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم إلا عبر الكلاب - أجلكم الله - يصطحبونها معهم علناً إلى شواطئ البحار.

لم يجد الزوج من تعبير لمكنوناته وأحاسيسه الداخلية إلا أن يمزق شمل الأسرة، ويشتت أولاده وأهله، فيرمي بكلمة الطلاق بلا مبالاة.

يا الله... ما هذا الذي يجري، وما أنقله لكم إنما هو ما كتب في الأسبوع الماضي فقط، وما تم التصريح به، وإلا ففيما خفي أمور لا يعلم بها إلا الله!!

ونحن بهذه الحال نصاب بالألم والقهر والحسرة على هذه الأوضاع؛ لأنها في بلادنا، ومن أناس يفترض أن يكونوا متعلمين، وواعين، ومن أناس يلقون التوعية المستمرة في المساجد، والمدارس،

والتلفزيون، والصحافة، والمطويات، والأشرطة... وغيرها من وسائل
التوعية المستمرة الضخمة.

فأين الخلل إذاً؟

والله، إنني أضمرت في نفسي جواباً منذ تأملي في هذه الحقائق
والإحصاءات المرة، وما فكرت ابتداءً إلا في جواب واحد. ويشاء الله
سبحانه وتعالى أن أقرأ ما بين السطور، وأن أتابع التحليلات عن هذه
الإحصاءات في أكثر من دورية ومجلة وصحيفة، عسى أن أجد جواباً
وتفسيراً لما أقرأ وأسمع. وإذا بي أجد ما كنت أضمره في نفسي
بالحرف الواحد! وإذا به السبب الرئيسي الأول لهذه المشكلات كما
ذكره أصحاب هذه المشكلات أنفسهم!

أما الأب الذي قتل ابنه وحببيه وفلذة كبده. فقد قال: وصلت
إلى درجة لم أعد أفهم فيها مع ولدي!!

وفي استبانة وزعت على المطلقات في المملكة ودول الخليج
كانت أعلى نسبة في الإجابة والتي تمثل ٢٨,٤٪ تقول: لم نستطع أن
نتفاهم حول العديد من أمور حياتنا!!

وعن تربية بعض الشباب للكلاب. قالوا: لم نجد أهلنا يتفاهمون
معنا بشكل مناسب فقررنا خلع القيد، والخروج عن المألوف، ولو
على حساب أي شيء!

هذه الكلمات أيها الإخوة لا تظنوا أبداً أنها مجرد عبارات
للخروج من مأزق، أو للهروب من الواقع، وليست هي «كلام جرائد»
كما يقال؛ بل هي والله عين الحقيقة. وهي والله تطابق ما أضمرته مذ
قرأت هذه الأخبار.

غياب لغة التفاهم أيها الإخوة هو السبب الرئيس في نشوء هذه المشكلات ومثيالاتها، وما سنسمع به مستقبلاً لا سمح الله.

هل يعقل أيها الإخوة أن يصل الأمر بين أب وولده إلى درجة لا يستطيعان فيها التفاهم إلا بالقتل؟

هل يعقل أن ينسى الأب ابنه، وأنه الذي رباه وآواه وعلمه وتعب لأجله؟

هل نسي أنه حبيب، أنه إنسان، روح وعاطفة، مشاعر وأحاسيس، تعتريه التغيرات، ويتعرض للمشكلات. ألا يمكن أن يكون الحل إلا بالقتل؟!

هل يعقل أن لا يستطيع الزوج التفاهم مع زوجته وحبيبته وأم أولاده، وهي التي سهرت لأجله، وبكت دماً لا دمعاً لراحته، وحتت ظهرها، وأظمأت نهارها، وهي تخدمه وتخدم أهله، وأصدقاءه، وجيرانه، وأولاده؟

هل مكافأة هذا كله لو أخطأت يوماً، أو غَضِبْتُ في لحظة، أو تَنَكَّدْتُ في ساعة غفلة، أن تُطْرَد من بيتها، وأن ترجع مكسورة إلى أهلها، وأن ينسى المعروف الذي عملته طيلة حياتها؟

هل يعقل أن لا يجد الأخ مع أخيه سبيلاً ولا مدخلاً ولا طريقاً للتسلل إلى قلبه، والوصول إلى مكنونات نفسه، إلا الصد والجفوة، وإغلاق باب الحوار؟ فيعود كسيراً أليماً، وكان من المفترض أن يسود بينهما الإخاء والمحبة والألفة والابتسامة، واحتمال الزلة وستر الخطيئة وزرع المودة، والاحترام المتبادل؟

هل يعقل أن لا يجد الحبيب سبيلاً للوصول إلى حبيبته؟

هل يعقل أن لا يجد الزوج طريقاً للوصول إلى زوجته؟

هل يعقل أن لا يجد الأب ممراً للوصول إلى ولده؟

هل يعقل أن لا يجد الحاكم خطأً للوصول إلى شعبه؟

هل يعقل أن لا يجد الإنسان جسراً للوصول إلى أخيه الإنسان؟

هل يعقل أن لا يجد الإنسان، الإنسان بمشاعره وأحاسيسه وعذوبة لسانه، الإنسان المملوء رقةً ودفئاً وحناناً وعطفاً، ولو كلمة، ولو ابتسامة، ولو لمسة، ولو نظرة من إشفاق وحنان وعطف على موقف، أو على زلة، أو على خطيئة؟

هل يعقل أن لا يجد لحظة من تسامح وتغافر أو على أقل تقدير فرصة للتفاهم.

لقد استطاع الأديب الشبلي^(١) رحمه الله أن يتفاهم مع حيوان لا يعقل ولا يفهم، مع ورّقاء، مع حمامة، يبتها همومه، وأحاسيسه، ومشاعره، فيعلم أنها لا تفهمه، ولكنها على أقل تقدير تحس بمشاعره، وتشاركه ولو من داخلها، يصف حاله معها قائلاً:

رُبَّ ورقاءٍ هتوفٍ في الضحى	ذاتٍ شجوٍ صدحت في فَنَنٍ
ذَكَرَتْ إلْفاً وعيشاً سالفاً	فَبَكَتْ حزناً فهاجت حَزَنِي
فبكائي ربما أَرَقَّها	وَبُكَاهَا ربَّما أَرَقَّنِي
وَلَقَدْ تَشَكُّو فما أفهمها	ولقد أشكو فما تفهمني
غيرَ أنني بالجوى أعرفها	وهي أيضاً بالجوى تعرفني

(١) هو: دلف بن حيدر الشبلي، شاعر عباسي كان في مبدأ أمره والياً، ثم ترك الولاية وسلك مسلك المتصوفة في شعره الجيد، توفي سنة ٣٣٤هـ.

أُتراها بالبكا مُولعةً أم سقاها البينُ ما جرّعني
 وإذا فقدت لغة التفاهم، وجمد الحوار المؤدب، وغابت الألفة
 والمحبة، رأيت الأب الحنون أسداً، والأم الهادئة وحشاً، والولد البار
 ذئباً، والمعلم المربي جبلاً، والتلميذ الأديب عدواً، والحاكم سيفاً،
 والمحكوم جيشاً، وحينها تتنافر القلوب، وتختلف الأرواح، وتتباعد
 الأجساد، ويقع الهجر والقطيعة، وسوء الظن والريبة، ويعلو المحيا
 انقباض وعبوس، وتنتهي رحلة التفاهم والحب، فلا يفهم الطالب كلام
 معلمه العربي المبين، ولا تذعن المرأة لزوجها ولو سألها شربة ماء،
 ولا يحنو الأب على ابنه ولو كان في شدة الأسد، ولا يحاكم الداعية
 بالحق ولو كان في يده ألف شهادة براءة!

يوم تختفي لغة التفاهم تهجرُ النحلة الزهر، والعصفور الروض،
 والحمام الغدير، والزوجة المنزل، والجار المسكن، والشعب البلد،
 فتصبح الحياة عبئاً وثقلاً، وتصير الدنيا قاعاً صفصفاً، فلا الحياة حياة،
 ولا الحب حب، ولا الأخوة أخوة، فكل زلة جريمة، وكل خطيئة
 مصيبة، وكل قسوة جارحة، وكل تصرف مشبوه، وكل لمسة مشكوك
 فيها، وكل إحسان إساءة، ثم هجر بعد وصال، وغضب بعد رضا،
 وخطيئة بعد إحسان، وخطأ بعد صواب، وانتقاص بعد محبة، ولمز
 بعد مودة، وهروب من اللقاء بعد طول مسرة، فتتراكم الأحزان،
 وتطول الأيام، ويرضى الشيطان، ويغضب الرحمن، ويطول الهجران،
 ويتحكم الهوى بالإنسان.

ولو أنا نعاملكم بمثل بقينا لا نُزارُ ولا نزورُ

إلى متى يستمر هذا الحال؟؟

ألا من عودة إلى الله وتوبة واستغفار؟

أما من رحمة وشفقة ومودة؟

أما من سعة صدر، واحتمال زلة؟

أما من اجتماع كلمة، ووحدة صف؟

أما من تفويت فرصة على الشيطان، وألفة وأخوة؟

أما من إيمان يتحرك، وقلب يتعظ، وحديث يذكر: «المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس»^(١).

إنَّ لغة التفاهم أيها الإخوة تبني على الحوار الصادق الشفاف، وعدم التعاتب واللوم المستمر، ومراعاة الحال والظرف، والتفاهم بلغة الأخذ والعطاء، والسمع وإبداء الرأي، وليس بالضغط وقول ما يراه كل أحد، بل بالتنازل أحياناً والعفو عن شيء مما قد يعتري المتكلم.

إنَّ لغة التفاهم تعني اختيار الوقت المناسب والظرف المناسب، فلكل واحد حال ومزاج، يصفو حيناً ويتعكر حيناً.

إنَّ لغة التفاهم تعني عدم التغافل عن وضع كل إنسان فالشيخ الكبير له تقلبات، والمرأة تمر بحالات، والشاب تعتريه تغيرات، وقانون التفاهم يقتضي مراعاة ذلك كله وغض الطرف عما قد توجهه هذه الأحوال من قيل وقال، وما أحسن قول الشاعر:

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٥٦/٤)، وفي الصغير (٢٦٢/١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (٤٢٦).

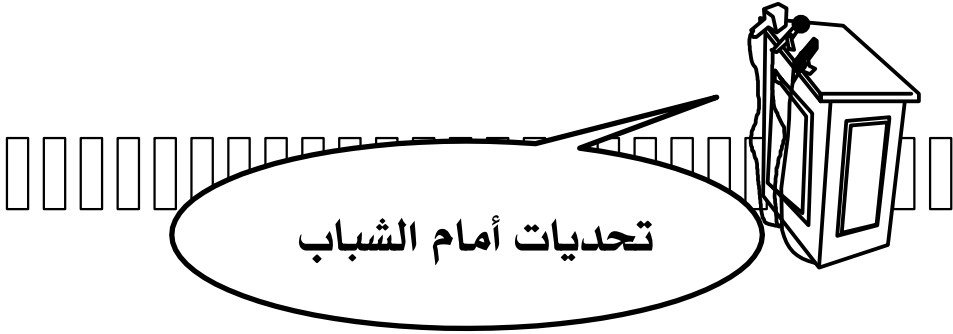
تعالوا بنا نطوي الحديث الذي جرى ولا سَمِعَ الواشي بذاك ولا درى
تعالوا بنا حتى نعود إلى الرضا وحتى كأن العهد لم يتغيرا
لقد طال شرح القول والقيـل بيننا وما طال ذاك الشرح إلا ليقصرا
من اليوم تاريخ المحبة بيننا عفا الله عن ذاك العتاب الذي جرى

وها هو شاعرٍ ثانٍ يترجّى أصحابه ليديموا محبة أخوية لذيدة قد
ذاق طعمها الفريد، فيقول:

تعالوا نُخَلِّ العَتَبَ عنا ونَصْطَلِحْ وعودوا بنا للوصل والعودُ أحمدُ
ولا تخذشوا بالعتبِ وجهَ محبةٍ له بهجةٌ أنوارها تَتَوَقَّدُ

فلا تخذش أيها الأخ، بالله عليك، وجه محبة منيرة، وقد رأيت
الناس من حولك تستهلكهم العداوات، وإلا وضعت نفسك على شفير
الاستهلاك، فإن التغافر خير.





لقد منّ الله على أمتنا الإسلامية بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس.

فهي الأمة التي عجز التاريخ عن تسطير أمجادها، وهي الأمة التي رعاها ربها وتكفل بها خالقها، فسادت الدنيا، وصنعت البطولات، وشكّلت الرؤية الحضارية الفاعلة في الحياة، وصاغت الإنسان، وقادت البشرية، وحفرت بصماتها المباركة في مشارق الأرض ومغاربها، وعبرت القارات والقرون، ودانت لها رقاب الجبابرة، وارتجف لعظمتها القياصرة والأكاسرة، وعرف قيمتها وصدق أبنائها الأعداء قبل الأصدقاء.

وما كان لها بإذن الله هذه الريادة إلا على يد الشباب من أبنائها.

الشباب المسلم الذي وجد أمته قد سلّمت الأمانة، فتسلّمها بيد طاهرة شريفة، وعمل وجدّ وطوّر وابتكر.

شباب ذلّوا سبل المعالي وما عرفوا سوى الإسلام ديناً

ولكنّ الأمة اليوم سلّمتهم الرسالة منقوصة، وأعطتهم الراية مكسورة!!

وتسلّموها وهم في تيه الحياة، وفي الغيبوبات الثلاثة التي ما فتئت تدمر الشباب عبر القرون:

غياب الهوية، وغياب المرجعية، وغياب المرحلية.

لذا عاشت الأمة بين ثلاث فئات من الشباب:

شباب قادوها إلى الخصومة الداخلية والاستعداد الخارجي، بأساليب ذعرية دموية خاطئة، بعفوية تكره التخطيط، وفوضوية تكره النظام، وحماسية تشتعل بسرعة وتنطفئ بسرعة!!

وفئة ثانية: تريد حياةً بلا مبادئ، وورداً بلا أشواك، وأخذاً من غير عطاء.

خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمي بنانه

وفئة ثالثة: أدركت رسالتها وصبرت في حياتها، وجاهدت أنفسها، فأصحابها يستفيدون من التجارب، ويتربون في الميدان، ويستعيذون من رقدة الغافلين، ولا يعيشون معزولين عن العالمين. هؤلاء هم شباب الأمة ولا فخر، منهم طالب علم جاد، ومرب فاضل، وداعية مجدد، ومجاهد شهيد، وتاجر صدوق، وإعلامي بارع، ومفكر مبدع، وشاعر صاحب رسالة.

حملوا هموم الأمة، وسعوا لتحقيق آمالهم، وضربوا أروع الأمثلة الحاضرة لإخوانهم، وكانوا قدوات يُحتذى بهم في ميادين التربية والدعوة وتغيير واقع الأمة والنهضة بها.

ولنعد الآن إلى التحديات الثلاث الخطيرة التي تواجه الشباب، أو ما اسميته: (الغيبوبات الثلاث) التي تحيط بهم.

□ التحدي الأول أمام الشباب اليوم: غياب الهوية:

كثير من شبابنا اليوم يعاني من مشكلة التناقض، مشكلة غياب الهوية.

أسأل أحد الطلبة في الصف الأول الثانوي: لماذا تدخن؟ قال: ثلاثة أرباع الفصل يدخنون، عدا ثلاثة أو أربعة!

لم يعد كثير من شبابنا يفكر في الناحية الشرعية أو الصحية أو النفسية؛ ولذلك كانت أعلى نسبة تدخين في دول الخليج بين شباب السعودية بغض النظر عن نسبة عدد الشباب في تلك الدول.

زيادة عدد الحوادث المرورية، وعدم مراعاة اللوائح والنظم القانونية، والتمرد على قيم المجتمع. بل إن منطقة هادئة سكانياً كخميس مشيط جنوب المملكة بدأت تعاني من تجمعات الشباب، وتفاخرهم بالتفحيط بالسيارات! إنني أتكلم عن مدينة هادئة وعسكرية في نفس الوقت، والناس والأهالي يعانون من كثير من الشباب هناك. فماذا نقول عن المدن الحضارية المفتوحة الكبرى؟

في الأسبوع الماضي صلينا في هذا المسجد صلاة الجنازة على شاب مسكين كان ينظر إلى مفحطي السيارات ويشجعهم، فاخطفه الموت، وأصيب آخر فأدخل المستشفى وتوفي بعده بيوم، وشاب ثالث إلى هذه اللحظة في المستشفى!

وقبل هذه الحادثة بيوم وبالقرب من المسجد صدم شابٌ متهورٌ بسيارته سيارة المرور! فاصطدمت بعمود الكهرباء! وحين حاول الفرار من سيارات المرور الأخرى ارتطم ببعض سيارات أهل الحي، وكاد لولا لطفُ الله أن يصيب طائفةً من الأطفال كانوا يلعبون على الرصيف!

على أي شيء يدل هذا؟

إنَّه يدل على عدم وجود أهداف، وغاية واضحة في هذه الدنيا للمئات بل للآلاف من هؤلاء الشباب.

قصّات الشعر في المدارس، والانحرافات السلوكية، وتبادل قصص الغرام والهيام.

هل هذا يدل على حضارة شباب مكة والمدينة؟ وأحفاد الجيل الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه؟ لا أظن، وأنا قطعاً لا أعني كل الشباب، لكن أعني كثيراً منهم. نحن السبب، نحن السبب، نحن السبب.

لماذا لا يكتب الكاتب مطالباً الجهات المختلفة بإيقاف مواعيد المباريات الرياضية فترة الاختبارات النهائية لطلابنا وأبنائنا؟ وفتح الأبواب بعد ذلك في فترات مناسبة؟

لماذا لا يتكلم كل مدير وكل مدرس مع طلاب مدرسته عن كيفية إبداء الفرح، وإعلان التشجيع؟

لماذا لا يهتم كل أب وأم في بيتهما بأولادهما، ويتأكدان من كونهم في البيت في هذه اللحظات الحرجة، أو على أقل تقدير يكون هناك توجيه وانتباه.

أنا لا أريد أن أخاطب الصحافة ووسائل الإعلام المختلفة، لأنه للأسف أصبح همُّ أكثرهم الترويج لمطبوعاتهم، وأشرطتهم، وغاياتهم على حساب القيم والأهداف العليا. لذا نريد أن نبدأ من داخل بيوتنا ومدارسنا وأحيائنا ومساجدنا.

شبابنا اليوم كل يوم هو في شأن، مرة مخدرات، ومرة تدخين، ومرة قهاوي وشيش، ومرة إنترنت وفيديو كليب، والآن تشجيع وتهور وقتل أنفس معصومة.

إذا شتمنا الشباب، فيجب أن نشتم الصحافة ووسائل الإعلام التي أثارته. أعيد وأقول: أخطب كل إمام مسجد، وكل أب وكل أم وكل معلم وكل جار وكل قريب للاهتمام بأولادهم. ثم تبقى قضية المعلم في المدرسة، والأب في البيت، وتبقى قضية المربين في المراكز والنوادي الاجتماعية، والعاملين في الوسائل الإعلامية لإعادة الشباب نحو غاياتهم الأساسية، بحيث يربطونهم بسير الصالحين والمصلحين، وذلك بإنشاء مسابقات كبرى، على سيارات أو جوالات أو ساعات، لنربط هؤلاء الشباب بسير عظماء الأمة بطرق جذبة جديدة ومناسبة. هذا واقعنا، وهذه الفتن التي تحيط بشبابنا. ماذا نصنع؟ نسكت؟ نجلس في بيوتنا، نبكي على حالنا؟

يجب أن نسهم في الحل ولو بجهد المقل، «وغلطة الشاطر عشرة».

هل ننتظر لا سمح الله، حتى يصير هذا الميت المسكين ولدي أو أخي أو جاري أو قريب أو صديقي. أعوذ بالله من موت الفجأة، وسوء الخاتمة.

شباب يلعبون، ولا يعلمون إلى أين يتجهون، وأخت لهم في فلسطين في الواحدة والعشرين من عمرها تقدم روحها لله، وتقاتل اليهود.

إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي وما جمع الأحزاب لي حول مصرعي
فذا العرش صبرني على ما يراد بي فقد بضّعوا لحمي وقد ياس مطمعي

□ والتحدي الثاني أمام الشباب اليوم: غياب المرجعية:

أما عن الشباب العادي فإنه لا يرى غالباً مرجعية أخلاقية إنسانية، أو شرعية دينية ماثلة أمام عينيه، ففي البيت يرى الوالدين والإخوان مشغولين بمتابعة القنوات الفضائية، ولا يرى في المدرسة المرجعية المثلى أو القدوات الذين يمكن أن يقتدي بسلوكهم إلا قليلاً. ويلعب المجتمع دوراً كبيراً في تغييب المرجعية وضحالتها. والسؤال: أين دور الأب المسلم؟ وأين دور الأم المسلمة في التربية على الأقوال والأفعال الصالحة، وحث الجيل عليها؟ لا يكفي أن تكون هناك ملتقيات ومراكز قدوات فقط، وفي نفس الوقت يخرج الشاب إلى الشارع ليرى قدوة سيئة. علينا أن نصلح ما في أنفسنا أولاً، ليرى الأبناء والشباب قدوات حية يعايشونها. وهذا يعني ضرورة وجود احتكاك من شريحة المصلحين مع شريحة الشباب، كما ينبغي بالضرورة التفات كل المربين - المعلم مع تلميذه، والشيخ مع طلبته، والأب مع ابنه - في كيفية سلوكهم وأعمالهم.

نحن بحاجة إلى النزول لساحة الشباب، واختراق بيئاتهم، والحديث بلغتهم، وإيجاد بدائل ناقصة ومتجددة لكسبهم. ونحن بحاجة إلى وعي التجار والمحسنين، وتيسير الأمور الإدارية من المسؤولين!

□ والتحدي الثالث أمام الشباب اليوم: غياب المرحلة:

فالشباب يريدون أن يزرعوا اليوم ليحصدوا غداً، أن يكتبوا اليوم ليشتروا غداً، وأن يعملوا اليوم ليغتنوا غداً.

يظنون أن في عصر العولمة والطفرات المالية أن بإمكانهم تجاوز سنن الله في الكون!

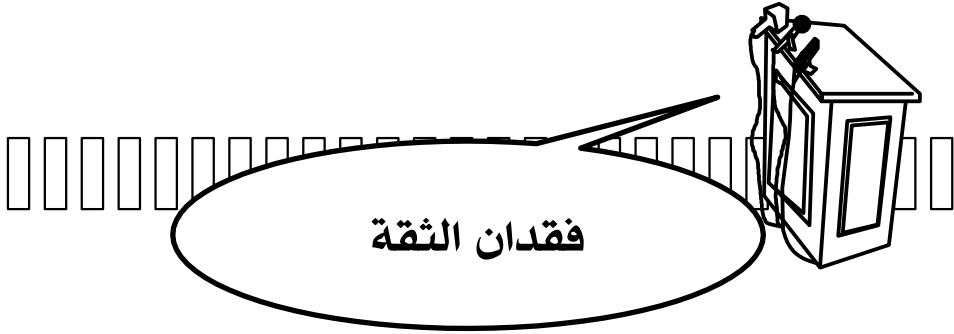
المرحلية تعني البناء النفسي على الصبر والجَلَد والتحمل، مع عدم التواني والكسل.

المرحلية تعني الدراسة الواعية لسنن النجاح والإخفاق. فلن تحل الأمور بالتهور والتسرع والتطبيقات السريعة للنصوص الشعرية وشواهد التاريخ.

الشباب بحاجة إلى من يعلمهم فقه التوازن، ويربط لهم شواهد السابق باللاحق، ويبصرهم بطرق النجاح وحل الأزمات.

والأسرة الواعية والمجتمع المتميز والدعوة المتبصرة، كل أولئك من يسعى لكسب الشباب فيها، ومساعدتهم لتجاوز التحديات.





أعلى ما لدى الإنسان في هذه الحياة هي نفسه التي بين جنبيه،
والتي أكد القرآن مراراً وتكراراً على العناية بها، والحرص على
سلامتها.

وإن الإنسان بطبعه يحب الحياة والبقاء فيها ولو كان من راغبي
الآخرة طلباً للمزيد.

لذلك؛ فإنَّ بذل هذه النفس رخيصة من أجل غاية سامية أو
هدف عالٍ يعتبر مكرمة ومنقبة لا تقدر بثمن...

يجود بالنفس إن ضنَّ البخيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود
ولأن هذه النفس تمر بتقلبات مختلفة، وتعرض لمحن متنوعة
فإنها بحاجة إلى أمان واستقرار ورعاية، حتى لا تتورط في معصية، أو
تشدَّ في غفلة لا تحمد عقباها.

وأعظم باعث لاستقرار النفس وثباتها وهدوئها هو الثقة.

فالإنسان لا يختار صديقاً يماشيه ويؤاخيهِ ويسليه ويواسيه إلا إذا
وثق به واطمأن إليه.

والإنسان لا يختار زوجة يبث إليها شكواه وآماله وآلامه إلا إذا وثق بها واطمأن إليها.

والإنسان لا يسلم جسمه للطبيب ليختار له العلاج المناسب إلا إذا وثق به واطمأن إليه.

والإنسان لا يخبرك بهومومه وأحاسيسه إلا إذا وثق بك واطمأن إليك.

والولد لا يخبر والده بما تعرض له من مشكلات في مدرسته أو مضايقات من زملائه إلا إذا وثق بأبيه واطمأن إليه.

فمتى ما وجدت الثقة سهل الطريق لراحة النفس وأمانها واطمئنانها. ومتى ما فقدت الثقة ولو للحظة حصلت الفرقة والأذية والهزات النفسية الكبيرة، والآلام والجراحات العميقة.

في الأسبوع الماضي وفي صحيفة «المدينة» نشرت قصة أليمة يقطر من سطورها الدمع، وتصاب النفس بآهات الحسرة عند كل فقرة منها.

صاحب القصة شاب في العشرين من عمره، وقد روى حكايته لأحد الصحفيين عبر مقابلة مصورة تمت داخل السجن، يقول هذا الشاب: كان لي أحد الأصدقاء، أعرفه منذ عشر سنوات، درس معي في مراحل الدراسة، وكنت أعتبره أكثر من صديق وصاحب، بل هو كالأخ والقريب، أثق به ثقة كبيرة، وأبته ما في نفسي، وكنا مع بعضنا دائماً.

حتى جاءني إلى بيتي يوماً من الأيام، وأخبرني بأن له صديقاً قد دعاه للعشاء في استراحتهم في الحرايات «المنطقة المعروفة والقريبة من

هذا الحي»، وطلب مني أن أذهب معه. وفعلاً ذهبت مع أخي وصديقي - يقول هذا الشاب -: فلما وصلنا الاستراحة لم نجد صديقاً ولا صاحباً، وبعد وقت يسير أخذ هذا الأخ والصديق يحدثني عن رغبته في أن نتبادل فعل الحرام! وهنا صعقت من الخبر وظننت صاحبي يمازحني، إلا أنه كان جاداً في طلبه، ومنفعلاً في أسلوبه، ولما أدركت ذلك رفضت رفضاً قاطعاً وتأبيت عليه، فما كان منه إلا الهجوم عليّ، وحينها لم أملك إلا أن أدفع عن نفسي فتناولت حجراً كبيراً كان بجواري فضربت به على رأسه، ومع ضربتي القوية له سقط بين يدي، وظننت أنه سيستفيق بعد فترة، وهربت إلى منزلي لأرتاح من مصيبة هذه اللحظات القاسية. وبعد يومين علمت أن صاحبي أو أخي قد مات!! وبعد إجراءات وتحريات وأسئلة اعترفت بما جرى، وها أنذا منذ ثمانية أشهر في هذا المكان، والسجن المظلم، وإني لأرجو أن يتفهم أهل المقتول حالي ويعفو عني!

وهكذا تنكشف العيوب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إن موضوع الثقة موضوع مهم وخطير، وحساس ودقيق لأبعد درجة.

فحاجة الإنسان إلى الثقة أمر جبلي فطر عليه الإنسان، ولا غنى له عنه، والسعي للبحث عن الثقة من مطالب الحياة، وأمر الثقة في ظني لا يحتاج إلى تعريف وطول بيان، فكل إنسان غالباً يستطيع أن يميز بين من يثق به ومن لا يثق، ويستطيع أن يقارن بين من يقدر الأمور ويزنها بميزان صحيح، وبين من لا يستطيع ذلك.

كما أنه يستطيع أن يعرف المسلم السوي في سلوكه وعبادته من غير أن يحدثه الناس كثيراً.

وما يغفل عن هذه الحقائق إلا مجموعة بسيطة في تفكيرها، أو شاذة في سلوكها، أو غافلة عن قراءة تاريخها، ومعرفة بيئتها.

الحاجة إلى الثقة أمر ملح، ومطلب أساسي من مطالب الحياة.

لولا الثقات الأثبات... لما صحّت كثير من أحاديث النبي ﷺ.

ولولا الثقات الأثبات... لما قبلت الشهادات وحررت العقوبات.

ولولا الثقات الأثبات... لضاعت حقوق، وسلبت ممتلكات.

ولولا الثقات الأثبات... لحصلت الخصومات، وتفرقت الجماعات.

ولو عدنا للقصة التي ذكرتها قبل قليل، لوجدنا أن جانب الثقة كان يسيطر على كثير من جوانبها، إلا أنه عند النظر والتدقيق نجد أن هذا الشاب قد وصف صاحبه المقتول بالثقة الكبيرة، لدرجة أنه ظنه مازحاً لما طلب منه فعل الحرام!!

والسؤال: كيف وثق به كل هذه الثقة وهو على هذه الدرجة من السوء؟!

إن السبب هو القصور الفاضح في مفهوم الثقة عند كثير من شباب اليوم وللأسف. فالثقة عندهم هي المؤكلة والمؤانسة، والمشاركة والمحادثة!! وهذا خلل كبير. فالثقة إنما تكون في الدين، وفي السلوك.

فقد يأتي إليك الخاطب ليتقدم لابنتك أو أختك، وأنت قد لا تعرفه... فما الضابط للقبول أو الرد. لتأمل: «إذا جاءكم من ترضون

دينه وخلقه فزوّجوه، إن لم تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»^(١).

كيف نثق بهذا الرجل؟ الجواب: إذا رضينا ووثقنا في (دينه) أي: عباداته الشعائرية الظاهرة، و(خلقه) أي: سلوكه وتعامله، علماً أن الخلق من الدين، ولكن أراد النبي ﷺ أن يؤكد عليها، ويعتبر لها دلالة وأهمية خاصة. حينئذٍ نقبل رغبته، ونتم له أمره. وإن لم نفعل ذلك، فنكون قد أضعنا الأمانة، وجعلنا الثقة في غير مكانها (إن لم تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) لم؟ لأن الثقة بنيت على أنك ابن من؟ وكم معك؟ وأين تعمل؟ وما هو راتبك؟ وأين سكنك؟ وكم مهرك؟

وهذه هي المفاهيم الهابطة التي تؤدي إلى درك الشقاء، وتعاسة الحياة بعدئذ!

فالثقة في أمرين: الدين والسلوك. ومن غيرهما لن تتحقق نتائج وثمرات الثقة.

فالأب في البيت قد يكون مصلياً بل وفي الصفوف الأولى، ولكنه يدخل في بيته، ويصيح في وجه ابنه وابنته، وحينها ورب الكعبة، لن يثق به أبناؤه الثقة الكلية، ولربما أساءوا من حيث لا يريد هو، ولربما تنكروا له، وتخبطوا في معيشتهم ودراستهم وانحدر أخلاقهم، لأن الثقة في القدوة غير موجودة. والوعظ القولي لا يغني عن الوعظ الفعلي طالما كان بالإمكان حصولهما!

والمعلم المربي قد يكون طيباً مبتسماً، ولكنه قد يغضب أحياناً،

(١) أخرجه الترمذي (١٠٨٤)، وابن ماجه (١٩٦٧)، وحسنه الألباني في صحيح السنن.

أو يرمي ببعض الكلمات المنفرة، أو الإحباطات في حالة الفشل لتلميذه أو صديقه فتسحب الثقة من بين يديه تدريجياً.

والموظف قد يكون نزيهاً أميناً في معاملاته، ولكنه لا يراعي حضوره وانصرافه، فتهدز الثقة من زملائه ورؤسائه.

والمسؤول والوجيه والكبير لو وعظ ألف مرة أنه أحرص الناس وهو يسرق مالهم، ويضع السياط على رؤوسهم، لسقط عرش الثقة الذي بناه بكلامه في سنة، كما تسقط خيوط العنكبوت الواهية في لحظة!

وعوداً على بدء... الثقة في الدين وفي السلوك، هذا في جانب تعاملك وكيفية ثقتك بالآخرين.

أما عن كيفية الثقة بنفسك، وتعاملك مع ذاتك، فهي كذلك لا تتم إلا بالأمرين نفسيهما: ثقتك بدينك، وثقتك بسلوكك...

فثقتك بدينك: أنه لا يتم لك رزق ولا يكتب لك مال إلا وأنت واثق أن الله سيقضيه لك.

وأنه لا تقدر عليك مصيبة في مرض أو عطل سيارة أو هم نفس إلا وأنت واثق أن هذا من قضاء الله وقضائه. وأنه لن تخطو خطوة في الحياة ولن تتنفس نفساً واحداً إلا وأنت واثق أن الله يختار لك ما يشاء متى ما شاء.

وثقتك بسلوكك: أنه ما تمت مصيبة أو غفلة إلا وأنت واثق أنها بذنب منك. وأنه ما تم لك ضيق أو سوء معاملة أو حزن إلا وأنت واثق أنك أخطأت في أمر أو أسأت مع أحد.

وأنه ما زارك الممرض ولا الوهن ولا الاكتئاب إلا وأنت واثق أنك غفلت في خلوتك مع نفسك، أو بتصرفات جوارحك فيما لا يرضي.

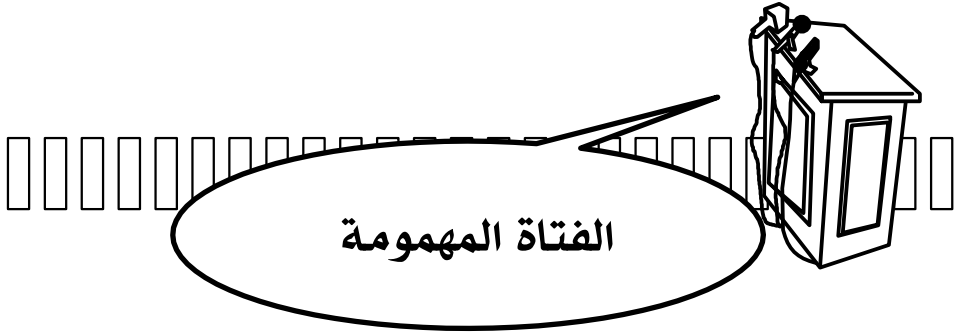
وأنه ما تنكبت دراسياً إلا وأنت واثق أنه بسبب تقصيرك وكسلك وضعفك.

لا بدّ أن يشق كل واحد منا أيها الإخوة أن هذه الحياة التي نعيشها هي فترة محدودة، وأن هذه المحن التي نلقاها كل لحظة، وأن هذه التغيرات التي نراها كل فترة، لا تمضي عبثاً، ولا تتم صدفة، بل هي محض سُنة كونيّة جعلها الله في هذه الحياة.

لا بدّ أن نشق تمام الثقة أن الله سبحانه وتعالى لا يحابي أحداً، ولا يظلم أحداً، وأن ما يجري في الكون هو بقضائه وقدره وعدله.

لا بدّ أن نشق أن الله سبحانه وتعالى هو الحي القيوم الذي لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، وأنه يعلم ما يجري في العالم بأسره من ظلم الجبابة، وطغيان المتسلطين، وفجور المهتكين، وفساد المفسدين، وإنه إن أمهلهم فإنه لن يهملهم ولن يتركهم سدى.





الاعتراف بالخطأ بداية التقويم الصحيح، والتشخيص السليم،
والخطوة الأولى لعلاج المرض، وتصحيح الخلل.

وكُلِّما كَانَ الوضوح والمكاشفة مع النفس كُلِّما فُتحت أَبوابُ
العودة الصادقة، والأمل المرتقب.

والاعترافُ بالخطأ في أوله أيسرُ في المقاومة، وألينُ في
المعاملة، وأسرعُ في الفئنة، وأرجى للقبول، وأدعى للمغفرة، وأفضلُ
للسيانة والستر.

والإقرار بالخطأ لا بدَّ أن يُمازجه شعور بالندم والتقصير، والتوبة
والإحساس بالذنب، وهما شرطان لقبول توبة العبد. يقول الرسول
الكريم ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم
تاب، تاب الله عليه».

«إن العبد إذا اعترف بذنبه» وهذا هو الشرط الأول، «ثم تاب»
وهذا هو الشرط الثاني، «تاب الله عليه» وهذه هي النتيجة.

فهي مصارحةٌ مع النفس بكلِّ جلاء، مع تحريكٍ للقلب، لكي
يُبصر الحقيقة، ويرى بنور البصيرة ما أصابه.

ومن غير مصارحةٍ مع النفس لن تكون المحاسبة، ومن غير الاعتراف بالخطأ لن تكون العودة الصحيحة، ومن غير الندم والتوبة لن تكون العاقبة الحسنة.

ويومَ يستهينُ الإنسان بخطئه، ويداومُ على زلله، وينفكُّ من مراقبةِ ربه، ويرى عافيةً في بدنه، وهناءً في بعض عيشه، حينها فقط يترقّب الإنسان بداية السقوط، ودوامَ التعب، واستمرارَ القلق، وقلة العافية، وتجرّع الآلام، ويدركُ حينها تماماً أنَّ دقائق اللذة تلك ما كانت إلا سراباً أو خيالاً:

نصيبك في حياتك من حبيبٍ نصيبك في منامك من خيالٍ
ووقتُها يجرُّ معه سيولَ الألم، وألحانَ الحزن، ويلعنُ دقائق الغفلة، وعين الخيال!!

إنَّه في هذه اللحظة يكونُ اللعبُ في الوقت الضائع كما يقال...

في الوقت الذي يريد أن يقول لنفسه: لا، في الوقت الذي يقرُّ فيه أن يتوقف، في الوقت الذي يتمنى فيه أن لم يخض تلك الأوحال.

في هذه اللحظة تصعبُ العودة، وتنشُبُ المعركة، ويشتدُّ العدو الشيطاني، وتزدادُ النفسُ شراسةً، ولا ينفكُّ إلا من عصمه الله، أو رأى برهانَ ربه!

والبشر يا عباد الله كلُّهم معرّضون للبلاء والاختبار، والغفلة والنسيان، إلا أنه أيها الإخوة يوجد صنفٌ من الناس لهم وضعيةٌ خاصة، وصفاتٌ مختلفة، وطبائعٌ صعبة، تجعلُ وقوع الخطأ منها أكبر، وبليةً أعظم، ومداراتها أخطر!

إنَّ هذا الصنف البشري المحزن والمسكين هم صنف الفتيات في بيوت المسلمين.

إن وقوع الخطأ من هذا الصنف ليس كبقية أصناف البشر. فهم في مجتمعنا يكتنفهم الذلُّ والعار، والمذلَّة والصغار. هذا من ناحية نظرة المجتمع.

أما من ناحية الفتاة نفسها؛ فإنَّ ظروفها وطبيعة البيئة التي حولها تضطرها إلى ألوانٍ من المحنة، والعيش بين جدرانِ القسوة أياماً لا تُطاق!

إنَّ الرجل أو الشاب إذا أخطأ فله ألفُ طريق يخرجُ من صمته إليه، بينما الفتاة إلى من تبثُّ شكواها، وما اقترفته يداها؟!!

ومن هنا أيها الإخوة... فإنَّ الحديث عن خطأ الفتاة في مثل ظروف العولمة اليوم التي تأمرت على الفتاة المسلمة، وجعلت قضية إغوائها هي القضية الأولى، تجعلنا أكثر واقعيةً، وأجراً في إيضاح وإضاءة الطريق للحقيقة.

أيها الإخوة...

وبين يديَّ الآن قصة تُكتب بسطور الدمع، أرسلتها إحدى الفتيات، والتي رجت الإعانة في حل مشكلتها وأزمتها منذ بضع أشهر، وبقيت هذه القصة دفينَةً في القلب، إلا أن أذنتُ الفتاة بنشرها، ليعتبر منها غيرها، على أن أكتُم سرَّ المكان والزمان، سترنا الله جميعاً بستر العافية. تقول الفتاة المهمومة صاحبة القصة:

«قبل الست سنوات كنت من محبي التلفزيون والفيديو بشكل

جنوني، كنت أعشق الأفلام، كنت أعيش أغلب الوقت بينها وبين أحلامي الخيالية.

لم يكن يعرف أحد بما أفكر به ولا كيف كانت نظرتي للأمور، فقد كنت بين صديقتي الصامته الهادئة، وفعلاً لم يكن يعجبني كلامهم أبداً، ومع الأيام أصبحت لوحدي أعيش عزلة غريبة، فالكل يتعد لأنني لست مثلهم فأنا مختلفة.

تمنيت أن أكون معهم كثيراً وأحياناً أتمنى أن أكون مثلهم، مع أنه لا يعجبني حالهم أبداً ولا اهتماماتهم، فأنا في نظري مختلفة.

ولكن ومع متابعتي لقصص الحب والغرام ومناظر تبادل القُبَل وغيرها من الأمور أصبح لديّ مُحفّزٌ غيرٌ طبيعي لأطبق ما أراه أمامي.

فقد كنتُ أتخيلُ في كل ليلة قصةَ غرام أنا بطلتها وأفعلُ كلَّ ما تعلمته من الأفلام، كنتُ أشعر بنشوة غريبة.

تعرفت على إحدى الصديقات، كنتُ أتوقعها مثلي في طريقة تفكيرها وأسلوبها، ومع الأسف كانت تتصنع هذا، حتى تكون على وفاق معي ولست أنا لوحدي بل مع أي شخص تكون معه، كانت تعطيه ما يريد.

دارت بيننا نقاشات كثيرة جداً إلى أن وصلنا إلى سؤالٍ أثارت به في داخلي الكثير: ليش ما عندك حبيب؟!!

أعطيتها أسبابي وكانت مع كل سبب تثبت لي أنه ليس سبباً حقيقياً، إلى أن قالت: هناك شباب غير!!، حتى توصلنا إلى أنني بحاجة لشخص!

ولم تُقَصِّر فأوجدت لي هذا الشخص، كنت سعيدة وفي نفس الوقت حاقدة على نفسي، كنت في تلك الأيام أعيش تناقضاً غريباً أهلكني، لم أكن أتحدث معه كثيراً، كانت هي تحاول أن تفهم تصرفي، يعني تقرّبنا لبعض، فاقترحت أن أراه في البداية، خُفْتُ وما بيّنت لها، لكن قلت: إنه صعبٌ عليّ أن أفعل أي شيء مثل هذا لأنني لا أستطيع أخرج لأي مكان ولا أعرف أصلاً كيف أفعل؟

فسهلت عليّ الأمور ورتبت كلّ شيء لأراه، ويزول ما بيننا من وحشة، وأنه لن يحصل شيء لا أريده، وإن حصل شيء لن يتعدى القبل والعناق! وهذا ما كنت أحلم به فشجعتني. ذهبتُ لها في البيت، وجاء، وتم اللقاء، لم أكن سعيدة بالخوف كاد يقتلني.

جلس وحاول تهدئتي، لم يلمسني، كان يتعامل بكل هدوء وذوق إلى أن اطمأننت، حاول التقرب لي ولكن الخوف كان حاجز بيننا، مع أنني في قرارة نفسي كل ما يهمني أن أعيش لحظات العناق والتقبيل، لا أعرف من أين كان منبع هذا الخوف الذي سرعان ما تحول لغضب!

فأردت أن أخرج، فلم يسمح لي! حاول أن يقترب مني فزاد خوفاً وبدأ التوتر بيننا، وفي لحظاتٍ تحول ذلك الهادئ إلى بركان ثائر، لم يعلم في أي مكان تقع حممه، فبدأ بلمسي بطريقة مخيفة وأخذ يقبلني بقوة لدرجة أنه ألمني.

اقترب مني ولكنني أبعدته وأخبرته أنني أريد أن أخرج فقط، ويبدو أنه عندما رأى مني الجد علم أنه على وشك أن يخسر فريسته، فانقضّ عليّ بقوة، أبعدته، لم أعد أريد تلك القُبْل، لم أعد أريدها، أريد الخروج والنجاة.

دارت في رأسي الكثير من الأسئلة والكلمات التي قذفت بها
لنفسي وألومها على الوضع الذي أنا فيه، تمنيت الموت.

حاولت الهروب فلم أستطع، حاولت الصراخ، اختنقت عباراتي،
كان قاسياً مجرمًا، لم يرحم عبراتي، ولم يرق قلبه لدمعاتي، ولم
يخف من أحد!

كنت قوية في البداية، واستطعت أن أقاومه وأبعده، فلم يجد إلا
أن يستخدم يده ليغرزني في أرض الرذيلة!

ولكن خارت قواي وبدأت أتعب، فمن شدة الخوف وآلام
الضرب وإحساسي المكتوم تعبت، سقطت بين يديه، لم يعد هنالك
صوت أطلب به النجدة، ولم تعد هناك قوة أدافع بها عن نفسي
المسكينة!

هناك أغتيلت الطفلة، وماتت الأم بداخلي. انتهى وقضى ما كان
يريد وذهب، وأنا ماذا أفعل، حملتُ ألمي وهمي، لم أناقش صديقتي
لأنني أنا من وضع نفسه في هذا الموضوع، وهذا ما كنت أبحث عنه!

عدت للبيت بكل حزن، دخلت لغرفتي، وما إن أغلقت بابها
عليّ سقطت، انهزت، كرهت نفسي، بكيتُ حتى جفت الدموع، ومع
مرارة بكائي إلا أن هناك صرخات تأتي من أعماقي تؤنسني، لم أعرف
ما هي ولكنها طمأننتني.

نمت وصحوت في اليوم الثاني وأنا لست الطفلة، تغيرت حياتي
تماماً!!

دخلت في عالم الوحدة الحقيقي والاكئاب والحالات النفسية
السيئة، وحالات الانتحار المتكررة إلى أن كتب الله هدايتي. بعد هذا

كله استمررت أخطب بين الماضي والحاضر والمستقبل الذي كنت أحاول أن أرسم طريقه، ورغم تحقيق الكثير من الأهداف والأحلام إلا أنني لم أكن أشعر بتلك السعادة التي أبحث عنها لأنني قد قُيّدت بالماضي.

حاولت الخلاص منه بالكثير من الطرق والحمد لله، خفَّ خوفي من الماضي و ألمه الذي عذبني».

أيها الإخوة:

وهكذا أغلقت هذه الفتاة الستارَ عن آخر فصل درامي حقيقي في نفس الوقت. فصلٌ ولا كلُّ فصول حياتها السابقة. فصلٌ إن لم تتداركها فيه العناية والرحمة، فستبقى زهرةً ذابلةً إلى أن تموت!

أنا أعلم أيها الإخوة أنَّ هناك مئات، بل آلاف القصص الشبيهة بذلك. تزدادُ يوماً بعد يوم، في كل مدينة، بل في كل حي!

وأعلمُ يقيناً كذلك أن أيادي المصلحين لم تكفَّ عن الكتابة والتذكير، وأن الصيحات العالية لم تقف عن النصيحة والتوجيه، حتى كلَّت الأفلام، وملَّت الألسنة، ولا يزال الفساد يستشري والمشكلة تتوسع، وبصورٍ إبداعية متطورة! وما أظنُّ إلا بيوت القلائل من المسلمين والتي ما دخلتها قنوات التحرر، واستجلاب الهوى، ومجالس الفسق!

لنكن الآن أكثر واقعية أيها الإخوة، ولننش همَّ الفتاة اليوم. فهي إما أختك أو ابنتك أو قريبتك أو هي على الأقل من بنات المسلمين... أليست جزءاً من المجتمع؟

أما هم الفتاة الأول فهو: ضعف التربية الأسرية الصحيحة في واقع اليوم:

إن هذه الفتاة وأمثالها لم يسمعوا من يوعيههم بوضوح لما عليه شباب اليوم، لا يكفي أن نقول للفتاة: أنت جوهرة مصونة، وأنت درة مكنونة. هذا طيب وجميل، ولكن هذا الكلام يقوله لها الشاب الغرُّ بشكل أجمل وبعبارات أرق!

لا بدّ أن يتحدث الأب الحصيف والأم الواعية والأخ النبیه مع الفتاة بطريقة واعية بصيرة، لا تجرّح ولا تُسيء الظن، ولا تضخّم الأمر، ولا توضّح الطريقة، بل توعيةً رشيدةً بطريقة القصة، أو المحاورّة عن الحال الدراسي والواقع المدرسي وأمثال ذلك.

يجب أن تُوعى الفتاة المسكينة بخطورة سوءات الحرام، ولحظات الغفلة، ويُقال لها في الوقت المناسب: الذئب يريد منك أعز شيء عليك: عفافك الذي به تتشرفين، وبه تفخرين، وبه تعيشين، وحياة البنت التي فجّعها الشاب بعفافها، أشد عليه بمائة مرة من الموت على النعجة التي فجّعها الذئب بلحمها... إي والله، ما رأى شاب فتاةً إلا جرّدها بخياله من ثيابها ثم تصوّرها بلا شيء!

ولا تصدّقي ما يقوله بعض الشباب، من أنهم لا يريدون في البنت إلا خلقها وأدبها، وأنهم يكلمونها كلام الرفيق، ويودّونها ودّ الصديق، كذبٌ والله، ولو سمعت أحاديث الشباب في خلواتهم لسمعت هولاً مرعباً، وما يبتسم لك الشاب بسمه، ولا يلين لك كلمة، ولا يُقدّم لك خدمةً إلا وهي عنده تمهيدٌ لما يريد... فكري، لو حصل الخطأ وحلّ العار، يغفر المجتمعُ الظالم للشاب ويقول له:

شابُّ ضلَّ الطريقَ ثم تاب، وتبقين أنتِ في حمأة الخزي والعار طول الحياة، ولا يغفرُ لك المجتمع ولا ينسى ذلك أبداً.

لو أنك زويتِ بصرك، وأريتِ كلَّ من أبصرَكَ الحزم والإعراض لما تجرَّأ فاجرٌ على ذاتِ سوار، ولجاءك إن كان صالحاً تائباً مستغفراً، يسأل الصلة بالحلال.

هكذا يجب أن نقول الحقيقة بقلبها المناسب الصحيح للفتاة، وأن نحذِّر الفتاة ممن يقول لها: هناك شباب غير، فباب الفضيلة واحد!

وأما هم الفتاة الثاني فهو: أنها لا تحاور:

من أعظم المشكلات في مجتمعنا وللأسف أن فتياتنا لا يُحاورن ولا يُتحدث معهن حديثاً لطيفاً رقيقاً، حديثاً يُراعي مشاعر الأنثى، ويُشاورها في جوانب متعددة في حياتها، وأن يُسمح لها بإبداء رأيها، وسماع اعتراضها في شؤونها التي لها الحقُّ فيها، كاختيار تخصصها الدراسي، ولون غرفتها، وشخصية من تقدّم لاختيارها. فلها حق الرأي والاعتراض، وليس هذا عيباً ولا عاراً!

لقد اعترضت امرأة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فاعترف بخطئه وقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر. ونحن ندمر باسم القوامة والرجولة كلَّ رأيٍ أو تعبيرٍ من حق الفتاة أن تعبّر عنه.

إن المنهج العُمري رحلَ إلى بريطانيا ليقولَ رئيس بلدية لندن «كين لفنجستون» لوسائل الإعلام في يوم زيارة الرئيس الأمريكي لبريطانيا في وجهه: «إنَّ لندن اليوم تستقبل أخطر رجل على أمن

وسلام العالم، لم تصادف البشرية مثله قط». قال ذلك بدون أن يثير هذا التصريح والرأي غضب الملكة ولم يُعزل من منصبه.

اعترف نيابةً عن كثير من الفتيات أن هناك ديكتاتوريةً في قرارات الفتاة في البيت والذي هو من كامل حقها، وأنا قطعاً لا أقصد كل بيوت المسلمين.

إن مصادرة الرأي، وعدم السماح لها بالكلام والحوار، يفتح الفرصة للأوغاد في عالم الفضائيات الواسع، والرأي والرأي الآخر، وللنساء فقط، في عالم الإنترنت، والصحف والمجلات، والأندية النسائية، الذين يحاورون الفتاة ويدللونها ويعطوها قيمتها الإنسانية والمغلّفة بمطالبهم المعروفة. إن حوار الفتاة بالأسلوب الإنساني الإسلامي الراقي أمر مهم.

ولا يعني هذا أبداً فتح الباب لكل ما تحلم به من غير وعي أو خبرة أو عُرْف أو منهج شرعي.

وعصر اليوم يطالب الأم الواعية بشكل كبير أن تشارك ابنتها وتقف معها، وتُضحى ببعض وأحياناً بكثير من وقتها لصالح ابنتها، كما يجب على الأب أن يعين زوجته وأم عياله لتؤدي رسالتها مع بناتها، وأن يشيع الحنان في البيت، ليتم احتضان الفتاة، ويجعل وجهتها وغاياتها وحلمها لا يخرج عن مشورة أهلها.

ومما يجب التنبيه عليه، أنه ثبت بالتجارب العلمية أن الوالدان اللذان يتعاملان مع الفتاة بحسن التوجيه، والصبر على ذلك، دون الصياح أو الضرب، يعود أثره الإيجابي عليهما قبلها هي. وكلما كان

الراقي في التعامل والتفنن في النصيح والتوجيه الجيد كلما سهل الطريق مستقبلاً للفتاة حتى تخرج لبيت زوجها وهي أم متميزة بإذن الله.

على أن عامة الفتيات تغلب عليهن العاطفة والحياء والخجل، وهذا أسهل في التربية الأسرية الداخلية الراقية الصحيحة، إذا استخدمت الحكمة مع التنبيه والضبط المعقول.

الهم الثالث من هموم الفتاة: إهمال مشاركتها المحاضن التربوية:

إن عصر اليوم عصر مفتوح، تتعلم فيه الفتاة العصرية ما لا يتوقع، فإغلاق الباب للتعلم وشغل الفكر والوقت بالمفيد أمر خطير، وفتح الباب دون انضباط أخطر بكثير.

والمتابع لما يجري بين الفتيات في المدارس والجامعات، أو في المحافل العامة أو عبر الإنترنت، يجعلنا أكثر وعياً وإدراكاً لأحاسيس وتوجهات الفتاة.

وينبغي أن ندرك أن حسن توجيه الفتاة للمحاضن التربوية المفيدة، كحلقات القرآن الكريم، والمراكز النسائية المفيدة، والتي يديرها مشرفات موثوقات بتوجيهن الديني العظيم، وحسن تعاملهن.

أو إشراكهن في مراكز التعليم اللاصفية الموثوقة: كمراكز الكمبيوتر واللغة الإنجليزية وأمثالها، مع المتابعة الجيدة، والسؤال والتشجيع، كل ذلك كفيلاً بإذن الله بإعداد فتاة صالحة في نفسها، معينة لأهلها، نافعة لمجتمعها وبنات جنسها، وليس مجرد الطيبة في نفسها.

وفي هذه المراكز والمجالس الموثوقة، تتوزع الطاقة، وتستمد

الفتاة عافيتها، وتتلقى الخبرة الصحيحة، وتتمتع فيها بالأنشطة الترفيهية والمسلية التي تراعي أنوثتها.

وبهذا التنوع الثقافي والاجتماعي والتربوي والترفيهي المناسب، تُحتضن الفتاة، وتكون الأسرة هي اللبنة الأولى والأخيرة للإشراف الراقى والتوجيهي للفتاة. ليتجدد لنا جيل فتيات ونساء الإسلام المتميزات، والأمهات المربيات، والقدوات الصالحات.





بيوت هدمها الجوال

تنبيه مهم، وتحذير خطير، قبل أن أصرح بأي كلمة... أرجو أن لا يفهم من كلامي بعد قليل أن يشك أحد في نفسه، أو يشك في زوجته، أو يشك في أبنائه، أو يشك في بناته، أو يشك في جيرانه، أو يشك في إخوانه، أو يشك في أصحابه، أو يشك في أقربائه... أرجو أن لا يفهم هذا الظن.

سأتحدث معكم الآن عن قصص وأخبار حدثت في واقعنا، لم أقرأها في كتاب، ولم تتناقلها المجالس، ولم أنظرها في صحيفة، ولم أسمعها من إذاعة، بل هي أخبار وقصص، أو هي حوادث ومشكلات عرفت بها بنفسني من خلال معايشة أصحابها، والوقوف عند كل فصل فيها...

منها ما كان بيدي - بعد توفيق الله - حله، ومنها ما استسلمت له ولم أستطع حله لعوامل وملابسات متعددة.

أرجوكم أن تتنبهوا لهذه القصص أو الحوادث أو سموها ما شئتم... المهم، تأملوا كل ما سأقوله لكم.

أما القصة الأولى فكانت في شهر رمضان الفائت، أي: قبل شهر

ونصف تقريباً. جاءني أب كريم، ورجل خلوق، تقطر منه دموع الحياء، وتعلوه سحب الكآبة، وتغشى محياه علائم الحزن، يُقدّم كلمة ويؤخر أخرى... لا يدري هل هو في حقيقة أم في خيال.

إنه أب ابنة صغيرة جميلة. كما أنه يرقب مولوده الصغير في الأيام القليلة الباقية. متزوج من فتاة طيبة خلوقة محترمة، ومن عائلة فاضلة معروفة. عاش في أكناف هذا البيت سنين مباركة، مع زوجة محموددة الخصال. رجع إلى بيته بعد صلاة التراويح، مازح أهله وابنته الصغيرة، ووقف مع العامل في بيته لإصلاح بعض الأشياء. ثم مع التعب خلد إلى فراشه ونام. بعد ساعة تقريباً أحسّ بالعطش، فقام من فراشه ليشرب، فوجد ابنته الصغيرة في صالة البيت لوحدها مع لعبها المبعثرة حولها، استنكر أين أمها الحبيبة الحنونة عنها؟ لعلها تتوضأ، ربما، أو غلبها النوم والتعب فنامت، لأنها كانت تعد الإفطار والعشاء، ربما. أخذ يبحث عنها، سمع صوتاً غريباً، اتجه إلى غرفة الضيوف فوجد أم ابنته وزوجته الحنون، الرحيمة، الجميلة، الخلوقة، المؤدبة، الحبيبة، وجدها مع شاب آخر! نعم في بيته، ومن غير إذنه! ولا تسألوني ماذا حدث بعد ذلك من قول أو فعل؟ أو سب أو ضرب؟ خرج هذا الشاب السفیه المجرم من البيت. وبدأت فصول القهر والحزن والألم التي لن تنسيها الأيام.

ما الذي جرى لهذه الأم؟

هل سُحرت؟ هل أصيبت بعين؟ هل هناك سر قديم بينها وبين ذاك الشاب؟ هل هناك...؟ هل هناك؟ أسئلة حائرة.

أما الزوج فقد تحطّم، وفقد توازنه أياماً، وحُق له ذلك. وأما المرأة فذهبت إلى المطبخ مراراً لتأخذ سكيناً حادة وتقتل نفسها،

وتنسى هذه الحياة كلها، تنسى حتى ابنتها الصغيرة الجميلة! تدارك الزوج الموقف، وهذا من المشكلة التي قد تؤدي بحياة زوجته، وربما حياة ذلك الشاب الغافل.

فكر الزوج بقتله، وليكن ما يكون، أما قلت لكم: إنه فقد شيئاً من توازنه. مرت الأيام، والسؤال الذي يهمني الآن. كيف حدثت هذه المشكلة؟ صدقوني ستستغربون، كما استغربت أنا، وستعجبون كما تعجبت أنا.

أما البداية، فإن هذا الشاب الغافل المجرم اتصل على رقم هذه الأم بالجوال، وكان يرسل رسائل بريدية. وعرف الرقم عن طريق أخواته صديقات هذه الأم الشابة. فرأت الزوجة الرسائل البريدية، فقالت: لعلها من معاكس، يرسل رسائل هوجاء. فلم تلق لها بالاً، ولم تبلغ زوجها الحبيب حتى لا تشغل باله، ويتصرف بشيء لا تحمد عقباه، والأمر في ظنها يسير، أن لا ترد عليه!

واتصالاً تلو اتصال، ورسالة تلو رسالة... إلى أن أقلقها الحال. والأم كما تعرفون تمر بحالات ضعف وتعب شديد، وتقلب فطري طبيعي. وفي لحظة قرار خاطئ، وغفلة يمكن أن تمر على كثير من الفتيات ولو كن أمهات، ردّت عليه وأسمعته كلاماً مزعجاً. وأفصح لها عن نيته الحسنة، ومحبه العاطفية. وهكذا مرّت الأيام، وتوالت الرسائل، والزوجة لا تبلغ زوجها حباً وحناناً. إلى أن صادف عندها لحظة غفلة، وضيق نفس، فردت مرة ثانية. ورأى الوحش الكاسر أن يرسل رسالة، فردّت عليه، وأبلغها أنه بالباب ليسلم عليها، وهي تدرك أن زوجها وحبيبها في البيت. فمع ضغط الهوى، وتزاحم الخيال الفاتن، فتحت الباب لتكلمه أن لا يأتي مرة أخرى! وتجمّل الكلام،

وصار السلام، فمن عند عتبة الباب إلى داخل البيت. ومتى؟ في وقت النزول الإلهي في جنح الليل، وفي شهر رمضان المبارك. فإنا لله وإنا إليه راجعون. وصدق الرسول الكريم ﷺ إذ قال: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(١).

أيعقل أن تكون هذه المرأة العفيفة الخلوقة المحترمة ومن بيت الأكرمين تفعل هذا؟ وبجوارها ابنتها الصغيرة وفي ثلث الليل الآخر، وفي شهر رمضان، وزوجها الحبيب الحنون موجود؟ أيعقل كل هذا؟ أيمكن أن تستولي الغفلة والهوى إلى هذا الحد؟ ثم أيعقل أن توجد ذئاب بشرية تفعل هذا والناس في بيوتهم وبحضرة أهليهم وأزواجهم؟ ولكن، لا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذه قصة ثانية في شهر رمضان المبارك قبل شهر ونصف أيضاً، بعد صلاة العصر في هذا المسجد اتجهت إلى بيتي، وبجوار المسجد رأيت فتاة تسير على قدميها ويبدو أنها تتريض وتتحرك. فمر بها شابان في سيارة يكلمانها ولا تلتفت إليهما، فلما اقتربت منهم، ذهبوا. فَشَكَّكْتُ في أمرهم، فعدت مرة أخرى، فوجدت واحداً منهما نزل من السيارة واقترب منها، إما ليفتنها أكثر، أو ليمسكها بالقوة! وأين؟ في شارع عام تتحرك فيه السيارات! وبمجرد أن رأيته أكتب لوحة السيارة هرب بسرعة، وتربصتُ إلى أن تيقنت ذهابهما إلى غير رجعة.

هذه القصة متى حصلت؟ في شهر رمضان. وأين؟ في شارع عام، وبعد صلاة العصر، وبجوار بيت الله!

وهذه قصة الثالثة... لشاب فاضل مسكين يحفظ القرآن، ومن

(١) أخرجه البخاري (٥٢٣/٦) من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه.

عائلة محافظة على الدين ذكوراً وإناثاً. كل من في البيت على خلق ودين، الأب والأم، والأبناء والبنات. جاءني هذا الشاب مطأطئ الرأس، وجلاً خائفاً. إذ ناداه أحد الشباب من الجيران. فقال له: انتبه لأختك. فقال: ماذا تقصد؟ قال: أختك تخرج من سيارة أحد الشباب المعروفين في فترة ما بين المغرب والعشاء، حين لا توجد أنت ولا والدك ولا إخوانك. ولما تأكد هذا الشاب من بعض المواقف والشواهد ومنها وجود جوال مع أخته، ليس لها وهي تقول: إنه لصاحبته نسيته عندها، علماً أنه بقي معها أياماً وليالي! جُنَّ جنون هذا الشاب. فالبت محافظة على الدين والخلق، والبيت كله محافظ ومراقب أيضاً نوعاً ما. ولكن كيف حدث هذا؟ من أين لها بالجوال؟ من هذا الشاب الفاجر الذي تركب معه؟ وكيف فعلت وهي حية لا تتكلم طول الوقت؟ وليس هناك في البيت من يضايقها أو يكبت حريتها؟

إذن ما الذي جرى؟ وكيف يحدث هذا وأمثاله؟

وعندما صارح الولد أمه أولاً لتتأكد، أنكرت الأم أن يكون هذا من ابنتها. ولم ترد أن يكمل ولدها أي حديث.

أيها الإخوة... صدقوني إنني على علم ويقين أن كل واحد منكم قد عاش وسمع عن عشرات القصص الواقعية الشبيهة بما قلته الآن، والتي لا يمكن أن تخطر على عقل، ولا يتصورها إنسان.

ولو نقلت لكم بعض الرسائل الخاصة التي أرسلت إليّ - وبعضها لقيته على زجاج سيارتي! - لسمعتكم قصصاً تدمي القلوب عن أزواج وشباب قادتهم صفحات الإنترنت وغيرها إلى أعمالٍ تبأها الفطرة وينكرها الدين، ولكان الموت أهون على أحدكم من سماع أمثال هذه الكوارث.

هل تظنون أن هذه القصص حدثت لأناس مهملين، غير محافظين أو غير مراقبين بشكل جيد؟ صدقوني لا.

أو هل تظنون أن السبب هو في سوء المعاملة، والقسوة التي قد يجدها هؤلاء في البيت فاضطرتهم إلى هذا الفعل؟ صدقوني أيضاً لا.

إذن هل تظنون أن هذه القصص أو الحوادث بعيدة عن طريقة تفكيرنا وتربيتنا، وأنها لا يمكن أن تتسلل إلى أسرنا عافانا الله وإياكم؟ صدقوني أيضاً لا. بل يمكن أن تكون هي المداخل نفسها لبيوتنا!

إن هؤلاء الذين عاشوا هذه المشكلات وما زالوا في خضمها لم يكن أحدهم منهم يتخيل ولو مجرد خيال، أو يظن ولو مجرد ظن بنسبة ١٪ أو ٢٪، أن يكون أهله أو زوجه، أو ابنه، أو ابنته، أو قريبه يحدث منهم هذا. كلهم يقولون: ربينا أحسن تربية، وأنفقنا أموالاً كثيرة، راقبنا بقدر ما نستطيع، أحطناهم بجو طيب من الجيران والأصحاب والأقرباء. أتينا لهم بوسائل الترفيه المقبولة. حاولنا أن نمشيهم، أن نسلّيهم. لم نقصر يوماً واحداً في خدمتهم. إذن لماذا يفضحوننا؟! لماذا يعملون هذا؟! لماذا؟!

ليس المجال الآن للمعاتبة واللوم. الوقت قصير، والمشكلة كبيرة وخطيرة. وهي كالفيروس يريد أن يفتح كل بيت وبدون استئذان. ولو كان في البيت أتقياء ومصلون. نعم، لا أريد أن أدعو للخوف والقلق، ولكن لا أريد أن أضحك على نفسي وعليكم، لئلا يحصل لنا ما حصل لهؤلاء الذين كانوا يقولون لأنفسهم يوماً هذا الكلام. إن حديثي متوجه للبيوت المحافظة، للأسر النظيفة الشريفة. أما البيوت التي سمحت لأولادها أن يذهبوا مع السائقين والغادين والرائحين، أما البيوت التي أذنت لأولادها أن يسافروا للشرق والغرب في رمضان

فضلاً عن غيره للتنزه والتمتع دون رقابة. أما البيوت التي ظنت أنها تمتعت أبناءها فجعلت لكل واحد منهم في غرفته جهاز دس وإنترنت، ومجلساً خاصاً له ولأصحابه، فهؤلاء - وإن كان لهم حق علينا - فإن الحديث لهم يطول ويطول. إنما أركز الآن على البيوت الحريصة على العفاف والحياء، وعلى أن يكون الدين والخلق هو رمز الأسرة، هو شرف البيت، هو زينة المنزل.

إلى هؤلاء، إلى الآباء، إلى الأمهات، إلى المربين، أناشدهم الله أن يتنبهوا، أن يتحركوا، أن يفكروا، أن يجدوا، أناشدهم الله والإخوة... أن يستيقظوا، وأن لا يتكلوا، وأن لا يغيبوا عن الواقع، وأن لا يبالغوا في حسن الظن والثقة الزائدة في من حولهم، فالدنيا في هذه الأيام دنيا فتن.

أسأل الله أن يحفظني وإياكم والمسلمين من كل سوء وفتنة. قد نتساءل جميعاً ما هي الأسباب التي أدت إلى هذه الحوادث والمشكلات؟ وكيف نستطيع أن نحافظ على أنفسنا وأبنائنا وأهلينا؟

وأقول: إن محاولات الإفساد تسير في خطوط متشابكة، فهناك خط للفساد الدولي الرسمي، كما حدث في أحد الدول الإسلامية والعربية العريقة، لما أصر المفتي على تحريم مسابقات القمار التي يُعرض فيها الفن الرخيص، والفلكلور، والرقص، والخمور، قررت الدولة تنحية هذا المفتي العالم الجليل، ووضع إنسان آخر لا يفقه كثيراً من أمور الشريعة، كي يجيب أمته المسلمة كما يريد نظام الدولة!

إذن هناك سعي للفساد على المستوى الدولي، يعتبر من عوامل وأسباب الانحراف.

ومن العوامل: هذه الفضائيات المنتشرة في جو السماء. هل تعلمون أن ٦٠ ٪ من ميزانية هذه القنوات، تنفق في شهر رمضان تحديداً؟ وأنه خلال هذا الشهر الفضيل عُرض أكثر من «٣٥٠» عمل درامي، و«١٠٧» مسابقات مفتوحة في عشر قنوات عربية؟!

إذا كانت هذه الأعمال في شهر الرحمة والمغفرة والتوبة، وفي فترة تصفيد الشياطين، فكيف ببقية الشهور؟ وصدق الله إذ قال: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٩).^(١)

إن عدم المراقبة لبرامج هذه القنوات، وجعل بعض الأجهزة في غرف الأبناء سبب من أسباب الانحراف.

ومن الأسباب، ثالثاً: السهرات الليلية، خاصة في الأماكن المفتوحة، عند الشواطئ المختلطة، أو الأسواق غير المنضبطة، أو البيوت التي يجتمع فيها الشباب أو الشابات ولا يذكر فيها الله ولا رسوله، فتكون ترة وحسرة على أصحابها.

ومن الأسباب، رابعاً: المعاكسون الذين لا يهتمهم إلا نزواتهم. وللأسف هؤلاء الأولاد المعاكسون أولاد مَنْ؟ أبناء مَنْ؟ خرجوا من أين؟ إنهم لربما - لا سمح الله - أبنائى وأبناؤك وأبناء فلان وفلان ! تركناهم يخرجون في جنح الليل، ونحن نعلم حالهم، ولم نقل لهم سوى: «إنا لله وإنا إليه راجعون» فلم يسمعوا منا كثيراً، فكان ما كان.

ومن الأسباب، خامساً: سوء المعاملة للأبناء والأزواج، وافتقار الحنان، والقسوة في معالجة الأخطاء، وعدم مراعاة الأمور والحالات النفسية التي يمر بها هؤلاء. لقد جاء الشاب المتوقد شهوة يستأذن

(١) الأنعام: الآية: (٣٩).

النبي ﷺ في الزنى! إنه أستأذن لأمر خطير، مع مصارحة عجيبة غريبة. ومع هذا، كان التفاهم والحوار وبيان الصواب، وتقدير المشاعر لمثل هذه السن. ولا أظن أولادنا يطلبون مثل هذا الأمر. إنما قد تكون مطالبهم سيارة، أو جوالاً، أو جهاز إنترنت، أو فضائيات، أو سفراً. المهم هو طلب، ويحتاج إلى مداراة وصبر. فالتربية ليست نفساً واحداً. بل هي أنفاس متوقدة أياماً وليالي، حتى يفرج الله الأمر!

أيها الإخوة، أيها الآباء، أيتها الأمهات، أيها المرربون، أيها الدعاة، أيها الأساتذة... انزلوا لمستوى أبنائكم وتلاميذكم، عايشوهم، جالسوهم، حاوروهم، حسسوهم أنكم معهم، ادعوا لهم، وجهوهم.

أنبه أخيراً إلى هذه الأمور المهمة:

- أرجو أن تنبهوا وتثبثوا أمام أي قضية تذكر لكم عن أهليكم أو أولادكم. وإذا تأكدتم من فعل خطأ أحدهم، حاولوا أن تحلوا الخطأ بالحكمة والهدوء، وأن لا تصنعوا من المشكلة مشكلة أكبر منها. وإياكم وفضح الأسرار، وهتك الحرمات، واللمز بالخطأ. فهذا تدمير، وقطع للطريق بأيسر أسلوب.

- عدم إساءة الظن بكل فعل أو قول غير مقصود.

- المراقبة الجادة لأصحاب الأهل والجيران بالطريقة المناسبة.

- تأملوا الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥]، إياكم والتساهل بوضع الجوالات في أيدي الصغار، والسماح لهم بكثرة الاتصالات، وإرسال الرسائل البريدية، والخوض في غمار عالم الإنترنت بلا مراقبة. تأكدوا من وضع الأبناء في المدارس.

● تنبهوا للبنات في ذهابهن وإيابهن من المدارس، تنبهوا للبنات في المدارس. لا يقل أحدكم: إنني مشغول بعمل، وأولادي بالمدارس، والبنات إن شاء الله يسيرون مع بنات مثلهن طيبات من الجيران أو الأقرباء. بل تأكدوا، واسألوا، وراقبوا، وهذا معنى: «كلكم مسؤول عن رعيته».

● أقيموا شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل في نطاقه، ولا تكونوا سلبيين، وإياكم أن يكون دوركم دور المتفرج فقط.

أخيراً لا يفهم من كلامي أن يشك أحد في أهله أو أولاده أو أقربائه. إنما الذي أدعو إليه ما قاله ربي جلّ جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

إن سنن الله عزّ وجلّ تأبى أن تترك المجرمين من غير قصاص، فماذا ينتظر المقصرون؟

الحقيقة في القرآن تقول: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، إنها الذنوب ما ظهرت في ديار إلا أهلكتها، ولا تمكنت من قلوب إلا أعمتها، ولا فشت في أمة إلا أذلّتها، فلا تفارقها حتى تدعها في ضياع.

بالمعاصي يهون العبد على ربه فيرفع الله مهابته من قلوب خلقه ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

يقول الحسن البصري: «هانوا على الله فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم».

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن عبدالرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: لما فتحت قبرص رأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي.

فقلت: يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير، ما أهون الخلق على الله إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى.

يا أحابي الشباب... بالذنوب والآثام يكون الهم، والحزن، والعقد النفسية. إنها مصدر العجز والكسل، وسبب البطالة، ومنها الجبن، والبخل، وغلبة الدين، وقهر الرجال.

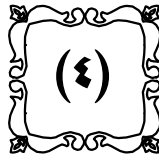
وبها تزول النعم، وتحل النقم، وتتحول العافية، ويستجلب سخط الله، ويعامل صاحبها بالمثل في خاصة نفسه وأهله إلا أن يشاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. وإذا ابتلي العبد بالمعاصي استوحش قلبه، وضعفت بأهل الخير والصلاح صلته، وجفاه الصالحون من أهله وأقاربه. ومن قارف المعاصي ولازمها تولد في قلبه الاستئناس بها وقبولها. فأدت إلى الجراحات «ورب جرح وقع في مقتل»!

احذروا الحرمات، واتقوا الله في أخواتكن، واعلموا أن الله لا يخفى عليه شيء، والجزاء من جنس العمل، والله يغار على دينه وحرماته.

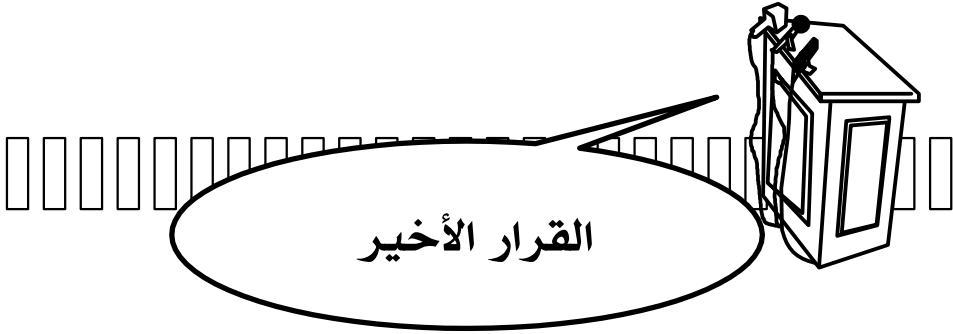
نسأل الله أن يعصمنا وإياكم من الزلل، وأن يستر علينا وعلى المسلمين، وأن يزين الإيمان في قلوبنا وقلوب شبابنا وفتياتنا وأهلينا، وأن يكره إلينا جميعاً الكفر والفسوق والعصيان، وأن يجعلنا من الراشدين. اللهم آمين.







في شؤون التربية والإيمانيات



«القرار الأخير»: هو القرار الذي حير الناس، حير العظماء والوجهاء، والأصدقاء والأعداء، «القرار الأخير» هو القرار الذي أذهل العقول، وشغل النفوس.

«القرار الأخير»: عنوان حديث اليوم.

أيها الأخ... .

سل نفسك: ما هي أهم القضايا التي تواجهها في حياتك؟

هل أحسست يوماً أنك تعيش حياة المعاناة والتعب؟

هل جربت يوماً أن تعيش حياة التردد والتشتت فلا تدري إلى أين

تتجه؟

هل ذقت يوماً طعم الطاعة عندما هربت من جو المعصية

المكهرب إلى جو الطاعة المريح؟

وهل ذقت مرارة الألم بعد أن غلبتك شهوتك، فخضت في بحر

لجي مظلم، فزاد همك وغمك، واضطربت نفسك؟

هل وقفت مرّة وقد تراحمت عليك الأعمال، وتداخلت عندك

الأفهام، فلا تدري أنت على صواب أم خطأ؟

هل جلست مع نفسك ساعة وأنت تتأمل في قول قلته، أو عمل عملته، أو قرار اتخذته، ثم رأيت أنه كان قراراً خطيراً، وتصرفاً خاطئاً، وتفكيراً سريعاً، أدى بك إلى مشكلة أو ورطة؟

هل قاومت نفسك أياماً بل أسابيع، وأنت تتمايل، هل تقوم إلى صلاة الفجر والعصر، أم تكمل رحلة النوم؟

هل استفزك أخ لك أو صديق أو قريب أو أب أو أم فبادرت باللفظ الأسوأ لا الأحسن، وبالمعاملة الغليظة لا الحسنة، فندمت على ما فعلت وقلت؟

إنها لحظات صعبة وحرجة وقلقة ومصيرية... نعم لحظات مصيرية يمكن أن تكون باب مفتاح سعادة دائمة، أو باب شقاوة أبدية.

«القرار الأخير»: هو الكلمة، هو الفعل، هو التوجه الذي تختاره لنفسك في أمر من أمور الحياة، فتكون نتيجته سعادة أو عناء.

«القرار الأخير»: قد تكون معه آهات، ودموعات، وقد تكون معه أفراح ومسرات، قد يستجلب الحسنيات وقد يستتبع السيئات، قد تكون معه غفلات أو تطورات، وقد تكون معه استشارات أو قناعات فردية ومعانداً...

«القرار الأخير»: قد يستجلب الشيب ولكنه يجعل الحياة شباباً، وقد يدمع العين ولكنه يفرح الإنسان زماناً، وقد يقلق النفس ولكنه يسعدها أوقاتاً...

قد يكون قراراً قوياً صارماً، فإذا السعادة والراحة والأمان والاطمئنان والنصر والثقة والثبات والقوة والبطولة والجمال واللذة والسداد.

وقد يكون قراراً هزليلاً خاطئاً، فإذا السقوط والهلاك والشتات والضياع والدمار والفساد والفوضى والقلق والاكتئاب.

«القرار الأخير»: إنني أعلم يقيناً أن كل واحد منكم قد مرّ به، في لحظة من لحظاته، أو وقفة من وقفاته، وأنّ كل واحدٍ منكم قد أحسّ بأثره، بنتيجته، بعاقبته.

«القرار الأخير»: قد يسعد فرداً وأمةً، ويعلي حقاً ورايةً. وقد يدمر فرداً ويهلك أمةً، ويضيع شعباً ويسلب حقاً.

«القرار الأخير»: عاشه الأنبياء والمرسلون، والصالحون الصادقون، كما عاشه المنافقون والمنخذلون، والحمقى والمحرومون...

«القرار الأخير»: عاشه أبو الأنبياء، آدم عليه السلام، عندما أمره ربه أن لا يأكل من الشجرة، ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ (١١٩) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّكِدُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ [طه: ١١٨ - ١٢٠].

لقد أغواه الشيطان، وأنساه عهد ربه، ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (١١٥) [طه: ١١٥]. واسمعوا إلى ألم القرار الأخير الخطير: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]. إنه نبي كريم، عظيم جليل، ومع ذلك كان قراره الأخير خاطئاً، فأهبط من الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. أهبط من جنات ونهر عند ملكٍ مقتدر، أهبط إلى الأرض تائباً نادماً متلقياً من ربه كلمات التوبة فتاب الله عليه. ألم تكن قصةً في القرآن تتلى إلى

اليوم، هل هي للحكاية فقط، أم للتأمل، ألم تكن في نبي من الأنبياء، ذكر باسمه وكامل قصته؟

هل تتخيل أيها الأخ معي هذا؟ هل تتخيل أن اسم آدم ذكر في القرآن، وأنه عصى الله، وأنه غوى، وأن الشيطان استدرجه إلى المعصية؟

ونقرأ نحن إلى اليوم هذه القصة المحزنة، بسبب قرار آدم عليه السلام أن يأكل من الشجرة.

يا ترى هل يمكن أن تتخيل الآن أنك مكانه؟ وأنت تذكر باسمك في الصحف، والمجلات، والفضائيات، والإعلانات بأنك أخطأت ذات يوم، واتخذت قراراً خاطئاً في حق ربك؟

هل يمكنك أن تتخيل بأن الناس جميعاً يعرفونك ويعرفون اسمك على أنك صاحب القرار الخاطئ، والمعصية التي استزلك بها الشيطان؟

هذه هي قصة أبيك آدم عليه السلام لتعتبر وتتعظ، وتنظر في قراراتك.

«القرار الأخير»: اتخذ إبراهيم عليه السلام - خليل الله - عندما جاءه الشيطان ليفتنه، ووسوس له في ذبح ابنه، فتمثل له ثلاث مرات في الطريق ليصدّه عما أراد، ورماه إبراهيم بالحصى في ثلاثة مواضع متتالية ليعلن له أن لا حوار ولا نقاش ولا تفاهم مع الشيطان. هو قرار واحد. الاستجابة لأمر الله ولو كان ذبح ابني.

«القرار الأخير»: عاشه يونس عليه السلام لما أمره الله أن يبقى مع قومه، ولكنه وجد منهم إعراضاً واستكباراً، فترك دعوتهم وخرج

من بين أيديهم، وظنَّ أن لن يضيق الله عليه. اتخذ القرار وخرج، فكان أن ابتلاه الله على هذا القرار، فركب في السفينة مع القوم، ورمي في البحر عن طريق القرعة، ودخل في ظلمات ثلاث: ظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة الحوت، فلما وصل إلى قاع البحر سمع تسبيح الحصى في القاع فتذكر نعمة ربه وفضله عليه فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. إنه نبيٍّ ومع ذلك يقول: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. لقد أحس بنتيجة قراره، وأحس بتقصير شديد وهو نبي كريم.

«القرار الأخير»: اتخذهُ نبينا محمد ﷺ، بعدما وجد العذاب والمعاناة، والألم والقسوة، والفجور والظلم، بعد أن رمي سلا الجزور على ظهره، وأدميت قدمه، وسب في وجهه، وتفل عليه، بعد أن مزقت أجساد أصحابه، فقليل له: يا محمد، إن أردت ملكاً ملكناك على العرب، وإن كنت تريد زوجة زوجناك أجمل نساءنا، وإن كنت تريد مالاً أعطيناك من خير أموالنا. ساوموه، حاوروه، ناقشوه، عرضوا الدنيا كلها التي يملكون فقال في قراره الأخير: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته»^(١).

«القرار الأخير»: اتخذهُ بلال رضي الله عنه وهو يتلوى على صحراء مكة، مشدوداً من رجله ورأسه، مكبلاً بالحديد، مقيداً، عاري الجسم أمام حرارة الشمس، اجتمع عليه الرفس والضرب والإهانة والشتم، ووضعت الصخرة على صدره، ورفع أبو جهل قدمه فوضعها

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق (١/١٣٥) وسيرة ابن هشام (٢/١٠١).

على وجهه. ساوموه على الدين، على الثبات، على صحبة محمد عليه السلام... وهو ينادي: أحد أحد.

«القرار الأخير»: لا رجعة فيه، أحدٌ أحد، رآه ورقة وهو يتلظى ويتلوى، أراد أن يغير من قراره فقال: أحد أحد، فدمعت عينا ورقة وقال: نعم يا بلال، أحد أحد.

«القرار الأخير»: اتخذهُ عبدالله بن حذافة السهمي، لما غلت القدور بالماء، ورمي الصحابة الكرام في الماء المغلي فخرجت عظامهم وانفصلت عن لحومهم. فقيل لعبدالله بن حذافة السهمي: أترك دين محمد، أم يحصل لك ما حصل لهم؟ فدمعت عينه. فظنوا أنه هاب الموت، وقرر البقاء. فقال لهم: تمنيت أن تكون لي مائة نفس حتى تقتل في سبيل الله. إنه لا رجعة، ولا عودة، ولا مساومة، ولا نقاش في أمر الثبات على دين الله «قرار واحد أخير».

«القرار الأخير»: رفع به صوته خبيب بن عدي، لما كبل بالسلاسل وجُرَّ من شعره على الصحراء في منظر محزن مبهك، في رمضاء مكة، ويقدر الله أن يقابل في الطريق أخاه ابن الدثنة، كلاهما مشدود بالسلاسل، مسحوب على الأرض، على الجمر، على سجن القهر والظلم، فيا ترى ماذا فعلا؟ ماذا قالوا؟ رأى خبيب ابن الدثنة فقال له: «اثبت يا أخي، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه»... يا الله كل شيء إلا الدين والإسلام، كل شيء إلا الجنة... فلتمزق الأجساد، فلتنزف دماً، فلتشد الشعور، فلتدمع العيون، فلتجتمع الأمراض... أليس الله يعلم بهذا كله؟ ويقف خبيب على خشبة المشنقة، وينظر، فيقول كفار مكة له: أأتمنى أن تبقى حياً، وتكفر

بمحمد؟! قال: لا والله، لا أتمنى أن يصاب بشوكة واحدة وأنا معافى في أهلي ومالي.

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أشلاء شلّو ممزعة

«القرار الأخير»: أخذ به أبو حنيفة عندما ساومه الوالي في زمانه على فتيا يقولها. فقال أبو حنيفة: لا تصح هذه الفتوى لمخالفتها لأمر الله ورسوله. فأمر به إلى السجن فحبس وضرب حتى كان الدم يتفجر من وجهه لقوة الضرب بالليف المبلل المحشو بالأسلاك. وصمد أبو حنيفة وخرج من المحنة فكان شيخ الفقهاء.

«القرار الأخير»: أخذ به مالك، يوم كان يُدار به على حمار في الشوارع. عسى أن يعود عن رأيه في فتيا أفتى بها، فكان يقول: من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني؛ فأنا مالك بن أنس طلاق المكره لا يمضي.

«القرار الأخير»: أخذ به الشافعي حفيد أبناء رسول الله ﷺ. طارده القوم فوق الجبال والهضاب، وسبب ذلك أنه أفتى بالشرع المطهر، وما هنئ البال إلا بعد تدخل الوجهاء والصلحاء.

«القرار الأخير»: أخذ به أحمد بن حنبل حيث قيد إلى سجن القهر وبقي به يبلغ رسالة الله وراء القضبان، ولا يحني جبهته لغير الله؛ لأن جبهة معها الله لا تنكس ولو كان ضدها الوجود كله.

ماضٍ وأعرِفُ ما دَرَبِي وما هدَفِي
وما أبالي به، حتّى أحاذِرُهُ
ولا أبالي بأشْوَائِك ولا مَحَنٍ
والموتُ يَرْقُصُ لي في كُلِّ مُنْعَطَفٍ
فَخَشْيَةُ الموتِ عندي أَبْرَدُ الطُّرْفِ
على طريقي وبِي عَزَمِي ولي شَعَفِي

أنا الحُسَامُ بريقُ الشمسِ في طَرَفِ مني وشَفْرَةُ سيفِ الهندِ في طَرَفِ
 ورُبَّ سَيْلٍ لُحُونٍ سَالَ مِنْ كَلِمِي ورُبَّ سَيْلٍ جَحِيمٍ سَالَ مِنْ صُحْفِي
 أهْفُو إلى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ مُحْتَرِقاً بنارِ شَوْقِي إلى الْأَفْيَاءِ وَالْغُرَفِ
 وَقَدْ أَمُرُّ عَلَى الدُّنْيَا وَسَادَتِهَا مِنْ الطُّغَاةِ مُرُورَ اللَّيْلِ بِالْجِيفِ

«القرار الأخير»: أعلنه شيخ الإسلام ابن تيمية لما كانت شمس الحضارة في الأمة قد آذنت بالمغيب، وأخذ منها الإعياء مأخذاً شديداً، فكان النداء مزعجاً مقضاً للمضاجع، وبدل أن يتجه قادة الأمة إلى النداء يتفحصون مضامينه ويزنونه بموازين العقل والشرع، اتجهوا في عنف وحماسة إلى مصدر النداء المزعج يريدون إخماده. فأقيمت لابن تيمية سلسلة من المحاكمات، ولم تكن محاكمة لشخصه بقدر ما كانت محاكمة لمشروع النهضة الذي يبشر به. لقد كان سجنه كما قال هو نفسه خيراً وبركةً عليه، إذ صقلت روحه ففاضت إنتاجاً غزيراً إلى أن فاضت روحه بسجن القلعة سنة ٧٢٨، فأضاف إلى شرف العلم شرف العمل، وإلى تاج المجتهدين تاج المجاهدين. وما أصدق مشاعر شاعرنا إذ يقول:

كلما قام في البلاد خطيبٌ موقظ شعبه يريد صلاحه
 أخمدوا صوته الإلهي بالعسـ ف أماتوا صُداحه ونواحه

وكان درسُ «القرار الأخير» يعلمنا أن:

نداءات الحق لا تموت، بل تظل تتردد في السماء فوق الرؤوس
 تنتظر الفرصة لتتسلل إلى النفوس والعقول، توقظها وتدفعها من جديد
 إلى ميدان الجهاد والاجتهاد.

«القرار الأخير»: أعلنه الشهيد سيد قطب رحمه الله.

تقول حميدة قطب أخت سيد: أرادوا من سيد أن يتراجع عن مواقفه وأقواله، وجعلوني ورقة ضغطٍ عليه، وحين كلمتهُ بحضرة الضابط صفوت الروبي قال: والله لو كان في هذا الكلام قتلي لقلت، ولما استطاعت قوة في الأرض أن تمنعني من قوله. وأنا لا أقول إلا ما أراه الحق.

قال له صفوت الروبي: هذا - يا سيد - رأيك؟

قال سيد: نعم.

قال صفوت: وهل ستتحمل العواقب؟ فإن القوم سيبطشون بك؟

قال سيد: إنهم لا يستطيعون ضرراً ونفعاً، والأمر لله فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعةً ولا يستأخرون!

فقال صفوت: اعتذر.

فقال سيد: لا أعتذر عن العمل مع الله.

فقالت له أخته حميدة: يا سيد، إنهم يطلبون منك أن تكتب خطاب استرحام.

فقال سيد: لماذا أسترحم؟ إن سجت بحق فأنا أقبل حكم الحق، وإن سجت بالباطل فأنا أكبر أن أسترحم الباطل. ثم قال: يا حميدة؛ إن إصبع السبابة الذي يشهد بالوحدانية في الصلاة ليرفض أن يكتب حرفاً يقرّ به حكم طاغية.

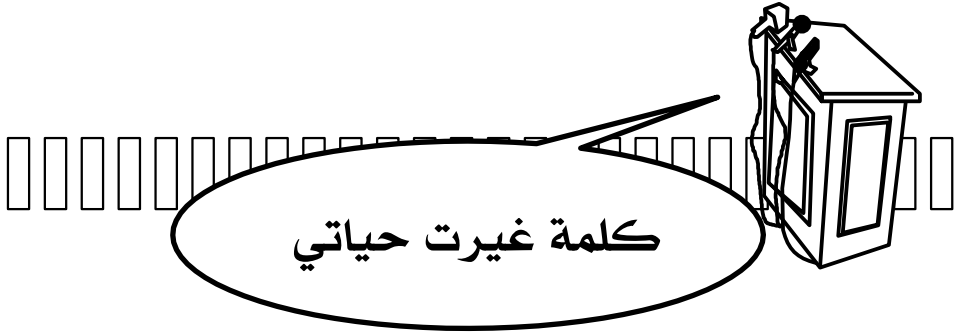
الله أكبر ثبات... وأي ثبات.

إن هذا القرار الأخير هو قرار الثبات على المبدأ، الثبات على الدين، الثبات على الإسلام، الثبات مهما كلف هذا الثبات من ثمن

وتضحيات ودموع وآلام ولأواء وضراء؛ لأن هذا هو السبيل، «حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره»^(١). والله، لو كان هناك طريق آخر نلقى الله به لقلته، ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) [العنكبوت: ٢].



(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٢) عن أنس رضي الله عنه.



سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ما أعظم جنود الله؟

قال : إني نظرت إلى الحديد فوجدته أعظم جنود الله.

ثم نظرت إلى النار فوجدتها تذيب الحديد، فقلت : النار أعظم جنود الله.

ثم نظرت إلى الماء فوجدته يطفئ النار، فقلت : الماء أعظم جنود الله.

ثم نظرت إلى السحاب فوجدته يحمل الماء، فقلت : السحاب أعظم جنود الله.

ثم نظرت إلى الهواء فوجدته يسوق السحاب، فقلت : الهواء أعظم جنود الله.

ثم نظرت إلى الجبال فوجدتها تعترض الهواء، فقلت : الجبال أعظم جنود الله.

ثم نظرت إلى الإنسان فوجدته يقف على الجبال وينحتها، فقلت : الإنسان أعظم جنود الله.

ثم نظرت إلى ما يقعد الإنسان فوجدته النوم، فقلت: النوم أعظم جنود الله.

ثم نظرت إلى ما يذهب النوم فوجدته الهم والغم، فقلت: الهم والغم أعظم جنود الله.

ثم نظرت فوجدت الهم والغم محلهما القلب، فقلت: القلب أعظم جنود الله.

ثم نظرت ووجدت أن هذا القلب لا يطمئن إلا بذكر الله، فقلت: أعظم جند الله ذكر الله ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١)، والجندي موكل بحراسة ما أمر به، والذكر هو الجندي الموكل بحراسة القلب.

وفي الحديث: «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا غفل وسوس وإذا ذكر الله خنس»^(٢).

«فإذا غفل وسوس»: والغفلة لحظة صعبة، تأتي من كلمة ونظرة ولمسة. والوسوسة حبل جميل طويل، يجعل الإنسان شيطان، والحليم حيران، والنائم يقظان، والمستور عريان، والتقي ندمان.

«وإذا ذكر الله خنس»: ذكر يحرك القلب، ويرجف الجوارح،

(١) الرعد، الآية (٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤/٨) معلقاً، وابن جرير في «التفسير» (٣٥٥/٣٠)، والحاكم (٥٩٠/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنه، وله شاهد من حديث أنس عند أبي يعلى (٤٣٠١)، والبيهقي في «الشعب» (٥٤٠) فهو حسن بمجموع طرقه.

وينير القلب، ويرحم النفس الضعيفة، ويقوى على مواجهة الفتنة العاصفة.

روى الإمام أحمد، أنّ الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: «إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تتنافض أعضاؤك، وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً، فإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك، وإذا قمت بين يديّ فقم مقام العبد الحقير الذليل، وذم نفسك فهي أولى بالذم، وناجني حين تناجيني بقلب وجل ولسان صادق»^(١).

هذا هو الذكر أعظم جنود الله، به يقاوم الإنسان المحنة، ويصبر على عرض الفتنة، ويتسلى في لحظة المصاب، وتنحل عنه عقد الكسل ويزول الاكتئاب، وبه يتصبر المقهور، ويتماسك المسجون، وينتصر المظلوم، وتنزاح الهموم والغموم، وتراجع الشهوة، وتتهوى الغفلة، وبه تعاد الحقوق، ويسعد المخلوق.

ومن دونه يهبط الرفيع، ويسقط الشريف، ويهان العزيز، وينضم إلى حزب الشيطان، وحينها يوسوس الشيطان في قلبه حتى يرقص، فتتكشف عيوب الحرام، ويتزاحم مع أرباب الغفلة والنسوان، فلا منظر إنساني يردعه، ولا دمة ترجعه، ولا خوف يحجزه، ولا شوق يمنعه.

ثم استحالت غلاباً بيّن الخطر	هواجس الشر أضحت وطأة عظمت
فراضها فعنت إصغاء مؤتمر	في فترة همدت في النفس عصمتها
عواطف طالما ضجت لدى النذر	وللسقوط سويغات تطيش لها
تستنّ ماضية في غير ما حذر	وسطوة الشر إن تلقى مهادنة

(١) الزهد، للإمام أحمد، وذكره ابن القيم في «إغاثة اللهفان».

وفي طباع الأناسي ما يزينها شوهاء قاتمة يا خفة البشر
يستمرئ الجسد المنهوم ما حليت مظاهر قد حوت من كل ذي قدر
فإن ثويت فليل الإثم مطرد وإن خرجت فلا يقربك من وضر

نعم، فإن ثويت وبقيت على الغفلة والمعصية فليل الإثم يحيط بك، كما يحيط الظلام بحركة الكون، وإن خرجت فلا يقربك من مهانة ولا ذلة... وستكون عزيز النفس، صحيح الإيمان، مائع الحياة.

ولن يخلص من أحوال هذا القدر المحموم في الحياة أيها الإخوة إلا إنسان ذاكر لله بحق ذكرًا خالط كل خلية من خلايا جسمه، وسيطر عليه فحماءه بأسوار التقوى، وأركبه سفينة الصالحين، فرسا في أرض الثبات. ولو عُرِّضَ لمحنة لا سمح الله، فإن ذكر الله بحق يعصمه، ويجد فيه حلاوة الإيمان والثبات في لحظة قاسية مرّة، في ساعة غفلة واستحكام هوى، في فترة ضعف ووسوسة شيطان، في ليلة قاتمة نسي فيها نفسه ودينه وأهله وعرضه، في هذه الساعة فقط لا ينفعه إلا ذكر ربه، ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾^(١). وهذه هي اللحظة الحرجة العاصفة التي امتحن بها أحد أصحاب الغار الثلاثة.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما^(٢) عن عبدالله بن عمر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر، فأووا إلى غار في جبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فانطبقت عليهم.

(١) يوسف، الآية (٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤/٤٩٢)، ومسلم (٢٧٤٣) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه.

فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله، فادعوا الله تعالى بها، لعل الله يفرجها عنكم.

فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي، ولي صبية صغار أرعى عليهم، فإذا أرحت عليهم، حلبت، فبدأت بوالدي فسقيتهما قبل بنّي، وإنه نأى بي ذات يوم الشجر، فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب، فقممت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء؛ ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء.

وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم، أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيتها بمائة دينار، فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئتها بها، فلما وقعت بين رجلها، قالت: يا عبدالله، اتق الله، ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقممت عنها، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة، ففرج لهم.

وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه فرقته، فرغب عنه، فلم أزل أزرقه حتى جمعت منه بقرأ ورعاءها، فجاءني، فقال: اتق الله، ولا تظلمني حقي، قلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها، فقال: اتق الله، ولا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، خذ ذلك البقر ورعاءها، فأخذه فذهب به، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا ما بقي، ففرج الله ما بقي).

إنها قصة رائعة عظيمة لثلاثة رجال خرجوا للنزهة أو لطلب القوت لأهلهم، وبينما هم في سيرهم تلبدت السماء بالغيوم، وتساقط المطر الشديد، فوجدوا غاراً أو كهفاً قريباً منهم فدخلوه ليحتموا به من المطر، فجرفت السيول الشديدة التي شكلتها الأمطار الصخور من أعالي الجبال، وانحدرت صخرة عظيمة من الجبل، ومضت في طريقها حتى استقرت على فم الغار فسدته، وكانت من العظم والقوة بحيث لا تجدي قوتهم شيئاً في دفعها وتحريكها، ولذا استغاثوا بأعلى صوتهم فما سمع أحد.

لقد حوصروا ولم يعرف عنهم أحد، ولن يعرف أحد مكانهم ولو بالآثار لأن آثار الأقدام زالت بفعل السيول الجارفة.

وضاقت عليهم الأحوال، واحتبسوا عن البشر، وعاشوا في حال لا يعلم بها إلا الله. هذه الحال التي تذكر بحال السجين المظلوم، السجين المقهور، الذي أدخل السجن بلا جريمة ولا محاكمة، وبينما هم في الأسر والضيق تحت الأنقاض ذكّرهم أحدهم برفع الشكاية إلى الله... فما بقي أحد... إلى من المشتكى إلا لله؟ وإلى من يرفع الضر إلا لله؟ ومن ينفس الكرب إلا الله؟ من يفرج الهم إلا الله؟

في هذا المكان المظلم الموحش، حيث لا أجهزة توصلهم بأحد، ولا نداء يسعفهم بأحد من المارة، ولا أخبار تتابع أحوالهم، أدركوا أن لا همّ والله يُدعى، وأشار أحدهم إلى صاحبيه أن يتوسل كل منهم بأرجى ما عمله قاصداً فيه وجه الله.

فتوسل أحدهم إلى الله، كما أن الفاجر والفاسق في وقت الضيق، واللحظة التي لا يقدر عليها إلا الله لا يلجأ إلا إليه، ﴿وَإِذَا

غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَازِلَةٌ لِلَّذِينَ دَعَوْا اللَّهَ مَخْلَصِينَ لَهُ الَّذِينَ ﴿١﴾.

وتوسل الثاني إلى ربه بمخافته من الله، تلك المخافة التي دفعته إلى ترك الفاحشة، وكبت الشهوة، وكان من أمره أنه أراد ابنة عم له على نفسها، وكانت أحب الناس إليه، فكان يعصمها إيمانها منه، فتأبى عليه، حتى أصابتها فاقة وحاجة اضطررتها إلى موافقته على رأيه والخضوع لرغبته، بعد أن دفع لها مبلغاً كبيراً من المال اشترطت عليه أن يدفعه لها قبل أن يتمكن من نفسها، ولكنه عندما قدر عليها وقعد منها مقعد الرجل من زوجته انتفضت وارتجفت، فلما استعلم منها عن سبب رجفتها وانتفاضتها أخبرته أن ذلك من مخافة الله، فإنها لم ترتكب هذه الفاحشة من قبل، وقالت له: اتق الله ولا تفضّ هذا الخاتم إلا بحقه.

فقام عنها مخافة الله، وترك لها الذي أعطها إياه.

قالت له: اتق الله، وهو في هذه الحالة، ولحظة قوة الشهوة والغفلة. اتق الله، ولا تفضّ الخاتم إلا بحقه فلم يرتكب فاحشة قبل، ما سمع إلا هذه الكلمة (اتق الله) فقام عنها خوفاً من الله...

وتقال كلمة: (اتق الله) و(اتقوا الله) آلاف المرات في المنابر والمجالس فلا يستجيب أحد إلا من رحم ربك. لأنه لا يستجيب لها إلا من عرف معنى (اتق الله) وأدرك مفهوم ذكر الله، (اتق الله) تذكير بالله.

قيلت لعمر بن الخطاب الأمير والوالي والرئيس والخليفة وهو

على المنبر من قبل امرأة مستضعفة لم تجد طعاماً، فبكى عمر ومرض ثلاثة أيام، وقتل في اليوم الرابع.

وتقال: (اتق الله) لعمر بن الخطاب من قبل سلمان الفارسي، لما رأى قميصين على عمر وهو على المنبر فقال: لا سمع ولا طاعة. وسلمان هو المخطئ، وأبان عمر عن هذا الثوب الآخر أنه لولده عبدالله، وأشهد ابنه أمام الناس.

سلمان سأل لمعرفة الحقيقة لا ليفضحه، ولم ينكل به الخليفة.

وتقال كلمة (اتق الله) اليوم للمسلم المسؤول، فيزداد جبروتاً وقهراً وسجناً وجلداً، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾^(١).

وتقال كلمة (اتق الله) اليوم للقاضي فيتلبس بالظلم وهو المأمور بالعدل.

وتقال كلمة (اتق الله) للزوج في زوجته (اتقوا الله واستوصوا بالنساء خيراً). فيرشدها إلى ما حرم الله، أو يتفنن في رفع الصوت عليها، وإهانتها أمام أبنائها، ويتوغل في نسيان معروفها وصبرها الطويل، ويكبت حريتها، ويحرمها إنسانيتها.

وتقال كلمة (اتق الله) للولد في أبيه، فيزداد عقوقاً وقسوة وظلماً.

وتقال كلمة (اتق الله) للموظف، فيزداد عنجهيةً وتكبراً وتسلطاً.

وتقال كلمة (اتق الله) لطالب العلم، فيزداد عنفاً وحسداً وبغضاً.

وتقال كلمة (اتق الله) للجندي المسلم، فيزداد هلعاً ورعباً وخوفاً.

(١) البقرة، الآية (٢٠٦).

وتقال كلمة (اتق الله) لصاحب الفضائيات والفيديو كليب، فيزداد فجوراً وعهراً وذنساً ورجساً.

وقد حدثت مثل هذه الواقعة مع رجل من بني إسرائيل كان فاجراً منتهكاً للحرمات، وكان من شأنه أن يفجر بمن استطاع الوصول إليه من النساء، وقدر مرة على امرأة، فارتجفت، وخافت، فلما استعلم منها عن سبب ذلك، وجد أن خوفها كان من الله، فتاب وأناب، وعاهد ربه على الإقلاع عن الذنوب، ومات من ليلته، فغفر الله ذنبه، وأدخله رحمته وجنته.

روى الترمذي في «سننه» عن ابن عمر قال: سمعت النبي ﷺ يحدث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين، حتى عد سبع مرات، ولكنني سمعته أكثر من ذلك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاهما ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أأكْرهتك؟ قالت: لا، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة.

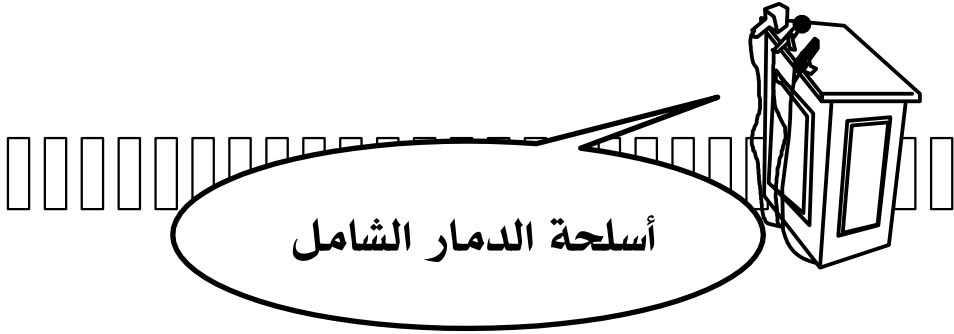
فقال: تفعلين أنتِ هذا، وما فعلته، اذهبي فهي لك. وقال: لا والله، لا أعصي الله بعدها أبداً، فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه، إن الله قد غفر للكفل»^(١).

وهكذا هي التقوى العاصمة، وهذه هي قصة الثبات التي علمتنا كيف يصبر الإنسان على ما يرضي الله، ويصبر عما حرم الله ليلقى السعادة والراحة بإذن الله.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٦)، وأحمد (٤٧٤٧) عن ابن عمر رضي الله عنه.

فمن أراد الفلاح فليستبضع بضاعة المتقين، ومن أحب أن يكون الله وليه فالله ولي المتقين، وأكرم الناس عند الله أتقاهم، والآخرة عند ربك للمتقين، الساعي لغير الله عاثر القدم، والشاكر لغير نعم الله مسلوب النعم، العمر محسوب، والعمل مكتوب، والوقت يمر مر السحاب، والموعود يوم الحساب، وربك الرزاق، والعاقبة للمتقوى، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ﴾ (١).





أسلحة الدمار الشامل، هي تلك الأسلحة الخطيرة الرهيبة التي أصبح وجودها في بلد ما يشكل خطورة على العالم، ويبيح للجميع أن يصفوا ذلك البلد بـ (الدولة الإرهابية)؛ والسبب بكل بساطة: أن أسلحة الدمار الشامل - كما يدل على ذلك اسمها - أسلحة تأكل الأخضر واليابس، وتدمر الحاضر والمستقبل، وتهلك الحرث والنسل، وتسدل ستاراً من الظلام السرمدي!

وعندما أرادت القوات المتحالفة أن تغزو أرضنا الحبيبة «العراق» اتهمها الغزاة بأنها تملك أسلحة الدمار الشامل، وطبلوا وزمروا في وسائل الإعلام قائلين: إنّ هدفهم الحقيقي في المنطقة هو نزع أسلحة الدمار الشامل؛ لأنّ بقاءها في أرض العراق يعني تدمير كل الشعوب المجاورة على أقل تقدير!

ولمّا غذي المستعمر الأجنبي بالحرام من خزانات الدول المختلفة، ومن عرق جبين الأُمّة، وتحرك من أراضٍ عربية إسلامية وغير إسلامية وقضى نهمته، حوّل «بالريموت» أنظار العالم بأسره إلى الدولة الضعيفة «سوريا»! بحجة أنها تملك أسلحة الدمار الشامل، وهذا طبعاً يقتضي لفت النظر إليها، وإشغال العالم وتهيته مبكراً لخطورتها،

تسهيلاً لنهب ثرواتها وخيراتها. ولكن المستعمر الأجنبي نفسه لم يكلف نفسه أبداً أن يسأل عن أسلحة الدمار الشامل الموجودة في إسرائيل أو فرنسا أو حتى في أرضه هو! ولعلكم رأيتم حال اليابانيين قبل يومين وهم سيكون في ذكرى جريمة ناجازاكي وهيروشيما التي بلغ عدد القتلى فيها ٥٠,٠٠٠ في اليوم الأول و٧٠,٠٠٠ بعد يومين، حيث قتل الصغار والكبار والشيوخ والنساء والذين لا ذنب لهم بيد هذا المستعمر الأجنبي الذي يدافع عن حقوق الإنسان!!!

والجواب عن هذا التعجب هو في قول العامة: «حاميتها حرامها» أو عند أبي ريشة شاعر العربية في قوله:

لا يلام الذئب في عدوانه إن يك الراعي عدو الغنم
ولأنّ الحاكم والقاضي والمحامي والجلاد والظالم واحد، فإن النتيجة واحدة:

في كل محكمة قضية مسلم يشكو بليته لغير المسلم ولذا؛ فإنّ العفو المطلق بلا حدود إنما يكون للدول القوية الغالبة، أو الصديقة التابعة ولو امتلكت أسلحة الدمار الشامل! والغضب والثورة والانقلاب والحشد والتآمر والعنجهية والتكبر وحرق الأخضر واليابس وفق القانون أو ضد القانون، إنما يكون لكل الدول التي تحاول أن ترفع رأسها، أو تحاول أن تعبر بقوة عن رأيها، أو تحاول الخروج من جَدثها الذي دفنت فيه سواء امتلكت هذه الأسلحة أو لا.

وموضوع أسلحة الدمار الشامل كما تعلمون أيها الإخوة أصبح حديث المتابعين للأخبار العالمية، والتحليلات السياسية، وطبع عدد من الكتب الجيدة التي تتحدث عن هذه الأسلحة، وتسييسها.

ونظراً لأن هذه القضية أصبحت الشغل الشاغل للناس، فقد قررت أن أتحدّث عنها اليوم!

هذه الأسلحة، أسلحة مدمرة، هدفها التدمير بشكل قويٍّ ومدوّ، وتقضي على أكبر وأكثر ما يمكن أن تقضي عليه، ولذلك سميت: (أسلحة الدمار الشامل). وهذه الأسلحة لا تقاوم بسهولة، ولا تصد بوسائل ميسرة. ولذلك فإن المطلوب هو نزع هذه الأسلحة لأنها كالألغام. وإلا فإن هناك كارثة ومصيبة تستهدف كل شيء وبلا استثناء. والنتيجة هي القتل والدمار وإنهاء الحياة والوجود الإنساني في فترة يشاؤها الله.

ولكني يا أيها الإخوة رأيت كثيراً من الدول العربية والإسلامية والشعوب الغنية والفقيرة، تمتلك أسلحة الدمار الشامل، بل تدمر بها نفسها من غير تدخل خارجيٍّ أحياناً!! وبإملاءٍ خارجيةٍ أحياناً أخرى، وتزرعها في كل مكانٍ بالعلم أو بالجهل، بالحق أو بالباطل.

وهذه الأسلحة هي أسلحة الدمار الشامل الشيطانية.

وإذا كانت أسلحة الدمار الشامل العسكرية تقضي على الأجساد؛ فإن أسلحة الدمار الشيطانية تقضي على الأرواح.

وإذا كانت أسلحة الدمار الشامل العسكرية تخرب الدور؛ فإن أسلحة الدمار الشامل الشيطانية تخرب العقول.

وإذا كانت أسلحة الدمار الشامل العسكرية تستهدف مراكز الإحساس المؤثرة؛ فإن أسلحة الدمار الشامل الشيطانية تستهدف القلوب الحية.

وإذا كانت أسلحة الدمار الشامل العسكرية تسبب الفوضى والدمار؛ فإن أسلحة الدمار الشامل الشيطانية تسبب الضياع والانهيار.

أسلحة الدمار الشامل العسكرية فيها عناصر ومكونات تجمعت واتسقت لتؤدي دورها في إهلاك الناس، وكذلك أسلحة الدمار الشيطانية فيها عناصر ومكونات ترادفت وتنوعت لتؤدي دورها في إهلاك القلوب.

ولقد رأينا أناساً ضجت كل خلية فيهم من الظلم وكثرة التشكي، رأينا قتلى وجرحى، أحسنا بالآلام والكدر، رأينا الضياع والهلاك، والفوضى والفساد، رأينا كيفية تخريب العقول، وتدمير النفوس، رأينا كيف يسقط الإنسان، ويموت ببطء! هذا الذي أريد أن أحدثكم عنه اليوم. أسلحة الدمار الشامل الشيطانية التي تستهدف إماتة القلب مباشرة. فلا يعرف الإنسان بعدها معروفاً ولا ينكر منكراً، مسلم بلا إسلام، وهوية بلا رسالة، الهوى إمامه، والشهوة قائده، والغفلة مركبه، والظلم سيرته، والكبر سجيته، لا يستجيب لناصح، ويتبع كل شيطان مريد، الدنيا تسخطه وترضيه، والهوى يصمه ويعميه، مات قلبه ثم قُبر في جسده، قلبه خرب لا تؤلمه جراحات المعاصي، ولا يوجعه جهل الحق، حتى يطبع القلب بختم، ويمتلئ بالران إلى حد الثمالة، فلا تعرف منه بل تنكر، حرم نور القلب والبصيرة، وصار بارد الأنفاس، قليل الإحساس، غليظ القلب، ظاهر الجفوة، رؤيته تقسي القلب، وتجرح النفس. ولا يزال قلبه يتشرب كل فتنه حتى يسود ويتنكس، ومن ثم هو ليس من عالم الإنسان ولا الحيوان!

أسلحة الدمار الشامل العسكرية كونت من عدة عناصر لا حل لها

إلا أن تنزع، وكذلك أسلحة الدمار الشيطانية كونت من عدة عناصر لا حل لها إلا أن تنزع.

□ العنصر الأول من عناصر أسلحة الدمار الشيطانية: إغفال مراقبة الله.

لقد رأينا كثيراً من المسلمين إذا كانوا في الطائفة المتوجهة إلى بلاد غير بلادنا الطاهرة الشريفة، نزعَت الزوجة الحجاب عن وجهها، وأظهرت ملابسها وزينتها، وأبدى الزوج المسلم انفتاحه العصري، وسمح للأولاد الصغار أن ينظروا عبر الشاشات الصغيرة إلى كل مشهد راقص، يقلبه بالأزرار عند أيديهم دونما مراقبة أو حساب، رأيناهم في الشوارع كالمصروعين في الليالي، يأكلون ما يشتهون، ويلبسون ما يريدون، ويفعلون ما يشاؤون، وينامون حتى يتعبون. أموالهم مهدرة، وأعمالهم محزنة، وسواتهم مفضوحة، ووجوههم مقبوحة. حتى يصير القلب مسوداً، والوجه مظلماً.

ونزع هذا السلاح الشيطاني يكون بإخراج الدنيا من القلب، ووأد حب التعلق بالمال والنفس، ونزع الرغبة في الحرام، والعدول عن ترك الأهل وأرض الشرف إلى أرض الغفلات والهوى والمعصية، ونزع الأنانية، والرغبة في المتعة الفردية التي تُصير الإنسان عبداً للشيطان.

وما السبيل إلى السلامة إلا صيانة النفس، والرفقة الصالحة الناصحة، وإحاطة القلب بالأسوار الإيمانية من الصلاة والذكر وقراءة القرآن، وما يضمن الثبات بإذن الله، واستمرار المراقبة لمن أوجده وخلقته، وعلم جهره وسره، في بحرهِ وبرهِ وسمائه، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ

مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ (١).

□ والعنصر الثاني من عناصر أسلحة الدمار الشيطانية: القنوات الفضائية.

والتي كثر تواجدها في بيوت المسلمين، وأصبح الإنسان المسلم المتقي في عداد الغافلين الساهين، سله عن صلاة الضحى والوتر، وعن قيام الليل وركعتي الفجر! سله عن أذكار الصباح والمساء! سله عن صيام النهار وصدقة الخفاء! سله عما نسيه من الحديث والقرآن، سله عن آخر مرة تلا وختم فيها القرآن! سله عن ذلك كله أو بعضه لتسمع ما يدمي الفؤاد، والله المستعان.

لقد تساهل المسلمون في هذا المنكر، وانطبق عليهم قول أحد السلف: «رَبَّ نَظْرَةَ حَرَمَتْ قِرَاءَةَ سُورَةٍ، وَرَبَّ كَلِمَةَ حَرَمَتْ قِيَامَ لَيْلَةٍ». قلَّ العباد، قلَّ الزهاد، قلَّ المذكرون بالله، المشفقون الوجلون من خشية الله، القلوب جامدة، والسجدة خامدة، والنفوس ضيفة معاصٍ متتابعة، وعقوبات ربانية متتالية، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ (٢٣) (٢)، ونزع هذا السلاح الشيطاني يكون بمنع كل القنوات الإفسادية، والاققتصار على المفيد منها، والتي يرضى عنها الله ورسوله في تقدير كماله تؤمن بالله وتخاف يوم الحساب.

ونزع حتى القنوات الإخبارية المتكررة والمتشابهة، وإبقاء قناة أو اثنتين تؤدي الغرض. وما تدري... لعل لقطة أو دعاية أو فقرة تمسخ

(١) سبأ، الآية (٢٣).

(٢) محمد، الآية (٢٣).

القلب، وتميت الضمير. والله يا إخوة، لقد تساهلنا كثيراً كثيراً. فلتتق الله، ولنعد إلى الله.

عودوا إلى بيوتكم الآن، واعزموا على نزع هذا السلاح الشيطاني. القضية عبارة عن برمجة للقنوات ليس أكثر، يا أخي خف الله في نفسك، في أهلك، في أولادك، لا تكثر من حسن الظن، فالإنسان ضعيف، والشيطان وسواس، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١). فاعزم على الهداية، هدانا الله وإياك لما يحب ربنا ويرضى.

□ والعنصر الثالث من أسلحة الدمار الشامل الشيطانية: الظلم.

وإنك لتجد المرأة ذا القوة يتوسّع الصلاحيات، ويجور على من هو دونه، ويظن أن لن يقدر عليه أحد! فيجأ الناس إلى الله من ظلمه، فما يلبث أن يستجيب الله لأنات المظلومين، وشكايات المكالمين، وقد قال ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة». وقال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا». كم من قطيعة رحم، وخلافات عوائل، واتهامات، وخصومات، بسبب قطعة أرض! يسطو أحدهم على مال أهله وإخوانه! كم ستدوم لك الدنيا ٥٠ سنة؟ ٧٠ سنة؟ ١٠٠ سنة؟ ثم ماذا؟ ما لك إلا حفرة من أرض.

الموت في كل يوم ينشر الكفنا ونحن في غفلة عمّا يُراد لنا

(١) العنكبوت، الآية (٦٩).

لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها وإن توشَّحت من أثوابها الحسنات
 أين الأحبة والجيران ما فعلوا أين الذين هم كانوا لنا سكناً
 سقاهم الله كأساً غير صافية فصيرتهم لأطباق الشرى رُهنًا

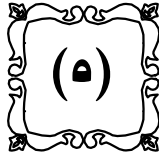
وهكذا أيها المؤمنون، كلما وجد الإنسان في طريقه العوائق
 أزاحها بعزة وقوة. وقد أثبتت تجارب الأيام وخبرات النفوس أن الأقدر
 على اجتثاث الشر من طريقه، الحريص على صيانة سمعته، الأورع في
 حفظ يده ولسانه وعينه وفرجه، والمراقب الجيد لأهله وولده، فإنما
 يمهد والله أسباب السعادة، ويمنح لنفسه الملك الحقيقي من الطمأنينة
 والرضا.

وتفوق لذاته هذه اللذائذ كلها. وصدق ابن الجوزي عندما قال:
 وفي قهر الهوى لذة تفوق كل لذة!

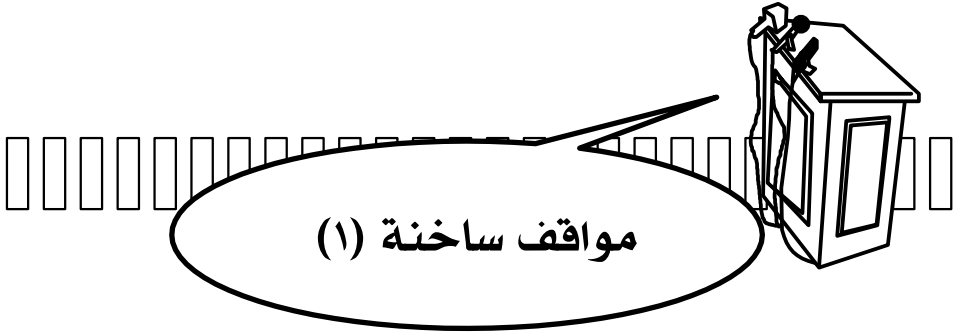
وأعظم من هذا كله أن يكون الله معه ناصراً ومعيناً ومؤنساً!!

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٦٩﴾.





في شؤون الذكر وقضايا المجتمع



مواقف ساخنة (١)

الذي أثارني ابتداءً لطرح هذا الموضوع أنني كنت أقرأ في بعض كتب السيرة القديمة منها والمعاصرة، تحليلاً وتأملاً لصلح الحديبية الذي كان بين رسول الله ﷺ وقريش.

ففي سنة المصالحة هذه (السنة السادسة للهجرة)، رأى النبي ﷺ في المنام أنه دخل مكة، وأخذ مفتاح الكعبة، وأنه مع صحابته قد طافوا واعتمروا، وحلقوا وقصّروا، وفرح الصحابة بذلك وتهيئوا للذهاب لمكة وعددهم ألف وخمسمائة مع رسول الله ﷺ^(١).

ولما وصل الرسول ﷺ إلى قرب مكة، علم أن قريشاً ستصده عن الدخول. وحصلت بعض المواقف التي تدل على خطورة الوضع، وأرسل كل طرف سفيراً لتهدئة الأمور، وتم الاتفاق على صلح الحديبية الذي أغضب بعض كبار الصحابة، لأن ظاهر الصلح كان فيه غبنٌ للمسلمين، فمن جاء من قريش إلى رسول الله ﷺ بغير إذن قريش أرجعه إليهم، ومن جاء من المدينة إلى قريش لم يردوه إليه!

والمسلمون كانوا يرون خلال فترة السنوات الأولى بعد الهجرة أنَّ

(١) أخرجه البخاري (٥٤٧/٣) عن أبي قتادة رضي الله عنه.

لهم القوة والسيادة، فقد قاتلوا في بدر وأُحد وغيرها مما يدل على علو مكانهم بين القبائل، فلم يعطون الدنية في دينهم؟

ولكن الرسول الكريم ﷺ رجع إتمام الصلح، ونظر إلى فقه المآلات، وامتنص حماس بعض الرجال. وفي نفس الوقت ترك للصحابي الجليل أبي بصير الأمر، حيث استطاع أبو بصير ومن معه أن يذهبوا صوب الجبال وكلما وجدوا قافلة مسالمة لقريش أغاروا عليها، وقتلوها، وهي لم ترد قتالاً. وقال: «ويل أمة مسعر حرب لو كان معه رجال»!

وهنا يبدأ الموقف الساخن الأول...

إنّ النبيّ الكريم ﷺ لم يدخل مع قريش أكبر قوة عظمى في معركة، بل رضي ببعض شروطها التعسفية نوعاً ما، ورأى أن مصلحة الصلح أكبر من مفسدته. كما أنه ﷺ ترك المجال للصحابي الجليل أبي بصير أن يتحرك ليُغير على تجارة قريش المسالمة، وهنا يستعر الموقف ويغدو أكثر سخونة.

التجارة لقريش التي أعلنت الصلح مع النبيّ ﷺ، ثم إنها قافلة تجارية مسالمة، ومع ذلك يغير عليها أبو بصير!

والسؤال المهم:

هل أذن النبيّ ﷺ لأبي بصير بهذا أم لم يأذن؟

والسؤال الأهم: هل سيؤثر عمله هذا على بنود الصلح؟

أما عن علمه ﷺ بعمل أبي بصير فنعم، بل كان مؤيداً له بقوله: «لو كان معه رجال»، وقد ذهب إليه الرجال وشاركوا أبا بصير في قتل

قافلة قريش التي لم ترد قتالاً، وهي الداعمة الأولى لحروب قريش مع رسول الله ﷺ. والسبب أنه لم يوقع على عهد الصلح. وهذا باختصار كافياً للخروج من مطالبة قريش.

إذن لم تكن حركة أبي بصير ارتجالية، بل كان هناك تأييد نبوي «لو كان معه رجال»، وفعلاً ذهب الرجال إليه ولم ينكر النبي ﷺ فعلهم في أخذ تجارة قريش وقتل رجالها.

وفي نفس الوقت تم التزام العقد والعهد منه ﷺ طيلة الفترة الزمنية المقدرة.

وهنا يتسلل سؤال ساخن آخر: ما الذي استفاده النبي ﷺ طيلة فترة الصلح مع قريش، وهو يعلم مكرهم وحالهم، وتمويلهم لأعدائه؟

الجواب: أن النبي ﷺ استطاع أن يتحرك بطريقة هادئة دون أن يشعل عود ثقاب واحد ليغيّر أفكار وعقول وقلوب وجوارح القبائل الأخرى، عن طريق الدعوة إلى الله بالقدوة والمعاملة. ولذا كان عدد الذين دخلوا في الإسلام بعد صلح الحديبية إلى فتح مكة أضعاف أضعاف الذين دخلوا قبل الصلح طيلة ست سنوات. وهذا يدعونا الآن لأن نفكر ونعيد التأمل، لماذا قبل النبي ﷺ بالصلح؟ وكيف استطاع المسلمون أن يستغلوا هذا الصلح لصالحهم؟ وكيف نجحوا في تعبيد الناس من القبائل لله، ومؤازرتهم وتأييدهم للصف الإسلامي؟

إنّ هذا أمر يدعو للتوقف والتأمل والمدارسة.

ولكم أن تعجبوا إذا عرفت أن أساطين الرجال أسلموا في فترة الصلح الأولى، فعمرو بن العاص داهية العرب، وخالد بن الوليد

سيف الله المسلول، وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة القائد الفذ الذي قال له النبي ﷺ ولأبي شيبة عند تسليمه مفاتيح الكعبة في فتح مكة: «خذاها خالدة تالدة لا ينزعها يا بني أبي طلحة منكم إلا ظالم»^(١).

هؤلاء الأبطال الرجال الأماجد الأشاوس أسلموا في أول الصلح، وقال النبي ﷺ: «رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها»^(٢). وذلك لأن قريشاً لما رأت فعل أبي جندل وأبي بصير، أصبحت مشغولة بنفسها، وناشدت الرسول ﷺ الله والرحم، وأن من أتاه فهو آمن! إذن النبي ﷺ كان يعرف صنع أبي بصير، وكان يعلم بفقهِ المصالح والمفاسد، وكانت الرؤية عنده واضحة، فلم يكن الفعل عبثاً، ولم يترك أبا بصير يفعل ما يفعل لتكون الآثار سلبية والنتائج مقلوبة على المسلمين. ولذا كانت النتائج لصالح المسلمين، ولكلا الطرفين.

وأريد أن أقول: أن فعل أبا بصير واضح، فالإغارة العسكرية المدروسة على رجال وتجارة وتمويل قريش قد أدت لإدخال الرعب، وزعزعت قريش في نفوس القبائل. ولكن السؤال الساخن هنا: كيف استطاع النبي ﷺ أن يأتي بهذا العدد الهائل من القبائل إلى دين الإسلام؟ وكيف دخل أمثال خالد وعمرو وعثمان وغيرهم من كبار القواد إلى الإسلام؟ وكيف تم الإعداد للتغيير المستقبلي في ساحة

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٢٣٤)، وفي «الأوسط» (٤٨٨)، من طريق عبدالله بن المؤمل عن ابن مليكة عن ابن عباس مرفوعاً به... وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢٨٥/٣) وقال: وفيه عبدالله بن المؤمل وثقه ابن حبان وقال: يخطئ، ووثقه ابن معين في رواية وضعفه جماعة.

(٢) «الاستيعاب» لابن عبد البر (١١٨٥/٣)، و«بغية الطلب في أخبار حلب» (٢١٣٥/٧) لكمال الدين بن أبي جردة.

الحياة؟ وكيف تمت السيادة والسيطرة على الأوضاع في خلال سنين قليلة؟ كيف تم هذا؟ هذا هو السؤال المهم الساخن...

ولنبداً معاً أيها الإخوة الجواب:

إنَّ النبيَّ الكريم ﷺ قد أحسن تربية الجيل البنائي القيادي من الصحابة، علمهم الأخلاق الكريمة، وطرق المعاملة الإسلامية الراقية، وكان نموذجاً وقُدوةً صالحةً، فأخذوا المنهج بالتلقي، فأمرهم النبي ﷺ أن يخالطوا الناس، وقد ضمن منهم صحة المنهج التربوي القائم باختصار على تطبيق ما تعلموه من القيم والمُثل الإسلامية، الشاملة لشؤون الحياة كلها.

فتعلموا بالتطبيق العملي كيف يكون المجتمع المسلم مجتمعاً يلتزم بالأوامر ويجتنب النواهي، ويستغني بالفضيلة ويتوارى عن الرذيلة، ويسمح بالحرية المنبثقة من العقل والهدى لا من الشهوة والهوى، ويقوم على مبدأ الشورى ويتحقق فيه العدل، والمساواة الشاملة، وتكافؤ الفرص، ويظهر منه التكافل والتضامن والتراحم، وتسود فيه المحبة والتآخي والتهادي والتزاور والتعاون والتناصح، وتتألق فيه الفضائل والأخلاق الحسنة، والإنسانية الراقية، والأذواق والمثل العليا، والحياة العزيزة الشريفة.

بمثل هذه المعاني انصبغ المجتمع المسلم الأول، انصباعاً كلياً، خالط كل أجزاء حياته، وكل خلايا جسمه، وكل عروق دمه، فإذا هو مجتمع راشد رائد نظيف. فدخلوا بهذه المعاني في المجتمعات البدوية الجاهلية المتعلق بعضها بالخرافة والانحطاط، والمتعالي بعضها بالكبر والغرور، فكان ما لم يكن في حسان قريش ولا أتباعها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وماذا يريد الإسلام أكثر من هذا؟

هل يريد الإسلام إشعال نار الحرب، وتدمير البيوت، وهدم الصوامع والكنائس؟ هل الإسلام عَطَشٌ للدماء، وإزهاق الأنفس؟ الإسلام يريد تطبيق روح الإسلام في كل الأرض وتحت كل سماء.

وهذا هو السر الأول في تغيير الناس، وكسبهم، وحبهم للدين، وعملهم بشرائعه، واستسلام أكبر قوة عظمى لقول المسلمين!

لقد فوجئ أعداء الأمة أن الذين دخلوا في الدين دخلوه عن قناعة ورضا، وفوجئوا أكثر لما علموا أنهم مستعدون للتضحية والبذل في سبيل الله، وهذا الذي لم يتوقعوه. فكسب الإسلام الجولة في تربية الجيل بالقُدوة العملية، والتربية الداخلية على تطبيق كل معاني الدين بما فيها حب التضحية.

وهذا ورب الكعبة هو السر... والنقطة الساخنة الأولى. لقد دخل المسلمون الأوائل في صفوف التجار والكبار ونُخب القوم، وعقلائهم وساستهم، كما وصلوا للعجائز والشيخوخ، والذكور والإناث. زاروهم في متندياتهم وخيامهم وأسواقهم، وزاوجوهم، وعاملوهم، ولم يتركوا سبيلاً للوصول إليهم إلا سلكوه.

إذاً، المسلمون الأوائل وصلوا للناس بأمرين:

١ - العلم الحقيقي بأحكام الدين الشامل.

٢ - التطبيق العملي الذي تلقوه بالقُدوة.

ودعوني الآن أسيح بكم في كيفية هذا التعامل، عبر مسيرة التاريخ الإسلامي الذي كان سبباً في تغيير حياة المجتمعات للأفضل.

لقد أعطى الإسلام لغير المسلمين حق حرية التدين والاعتقاد، فلم يُكرِه أحداً على اعتناق دين بعينه، قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(١).

أعلن القرآن هذه الحرية المشرفة للإنسان في عصر سادت فيه موجات التعصب والاضطهاد للمخالفين في الدين، كما في الدولة الرومانية التي خيّرت رعاياها بين التنصّر والقتل، وأقامت المذابح لكل من لا يدين بالدين الذي تبنته.

ورفض الإسلام الإكراه في الدين؛ لأنه أراد للإنسان أن يعتنق الدين الذي يختاره على بينة وإقناع وبصيرة ورضا، ولم يرد له الدخول في الدين مكرهاً مرغماً مقسوراً، ذلك أن الدين في الإسلام ليس كلمة أو كلمات تقال باللسان، وليس طقوساً أو أعمالاً تؤديها الأبدان، بل هو انفتاح القلب لحقيقة الإيمان بالله، وطمأنينة النفس لهذه الحقيقة، واقتناع العقل وتصديقه بها. ولقد عامل النبي ﷺ (بالتطبيق العملي) أهل الذمة من غير المسلمين تعاملًا راقياً.

في «السيرة»^(٢) لابن هشام أن وفد نجران - وهم من النصارى - لما قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة، دخلوا عليه مسجده بعد العصر، فحانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم»، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم.

ويعقب ابن القيم على هذه الحادثة بقوله: «جواز دخول أهل

(١) البقرة، الآية (٢٥٦).

(٢) انظر: «السيرة» لابن هشام (١١٤/٣).

الكتاب مساجد المسلمين، وتمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين، وفي مساجدهم أيضاً، إذا كان ذلك عارضاً، ولا يمكنون من اعتياد ذلك».

وروى أبو عبيد في «الأموال» عن سعيد بن المسيب: أن رسول الله ﷺ تصدّق بصدقة على أهل بيت من اليهود، فهي تُجرى عليهم^(١).

وتسمو نفسُ رسول الله ﷺ، فتقوده خطواته لعيادة غلام يهودي كان يخدمه، وفي ذلك يقول أنس رضي الله عنه في الحديث الذي رواه البخاري: كان غلامٌ يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أسلم»، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال: أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»^(٢).

فيا للرسولِ الإنسان العظيم! ويا للداعية الهادي اللبّ الحكيم!

وروى البخاري أيضاً: «أنَّ النبي ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله»^(٣)، ولو أراد النبي ﷺ أن يستقرض من أصحابه لسارعوا إليه مستميتين لبلوغ هذا الشرف، ولكنه أراد أن يعلم المسلمين التعامل مع أهل الكتاب، ويزيل الحاجز النفسي بين المسلمين وأهل الذمة.

(١) ذكره الزيلعي في نصب الراية (٢٨٧/٢) وعزاه لابن زنجويه من كتاب «الأموال» عن سعيد بن المسيب مرسلاً.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٥/١) عن أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٨٨٧/٢) عن عائشة رضي الله عنها.

ومعروف أنَّ النبي ﷺ قبل الهدايا من غير المسلمين، واستعان بهم حين ضمن ولأهم ولم يخش منهم كيداً أو شراً.

ومرت به جنازة فقام واقفاً، فقليل له: إنها جنازة يهودي، فقال: «أليست نفساً؟»^(١).

وننظر في سيرة الصحابة والتابعين، فنجد هذه السماحة الواسعة في معاملة الذميين غير المسلمين الذين يعيشون معنا بسلام ودون قتال، تأسيساً بصنيع رسول الله ﷺ.

يقول الإمام الجليل القرافي رحمه الله في تفسير قول تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢). «معنى البر: الرفق بضعيفهم، وسد خلّة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وكساء عاريهم، ولين القول لهم، واحتمال أذيتهم في الجوار، لطفاً منا بهم، لا خوفاً ولا طمعاً، والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم، في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحتهم، وأن يُعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم إلى جميع حقوقهم»^(٣).

هذه مقدمة هادئة، لمواقف ساخنة، تهدف إلى توضيح حقيقة

(١) أخرجه البخاري (٤٤١/١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) الممتحنة، الآية (٨).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣٧٣/٤ - ٣٧٤).

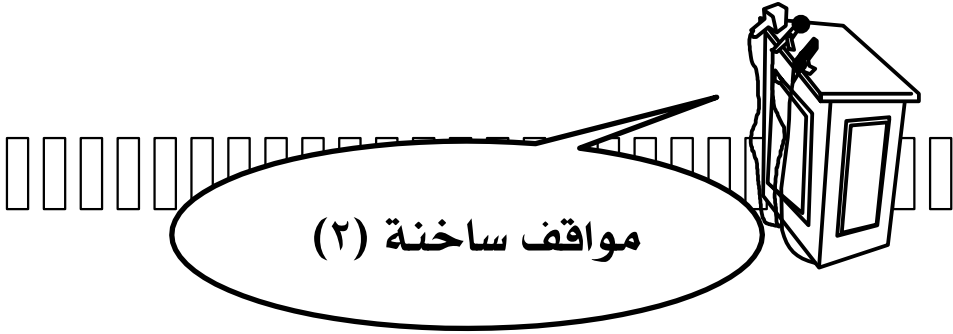
المجتمع المسلم الذي ينشده الإسلام، وكيفية تعامل أهله مع أنفسهم ومع غيرهم...

وترنو إلى محاولات جادة للتغيير بعد معرفة هذه الحقائق التي ستصطبغ بالنصوص الثابتة والشواهد التاريخية الساخنة...

فيا ترى ماذا سنكتشف في هذه المواقف؟

وهل يا ترى سيتغير شيء من تفكيرنا وطريقة تعاملنا...؟ ربما.





مواقف ساخنة (٢)

ذكرت في السابق أن النبي ﷺ استطاع في صلح الحديبية في السنة السادسة أن يأتي بجمهور ضخّم من قبائل العرب ويضمّهم إلى دائرة الإسلام. حدث هذا في فترة قصيرة... في سنتين فقط. في حين أن الأعداد التي دخلت قبل صلح الحديبية بست سنوات من الصلح كانت أقل من ذلك. وهذا ما كان يدعو للعجب والتساؤل...

ما هو السر في دخول هذه الأعداد الضخمة من القبائل في الإسلام في فترة الصلح، وفي مدة قصيرة، وبأضعاف الأعداد التي أسلمت خلال الفترة الطويلة قبل الصلح مع قريش؟ حتى إن أساطين قريش دخلوا في دين الإسلام كداهية العرب عمرو بن العاص، وسيف الله المسلول خالد بن الوليد، والقائد الفذ عثمان بن أبي طلحة، وغيرهم.

وقلت: إنّ السبب الرئيس في ذلك هو طريقة التعامل الراقي المبني على المنهج الرباني الذي وجده أفراد تلك القبائل من المسلمين الذين طبّقوا المنهج النبوي بالتلقي، والفهم الصحيح الشامل له. يعني باختصار: الفهم الصحيح الشامل للدين، والتطبيق العملي الصحيح له.

وكنت قد ذكرت شيئاً من المواقف الساخنة التي كانت بين

المسلمين وغير المسلمين، والتي تبين التعامل الإنساني الراقي الحضاري الذي لا يخطر ببال إنسان أبداً.

واسمحوا لي الآن أن أكمل هذه المواقف الرائدة الراشدة لتروا وتلاحظوا روعة هذا الدين وجماله، وسر قوته وتأثيره... ولتكتشفوا بأنفسكم ذاك السر الذي ذكرته أنفاً من تعامل المسلمين الإنساني الإسلامي مع غير المسلمين...

لقد تم التعامل مع غير المسلمين من المشركين أو الكتائبين الذين لم يقاتلونا ولم يرفعوا علينا سلاحاً ولم يعينوا أحداً علينا، تعامللاً لا يمكن تصوره...

فهذا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يفرض الجزية على قوم من النصراني، ويكتب لهم كتاباً في ذلك، فطلبوا منه أن يستبدل بالجزية اسماً آخر، علماً بأن كلمة الجزية موجودة في القرآن: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(١)، فوافقهم أمير المؤمنين عمر على هذا، ولم يرَ في ذلك بأساً، ولم يبال بتغيير الكلمة القرآنية كطلب ما دام معناها باقياً مطبقاً!

وكان رضي الله عنه يقف على حوائج الناس فيقضيها ولو كانوا كفاراً ما داموا ضعفة مسالمين أو معاهدين، لم يرفعوا سلاحاً ولم يعينوا على ظلم، وكان رضي الله عنه يحزن على حالهم، بل وتسبقه عبرته إن وجد منهم مظلوماً أو محروماً! حتى إنه وجد نصرانياً أعمى فرضت عليه الجزية، وهو يمشي في الطريق وحده، فقال له عمر الفاروق رضي الله عنه: يا هذا، والله ما أنصفناك!

(١) التوبة، الآية (٢٩).

إنه نصراني كتابي كافر! ومع ذلك... نحن الذين لم ننصفك ولم نعطك حقك!! نعم نحن المسلمين...

ثم أمر رضي الله عنه أن يكون له خادم يقوده لحاجاته على نفقة بيت مال المسلمين، وأن يعطى كذلك راتباً شهرياً ليعيش كريماً في الحياة.

إنه إنسان يحتاج إلى ما يحتاجه أي بشر من المعاملة الحسنة، والمعيشة الإنسانية الطيبة...

إن اختياره للدين أمر خيرَه الله فيه، ولم يرض سبحانه أن يُكرَه أحدٌ على دين لم يرغبه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(١).

أما في التعامل الديني الذي بين البشر فإنه لا إكراه، لا قسر، لا قسوة... وأما في الآخرة فالأمر منته، ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾^(٢).

ولقد رأيت أكثر من مائة آية قرآنية تترك حرية التدين للضمير الإنساني، وتعرض الإسلام عليه عرضاً حرّاً.

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾^(٣).

ويمرُّ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بقوم من النصارى مرضى لا يعملون، فيأمر بمساعدة إنسانية اجتماعية لهم من بيت مال المسلمين.

(١) البقرة، الآية (٢٥٦).

(٢) المائدة، الآية (٧٢).

(٣) الكهف، الآية (٢٩).

عمر رضي الله عنه الذي كان يقدم كل هذه الخدمات الإنسانية لهؤلاء الكفار من أهل الذمة، يُقتل غدراً وظلماً على يد رجل من أهل الذمة هو أبو لؤلؤة المجوسي! وتأملوا هذا الموقف الرهيب الساخن. بينما عمر في لحظات الموت والنزع، وقد علم من قتله، بينما يتجرع مرارة الأسى والألم بسبب طعنة فاجرة، على يد رجل فاجر، يقول عمر: «أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً، أن يوفي بعهدهم، وأن يُقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفهم فوق طاقتهم».

الله أكبر، خشي أن يظلم هؤلاء الكفار من أهل الذمة الذين لا ذنب لهم، وأن يؤخذوا بجريرة رجل منهم، وهم في أعمالهم ومشاعلهم. أي رقي إنساني هذا؟! أي تعامل أخلاقي هذا؟! أي عظمة؟! أي روح؟! أي دين رائع يأمر بهذا؟!

عمر هذا الذي أحسن إليهم طول حياته، ولم يزل يحسن إليهم بتوجيهاته بعد مماته.

أحسن إلى أهل الذمة، إلى الكفار طوال حياته. ومع هذا يُقتل بيد أحدهم، ولم يزل وهو مضرج بدمه يوصي بأهل الذمة خيراً، ليبين أن خطأ أحدهم لا يعفي المسلمين من المعاملة الحسنة مع بقيتهم، بالله عليكم أين تجدون مثل هذه الأخلاق؟ أين تجدون مثل هذه الأدواق الرفيعة؟

ويكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه عهداً إلى أهل إيلياء «القدس» أكد فيه حرمتهم الدينية وحرمة معابدهم واحترام شعائهم، جاء فيه:

«هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان،

أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسائر ملّتها، لا تُسَكَنُ كَنَائِسُهُمْ، ولا تُهْدَم ولا يُتَقَصُّ منها، ولا من حَيِّزِها، ولا من صليبها، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكْرَهُونَ على دينهم، ولا يُضَارُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود...»!

وكتب خالد بن الوليد عهداً لأهل عانات جاء فيه: «ولهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاؤوا من ليل أو نهار، إلا في أوقات الصلاة، وأن يُخرجوا الصلبان في أيام عيدهم»!

إن هذا التسامح مع أهل الذمة من قوم فتحوا البلاد وتم لهم النصر والغلبة، ظاهرة تاريخية لا نظير لها في تاريخ الأديان.

ويأتي عمر ليجلّي حقيقة روح الإسلام، روح التسامح الإنساني الحضاري الراقي حينما أمر بصرفٍ عطاءٍ دائمٍ لليهودي وعياله من بيت مال المسلمين ثم يقول: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَصَّدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾^(١)، وهذا من مساكين أهل الكتاب.

والله تعالى يقول عن المؤمنين: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾^(٢)، ولم يكن الأسير حين نزلت هذه الآية إلا من المشركين.

لا أدري والله، يا أيها الإخوة هل أكمل الحديث أم أوقفه، فما أكثر القصص والمواقف الساخنة العجيبة التي تدل على غياب وعينا كمسلمين عن التعامل مع الكفار الذميين المسالمين الذين لا ملة لهم،

(١) التوبة، الآية (٦٠)

(٢) الإنسان، الآية (٨).

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾^(١).

فالبر هو فعل الخير، والقسط هو العدل. هذا هو معنى ﴿أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾.

كيف فهم هذه الآية صدر الأمة الأول؟

لقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «أنه تصدق بصدقة على أهل بيت من اليهود فهي تجري عليهم حتى بعد موته»^(٢).

ويأتي وفد نجران بعد صلاة العصر يجادلون ويناقشون في أمور غيبية فيتحضر الأساقفة منهم لأداء صلاة العصر في أشرف مسجد عرفه التاريخ في المدينة، فيقوم الصحابة الكرام ليقفواهم، فيقول رسول الله ﷺ: «دعوه»، فاستقبلوا القبلة جهة المشرق فصلوا!

لماذا هذا التصرف. ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾^(٣).

وتأتي أسماء أمها المشركة الكافرة التي لا دين لها ولا ملة. فتقول أسماء لرسول الله ﷺ: إن أُمِّي قدمت وهي راغبة أن أصليها. أفأصليها؟ قال: «نعم، صلي أمك»^(٤). لماذا؟

(١) الممتحنة، الآية (٨).

(٢) ذكره الزيلعي في «نصب الراية» (٢/٢٨٧)، وعزاه لأحمد بن زنجويه في كتاب «الأموال» عن سعيد بن المسيب.

(٣) الممتحنة، الآية (٨).

(٤) أخرجه البخاري (٥/١٧٠)، ومسلم (١٠٠٣) عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

أليست الصلة بالإحسان والمودة وحسن العشرة، وجمال الذوق، وعذوبة الألفاظ، وكريم المعاملة؟

ويكون الموقف ساخناً الآن حين نعلم الأمر الإلهي العظيم في جواز نكاح المسلمين للكافرات من أهل الكتاب، وإذا تمت المصاهرة والزواج أفلا تكون هناك رحمة ومودة ومحبة وألفة إنسانية اقتضتها وارترضتها الشريعة؟! ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(١).

ويأتي النبي الكريم ﷺ ليبين معنى القسط مع الكفار في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾^(٢).

ففي «صحيح ابن خزيمة» أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء: «إن الله أحسن عليكم الثناء في الطهور»، وقال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨]، حتى انقضت الآية. فقال لهم: «ما هذا الطهور؟»، فقالوا: ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، وكانوا يغسلون أديارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا^(٣).

والم تأمل لكلام النبي ﷺ هذا يستنبط معاني القسط والإرشاد.

فمن الذي يفعل هذا التطهر؟ إنهم اليهود في زمانه، وكان فعلهم هذا موافقاً للفترة فاستحق مدح النبي ﷺ مديحاً له، واستحق متابعة،

(١) الروم، الآية (٢١).

(٢) الممتحنة، الآية (٨).

(٣) أخرجه ابن خزيمة (٨٣) عن عويم بن ساعدة الأنصاري رضي الله عنه.

واستحق تأكيداً. وهذا هو القسط في الحكم والقول. وهذه عظمة المسلم، وعظمة الرسول ﷺ الذي هو أسوة الخلق إلى الحق... فالحكمة ضالة المؤمن، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ (١). وهذا لون من ألوان التحضر والتطهر عرف بها اليهود من قبل.

فكان القسط في الحكم، والحكم يهدي للعدل، والعدل يهدي للحق. كما أن القسط والعدل كان هو من خلق المسلمين الأوائل، حتى وإن وقع الظلم من أحد القادة المسلمين على ذمي كافر مسالم؛ فإن والي المسلمين يستمع إلى شكوى هذا الذمي ويسارع إلى إنصافه ورد الظلم عنه.

وإذا كان الظلم واقعاً على الذمي من الوالي نفسه، أو من ذويه أو بعض رجالاته، فإن إمام المسلمين وخليفته هو الذي يستمع إلى شكوى المظلوم، ويدفع عنه الظلم.

ومن أبرز الشواهد والأمثلة على ذلك قصة القبطي مع عمرو بن العاص والي مصر وابنه، حين استشاط ابنه غيظاً من القبطي لأنه سبقه، فضربه بالسوط قائلاً: خذها وأنا ابن الأكرمين. فما كان من القبطي إلا أن سارع إلى السفر إلى المدينة وشكا أمره إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاستدعى الخليفة عمرو بن العاص وابنه، وأعطى السوط للقبطي وقال له: اضرب ابن الأكرمين، ولما انتهى من ضربه قال له عمر: أدرها على صلعة عمرو، فإنما ضربك ابنه بسلطانه، فقال القبطي: إنما ضربت من ضربني. ثم التفت أمير

(١) المائدة، الآية (٨).

المؤمنين عمر إلى عمرو بن العاص، وقال كلمته المشهورة: يا عمرو، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!

لقد أصبح الناس في ظل حكم الإسلام الحق يحسون بإنسانيتهم ويشعرون بكرامتهم، حتى إن أحد أفراد الرعية لم يطق أن تُوجّه إليه لطمة بظلم، فركب المشاق وتحمل عناء السفر من مصر إلى المدينة المنورة ليأخذ حقه من الظالم، وهو على ثقة ويقين أنّ حقه لن يضيع، وأنه سيجد من يسمع شكايته ويرد ظلامته، في حين كانت تقع آلاف من مثل هذه الحادثة في كنف الدولة الرومانية، فلا يجروء أحد أن يحرك ساكناً.

فقد شكّا أحد رهبان النصارى في مصر إلى والي المسلم أحمد بن طولون أنّ أحد قواده ظلمه وأخذ منه مبلغاً من المال بغير حقه، فما كان من ابن طولون إلا أن استدعى هذا القائد، وأنّبه على فعلته، وأخذ منه المال وردّه إلى صاحبه الذمي، قائلاً له: لو ادّعت عليه أضعاف هذا المبلغ لألزمته برده لك! وهكذا كان والي المسلم ابن طولون يسمع لشكوى كل متظلم، ولو كان من كبار رجال الدولة.

وقد تُحجب ظلامةُ الذمي فلا تصل إلى والي أو الخليفة، أو يكون الخليفة في عهود الانحراف والشرود والتخلف بعيداً عن مستوى المسؤولية الإسلامية، ففي مثل هذه الحالة يتصدّى الرأي العام الإسلامي ممثلاً في علماء المسلمين وفقهائهم والمتدينين كافة، لرد العدوان وكف الظلم وإنصاف المظلومين من أهل الذمة.

بل يزداد الأمر عجباً ويلتهب الموقف سخونةً حين نعلم أن المفتي المسلم كان يقف مع أهل الذمة لإنصافهم من والي المسلمين!

فهذا الإمام الأوزاعي يطلب من والي العباسي في زمنه حين

أجلى قوماً من أهل الذمة من جبل لبنان، لخروج فريق منهم على عامل الخراج، أن يرجعهم إلى أرضهم، ويكتب رسالة طويلة إلى الخليفة العباسي جاء فيها: «فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة؟!».

إنني أعلم أن هذه المواقف الساخنة الغريبة العجيبة في حق قوم كفار تثير أسئلة ساخنة فهناك من سيقول:

ماذا يعني قول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾؟^(١).

وماذا يعني ما قاله الرسول ﷺ عن الكفار إذا رأيناهم في الطريق: «فاضطروهم إلى أضيقه»؟^(٢).

وماذا نقول عن فعل الرسول ﷺ وصحابته بأهل الطائف، ورميهم بالمنجنيق من خلف الأسوار، وفيهم الصغار والكبار، وقلعهم بعض مظاهر الحضارة من الشجر والنخل؟ كيف يفعل هذا بالكفار، والرسول ﷺ يقول: «لا تقتلوا شيخاً ولا كبيراً ولا طفلاً ولا امرأة، ولا تقلعوا شجراً»؟

وماذا عن فعل المستبدين والظلمة وكبت الحريات؟

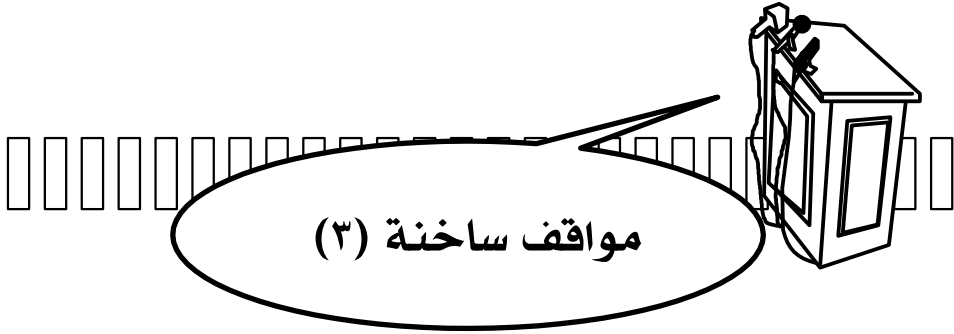
وماذا عن حال سوء المعاملة مع المسلمين، وماذا، وماذا؟

أسئلة حائرة ساخنة كثيرة، والإجابة عليها ستكون في حديث قادم.



(١) المائدة، الآية (٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٦٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



مواقف ساخنة (٣)

هذه الحلقة الأخيرة من مواقف ساخنة، اضطررنا الأيام إلى عَرَضها من جديد، إما لجهلنا نحن المسلمين بكثير من أحكام ديننا، أو عدم فهمنا الصحيح لشرائع إسلامنا، وإما لرضوخنا للألعبوبة وأكذوبة أعدائنا. والحقيقة أن كليهما مر، وأعترف نيابة عنكم أنه تحقق فينا الأمران جميعاً. فعلى مستوى فهم الشريعة، نحن في قصور، بل في قصور كبير، مع شيء من الفهم نعتز به وقد نطبقه أو لا نطبقه! كما أننا في قصور بالغ في كيفية تعاملنا مع أنفسنا فضلاً عن غيرنا...

على العموم أيها الإخوة لقد بدأنا الموضوع في حلقتين سابقتين، أثرت حولهما أسئلة كثيرة، واتصل بي كما أرسل لي البعض رسائل، أشكر الجميع على التفاعل والتفهم، ولنكمل حوارنا.

ذكرت فيما سبق مواقف ساخنة، وقصصاً مثيرة...

ورأينا كيف تعامل المسلمون الأوائل مع غير المسلمين سواء من اليهود أو النصارى المسلمين، وذلك من خلال عرض كثير من المشاهد والمواقف العملية التي تدعو للدهشة، وتزيد من لهب الموقف...

مررنا على مواقف النبي ﷺ مع الشاب اليهودي الكافر الذمي، ومعاملته الحسنة له، بل وزيارته الدائمة له في بيته! ورأينا كيف أمر ﷺ بالصدقة على بيت من اليهود فهي تجري عليهم حتى بعد مماته!

وسمعنا قصّة وفد نجران من النصارى الذين جاؤوا ليحاجّوا ويحاوِّروا رسول الله ﷺ في المسجد النبوي الشريف، فلما حانت صلاتهم (الصلاة المسيحية) أذن النبي ﷺ لهم أن يصلوا في المسجد إلى غير القبلة.

كما مررنا بمواقف خلفاء المسلمين الزاخرة بحسن العشرة والإحسان لأهل الكتاب، والشاهدة على أنّهم آمنوهم من عدوانٍ غيرهم عليهم، وتركوا لهم حريتهم الدينية، وأعطوا فقيهم من الصدقة، وحموا ديارهم وأموالهم وأعراضهم.

ورأينا موقفَ عمر رضي الله عنه المدهش لما قتله رجل ذمي كافر، هو أبو لؤلؤة المجوسي، فأوصى عمر وهو يتجرع مرارة القتل، والدم يسيل من أنحاء جسمه، وقد خرقت جسمه الطعنات، أوصى خليفته أن يستوصي بأهل الذمة من الكفار خيراً، لئلا يُظلموا بسبب خطأ فرد منهم!

وقلت: إن هذا لم يكن موقفاً أو رأياً شخصياً، بل حصل هذا مع الإمام الأوزاعي لما طرد الوالي بعض النصارى الذين آذوا وزير المال، فأمره أن يعيدهم وأن لا يعاملهم على أنهم مذنبون جميعاً.

ومن الموقف موقف ابن تيمية رحمه الله من التتار لما ذهب لقائدهم وأمره بفك أسارى الشام، ففك القائد التتري أسرى المسلمين،

ولم يفك أسرى الذميين الكفار من اليهود والنصارى. فقال له ابن تيمية رحمه الله: «لا نرضى إلا بفك جميع الأسارى من اليهود والنصارى، فهم أهل ذمتنا، ولا ندع أسيراً لا من أهل الذمة، ولا من أهل الملة، فأطلقوا جميعاً». وتطور بنا الفهم عندما تأملنا بعمق معنى كلام الله جلّ جلاله: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُّوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكم مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨). ورأينا كيف أن الله أمرنا أن نبرّهم، وأن نقسط إليهم، وجوّز لنا أن نتزوّج منهم مع ما تقتضيه هذه الرابطة الإنسانية من إحسان وعاطفة فطرية، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢).

لقد وقفنا جميعاً موقفاً مشدوهاً، كما وقفنا موقفاً حائراً...

ما قلته يعني أن علينا أن نتعامل مع الكافرين يهوداً أو نصارى من المسالمين معاملة إنسانية راقية حضارية، وأن لا نفرض عليهم شرائع ديننا، وألا نمنعهم الحق في أداء عباداتهم كاملة، وأن لا يُنتقصوا ولا يُسبوا، ولا يُشتَموا، وأن يكرموا، وأن يسهموا مع المسلمين في أعمال الدنيا، ويشاركوهم فيها دون أدنى غضاضة، وأن نؤاكلهم ونشاربهم ونتزوج منهم. وأن نتعامل بما يقتضيه هذا الزواج من تسامح ورحمة...

وأعتقد أن القصص السابقة الساخنة كانت كافية في إيضاح هذا الأمر، حتى إنّ خليفة وقائد المسلمين عليّ رضي الله عنه يقف كغيره

(١) الممتحنة، آية (٨).

(٢) الروم، الآية (٢١).

في مجلس القضاء، ويُحكم للذمي الكافر عليه! مما جعل الكافر المعتدي يدخل في دين الإسلام، لما رأى الإنصاف والعدل والحق...

وبعد: هنا تثور الأسئلة الحائرة الساخنة الملتهبة، وماذا تعني الآيات المترادفة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً...﴾^(٢) وغيرها من الآيات المحكمة.

والجواب: أن هذه الآيات الكريمة تعني الكفرة المعتدين غير المسالمين أو الذين ساعدوا على قتالنا أو ما عبر عنه القرآن ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾، فكل ما تم ذكره من قصص وأخبار هو للكافرين المسالمين الذين لم يرفعوا سلاحاً، ولم يعلنوا مساعدتهم برفع السلاح، أو تعمّد الظلم علينا.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّم مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ...﴾^(٣)؛ فهذه الولاية ثلاثة أنواع:

الأول: الولاية، بمعنى المحبة والنصرة من أجل الدين الكافر المنحرف، فهذه كفر، فلو والى مسلماً كافراً بمعنى أحبه لدينه الباطل، وناصره من أجل عقيدته المنحرفة فهذا كفر، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّم مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ﴾.

الثاني: الولاية بمعنى التعاون على أمور ومصالح دنيوية، ليس فيها إضراراً بالمسلمين، فهذه جائزة، وولاية مقبولة.

(١) المائدة، الآية (٥١).

(٢) التوبة، الآية (٨).

(٣) المائدة، الآية (٥١).

الثالث: الولاية بمعنى مساعدة الكفار ونصرتهم ليس من أجل دينهم وعقيدتهم، بل من أجل الخوف على النفس، أو الأهل، أو المنصب، أو الكرسي... فهذه كبيرة من كبائر الذنوب، وليست كفراً.

إذاً خلاصة الكلام: أن التعامل مع الكافرين في أمور الدنيا جائز، وأنهم لو كانوا في البلاد الإسلامية يعملون أو لا يعملون فلهم حق الاحترام والتعامل الراقي وأداء الواجب الذي جعله الإسلام لهم.

من هنا أيها الإخوة؛ فإنه ينبغي التعامل معهم تعاملًا إنسانياً قائماً على البر والقسط، والاحترام والعاطفة الإنسانية القلبية التي تقتضي الإحسان إلى فقيرهم، ومساعدة المحتاجين منهم، والدعاء لهم، والحرص على هدايتهم، والشفقة والرغبة في حسن الخاتمة لهم.

هذا هو منهج الإسلام مع غير المسلمين من الذميين.

ولكم أن تتصوّروا ما هي الطريقة الخاطئة التي يتعامل بها بعض المسلمين منا وللأسف مع أكثر هؤلاء المسالمين، العاملين في المؤسسات أو الشركات أو البنايات أو المصالح الأخرى.

إنّ البعض منا وللأسف يتعامل مع هؤلاء بكل إساءة، فيحتقرهم، ويدعو عليهم بمجرد النظر إليهم، ويعتبرهم نجساً في كل شيء، ولا يفرق بين من أعلن العداء والقتال وساند أعداءنا ضدنا وبين من يعيش في أكنافنا طيباً سمحاً خلوقاً.

إنّ نظريّة التكهرب هذه ورثناها خطأ، وهي بحاجة للتصحيح الجاد وفق المنهج الصحيح!

ويدخل في هذا (التكهرب) فهم النصوص بطريقة خاطئة وتعليقها بغير مناسبتها، ومن ذلك قوله ﷺ: «لَا تَبْدَأُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ

وَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي الطَّرِيقِ فَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَضِيقِهِ». فليس معنى «اضطروهم إلى أضيقة»: أن نركب سياراتنا وأن (نسقط عليهم) كما في اللغة العامية!!! كلاً؛ إذ لو كان هذا هو المعنى، فكيف يمكن الجمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْرُوهُمْ وَنُقْطُوا إِلَيْهِمْ؟﴾ هل من البر إيذاؤهم أو التشفي منهم أو حملهم على ركوب الرصيف؟ لم نسمع أحداً من جيل السلف فعل هذا، إذاً ما المعنى؟ إليكم ما قاله الإمام القرطبي: مَعْنَاهُ لَا تَتَنَحَّوْا لَهُمْ عَنِ الطَّرِيقِ الضَّيِّقِ إِكْرَاماً لَهُمْ وَاحْتِرَاماً... وَلَيْسَ الْمَعْنَى إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فِي طَرِيقٍ وَاسِعٍ فَأَلْجَأْتُمُوهُمْ إِلَى حَرْفِهِ حَتَّى يَضِيقَ عَلَيْهِمْ لِأَنَّ ذَلِكَ أَذَى لَهُمْ وَقَدْ نُهِيتَا عَنْ آذَائِهِمْ بِغَيْرِ سَبَبٍ. اهـ.

هكذا تحقق العدالة، ويُجمع بين النصوص. أما قلت لكم أيها الإخوة إننا مصابون بداء القصور في فهم الشريعة؟

وقبل أن أنهي هذه النقطة أحب أن أنبه على أمور:

أولها: أنه لا يجوز أن يدخل المشركون ولا الكتابيون يهوداً أو نصارى أصلاً إلى الجزيرة العربية فإنه: «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان»^(١)، كما قال الرسول ﷺ.

وقد قال أيضاً ﷺ: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً»^(٢) رواه مسلم.

فلا يجوز حينئذ أن يستوطن الكافر هذه البلاد المباركة، ولا أن

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤٦٨/٦ رقم ٣٢٩٩٢) بسنده عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً، ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» (١٨٥٣١)، وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم».

(٢) أخرجه مسلم (١٧٦٧).

يقيم فيها أبداً، ولا يجوز له المرور والإقامة المؤقتة إلا لحاجة أو مصلحة شرعية «كاستيفاء دين، وغيره» أو لمنفعة مقدرة يراها الإمام فمن جاء إلى هذه الأرض لغير حاجة شرعية فإثمه على من أتى به، كما تفعله بعض المؤسسات والشركات لرخص العمالة.

ولكن ما أريد أن أنبه عليه أن دخوله الخاطئ لغير حاجة شيء، والتعامل الإنساني الراقي الشرعي شيء آخر. فإذا دخل فإن له كافة الحقوق والواجبات التي تم ذكرها.

ثانياً: في حالة دخول الكفار إلى جزيرة العرب لمصلحة شرعية فإنهم لا يمكنون من إقامة عباداتهم معلنة في أي مكان، لأنه لا دينان في جزيرة العرب.

ثالثاً: أما بقية البلاد العربية والإسلامية الأخرى، فإن الكافرين الذين يعيشون فيها تجب معاملتهم المعاملة الإنسانية الشرعية التي ذكرتها، مع ملاحظة التالي:

١ - أن يؤدوا الجزية، إذا كانت الدولة المسلمة ستلتزم بحمايتهم. والجزية مال يحدده الحاكم المسلم على حسب حالة الناس، وأن لا يأخذها من الفقير والمسكين والعاجز منهم.

وهذه الجزية إنما هي أخذ للمال مقابل حمايتهم والحفاظ عليهم، فإذا لم تحمهم الدولة الإسلامية التي يعيشون في ظلها، فلا يجوز أخذ الجزية منهم.

٢ - أن يلتزموا بالأحكام الشرعية في كثير من الأمور كشأن الدماء والأموال والأعراض.

٣ - أن يراعوا شعور المسلمين، وأن يحترموا هيبة الإسلام فلا

يسبوا ديناً ولا مسلماً، ولا يجاهروا بمعصية. كما قال أحد القادة لعمر بن العاص: «معاذ الله، أن نكون أعطيناهم العهود والمواثيق على أن يؤذونا في الله ورسوله، إنما أعطيناهم على أن نخلي بينهم وبين كنائسهم، يقولون فيها ما بدا لهم، وأن لا نحملهم ما لا طاقة لهم به، وأن نقاتل من ورائهم، وأن نخلي بينهم وبين أحكامهم، إلا أن يأتونا، فنحكم بينهم بما أنزل الله». فلما سمع عمرو بن العاص هذا من قائد المسلمين قال: صدقت.

ما سقت هذا الكلام كله لأعتذر عن الإسلام فيما يجري من مفهوم خاطئ ينسب إليه، فالإسلام أعز من ذلك، وهو لا يحتاج إلى من يعتذر عنه. إنما أردت أن أوضح المفاهيم، ولو كانت ساخنة قليلاً. أيها الإخوة... أسئلة:

أيعقل أن يُشدد الإسلام على احترام الذميين الكافرين وينسى المسلمين؟

أيعقل أن يدعو الإسلام بكل وضوح للبر والقسط مع اليهود والنصارى، ولا ندعو نحن لقول الحق والبر والقسط مع الدعاة والأخيار وطلبة العلم والمصلحين؟

أيعقل أن يشن الإسلام حرباً صارمةً ضد من يظلم أو يعتدي أو يتكلم على كافر مسالم في أرضنا، ونحن نسب ونشتم وننتقص الدعاة وطلبة العلم والمشايخ والخطباء والكتّاب، ونتقرب إلى الله بتصنيفهم؟

أيعقل أن يقف الذمي الكافر يطالب بحقه.

فيرفع الظلم عنه، ولو من خليفة المسلمين علي، ولا يمكن

للمسلم اليوم أن يفتح فمه على ظالم صغيراً أو كبيراً، ولو فعل
لتدحرج رأسه قبل أن يتم كلامه؟

أيعقل أن يوجب الإسلام على الحاكم المسلم أن يجري مالاً
لكل فرد كافر ذمي مسكين لم يجد عملاً، ويبقى آلاف الشباب
المسلمين في عطلة وبطالة، لا يجدون يداً حانية ترعاهم، وتكفيهم
مؤونة الشدة والشهوة؟

أيعقل أن يُحترم الذمي في إنسانيته فلا يُنتقص ولا يُسب ولا
يُشتَم ولا يُدعى عليه جهاراً نهاراً، ونحن نغلي غيظاً على أي غافل
جاهل من المسلمين، ونفرح بالدعاء عليه، ولا نفكر بالدعاء له؟

ورحمة الله على الإمام الصالح معروف الكرخي، عندما كان
قاعداً يوماً على دجلة ببغداد، فمر به صبيان في زورق يضربون
بالملاهي، ويشربون الخمر، فقال له أصحابه: أما ترى هؤلاء
يعصون الله تعالى على هذا الماء؟ فادع الله عليهم، فرفع يديه إلى
السماء وقال:

إلهي وسيدي، أسألك كما فرحتهم في الدنيا أن تفرحهم في
الآخرة!

فقال له أصحابه: إنما سألناك أن تدعو عليهم، ولم نقل لك:
ادع لهم!!

فقال: إذا فرّحهم في الآخرة، تاب عليهم في الدنيا.

كثير من المسلمين الغافلين، وأهل الطرب والمجون، هم بأمس
الحاجة إلى من ينتشلهم من بلائهم، ودور أهل الدعوة انتشال هؤلاء
مما هم فيه، لا الشماتة بهم ولا تركهم لشیطانهم.

أيعقل أن يبلغ سمعنا عشرات القصص عن الرعاية والشفقة والحنان على أسارى اليهود والنصارى في عهد التتار وغيرهم، ولا نسمع عمّن يرعى السجناء والمعتقلين في سجون الدول الإسلامية؟

حتى يصيح داعية الستين ولا يسمع له وهو في سجنه يروي لنا:
 أَسَمِعْتَ بِالْإِنْسَانِ يُضْغَطُ رَأْسُهُ
 أَسَمِعْتَ بِالْإِنْسَانِ يُشْعَلُ جِسْمُهُ
 أَسَمِعْتَ مَا يَلْقَى الْبَرِيءُ وَيَصْطَلِي
 أَسَمِعْتَ بِالْآهَاتِ تَخْتَرِقُ الدُّجَى
 إِنْ كُنْتَ لَمْ تَسْمَعْ فَسَلْ عَمَّا جَرَى
 وَمَضَتْ لَيَالٍ وَالْعَذَابُ مُسَجَّرٌ
 لَمْ يَعْبَوْا بِجِرَاحِهِ وَصَدِيدِهَا
 قَالُوا: اعْتَرَفْ أَوْ مُتْ... فَأَنْتَ مُخَيَّرٌ!!
 وَجَرَى الدَّمُ الدَّفَاقُ يَسْطُرُ فِي الثَّرَى
 لَا تَحْزَنُوا إِنِّي لِرَبِّي ذَاهِبٌ
 وَامْضُوا عَلَى دَرْبِ الْهُدَى لَا تَيَاسُوا
 قُولُوا لِأُمِّي: لَا تَنُوحِي وَاصْبِرِي
 أُمَاهُ حَسْبُكَ أَنْ أَمُوتَ مُعَذَّباً
 مَا خُنْتُ دِينِي أَوْ حِمَايَ وَلَمْ أَكُنْ
 يَخْشَوْنَ يَعْرَبُ أَنْ تَجُودَ بِخَالِدٍ
 يَخْشَوْنَ «أَفْرِيْقِيَا» تَجُودُ بِطَارِقٍ
 يَخْشَوْنَ دِينَ اللَّهِ يَرْجِعُ مَضْذِراً
 وَيُرُونَ كُلَّ تَكْتُلٍ يَدْعُو لَهُ
 ضَعُ فِي يَدَيَّ الْقَيْدَ الْهَبْ أَضْلُعِي
 بِالطُّوقِ حَتَّى يَنْتَهِيَ لِجُنُونٍ!
 نَاراً وَقَدْ صَبَغُوهُ «بِالْفَزْلِينَ»؟
 حَتَّى يَقُولَ: أَنَا الْمَسِيءُ... خُذُونِي!!
 رَبَّاهُ عَدْلُكَ... إِنَّهُمْ قَتَلُونِي!!
 مِثْلِي... وَلَا يُنْبِكَ مِثْلُ سَجِينٍ
 لِفَتًى بِأَيْدِي الْمَجْرَمِينَ رَهِينٍ
 لَمْ يَسْمَعُوا لَتَأْوُهُ وَأَنِينَ
 فَأَبَى الْفَتَى إِلَّا اخْتِيَارَ مَنْوِنٍ
 يَا إِخْوَتِي اسْتَشْهَدْتُ فَاحْتَسِبُونِي
 أَحْيَا حَيَاةَ الْحُرِّ لَا الْمُسْجُونِ
 فَالْيَأْسُ أَصْلُ الضَّعْفِ وَالتَّوْهِينِ
 أَنَا عِنْدَ خَالِقِي الَّذِي يَهْدِينِي
 فِي اللَّهِ لَا فِي شَهْوَةٍ وَمُجُونِ
 يَوْمًا عَلَى حَرَمَاتِهِ بَضْنِينَ
 وَبِكُلِّ سَعْدٍ فَاتِحٍ مِيْمُونِ
 يَخْشَوْنَ كُرْدِيًّا كَنُورَ الدِّينِ
 لِلْفِكْرِ وَالتَّوْجِيهِ وَالتَّقْنِينِ
 خَطِراً وَخَضْماً لَيْسَ بِالْمَأْمُونِ
 بِالسَّوْطِ ضَعُ عُنُقِي عَلَى السَّكِينِ!

لَنْ تَسْتَطِيعَ حِصَارَ فِكْرِي سَاعَةً أَوْ نَزَعَ إِيْمَانِي وَنورَ يَقِينِي!
فَالنُّورُ فِي قَلْبِي... وَقَلْبِي فِي يَدَيَّ رَبِّي... وَرَبِّي نَاصِرِي وَمُعِينِي!
سَأَعِيشُ مُعْتَصِماً بِحَبْلِ عَقِيدَتِي وَأَمُوتُ مُبْتَسِماً لِيَحْيَا دِينِي!

كل ما سبق ذكره من قصص وأخبار، كان عن أهل الكتاب يهوداً أو نصارى من الذميين المسالمين، غير المقاتلين أو المساعدين على ظلم. أما الغربيون اليوم المقاتلون، والمتحالفون معهم على قتال المسلمين تحت اسم «الإرهاب»، أما شعارات الخواجة الأمريكي وجنوده، فهؤلاء لا طريق أمامهم إلا أن يُسالَموا على شروط لا يُضَرُّ بها الإسلام ولا هم، وإلا فالطريق هو الدم!

لا لغة ولا حوار ولا تفاهم إذا رفعوا السلاح، إلا المقارعة بالسلاح، إذ لا يفلُّ الحديد إلا الحديد، ولعبة الشعارات هذه أصبحت مفضوحة. وكلمة الحرب ضد «الإرهاب» أصبحت مكشوفة ليس منا نحن المسلمين، بل حتى منهم أنفسهم.

حتى إنني قرأت مقابلة عجيبة جداً في مجلة «المجلة»، العدد «٨٦٢» مع قائد حربي سياسي أمريكي يسمى «شوارتز»، حيث سُئل في المجلة بعض الأسئلة الخطيرة والمهمة. وهذا نصها حرفياً:

قال الصحفي له: بعد حرب الخليج أكثرت أمريكا من استعمال «الإرهاب» وقال البعض: إنه حلّ محل الشيوعية.

فأجاب شوارتز: هذا صحيح، ولكن كما قلت لك إن شعار مكافحة الشيوعية خلال الخمسين سنة الماضية، كان مجرد ستار لسيطرة الشركات الأمريكية على العالم، وكان ذلك باستعمال القوة العسكرية، وبمشاركة ومعرفة جنرالات البنتاجون.

ولهذا أقول بأن مكافحة «الإرهاب» ليس إلا شعاراً جديداً، ولا بدّ أن جنرالات الجيش الأمريكي سعداء جداً لأنهم وجدوا هدفاً جديداً، ولا بدّ أنهم يعرفون جيداً دورهم التاريخي في لعبة السوق الأمريكية العالمية.

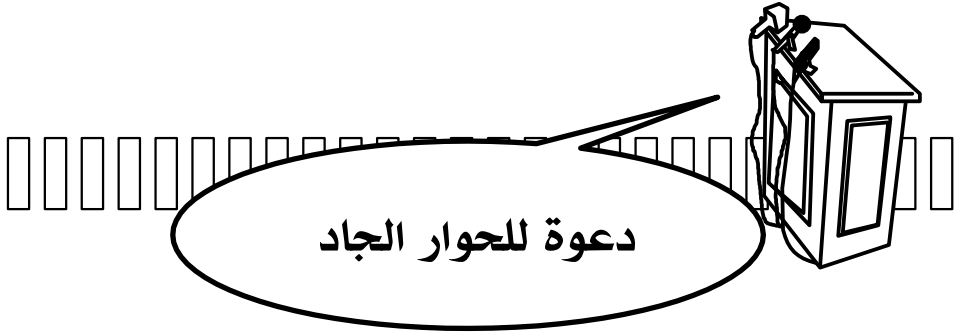
وسئل: هناك من يقول بأن أمريكا تطلق «الإرهاب» على كل من يعارض سياستها؟

فقال شوارتز: كما قلت لك، كل هذه الأوصاف زمنية مؤقتة، وتحقق هدفاً منها، ثم يأتي وصف آخر، مثلاً قبل خمسين أو ثلاثين سنة لم تكن كلمة «الإرهاب» في قاموس السياسة الأمريكية، والآن اختفت «الشيوعية» من هذا القاموس، هذه مجرد أوصاف وشعارات لتحقيق هدف أكبر.

هكذا أيها الإخوة سمعتم هذا الكلام الواضح. شكراً لهذه الصراحة من مهندس من أكبر مهندسي السياسة الأمريكية. وعلينا أن ننتظر أوصافاً جديدة في هذا العصر، تحقق أهدافهم التي صرحوا بها بأنفسهم.

إننا نحن المسلمين لا نحب الظلم ولا نرضى به، نحن مع الأمة، نحن مع المجاهدين المستضعفين، نحن ضد كل عدوان غربي. والمسميات والخداعات اللفظية أصبحت مفضوحة منهم قبل غيرهم. إذاً علينا أن نكون أكثر وعياً وفقهاً لواقعنا، والسعي للدور البنائي لتغيير هذا الوضع الراهن.





يقول المثل العربي: «كلٌ يغني على ليله». كثير من الناس في هذه الحياة يطالبون الآخرين بمطالب ويوصّونهم بوصايا، ولكنهم قد لا يقبلون هم هذه المطالب أو الوصايا من الناس! لماذا؟ لأن كلاً يغني على ليله.

كثير من الناس يطالبون الآخرين بسماع وجهة نظرهم، والتفاهم بلطف معهم، ولكنهم قد لا يسمعون لوجهات نظر الآخرين، ولا يقدرّون وضعهم، لماذا؟ لأن كلاً يغني على ليله.

كثير من الناس يطالبون بالحوار الشفاف والنقاش الهادئ المتزن، ولكنهم لا يصبرون في هذه اللقاءات والحوارات، فهم أكثر الناس رفعا للصوت وقطعا لكلام الطرف الآخر! لماذا؟ لأن كلاً يغني على ليله.

كثير من الناس يتكلمون ويكتبون وينقدون ولكنهم ينقمون على كل من حاورهم ونقد كلامهم! لماذا؟ لأن كلاً يغني على ليله.

كثير من الناس يديرون لقاءات ومؤتمرات، ويخرجون بتوصيات ولكنهم لا يطبقون ما أوصوا به الآخرين ولا يتحملون ما أمروا به الناس! لماذا؟ لأن كلاً يغني على ليله.

كثير من الناس أيها الإخوة من يقول: يجب عليكم ويجب... ويجب، ولكنه لا يسأل نفسه: هل يجب عليه ما يوجبه على الناس؟ لا أظن، لماذا؟ لأن كلاً يغني على ليله.

وهذا الذي يغني على ليله قد يكون كبيراً أو صغيراً، قد يكون رجلاً أو امرأة، قد يكون عالماً أو جاهلاً، قد يكون مسلماً أو كافراً.

هذا الذي يغني على ليله قد يكون رئيساً أو مرؤوساً، قد يكون حاكماً أو محكوماً، قد يكون مديراً أو موظفاً، قد يكون قاضياً أو متهماً، قد يكون شيخاً أو تلميذاً، قد يكون ضابطاً أو جندياً، قد يكون أباً أو ابناً، قد يكون أمّاً أو بنتاً، قد يكون كاتباً أو قارئاً، قد يكون شاعراً أو مستمعاً، قد يكون رئيس تحرير أو محرراً، قد يكون مدير برنامج فضائي أو محاوراً، قد يكون عضواً نيابياً أو مستشاراً بمجلس شورى، وقد يكون وقد يكون وقد يكون...

إن هذا الذي يغني على ليله يمارس أكثر من دوره المسموح له به، ويتوسع في الصلاحيات المتاحة له، ويكون فوق القانون، وأحياناً هو القانون ليس غيره!

ما أشد هؤلاء وما أحنقهم، ظنوا أنّهم بقوتهم ولسانهم قادرون على كسب الناس، وتصحيح الأوضاع، والسلاح نفسه العقل واللسان بهما يكسب الناس عن طريق المحبة والإقناع والأدب وإعطاء الحقوق، ولكنهم استخدموا هذين السلاحين فتسلطوا على غيرهم، وأسأؤوا ولم يحسنوا، وهدموا ولم يؤسسوا. والسلاح الذي يريدون به الإصلاح هو نفس السلاح الذي يرفعونه على رؤوس الناس!

كالعِيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

لقد عاش الكثير أحزاناً، وتجرعوا مرارات، ولاقوا ألواناً من الانتقاص والإهانة على جميع المستويات من هؤلاء الذين يسرون على نظام «كلٌ يغني على ليله»...

هؤلاء الذين يطلبون ولا يُطالبون، ويقولون ما لا يفعلون، ويتكلمون ولا يسمعون، ويدينون ولا يُدانون. ولو كان أحدهم في حجم ذبابة، وقوة نملة!

وربما كان لأحدهم اسمٌ معروف، أو كان صاحبَ نجوم وتيجانٍ على كتفيه! أو كانت له وجاهةٌ أو منزلةٌ فيظنُّ حينئذٍ أنه باتَ مطلقَ اليد، وكأنه ورث الأرض التي يملكها الله وحده! أو جاءه وحيٌّ خاصٌّ يخوله أن يفعل ما يرى ويشاء!!!

ودوننا شواهد وصور ومواقف وقصص لا تنتهي...

ومن هذه الصور أني كنت قبل فترة آتياً من الخط السريع إلى بيتي، وعند الدوار الكبير في مدخل الحي الذي أسكنه كانت سيارة شرطة فيها جنديان، فمررت بجوارهما، ومشت خلفي السيارة لمسافة مائة متر وطلبا مني أن أوقف السيارة جانباً، فاستجبتُ. فخرج جندي شاب، فطلب مني البطاقة. وسألني: لماذا لا تربط الحزام؟ فقلت له: لقد كنت رابطاً الحزام. فأصرَّ عليَّ أنني لم أربط الحزام. فسألته: أين كنت واقفاً؟ فقال: في الدوار الكبير، وكانت المسافة بيننا قرابة خمسة عشر متراً. فأخبرته أن المسافة طويلة نوعاً ما، ولعل هذا هو السبب في عدم وضوح الرؤية له. فأصرَّ على المخالفة وهو الظالم وأنا المظلوم. فرآنا جاره الجندي في السيارة، وقال لي: خذ مخالفة حتى ينتهي الموضوع، فقلت له: ولكني لا أستحق المخالفة وهذا الجندي غير مصيب. وطلبت منه مقابلة مسؤوله، وهدفي من ذلك أن لا يتعدى أحد

على الآخر، وأن لا نُسهِمَ في نشر الظلم، فاتصل بثلاث سيارات فاجتمعت وقلت لهم: هذه الحقيقة وزميلكم أخطأ في النظر ولا برهان عنده. فقال المسؤول: الجندي لا يكذب. قلت: ولكنه قد يخطئ، فسكت. وانتهى الأمر بعد نصف ساعة، على قول العامي: ما أخذوا مني حق ولا باطل! وطبعاً أنا لا أقصد جنود المرور، أعوذ بالله من ذلك، فإن منهم أهلاً وأقرباء وإخواناً في الله وفضلاء، ولكنني أنقل صورة لاستخدام بعض الوسائل في الضغط على الناس، وممارسة دور القوة بلا حق.

والسؤال: كيف سيثق المواطن في مثل هذا الجندي ومن معه، وهم يتعاملون بهذه الطريقة؟

إن كل الصحف تطالب المواطن بالتعامل الراقي في قيادة السيارة، ولكنه لا يجد هذا التعامل من الطرف الآخر! وكل الشعارات المرورية تطالب رجل الشارع والمواطن بالتقيد بالنظام، ولكنها لا تطالب رجل المرور بالتقيد بحسن التعامل، وكسب الناس! وأؤكد أنني لا أعني جهة معينة، ولا كل الأفراد.

ومن هذه الصور أنني وأنا في مكتب الجوازات في طريقي للسفر. جاءت امرأة كبيرة، تشكو حالها عند الأخ الضابط المسؤول، وأنها تريد السفر إلى بلدها في فلسطين عن طريق الأردن، لأن ولدها قد استشهد على أيدي اليهود، وأنها تأخرت عن موعد السفر والتأشيرة المحددة لها خمسة أيام، حاولت أن تراجع فيها بعض الإدارات فما تيسر لها الأمر، فقال لها هذا الأخ وأنا أنظر له: اذهبي إلى الإدارة الفلانية، ليعطوك ورقة. فقالت له: ساعدني فلقد حاولت في عدة إدارات، وأخبروني أن الأمر بعد الله بيدكم لو أردتم، فقال لها: ليس

الأمر بيدي وأنا هنا مجرد زائر، وليس هذا دوامي؛ فلما ناشدته الله وأخوة الإسلام نهرها وطردها من مكتبه، وقال: أنا لا أتكلم مع النساء، أنا أتكلم مع الرجال. نادي زوجك أو ابنك، فهنا تدخلت: وقلت له: يا أخي، من قال لك إن الحوار لا يكون إلا مع زوجها أو ولدها؟ امرأة محتشمة كبيرة السن كأهلك، تناديك وتكلمك، وتشكو لك حالها، وابنها شهيد، يا أخي ألم تتكلم المرأة في يوم الجمعة أمام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، حتى قال: أخطأ عمر وأصاب المرأة. أما قال وهي تسمع: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها^(١).

أما اعترضت سبعون امرأة على أزواجهن، وطفن بآل بيت النبي ﷺ، يشكون الأزواج الذين ضربوا أزواجهن فقال لهم: «ما أولئك بخياركم». يا أخي، اسمع لها، والنبي ﷺ يقول لأحد أصحابه المظلومين: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً»^(٢)، فسمع هذا الجندي لها ولابنها الأكبر فرقاً لها واستخدم الصلاحيات المسموحة له، فأذن بسفرها، وجاء ولدها ليقبل رأس هذا الضابط على جميل فعله وموافقته! حينها قلت لهذا الضابط: أرايت يا أخي أليس هذا خيراً من أن تستخدم قوتك وسلطتك في عقاب الناس ولو أخطأوا وأسأؤوا؟ أنت هنا يا أخي نصير للمسلمين، وميسر للمحتاجين، أنت هنا مسؤول، نصبك ولاية الأمر للقيام بالحق ولو على نفسك، ورحمة الله على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فإنه لما أرسل أبا موسى الأشعري على

(١) أخرجه سعيد بن منصور (١٦٦/١)، وعبدالرزاق (١٨٠/٦)، والبيهقي في «الكبرى» (٢٢٢/٧)، وقال: وهذا مرسل جيد.

(٢) أخرجه البخاري (٨٠٩/٢)، ومسلم (١٦٠١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أحد الأقاليم بعث له برسالة قال فيها: «إنما أنت امرؤ منهم، غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً». هذا هو منطق الحق والعدل والإنصاف والحرية السامية في مجتمع المسلمين، ليس عيباً أن يخطئ الجندي أو المسؤول أو المعلم أو الشيخ، لكن العيب أن تستخدم سلطة كل واحد منهم للتعدي على من هو دونه، وتحت مسؤوليته.

وهذا هو أمير المؤمنين الرئيس والوالي والحاكم والقاضي علي بن أبي طالب، طلب درعه المرهونة عند نصراني كافر، فأنكر النصراني، فرفع الأمر للقضاء، فطلب القاضي شريح - وفق منهج الشريعة - من أمير المؤمنين البينة التي تدل على قوله. فقال علي رضي الله عنه: ليس عندي بينة. فحكم للرجل النصراني الكافر على رئيس الدولة الأمير الجليل علي رضي الله عنه . وبهذا الموقف الرائع والحكم الإسلامي المنصف، أقدم الرجل النصراني الكافر ليقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. نعم، أعلن إسلامه لأنه رأى القول والفعل، رأى العدل على الحاكم والمحكوم، رأى الإنصاف، رأى مجتمعاً مسلماً راشداً على كافة مستوياته.

هكذا يكون الحوار الرائع، الحوار الجاد، الحوار الصادق، الحوار المنصف، الحوار العادل، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِأَلْقَاسِطِ شَهَادَةٍ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾^(١).

يا ترى... هل يحق لمجتمع أن يصف نفسه بأنه مجتمع مسلم وهو يستمع لهذه القصة ثم يخالفها؟

إنَّ الحوار يجب أن يكون على جميع المستويات والطبقات وأن

(١) النساء، الآية (١٣٥).

يمارس بالحرية المتزنة. وإذا أردنا أن ننجح ونتطور ونتعاون ونتكامل في إرشاد سفينة المجتمع، فعلينا أن نستمع وننصت بمثل ما نحاور وننقد.

وحتى يتم البناء الصحيح للحوار الجاد الرائع. فهذه إرشادات للحوار الجاد المثمر.

أولاً: يقول أحد الحكماء: «الأم التي تهز السرير بيمينها، تهز العالم بيسارها».

وأنا أقول: المجتمع الذي يتربى أفراده على الحوار بالعدل يحركون العالم نحو الحق.

ومن هنا علينا أن نُسهم في فتح الحوار الجاد مع أبنائنا وأهلينا، وأن نسمح لهم بقول ما يريدون، والاعتراض على ما يشاهدون، واختيار ما يتمنون. وكلما تعلم الصغير من صغره الحوار الشفاف والعبارات الجميلة المتزنة كلما شبَّ وهو قادر على البناء في المجتمع، والسماع للآخرين، والقدرة على التحليل الصادق، والحكم المتزن الهادئ.

اهتموا بأولادكم، حاوروهم، ناقشوهم، أيدوهم في العمل الجاد، أهدوهم الهدايا، امنحوهم كلمة طيبة، ليكونوا رجالاً قادرين على البناء في المجتمع.

ثانياً: يقول المثل الصيني: «لتكن قوسك مهياة، ولكن أجّل إطلاق السهم».

قبل أن تحكم على زوجتك، وأهلك، وأولادك، وإخوانك، وقد

جمعت التقارير، وقرأت الرسائل، ونظرت للمواقف، واستمعت للآخرين، توقف، ثم توقف، ثم توقف.

واسمع لأهلك أنفسهم، وأولادك، وإخوانك، تعود وتعلم أن تسمع منهم، تعود وتعلم أن تتكلم مع من وصلك الخبر عنه، اتجه إليه، واطلبه واستمع بالتفصيل منه. فوالله الذي لا إله إلا هو، لكم وصلنا ووصلكم من الكلام والتقارير والتصوير ما لا يدع مجالاً للشك، حتى إذا سمعنا من الطرف الآخر انقلب السحر على الساحر.

ومن يخبرك بشتم أخ فهو الشاتم لا من شتمك ذاك شيء لم يواجهك به إنما اللوم على من أعلمك

وتذكر دائماً أن بعض التصرفات قد يكون مردها إلى سنٍّ معين، أو لحظة معاناة، أو ظرفٍ صعبٍ فلا يجوز أن يجعلَ هذا الخطأ قاعدةً التعامل، وأساسَ التعاطي مع هذا الشخص.

ثالثاً: يقول أحد الحكماء: «أنت تسب امرأتك إذا امتدحت امرأة أخرى أمامها».

والذي يحاور أهله وأولاده دائماً بالنقد، والمقارنة بالآخرين، فوالله، إنما يخسرهم ويهدّ من بناء العلاقة معهم، وينسف المحبة نسفاً. هؤلاء أولادك، وأهلك، ليس كل الناس سواسية، ولا كل الأولاد على مستوى واحد. اقبلهم وذكرهم، أحبهم وعلمهم، أنصت إليهم ووجههم.

كثرة العتاب واللوم على كل تقصير وخطأ، وعدم سماع كلمة الحب ولمس دفقة الحنان، تفت في العلاقة، وتمسح المودة، وتعطل المحبة.

والأولى زرع الابتسامة، وقول كلمة المودة، والشكر في الخدمة. ما أجمل أن يسمع الأولاد والزوجة الشكر عند الإحسان كما يسمعون كلمة العتاب واللوم على التقصير.

وما أجمل كذلك أن يسمع الأب كلمة الشكر والمحبة من الولد والزوجة، ويقبّل رأسه ويده عرفاناً بكل ما يفعله من خير ومنفعة.

رابعاً: قيل: «إذا لم يكن في حوزتك غير مطرقة، فستتعامل مع أي شيء على أنه مسمار».

إذا أردت أن تتعامل بما يمليه عليك عقلك وفكرك، وحالتك ونفسيّتك، وقوتك وسلطانك، فستحتقر كل ما هو دونك، ولو كنت أباً أو تلميذاً وللأسف.

خامساً: قال أحد الحكماء: «إذا جعلت نفسك دودة على الأرض، فلا تلم من يدوسك بقدمه».

فإذا سكت عن حقك، وأغلقت باب الحوار الجاد، والنقد الهادف، وإذا لم تعبّر عما في نفسك بكل شفافية ومصداقية وحكمة، فإنك لن تقدّر ولن تحترم، وستمضي في سبيل المستضعفين ولو كنت قوياً!

وأبناء الصحوّة دعاءً إلى الله، أيقاظاً لدينه، حراساً لشريعته، لا يخبو لهم صوت في نصرة الحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بالحكمة، مهما ادلهمت من حولهم الظلمات، وتعالّت من حولهم أصوات الباطل.

يربون أنفسهم، ويصلحون ما بينهم وبين ربهم، ويعتنون

بالأقربين، لينهضوا بالتكاليف ويسعوا للاستخلاف في الأرض، وفق ما أمر الله ورسوله ﷺ.

ولذا فهم يحاوروا بالحق، ويطالبوا بالعدل. فليست عندهم مهارة إخفاء الحق، وتغطية ما يسوء، والسكوت عن إغراق السفينة.

وإنَّ أبناء الدعوة الإسلامية مطالبون كذلك بالحوار الصادق الشفاف، حتى تسود كلمتهم وتجتمع صفوفهم.

وإذا كانت معظم الدول الإسلامية لا تعترف بالحرية حتى لأبنائها... فما بال بعض أبناء الدعوة الإسلامية يضيّقون بحريات الآخرين... وبكل من يخالفهم الرأي... إن الدعوة الإسلامية لا تستحق هذا الاسم ما لم تكن التعبير الأوضح لحرية الفرد والمجتمع في بلاد المسلمين وفي كل مكان... إنَّ قبول الرأي الآخر هو سلوك إسلاميٍّ وحضاريٌّ راقٍ... يمارسه المسلم السوي مع أبنائه وفي أسرته ومع الناس، ويمارسه في مجتمعه، ويعترف به للآخرين... وكل تصور أن الفرقة والانقسام تنتج عن هذا السلوك إنما هو تصور خاطئ أملاه الكبر والعنجهية والديكتاتورية التي لا ترى للناس إلا ما يراه الزعيم الملهم.

إنَّ الدعوة التي تعترف بإنسانها، وتصور له كرامته، وتمنحه ثقته في الرأي الموافق أو المعارض، ويكون قرارها وسياساتها ما توافقت عليه الأغلبية... في جوٍّ حرٍّ كريم يشعر فيه الجميع بالأمان، والاطمئنان من أن أحداً لن يتعرض لسوء نتيجة رأيه المخالف... إن دعوة مثل هذه تستحق الاحترام وتثبت بصنيتها هذا أنها جديرة بالثقة.

ولا يُلزم الإسلام المعارضة أن تتخلّى عن رأيها أمام الأغلبية أو

السلطات الحاكمة، ولها أن تذكّر الناس جميعاً برأيها ما دامت لا تستعمل العنف في معارضتها السلطة الشرعية. لقد خرج الخوارج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فخطب فيهم بما يمكن أن يعدّ بياناً رائداً لحقوق المعارضة في الدولة الإسلامية قال: لكم علينا ثلاث:

ألا نمنعكم مساجد الله.

ولا نبدأكم بقتال.

ولا نمنعكم الفياء ما كانت أيديكم معنا.

لم يمنعهم أمير المؤمنين من أن يكون لهم رأي مخالف، وكان حريصاً على الحوار معهم مباشرة أو عن طريق من يبعثه إليهم مثل: عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، كما لم يمنعهم أن يعبروا عن رأيهم في المسجد حين قالوا بحضرته: «لا حكم إلا لله» اعتراضاً على قبوله التحكيم بينه وبين معاوية رضي الله عنهما، وإنما حاورهم وحاجّهم.

إن هذا هو منطق الحوار الجاد النافع بين كلا المتحاورين.

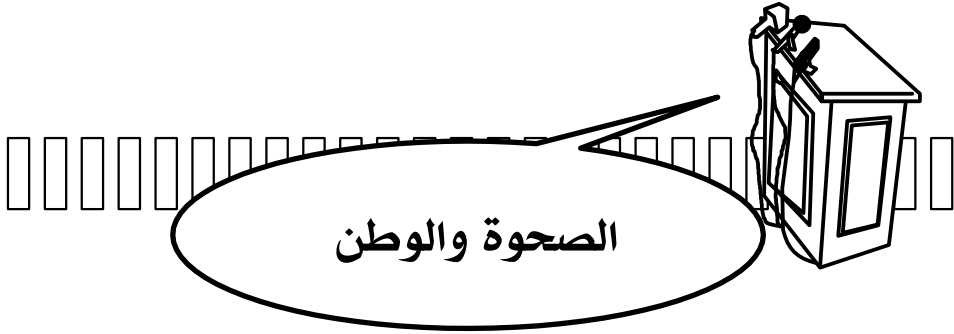
ومن روائع القصص أن أحد السلف أراد أن يحاور أخاً له في الله فقال: قبل أن نتحاور فعليك بعشر:

«أحدهما: لا تغضب. والثانية: لا تتعب. والثالثة: لا تعجب. والرابعة: لا تتحكم. والخامسة: لا تضحك. والسادسة: لا تجعل الدعوى دليلاً. والسابعة: إذا أخذنا في الأخبار كان غرضنا التصديق. والثامنة: إذا أخذنا بما في العقول انقذنا للتعارف. والتاسعة: أن يجعل كل واحد منا الحق ضالته، لا الغلبة غايته. والعاشرة: أن لا تقبل على غيري وأنا أكلّمك، والسلام».

ولو أن كل أطراف الحوار على جميع المستويات حققت هذه الأخلاق العشرة في الحوار لكانت النتائج رائعة ومسددة.

فهل يستجيب الزوجان والأبناء والأصدقاء والجيران والموظفون والمصلحون والمسؤولون لهذه الوصايا، فيكون حواراً جاداً ناجحاً راقياً حضارياً؟





هذه رسالة مملوءة بالمحبة والإخاء، ممزوجة بأحلى ينباع
الصفاء، موسومة بالصدق والشفافية، مأسورة لنعمة الأمن والعافية
والاجتماع على خدمة الإسلام والدعوة.

إنها رسالة الصحة لولاية الأمر... رسالة فيها إثبات الولاية
لهم، وأنهم ولاية الأمر، وأمراء العباد، وهم عنوان الدولة، وحراس
دعوة التوحيد، وناصرو الدعوة السلفية، وداعمو النهضة العلمية، وأن
رجالات الصحة يقررون لهم بواجب السمع والطاعة في المعروف،
والمناصحة بالحكمة والموعظة الحسنة مع الصبر على ذلك.

وأنهم مسلمون مؤمنون موحدون، يرفعون شعار الإسلام،
ويعلنون تطبيق الشريعة في كل زمان ومكان، ولهم حق الحكم في هذه
البلاد. بهم - بعد توفيق الله - تم جمع الكلمة، وإصلاح الوطن، وحقن
الدماء، واستقرار الأمان، ودوام الاطمئنان، ويوجب أهل الصحة على
أنفسهم دوام الدعاء لهم، بأن يحفظهم الله للإسلام والمسلمين، وأن
يرزقهم الله البطانة الصالحة والحاشية الناصحة. وأنهم تحت حكمهم في
خدمة الدين، وتحت رعايتهم في خدمة مصالح المسلمين. ويتعاقبون
معهم، ويتصافحون، ويدعون، وتحت راية التوحيد يجتمعون.

أهل الصحوة في هذه البلاد هم سفراء ولاية الأمر في كل مكان، فخراً بإعلان تطبيق الشريعة في كل مجالات الحياة. وهم يعلنون لولاية الأمر، أنهم لو طلبوهم في ملّة أو مهمة لبذلوا الدماء والأرواح، وكانوا ألوية الحق، وفي الصفوف الأولى لخدمة دينهم ووطنهم المسلم ومليكهم المسلم.

إنهم سفراء ولاية الأمر في بلاد العالم يفخرون بدينهم وبلادهم يفخرون بنعمة الأمن والإيمان، يفخرون بانتشار الخير والدعوة، يفخرون بتماسك الصف وتكاتف الجماعة.

جزيرتنا في مقلتيك وديعة وهذي رمال الزيت مسك وعنبر

إن رجالات الصحوة مع ولاية الأمر، يهتمهم ما أهم المسلمین، ويصيبهم ما أصابهم... وما حادثة الرياض الأولى والأخيرة عنهم ببعيد. يشاطرونهم الأسى، ويبادلونهم العزاء، بكل صدق وأمانة، فالأرض أرضهم، والمسلمون إخوانهم، أرض الرياض أرضهم، كأرض الحجاز الطاهر، وأرض الجنوب والسراة، وأرض الشمال والشرقية، كلها أرضهم، همها همهم، وحزنها حزنهم، ومصابها مصابهم، وأهلها أهلهم، أليسوا منهم وهم منهم؟ أليسوا إخوانهم وأبناء وطنهم؟ أليسوا أهل كرامة يألّمون لما أصاب الرياض وأهلها؟ إنهم ليرسلون إليها العزاء قائلين:

سلامٌ رياضَ الحب جئتكَ حاملاً	همومي وفي قلبي حنينٌ وأشواقُ
مددت إليك الكف والقلب خافقُ	فلله قلب بالمحبة خفاقُ
ركبت حصاني دون سرج وماله	لجام ومثلي في الميادين سباقُ
فلما وَضَعْتُ الرحل عندك أمطرت	عيوني من البلوى وخانتني الساقُ
وألقيت نفسي بين كفيك صامتاً	وفي مقلتي عن غير وجهك إطراقُ

يا أرض نجد، حرام والله ما أصابك، وظلم ما حدث لك،
وجريمة في حق من انتهك عرضك، ودنس أرضك، وأسأل دمك،
وعبث في رحابك، ونحن على العهد الطاهر محبون لك، داعون الله
أن يأجر المسلمين فيك.

نحن أدري وقد سألنا بنجد أقصير طريقنا أم يطول
وكثير من السؤال اشتياق وكثير من رده تعليل
يا أرض نجد، (لا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا على مصابك
لمحزونون).

إن أبناء الصحو الإسلامية الراسخة في هذه البلاد ليستنكرون ما
حدث، ويشنعون على من دمر وهز الأرض ظلماً وعدواناً. وإن كان
أبناء الصحو لا يتوقعون من مسلم عاقل راشد، يدين بالولاية لله ثم
لمن ولاهم الله هذه البلاد أن يفعل ذلك. وإنهم ليتمنون أن تظهر
الأسماء الحقيقية، ليُعرف الجاني الذي تعدى على حرمت المسلمين،
وقتل الأبرياء والمستأمنين في شهر الله الكريم.

يا ولادة الأمر في هذه البلاد الطاهرة... لكم حق الشريعة،
وعلى الصحو طاعتكم في المعروف، وإنها لا تنسى الفضل بعد الله
لكم في ما فعلتم وتفعلون، وقلتم وتقولون.

إن أبناء الصحو مع مليكهم وهو يعلن أننا مع المسلمين في كل
مكان، ولن نتوانى يوماً في خدمة أهل الإسلام في أي أرض. إنهم
معك - يا ولي الأمر - يؤيدونك ويشدُّون على عضدك، هم مع
المسلمين في كل مكان في فلسطين، والشيشان، والفلبين، وأفريقيا،
والعراق، والمغرب العربي، وكشمير، والصومال، واللاجئين
المستضعفين في كل أرض.

إنَّ شباب الصحوة معك وأنت تصرِّح أن لا تنازل عن المقدسات وحقوق المسلمين مهما كان الثمن، وهم كذلك مهما كلفَّ الثمن، لتجدنهم وراء كل حق للمسلمين يبذلون الغالي والرخيص، لتجدنهم في أعالي الجبال، وأعماق البحار، وفي ساحات الأرض الواسعة سهولاً وهضاباً يدافعون عن الحق، ولا يتنازلون عن المقدسات، ولا يرضخون للظلمة الفجرة، ولا المعتدين الخونة، ولا المنافقين السفلة، قد نذروا حياتهم لكلمة الحق، ودعوة الحق، والوصول للحق، ولو كان الحق في قطع رقابهم.

أما كانوا يوماً حماة الوغى لما نادى ولي الأمر بالمدافعة عن حق المسلمين في أفغانستان عند الاعتداء الغاشم الأحمر الشيوعي؟
أما كانوا حراس البلد عندما اعتدى البعثي الغاشم على أرض الكويت المسلمة؟

أما كانوا جنوداً ينتظرون إشارة ولي الأمر ليدافعوا عن أهلهم وأرضهم في ذلك الوقت؟

وإنَّ شباب الصحوة مع أميرهم وولي عهدهم وهو يرفع صوته ببسالة وشجاعة أن لا تراجع في دعم الأعمال الخيرية الإنسانية، ومساعدة المحتاجين، والوقوف مع حاجات المسلمين، ولو ألب الأعداء أو شدّوا الرتّة، ولو شوهوا الصورة، وجعلوه هو على رأس قائمة داعمي الإرهاب في العالم!! في محاولة بائسة لتشويه العمل الإغاثي المشرق.

نعم، هؤلاء هم شباب الصحوة... إنهم مع العمل الإغاثي والخيري، يمسحون دموع المسكين، ويخدمون حاجة الفقير، ويسدون

لوعة المحتاج، ويكسون من عَرِيٍّ، ويطعمون من جاع، ويعالجون من مرض، ينشئون جامعاً، ويبنون معهداً، ويحفرون بئراً، ويؤسسون مستوصفاً، ويربون أيتاماً، ويحفظون قرآناً، ويرعون مسلمين نشؤوا في بلدان الكفر يعلمونهم العقيدة واللغة العربية، يحفظونهم بعد حفظ الله من نصرانية كافرة، ومن حملة على الأخلاق فاجرة، ويسترونهم بعد الله بالسعي لهم في عمل يوفر لهم لقمة الحلال، أو في جامعة تعلمهم صناعة أو حرفة في مستقبل الأيام.

وإن شباب الصحوة كذلك مع الأمير ووزير الداخلية في مدافعتهم المستمرة، وكلماته الواضحة في الذب عن هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنها باقية ما بقيت هذه البلاد، وهم على هذا العهد والوعد قائمون، أمرون بالمعروف، ناهون عن المنكر، جادون صابرون، عاملون محتسبون، باذلون منفقون، عن الفضيلة مدافعون، ومن الرذيلة محذرون، وسيمضون بإذن الله ذابيين عن الحق والمعروف، قاعمين للشر والفساد.

وبعد: فهذه رسالة الصحوة لولاة الأمر، رسالة الإخلاص والصدق، رسالة النصيحة والمحبة، رسالة الالتزام بحقوق ولاية الأمر فيما يرضي الله تعالى ورسوله ﷺ خدمة للإسلام والمسلمين، وصيانة لهذا البلد الطاهر، ومنافحة ضد كل خطوة آثمة لترويع الأمنيين أو المستأمنين أياً كانت هذه اليد ظاهرة مسلمة، أو خفية كافرة مجرمة.

والرسالة الأخرى من الصحوة إلى الوطن.

رسالة إلى هذا البلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه، أرض وطننا، أرض التوحيد، والمجد التليد، والمنهج الرشيد، أرض الإيمان والقرآن، بلد الركن والمقام، والكعبة والبيت الحرام. عندنا منى

وعرفات، والمشاعر والجمرات، عندنا زمزم والحطيم، في أرضنا غار حراء، والكعبة السماء، نحن قلب المعمورة، ومهبط الرسالة، في أرضنا الحرمان، والهجرتان، والبيعتان، والسبطان، على ثرانا روى التاريخ قصته:

نحن الذين روى التاريخ قصتهم ونحن أعظم من في أرضنا ظهرا
أما ترى الشمس غارت من مكارمنا والبدر في نورنا العلوي قد سَهرَا
أليس في تاريخنا وأرض جزيرتنا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي
وخالد بن الوليد وأسامة بن زيد، وطلحة بن عبيدالله؟

ألم يظاً ترى أرضنا هذه أئمة التاريخ، وقواد الأمة، وعظماء
الدنيا، وملوك الزمان؟

ألم يجتمع في أرضنا وليس في أرض سواها المسلمون من كل
مكان وفي كل عام يلتفون حول الكعبة، ويتنقلون في المشاعر؟

ليس للزمان بدون أرضنا طعم، وليس للتاريخ بدون أرضنا رسم،
وليس للناس إذا أغفلت أرضنا اسم، نحن ضمير الأمة، وحاملو لواء
العقيدة وناصر أهل الجهاد والملة.

نحن الذين إذا دعوا لصلاتهم والحرب تسقي الأرض جاماً أحمرَا
جعلوا الوجوه إلى الحجاز وكبروا في مسمع الكون العظيم وكبرَا

في أرضنا الحجاز، أرضُ الطيبة والأخلاق الندية.

في أرضنا نجد، والبطحاء أرضُ الدعوة الأبية.

في أرضنا عسير، والسراة أرضُ الكرم والنخوة الإنسانية.

في أرضنا حائل، أرضُ الفضل والشمائل.

في أرضنا السواحل الشرقية، أرض الجد والعزائم.

في أرضنا خير كثير، وفي أهلها فضل عظيم:

وللأوطان في دم كل حرٍ يَدٌ سَلَفَتْ ودين مستحقٌ

نعم يا أيها الوطن، لك دين على كل أبناء وطنك، ولك دين مستحق خاص من كل أبناء الصحوة. وهم أهل الوفاء، سيمدونك بالعافية، ويقسمون اللقمة بين أبنائك، ويديمون السهر في عمل الخير ليقيك الله مصارع السوء، ولتبقى سماؤك أحلى سماء. ولن تتوارى الصحوة ولن تختفي يوماً يا أيها الوطن.

واعلم أن الصحوة مجموعات كبيرة من اليقظين الأخيار في هذه البلاد، تحتضنك وترعاك. ليس لأنك تراب وجبال وبحار، فهذا واجب كل إنسان محترم أن يحفظ العمران والحضارة، ولكن لأنك يا وطن في موقع خاص، لك شهودك العالمي على العالم أجمع، أحبينك لخدمة الدين، ورعاية المؤمنين، ومناصرة المحتاجين... وليست الصحوة بالمنكرة للجميل، فقد فتحت ذراعيك لتضم كل داعية طارده أهله، وتنكر له ساسته، وبقيت أنت وحدك ملجأ - بعد الله - للمستضعفين والمظلومين المأسورين. ولذا فهي تحافظ على كل حبة رمل فيك، وتتشرف بأن يبقيك الله ذخراً وعزاً لكل العالمين.

يا أيها الوطن، تلك رسالة الصحوة المفعمة بالحب الصادق لك، حب لأنك ترعى شعباً مسلماً مسالماً، وترفع شعار التوحيد الصافي، ويتحرك في ثراك رجال الدعوة والهدى الأخيار الثقات، المعتدلون الواعون.

ولا يخفى عليك يا أيها الوطن أنَّ الصحوة مجموعة بشر، منهم من يسهو ويخطئ، ومنهم من يغفل وينسى، ومنهم من يظلم ويتوانى.

ولا يخفى عليك أن كل مجتمع لا يسلم من مصيبة ولا بلية ولا حادثة، فقد حدث هذا في أظهر المجتمعات، وأفضل القرون، وفي سنوات الفضل الأولى حصل بين الصحابة شيء من قتال، واختلفت النفوس وحصلت فواجع وكوارث. ولكنها لم تدم، واستفاد منها المجتمع المسلم وعاد قوياً وأنت يا أيها الوطن، لست بدعاً، ولست في منأى عن هذا الابتلاء. اقرأ في التاريخ وانظر في حوادث البلدان فإنك ستجد سنة الابتلاء هذه في أفضل البيئات، وبين أحسن الأقوام.

ولكن يا أيها الوطن، افهم ما سيقال لك الآن، وأصغ لنصيحة إخوانك الذابّين عن حماك، أنصت إلى الذين يحبونك على وجه الإخلاص لا على وجه النفاق والمجاملة، لا ليكسبوا رضا بشر، ولا ليأخذوا درهماً أو ديناراً، ولا ليُعْطَوْا منحةً أو أرضاً، ولا ليُرفعوا درجةً أو رتبةً، بل لأنهم صادقون، يحبون لوطنهم المسلم ما يحبونه لكل أرض مسلمة.

إياك أيها الوطن، أن تشك يوماً أو ساعةً أو حتى لحظةً في أن الصحوة هي السبب في محتتك وبليتك هذه. فالصحوة العارمة في هذه البلاد معك في الحق ولن يكون معك في الحق الشامل غيرها، وتسقيك من دمها وتحملك على سواعدها حتى ترضى. وإن ما حدث من تفجيرات هو إما من فئة قليلة محسوبة ظاهراً على الصحوة، وهم مخطئون. وإما من فئة متوقعة غربية بخيوط خفية لا بدّ أن يفضح الله سرها ومكرها وتورطها.

يا أيها الوطن، إياك أن تظلم أحداً من أبنائك وأحبابك، أو أن تتورط بتعذيبهم والزج بهم في السجون، فإنك ستخسر ولا تربح، وستندم ولا تفرح.

إياك أيها الوطن أن تسلب أرضاً، أو أن تسحب جوازاً، أو تضرَّ مسلماً، أو تطارد مؤمناً، أو ترعب آمناً، أو تسطو في الليل ظلماً على حق بشر.

إياك يا أيها الوطن أن يضحك عليك العلمانيون والحداثيون الذين يصطادون في الماء العكر فيستهزئون باللحية والثوب، ويسعون لتضييق الخناق على الصحوة والتشكيك في العمل الخيري، وتوسيع الفجوة بين شباب الصحوة والعلماء والولاة. أو يقولون: ضيق على الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

لا تصغ إليهم أيها الوطن... بل قل لهم... وقل للمثبطين وقل للخائفين، وقل للآباء والمريين الوجلين:

مستحيل، مهما فسدت أحوال فئة ضالة قليلة، فقد جاءت الآيات والأحاديث تبشرنا أن الأمة لا تجتمع على ضلالة، وأنه إن ضل قوم فسيظل هناك مهتدون هادون: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (٨٩) [الأنعام: ٨٩].

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (٧١) [الأعراف:

١٨١].

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ

وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ [الفتح: ٢٨]. ﴿وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَن يُنَمِّرَ نُورُهُ
وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ [التوبة: ٣٢].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].





الأمة بين الإفراط والتفريط

يقف المسلم مع نفسه أحياناً محتاراً ومتسائلاً عن الواقع الذي يعيشه المسلمون، ومبدئاً شيئاً من النظر والتحليل حول هذا الواقع المرير، ويقول في نفسه:

متى النهوض وهذا العرض منتهك والصف مضطرب والشمل أشتات وتنطبع في مخيلته مئات الصور، وتتراقص أمامه مئات المواقف والأحداث، ويسأل مرة أخرى:

أين الخلل؟ أين مكمّن الداء؟ أين المشكلة؟

إن قلنا: إنّ المشكلة في غيرنا، صدق علينا قول الشافعي:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا
وإن حاولنا الهروب من الواقع، والسكوت عما يجري، فإن
ذاكرة التاريخ تشهد، والزمان لا ينسى ما يحصل فيه.

وإن قررنا أن نسكت عن واقعنا، ونغفل عنه، وننساه أو نحاول
أن ننساه، فإن الدنيا لا تنسى، وستكلم إن حاولنا النوم والرقاد؛ لأن
الفجر سيلاحقنا بضوئه.

وما دامت القضية قضية كلام فقد قررت أن أتكلم في هذه الخطبة، وأتحدث فيها عن الأمة بين الإفراط والتفريط، ولا أقول قول ذاك الشاعر:

لكنما هي آهات أرددها أواه لو تنفع المحزون آهات
ولكن أقول كما قال تعالى: ﴿مَعذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.
أيها الإخوة...

لقد قامت السماوات والأرض على مبدأ الميزان والعدل، وأحكم بناء الكون بهما، ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾^(١).

وأنزل الله تعالى الكتاب على مبدأ العدل والميزان، ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾^(٢).

وشرع الله تعالى الإسلام على مبدأ العدل والوسطية، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٣).

أمة قوام بنائها العدل والوسطية، وكتابتها ينزل على مبدأ العدل والوسطية.

وما يجري في ساحة الأمة الإسلامية، وأبنائها المسلمين هو تنكب عن هذا المنهج، وتطرف عن هذا المبدأ، وما قصرت الفهم،

(١) الرحمن، الآيات (٧ - ٩).

(٢) الشورى، الآية (١٧).

(٣) البقرة، الآية (١٤٣).

ولا ضاعت الحقوق، وما تفسى الداء في ضمير الأمة إلا بالإفراط أو التفريط.

دعونا أيها الإخوة الآن ننظر حال الأمة بين الإفراط والتفريط في صور حياتها المختلفة...

فعلى مستوى التحاكم للشريعة الإسلامية:

ثمت (طائفة الإفراط) التي رأت الأمة غائبة عن تحكيم جل أحكام الشريعة، في سياستها، واقتصادها، وإعلامها، ونظم تعليمها، فشنت الحملة على جميع الشعوب حاكمة ومحكومة، فوصفتها بالجاهلية، ورفعت البعض إلى درجة الكفر فاستباحت دمائهم وأموالهم. ولم تنظر إلى واقع هذه الشعوب، وما فرض عليها، وعدم إقرارها بالواقع، فحاسبته على الظاهر، وحاكمتها من غير سؤال.

و(طائفة التفريط) تريد الدين معزولاً في المساجد والمدارس الدينية، فلا دخل له في الفن ولا في القصة ولا في الرواية ولا في السينما ولا في الجمال! الدين لأصحاب العمائم، ودور الحلقات القرآنية. الدين عندهم كما يزعمون في أحكام المياه، والنكاح والطلاق. الدين عندهم لا دخل له في السياسة ولا في المصالح المشتركة مع الدول. الدين لا يتدخل عندهم في كيفية الحصول على قوت الشعوب. الدين لا دخل له عندهم في ابتكار وسائل المعيشة المتطورة، ولو اختلط الرجال بالنساء، واضطربت المفاهيم.

هؤلاء المفرطون يعيشون بهذا المفهوم، ويكتبون حول تأصيله في الشعوب، وهم يشكلون فئة منظمة التفكير، مخططة للعمل، تتمثل في العلمانيين والحدائيين وأضرابهم.

والإسلام وسط بين هؤلاء وهؤلاء، فهو شريعة كاملة ودستور شامل، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١)، وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي»^(٢).

فهو دين يحكم على الصغير والكبير وفي الصغيرة والكبيرة، وله نظره وتصوره في كل جزئيات الحياة، ما جاء ديناً يغرق في الأوحال، ويغيب عن متطلبات العصر، بل جاء ديناً يناقش قضايا الساعة ويحكم فيها. دين مسلمات عامة، وقواعد أساسية، وأحكام مترابطة، وتصورات وأحداث متوائمة، لا يخرج عنها أي حكم قديم أو جديد، وهو كذلك لا يفلت الزمام لأحد، ولم يجعل إلهاً في الأرض، ولا وكل لنبيٍّ يوحي إليه أن يحاسب البشر، وما علّق الحكم الدنيوي على نوايا البشر، بل وضع قواعد وأسساً على ضوئها يتحاكم البشر فيما بينهم. وما زاغ كثير من المسلمين إلا بسبب الجهل بها، وعدم معرفتها. أيها الإخوة...

أما على مستوى الشعوب والدول المسلمة:

(فطائفة إفراط) تريد أن تكون كل المنظمات مسلمة من أولها إلى آخرها، وكل مسؤول يتحاكم إلى جزئيات الإسلام بدون النظر في الواقع، ولا تريد أي خطأ يبرز في المجتمع لا في الإعلام ولا في أماكن المنتزهات، ولا في الشارع العام، يملأ قلبها الهم والغم إن سمعت بمنكر صنعه بشر كبيراً كان أو صغيراً.

(١) المائدة، الآية (٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

و(طائفة تفريط) تقول: ما علينا، خلّ الناس يحاسبهم ربهم، المهم أنفسهم وأهلنا، والله تعالى ما كلفنا أن نجري وراء الناس؛ فلا يريدون إرشاد قريب أو جار أو صاحب فضلاً عن عامة المسلمين. ويرون صلاحهم كافياً، وإصلاح المجتمع غير ممكن.

ودين الوسطية في هذا يقرر أنه من المتعذر وجود مجتمع صالح بتمامه، ولو وجد لما كان هناك داع للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما سلم عهد النبي ﷺ من بعض المنكرات والمخالفات، وارتكب بعض الصحابة رضي الله عنهم شيئاً من المعاصي، وحصل الخلاف بينهم. فالدين لا يقر المنكر ولا يرتضيه ولا يحب وجوده، والدين يدعو للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بوسائله المشروعة، ومن المستحب أن يجند بعض المخلصين من رجال الدعوة وشباب الصحوة أنفسهم لمساعدة رجال الهيئة، وأن يقفوا صفاً واحداً تجاه المنكرات وأن يكون هناك التنادي والوعظ لطائفة التفريط.

إننا في الدنيا كسفينة صعد عليها الناس؛ فإن تركنا البعض ينخر فيها غرق الجميع. فالتناصح والتذكير من لوازم العمل للدعاة والمصلحين.

وأما على مستوى واقع المستضعفين في الأمة:

(فطائفة إفراط) ترى واقع المسلمين المستضعفين، فلا ترى سبيلاً لنصرتهم والوقوف معهم إلا بحمل السلاح، رضي من رضي وسخط من سخط، وترى تخلف أبناء الأمة عاراً يسجل على جيئها، فحملت السلاح في غير موضعه، فصار الواقع مرأى، والذبح

والهتك والنهب للمسلمين كل يوم مما يندى له الجبين، وما وجد هؤلاء سبيلاً للتحرك إلا القتال لنصرة المستضعفين، بغض النظر عن تبعات ما قد يحدث!

وطائفة أخرى هي (طائفة التفريط) لا يعينها واقع الأمة الخانع، ترى الدماء صباح مساء، وتُسجّل على كل صحيفة ألمها وحزنها وكمدها وعزاءها وغيرتها واستنكارها وشجبها، وأنها تسهر الليل حزينة، وتصبح الصباح كئيبة! وهذا الكلام يتكرر منها عشرات السنين، والأسلحة في المستودعات ساكنة، والجنود تعلموا فن الشخير، حتى سمت بطونهم، وهم بحاجة إلى دورات مكثفة ليتذكروا كيفية تشغيل السلاح!

والأمة في ورطة بين هؤلاء وهؤلاء، فلا التسرع وسيلة، ولا الانخزال وسيلة، والمطلوب أن تبذل الأمة من أموالها ودعائها للمسلمين، وأن تحيي القضية في النفوس، وأن تدعو للاستعداد، وتتهيأ له عملياً وحضارياً وبدل أن نلعن الظلام فلنوقد شعلة.

أما على مستوى العمل والتخطيط:

(فطائفة إفراط): أغرقت الأمة في مؤتمرات ولقاءات وندوات يجلس فيها ساعات وساعات وتُصدّر قرارات هي حبر على ورق؛ فلا توجيه ولا متابعة ولا تقييم، وإنما هدر للجهد والأوقات.

(وطائفة تفريط): تريد العمل للإسلام على مبدأ البركة، والسعي وقت ما يسر الله، فُتسهم في الكسل والخمول والتخذيل.

ووسطية الأمة تكون في الدراسة الجادة، والتأمل اليقظ، وتدارك العمر، والاستفادة من خطط المؤسسات الناجحة، وحسن العمل،

وإعداد المتخصصين، والالتفات لوسائل النجاح من التخطيط السليم، والمتابعة الجيدة، والإدارة الحكيمة.

لماذا يُخطط لنا ولا نخطط لأنفسنا، وديننا علمنا كيف نخطط لأنفسنا؟ وعلمنا أن نعمل لا أن نقول: لو أنها كانت، وكانت... ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾^(١)، ثم يدعو الله متمنياً خيري الدنيا والآخرة (إذا تمنى أحدكم فليكثر).

وفي مجال التربية والأسرة:

ثمت طائفة إفراط كذلك أحكمت خناقها على الأسرة والبيت، فلا تريد للأولاد أن يتحركوا، وجعلتهم سجناء في البيوت، كأنهم ولدوا ليسجنوا، وإنما ولدوا في الدنيا ليتحركوا! وأرباب هذه الطائفة موسوسون يظنون شراً بكل جار يقرب من أبنائهم، وكل إنسان صالح يعرف أولادهم، علموا أولادهم الكبت والخوف والشك حتى من الصالحين، بل قد يمنعونهم من الصلاة إن ارتابوا في أحد، ولا يمنعونهم من الذهاب للمدارس وقد يكون في طريقهم الوحوش. والبعض لا يزال على نظام الجاهلية في القرن الأول فلا هم له إلا الصياح والخصام والضرب، ليست عنده أي وسيلة للتفاهم والحوار، حتى ولو كان ولده محقاً، فلديه قوانين لا تتغير موجودة في رأسه منذ أن ولد.

وعلى العكس تماماً فهناك طائفة تفريط، فتحت الباب لأولادها

(١) القصص، الآية (٧٧).

حتى ما تسألهم عن أي وقت قضوه، ولا عن أي مكان ارتادوه. المهم أنه يأكل ويشرب ويدرس، وإذا وصل أحد أبنائها إلى المرحلة الجامعية، وبعضهم إلى الثانوية، قال قائلهم: كبر الأولاد، وأدينا الذي علينا!

وعلى مستوى البيوت كذلك ثمت طائفة إفراط، فالزوج يقيم الدنيا ويقعدها على موقف حصل، أو خطأ صار، وكأن عشرة أو عشرين سنة هي في هذا الموقف، وكأن الأم المسكينة لم تصنع معروفاً ولم تعان من الآلام طيلة هذه السنوات، والزوجة كذلك... لأجل موقف واحد تنعّص على الزوج معيشته، وتكدره في حياته كأن قلبه قدّ من حجر، وكأنّه لم يحسن لها الدهر كله، وكأنه إنسان غير محترم، أو هو من غير بني آدم!

والوسطية في الإسلام، أن يراقب المسلم أهله دوماً، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْاً أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^(١).

مع الحب والنصح، والوسطية تقوم على مبدأ ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٢)، ومبدأ ﴿وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾^(٣) ومبدأ «فدارها تعيش بها»^(٤)، ومبدأ «فاستوصوا بالنساء خيراً»^(٥) ومبدأ:

الناس للناس ما دام الحياة بهم والسعد لا شك تارات وهبات

(١) التحريم، الآية (٦).

(٢) البقرة، الآية (٨٣).

(٣) البقرة، الآية (٢٣٧).

(٤) صحيح ابن حبان (٤٨٥/٩)، وإسناده صحيح على شرط مسلم.

(٥) أخرجه البخاري (٢٨٧/٥)، ومسلم (١٤٦٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ومبدأً:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسانُ

أما على مستوى التعامل والمعيشة:

(فطائفة إفراط)... تريد من البشر أن يكونوا سواسية، لا يخطئ أحدهم، ولا تزل له قدم، ولا يهفو هفوة، ولو تكرر خطؤه لكان مجرمًا لا مسلمًا، منافقًا لا مؤمنًا. يحكم عليه بالإعدام فلا يرى ولا يكلم ولا يسلم عليه. تقوم الدنيا لخطئه ولا تقعد!

(وطائفة تفريط)... لا تفرق بين التقي والمنافق، والمصلح والمفسد، ورفيق الخير ورفيق السوء، ولا فرق بين العاصي والصالح في الدنيا.

ودين الوسطية يقوم على معاملة البشر على أنهم بشر، حتى لو أخطأوا وتكرر خطوهم، وتمت محاكمة بعضهم. والنصح قائم بالحكمة والموعظة الحسنة، لأننا دعاة وهداة لا قضاة.

ولو تمت معاقبة الجاني، وهجر المبتدع والعاصي، فإن هذا لا يخرجهم من بحبوحة الأمة، وفقاً لضوابط الشرع السمع.

وأما في مجال الروح والقلب:

(فطائفة إفراط)... لا تريد لمسلم أن يُفرح أو يفرح، أو تبسم له شفة، ولا أن يطرب بالحلال، ولا أن يسعد بالجمال، ولا أن يلهو ساعة وساعة!

(وطائفة تفريط)... الهوى إمامها، والشهوة قائدها، والغفلة مركبها، لا يستجيبون لناصر، ويتبعون كل شيطان مريد. الدنيا

تسخطهم وترضيهم، والهوى يُصمُّهم ويعميهم. ماتت قلوبهم ثم قُبرت في أجسادهم، فما أبدانهم إلا قبور قلوبهم. قلوب خربة لا تؤلمها جراحات المعاصي، ولا يوجعها جهل الحق. لا تزال تتشرب كل فتنة حتى تسود وتنتكس، ومن ثمَّ لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً.

أغرار مغترون، يأمنون الدنيا وهي غرارة، ويشقون بها وهي مكارة، ويركنون إليها وهي غدارة. حتى فارقهـم ما يحبون، ورأوا ما يكرهون، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، ثم جاءهم ما يوعدون، فما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون.

رُبَّ امرئ من هؤلاء أطلق بصره في حرام فحرم البصيرة، ورُبَّ مطلق لسانه في غيبة حُرِّم نور القلب، ورُبَّ طاعم من الحرام أظلم فؤاده، لماذا يُحرِّم محرومون قيام الليل؟ ولماذا لا يجدون لذَّة المناجاة؟ إنهم باردو الأنفاس، غليظو القلوب، ظاهرو الجفوة؟

ووسطية الإسلام في التوازن بين مطالب الروح والجسد، والدين والدنيا، وحقوق النفس وحقوق الغير. وإمتاع العاطفة وسلامة العقل. والدين السـمـح الذي أحلَّ الحلال وأكَّـد عليه، هو الذي حرم الحرام وشدَّد عليه!

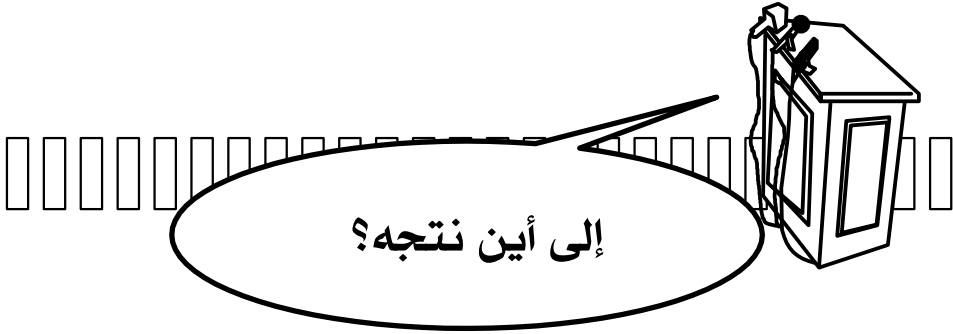
وحق الله قبل كل شيء، فالفرائض ثم النوافل. وفي ديننا، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، وفي ديننا فسحة!

ومن فهم دينه، ودرس شرعه، وقرأ سيرة نبيِّه ﷺ، فإنه سيسعد بالدنيا ولو ملك المال وأفخم الدار، لأنه مع الله، ولا يضيع له حقاً في نفس أو مال.





في شؤون المسلمين وقضايا الأمة



أتى اتجهت إلى الإسلام في بلدٍ
ويح العروبة كان الكونُ مسرحها
كم صرّفنا يدُ كُنّا نُصرفها
كم بالعراقِ وكم بالهندِ ذو شجنٍ
تجده كالطير مقصوصاً جناحاهُ
فأصبحتُ تتواري في زواياهُ
وباتَ يملكنا شعبٌ ملكناهُ
شكا فرددتِ الأهرامُ شكواهُ
إلى أين نتجه في ظل هذه الظروف الصعبة التي تعيشها الأمة؟
دلوني على الطريق؟

إلى أين نتجه، وحبال المشنقة تحز النفوس، وسجن القهر يفجر
براكين الغضب في نفوس الرجال؟
إلى أين نتجه، وفلسطين المقدسة تعتصر المر، وتصل إلى حالة
الاحتضار؟

إلى أين نتجه، وخيوط المؤامرة تحاك علناً لا سراً، وتنتقل
الطائرات الغربية بأيدي إسرائيل لتدك أرض فلسطين المعظمة، فتسقط
الضحايا، وتتعالى الصيحات، وتتوالى النكبات، وتكثر الاستغااث...
إلى أين نتجه؟

ومجلس الأمن يهودي، وهيئة الأمم يهودية، وحق الفيتو
يهودي،... فإلى أين نتجه؟

والدنيا كلها تشاهد، والفضائيات كلها تبث، والتاريخ يشهد،
يشهد المؤامرة الصليبية اليهودية، في قصف أفغانستان، وفي فلسطين.
وليلة البارحة يصرخ الأمين العام للندوة العالمية للشباب الإسلامي،
لكي يتجه المسلمون لإخوانهم في الهند، حيث يحرق هناك ٥٠٠
مسلم علناً، ولا من مجيب!

إلى أين نتجه، والأسود أصبحت تسكن في الخدور؟ وكلاب
الظلم تبلع، وذئاب الغدر تشبع؟

إلى أين نتجه؟ والمنظمات الدولية لا زالت تسجل ضحايا
فلسطين الصغار والأطفال في الأشهر الماضية...

ضياء الدين حلمي، ٣ شهور، قتل بعد إطلاق يهود الرصاص
على رأسه مع ستة من إخوانه.

إيمان محمد حجو، ٤ شهور، أسقطت يهود قذيفة كاملة فمزقت
جسدها.

ملاك جمال بركات، ٣ سنوات، تفجر البيت الذي تسكنه ومزقت
أشلاء.

عبدالفتاح جوهر، ٤ سنوات، في غزة.

عبدالرحمن حمودة، ٤ سنوات، في نابلس.

مرام عماد، ٣ سنوات، في الخليل.

هند نضال، ٣٣ يوماً، في الخليل.

سارة عبدالعزيز، ١٨ شهراً، في نابلس.

في كل مكان تمزق أجساد، وتتعالى صيحات، ويقتل أبرياء ولن

تسمع لهم أمريكا ولا أوروبا، ولا مجلس الأمم، ولا هيئة الأمم فإلى أين نتجه؟

يا قدس، معذرة ومثلي ليس يعتذر...

ما لي يدٌ فيما جرى فالأمر ما أمروا...

وأنا ضعيفٌ ليس لي أثر...

عارٌ عليّ السمعُ والبصر...

وأنا بسيفِ الحرف أتحضر...

وأنا اللهب وقادتي المطر...

فمتى سأستعر؟

متى سأستعر؟ وزعيم الكفر العالمي المجرم يقول: إن كل ما يقوم به شارون هو دفاع عن النفس، هكذا... كل ما يقوم به شارون بلا استثناء...

كل ما يجري في فلسطين المسلمة من رجم وهدم وتفجير وقتل دفاع عن النفس!

دخول الدبابات والمجنزرات إلى المخيمات التي يسكنها الضعفاء، وإدخال الرعب والهلع... كل هذا يسمّى دفاعاً عن النفس!

طائرات الأباتشي، وإف ١٦، دفاعٌ عن النفس! وحركة العملاء تحت جناح الظلام للتفاهم في عملية السلام المزيفة دفاعٌ عن النفس!

فتح الرشاشات على المسلمين من اليهود بلا رقيب ولا حسيب، والاستخبارات ومطاردة قيادي حماس وأهل فلسطين دفاعٌ عن النفس!

اعتقال ٥٠٠٠ الأسبوع الماضي في جنين، وهدم رام الله ونابلس
دفاعاً عن النفس!!

يا فرعون الزمان، يا نمرود التاريخ المعاصر. أه لو كان الأمر
بيدي، ولكن حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير!

ويأتي زعيم الكفر في الأسبوع الماضي ليخاطب شباب أمريكا
فيقول: (من المهم للشباب الأمريكي أن يفهموا أننا حين ذهبنا إلى
أفغانستان لم نذهب فاتحين، بل محررين).

إن ضرب أفغانستان، وهدم المنازل، وقصف المساجد، تحرير
أمريكي لأفغانستان الإرهابية!

إن تشريد أمهاتنا المسلمات، وإخواننا وأخواتنا في البرد، ورميهم
في الشوارع، تحرير أمريكي لأفغانستان!

إن الدموع، والدماء، والمعاناة، والألم، والصيحات والصرخات
والاستغاثات، تحرير أمريكي لأفغانستان!

الصواريخ الراجمة، واللعب بسياسات الحكم، واستغلال النفوس
بالمال، كل هذا تحرير أمريكي لأفغانستان!

واحرّ قلباه صار الحقّ ملعبةً وزخرفُ القول أضحى غاية الأملِ
كم مضّقع ذي بيان ساحر لبقٍ يكسو الأباطيل أنواعاً من الحيلِ
سِلْمٌ بديهتهُ حربٌ حقيقتهُ وحشوه دغل يطفو على دغلِ

فإلى أين نتجه؟ هل نتجه إلى أمريكا التي تدعم إسرائيل
بالمليارات وتمدها بالطائرات والسلاح لك فلسطين وأفغانستان وكشمير
والشيشان؟

هل نتجه إلى بوش أو شارون نلتبسُ العدل، وهم الذين يطالبون
بوقف العمليات الاستشهادية، والتفرغ للتصدي لعمليات الإرهابيين،
والإرهابيون - عندهم - هم شباب الصحوة، ورجال التوحيد والدعوة،
والمؤسسات الإسلامية، والحركات الإصلاحية!

هل نتجه إلى مجلس الأمن، وهيئة الأمم المتحدة التي يملك
حق الفيتو فيها أمريكا واليهود؟

هل نذهب إلى يهود العرب الذين يتجسسون على المسلمين
ويمنعون الكلام، ويكتمون الأنفاس، ويحصونها عليهم؟

إلى أين نتجه؟ إلى الحدود جهاداً ودفاعاً؟ أنى وعلى الحدود في
فلسطين حواجز عربية، وأسلاك حديدية بأيدي إسلامية!

إلى أين نتجه؟ إلى الإعلام لنصيح فيه؟ ما الجدوى ونحن لا
نجد برنامجاً مفتوحاً إلا ونعلن فيه غضبنا على كل مجرم ومتآمر. ونلعن
كل طائفة أجهضت الانتفاضة، وأخمدت الجهاد، ثم لا يكون شيء!!

يا بوش... أخبر شباب أمريكا إن شئت... وأعلن لهم بصوت
عالٍ أنك تريد أن تذهب إلى أفغانستان محرراً لا فاتحاً.

وأنا من هنا... من منبري الحرّ سأدعو شباب أمتي المسلمة كما
دعوت أنت شباب أمريكا، سأنادي شباب أمتي كما ناديت شباب
أمتك...

يا شباب الأمة، يا أبناء الصحوة، يا رواحل الدعوة...

إلى القدس هيا نشد الرحال ندوس القيود نخوض المحال
ونمحو عن الأرض فجّارها بعصف الجبال وسيل النضال

بعزم الأسود وقصف الرعود بنار الحديد ونور الهلال
إليّ إليّ أسود الفداء فما عاد يجدي مقال وقال
لقد حان يوم انتفاض الأسير ودقت طبول الفدا والنضال
ونادت ربى القدس أبطالها فأين عليّ وأين بلال؟
فهلّا سمعتم أيا إخواني حنين التراب وندب الرمال
ونوح المآذن في لوعة وآه الحصى وأنين التلال
وشعبي الأسير يسيل دماً ومسرى الرسول يئن اشتعال
غداً تشرئب القلوب إلى نشيد الحياة يهزّ الجبال
وتعلو المآذن في عزة لتعزف لحناً طوته الليال
يردد زهر الربيع الندى وتشدو البلابل لحن الهلال

والله، لسنا نحن السبب فيما يجري في فلسطين ولا أفغانستان
ولا الشيشان ولا كشمير... لسنا نحن السبب يا شباب... ولم نقبل
ولن نقبل ما يجري، ولم نسمح ولن نسمح بالسكوت. إنّ أمتكم التي
تنتمون إليها أخرجت للعالم أمة لا تموت... دينكم الذي تنتمون
إليه يدعو إلى الشمولية والكمال، ينير العقل، ويشعل مجامر القلوب،
ويهبذ الأخلاق، وينظم الحياة، ويضبط الأمم، ويقود المدنية، ويذكي
المواهب، وينشئ الرجال، ويربي القادة.

أنتم الرجال إذ قلّ الرجال. اصبروا على لأواء الحياة، وجاهدوا
أنفسكم، وأصلحوا سريرتكم، فلا يفقدكم الله حيث أمركم، ولا يجدكم
حيث نهاكم، أحسنوا في نهاركم تكافؤون في ليلكم. نحن بحاجة إليكم يا
شباب الدعوة، ويا أبناء الأمة، نحن بحاجة إلى جيل يصنع الحياة، منكم
مرب فاضل، وداعية مجدد، ومجاهد شهيد، وتاجر صدوق، وصحفي
بارع، ومفكر مبدع، وشاعر وأديب ومعلم وتقني.

تجمعوا وتكاتفوا بالمستطاع وبالمتاح، واغرسوا في ساحة الحياة فسيلةً، ولو تَلَقَّتْ الثمرَ أجيالٌ من بعدكم قادمة. فإنما يصعدون والله على أكتافكم أيها الأبطال.

قد تكون أو لا تكون هذه الجولة جولتنا، ولكن الأيام دول، فثقوا بنصر الله.

إن طريقنا لتحرير أرضنا العمل في الدعوة وتربية الأجيال.

إن طريقنا للتحرير دعم المسلمين في فلسطين بكافة الطرق الممكنة.

إن طريقنا للتحرير أن نعلي شأن الإسلام.

إن طريقنا للتحرير أن نفتح كل طرق الإسلام في السياسة والاقتصاد والتعليم والتقنية.

إن طريقنا هو ﴿إِنْ نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] وسنطلق يوماً:

من الخليج إلى تطوان تُوارُ	شعب يُزمجر في أحشائه الثارُ
طافت به ذكريات المجد فالتهمت	طاقاته باندلاع دونه النارُ
تحركت فيه روح العزم ثانية	فهبَّ لم يثنه بطش وأخطارُ
سامته خسفاً لصوص بات يدفعها	للغدر والظلم جاسوس ودولارُ
آمنت بالله... إنَّ الحقَّ منتصر	والظلمَ مندحرُ والكفرَ منهارُ
والشعبُ إن مازج الإيمان همته	فإنه لقوى الإفساد دحارُ
بالأمس هبَّ على الباغين يصفعهم	والنار من فوهة الرشاش أمطارُ

فواصل الزحف حتى نال مقصده	وعدة الشعب عيدان وأحجار
آمنت بالله إيماناً عرفت به	أن الزمان على الباغين دوار
آمنت بالله إيماناً عرفت به	أن العدو حقير الشأن خوار
إليه فلسطين للتاريخ دورته	وللحوادث إيراد وإصدار





إنَّ فلسطينَ المقهورة، المحاصرة، المتآمر عليها، المدفوع ثمنها من الخزانة العالمية، أثبتت للعالم كله المقدرة على تخطي العقبات، وتجاوز الحدود، وإثبات وجودها، رغم الظلم والسجان، رغم الجلاء والطغيان. رغم الدعم، رغم القيود، رغم الحدود، رغم المجازر، رغم المعتقلات، رغم محاولة إنهاء الأخضر واليابس، ومنع المسلمين من الصلاة، رغم الموت المحقق الذي يراه المسلم الفلسطيني صباح مساء في أحد من أهل بيته، أو في أقربائه، أو جيرانه، أو إخوانه، رغم هذا كله، خرجت رسائل عملية، وأعمال تخطيطية، تهز أركان المجرم اليهودي، وتحرق أكباد كل من وقف بصفه.

لقد ظنوا أن القتل سينهي أمة فلسطين وشعبها المسلم، ظنوا أن جذوة الإيمان خمدت أو كادت، إنهم أحكموا كل طريق، ﴿وَلَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَاهُمْ آلِهَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾^(١).

أتاهم أحفاد صلاح الدين، وعز الدين القسام، وجيل أحمد ياسين، أتوهم - بعد اعتماد على الله - على تخطيط وتدير، مع ثقة واقتحام.

(١) الحشر، الآية (٢).

لا تحسبوا التعذيب يخمد جذوتي ما ازددت غير تمسك بحبالي
 إن تجلدوا جسدي فحسبي أسوة إيذاء عمار وجلد بلال
 ضرب الرجال وهم أسارى قيدهم من شيمة الأوغاد لا الأبطال
 والليث ليس يعيبه إيذاؤه ما دام في الأقفاص والأغلال
 يا قادرين على الأذى لي هل لكم أن تستطيعوا ساعةً إذلالي
 الجسم قد يؤذى وليس بضائرٍ نفساً تعزُّ على أذى الأنذال

لقد وجد إخواننا في فلسطين أنفسهم في قلب معركة غير متكافئة، في مسلسل من العقبات والشدائد والآلام والضغط.

دعم غربي معلنٌ ورسميٌّ بمئات المليارات، مع تهجير لليهود إلى فلسطين من أنحاء العالم، وإجهاض عمليات السلام، وإيصال المعونات العسكرية المتطورة من الدبابات والطائرات والصواريخ، واستغلال الحملات الإعلامية، وتشويه صورة الانتفاضة باسم الإرهاب، وتسيير بعض أصحاب القرار بالمال، ووضع السجون والحدود والحديد، وإنشاء جهنم في الأرض من السلاسل والحميم لكل من يتصدى لشعب الله المختار!

ومع كل هذه الفلسفة العملية اليهودية الغربية، قرر الشعب الفلسطيني المسلم أن يغرس غرسه تحت قدمه، ويكتب بالدم القاني «لا استسلام»، ويعيد مجد الأمة، ويقتحم ويتوغل بعمق رغم كل الحواجز، ويصيح: انتهى الليل وراح، جاء إشراق الصباح. فكان بعد العودة إلى الله والاستجابة لأمره، وطلب الدعاء والرجاء منه؛ كان التخطيط المدروس، والتفكير الاستراتيجي المتمكن، فقلبت العمليات الاستشهادية التي خُطِّطَ لها الموازين، وصار عاليها سافلها.

وأُمطرت حجارةً من غضب، على أيدي أطفال صغار لم يتربوا

على البقاء في بيوتهم واصطدام الأقدام بعضها ببعض، بل أعلنوا ثورة الغضب، وتكاتفوا بالمستطاع وبالمتاح:

من كل صافي الروح يو	شك أن يطير بلا جناح
ممن يخف إلى صلا	ة الليل بادي الارتياح
ممن يعف عن الحرا	م وليس يسرف في المباح
ممن زكا بالصالحا	ت وذكره كالمسك فاح
ممن يهيم بجنة الـ	فردوس لا الغيد الملاح
من هممه نصح العبا	د وليس يأبى الانتصاح
يرجو رضا مولاه لم	يعبأ بمن عنه أشاح
بگاء محراب ولـ	كن في الوغى كبش النطاح
مُرّ على أعدائه	ولقومه ماءً قَراح
في الرّوع يبذل روحه	ويقول عند الغنم صاح
إن ضاقت الدنيا به	وسعته (سورة الانشراح)

إنّ الأمّة تردّد نداء العمل، وتقرب من الحقيقة كلما ودعت الكلام البائس، وأذنت لنفسها بالعمل الجاد المتقن.

إنّ على أفراد الأمّة الإسلامية جميعاً رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، أن يتعلموا فن صناعة الحياة، كما أن عليهم أن يتعلموا فن صناعة الموت. صناعة الحياة القائمة على الإيمان بالله والتوكل عليه ودعائه والأمل فيه. ثم على التخطيط الاستراتيجي، والتقير الميداني، والتوغل العميق، على المنهج الدقيق، حيث قد نبدأ بوضع بذرة في يوم، ولا يكون نتاج الثمرة إلا بعد ثلاثين سنة! كما طلب الإمبراطور الصيني من وزيره أن يزرع له شجر الأرز من أول المدينة إلى باب

قصره، فقال الوزير: إن هذا العمل الجبار بحاجة إلى عمل ٣٠٠ سنة، فقال له الإمبراطور: إذن ليس لديك دقيقة واحدة تضيعها، ابدأ الآن!

كم هي الأعمال الضخمة الكبيرة التي تحتاج إلى جهود رجال، وإلى عقود وأجيال، ونحن لا زلنا نفكر إلى الآن أننا نريد دفع الثمن وأخذ العوض في نفس اللحظة؟! كلا أيها الإخوة، يمكن أن يكون منا الغرس، وتربية أتباعنا على العناية به، ورعايته، ثم ليكن للأجيال القادمة طيب الثمر. الأجر لنا ولهم واحد. ولكن ضياع العمر والجهد يحدث عندما لا يكون التخطيط مبنياً على تسليم الراية للغير، فكم هي اللقاءات والاجتماعات والمؤتمرات؟ وكم هو رصيد الأوراق والتوصيات التي لم تضع إلا لأنها بنيت على الاستعجال في قطف الثمرة؟ وما كل ثمرة نريد بها إفراح الجيل المسلم يجب أن تكون في زمننا. فالنبي ﷺ بشر سراقه وهو يلاحقه في أشد موقف، كان يمكن للتاريخ أن يسود صفحته فيه لو قتل النبي ﷺ، ومع هذا قال له: «كيف بك يا سراقه لو أوتيت مفاتيح كسرى؟! إن مفاتيح كسرى لن تُسلم في عهد النبي ﷺ، ولا عهد خليفته أبي بكر، بل في عهد عمر! أي بعد سنين طوال. لا يهم، المهم أن تكون النتيجة واضحة. لا بد أن تُعلم الأجيال فن النفس الطويل، والتخطيط الاستراتيجي البعيد. وهذا لا يعني أن لا عمل، وأن لا ثمرة قريبة، كلا، بل لكل عمل وقته وجهده. ومن البساطة المقلقة تعليق الأمة وأبنائها بنصوص شرعية قطعية لم تفهم حقيقتها بعد.

فمثلاً، صحيح أن استعلاء الغرب وتمكينه في الأرض لا يدوم، إيماناً بالسنة الربانية، وقدّر الله الموعود، ﴿فَلَمَّا دَسَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا

هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾^(١)، إنه بضربة واحدة يمكن أن يأتي قدر الله وفي وقت واحد.

ولكننا لسنا من السذاجة بحيث نتألى على الله ونعتقد أن زوال الغرب وإجلاؤه سيتم غداً صباحاً! إذ ما زال في الغرب وفق سنن الله الكونية من العوامل ما ينسأ لهم في الأجل، ولكن هذا كله لا يغير المصير، لأنه سنة من سنن الله.

إن على عقلاء الأمة مفكرين وساسة ومؤرخين وإداريين، وعلماء شرعيين، أن ينهجوا نهج التخطيط المتقن في حياة الأمة على مستوى الأمة كامة، وعلى مستوى الأفراد كأفراد في كافة الشؤون والتخصصات. كما أن عليهم توعية الأمة بخطورة التخطيط، وضرورة تطبيقه كمنهج عملي لا مناص منه في الحياة، كل على حسب قدرته ودوره. كما أن عليهم أن يتقوا الله في تأصيل مسألة التخطيط ودراسته، على مفهوم شرعي كامل غير مبتور، أو مصلحي. وأن يربطوا نصوص السيرة بواقع الأمة، وأن يفسحوا المجال لعقليات تدرك فقه الأولويات وفقه الموازنات وفقه المآلات جيداً، وأن يُتيحوا المجال لعقليات منفتحة تمتاز بالجرأة والاقتحام والثقة بالنفس والتخطيط المتقن، مع مساهمة لنصوص الشرع، وحرص على اتحاد الصف. كما أن عليهم أن يفسحوا المجال للتخطيط الجماعي لا الانفرادي أو المزاجي. وأن يحرصوا على أن تسود نفوس لا تنطلق من منطلق التخوف في أي مجال ابتداء ما لم يكن له مبرره.

وفي الجملة، ينبغي أن يكون التخطيط مبنياً على آلياته وأسس

(١) الأنعام، الآيتين (٤٤، ٤٥).

العلمية، التي يكون لها دور ملموس في الواقع، ولو طال الوقت، ولو استغرق عقوداً من الزمان.

كما أن علينا أيها الإخوة أن نمتلك بوضوح حسن التخطيط للمستقبل في مناشط أعمالنا وعلاقاتنا المختلفة، فلا يعقل أن نتوقع أزمة قادمة، وأحدنا لا يملك مالاً ينفقه في الأزمات، وإلى هذه اللحظة لم يزل يتخبط في تربية أولاده وأسرته، وإلى هذه اللحظة لا يدري ما هو المطلوب؟ وماذا يفعل؟ وماذا يمكن أن يقدم؟

نريد أن نعلم طالب المدرسة وهو في الابتدائية هوايةً وتخصصاً وفناً يقدمه.

نريد أن نعلم المربي كيف يؤدي دوره المستقبلي والوظيفي والمالي والوجاهي.

نريد أن نعلم طالب العلم كيف يقرأ؟ وماذا يقرأ؟ وكم يقرأ؟

نريد أن نعلم فن التخطيط الطويل لأربابه.

نريد الأمة أن تتعلم، ولو كان في قاعة التعليم ابن الستين.

وهذا ما جعل «حفني ناصف بك» - أحد الرجال الذين بلغوا من عمرهم الستين - يطالب رئيس وزراء دولته، أن يفسح المجال له ولكل مجتهد لیساهم بدوره وسنّه في حركة الحياة، وأن لا يُحال على التقاعد التقاعسي! فقال له:

صاحب الدولة يا شيخ الوزارة	حاجتي إن شئت تُقضى بإشارة
نالها قبلي ألوف لم أكن	دونهم علماً ولا أدنى إدارة
ناهز الستين عمري إنما لم	أزل جمّ القوى جمّ الجدارة

وإذا لم يشك مثلي علّة هل من الحكمة أن يلزم داره؟

علينا أن لا نُسهم في تقاعس الأُمّة، وتقاعدها المبكر! وألا نترك للفضائيات الحرة السيطرة على خطط الأُمّة، وبناء أفرادها النفسي، والصحي، والاجتماعي، والأخلاقي، والسياسي، والإعلامي.

ولقد جربتم أيها الإخوة كما جربنا في أزمة الخليج الثانية، عندما احتل الغاشم أرض الكويت المسلمة. وما أصابنا حينها من رعب وهلع، وسوء تخطيط لشؤوننا الداخلية.

ولا زلت أذكر يوم ضرب الصاروخ مدينة الرياض، وكنت حينها مع الجنود، أؤدي رسالة الدين والوطن الذي هو جزء من الأُمّة، عندما ارتفعت صافرات الإنذار، كنت في منطقة «كيلو ٧»، وكان الصوت عالياً، فما كان منا إلا الفرار لبيوتنا، لأننا سمعنا من بعض العاملين معنا أن هناك إعلاناً خطيراً في التلفاز، وأنّ على كل جندي متعاون أن يرجع لبيته. وفعلاً هربنا إلى بيوتنا! وفي مساء اليوم التالي قال المسؤول: لماذا هربتم؟ قلنا: هكذا قيل لنا! فقال: أنتم الذين يفترض أن تبقوا، وتثبتوا الناس، وتحلوا المشكلات، وتساعدونا في الأزمات، لا أن تذهبوا، وما هي الحاجة لكم إذا فررتم في هذا الوقت؟!

فاكتشفت وقتها أننا كنا نتمتع بجزء وافر من الغفلة التخطيطية والسياسية!

كثيرة هي مشكلاتنا على مستوى التخطيط الفردي أو الجماعي.

ولقد ضُربنا ضربات متعددة، ونحن إما أننا لا نعلم بما يُحاك ضدنا، أو أننا نعلم، ولكن لا نعرف ماذا نفعل؟

فاتفاقيات سايكس بيكو، وخطط الاستعمار، واحتلال القدس،

وإشعال الحروب المفتعلة بين الدول الإسلامية، كان عبر خطط مدروسة. ومن العجيب أن في مؤتمر «بال» الذي كان قبل ١٩٤٨ بـ ٥٠ سنة قالوا: نريد إنشاء دولة قومية في أرض فلسطين، قبل ٤٨ بـ ٥٠ سنة، كلام كُتب ثم صمتوا ٥٠ سنة، أخذوا يخططون ويرتبون إلى أن بقوا في هذه المنطقة واحتلوا أجزاء كثيرة. ونحن الآن أيها الإخوة نضع أيدينا على قلوبنا مخافة حرب متوقعة، ولسنا ندري ماذا نفعل، وما يفعل بأممتنا؟

إلى متى يستمر الإنسان المسلم في تعثره، لا يعرف ماذا يفعل؟ ولا في أي شيء يفكر؟

لا يعرف الطالب متى يتخرج؟ ولا يعرف الكاتب متى سيكتب؟ ولا يعرف المبدع متى سيبدأ عمله؟ ولا يعرف الغافل متى سيُحكّم جوارحه؟ ولا تعرف الأمة متى سيبدأ الدور عليها؟! ويؤسفني أن نجعل الدين طقوساً عبادية، فلا نقرأ التاريخ، ولا نُقرأ علينا سياسة الرسول الكريم ﷺ في التخطيط الاستراتيجي المتميز المتقن.

هل من تأصيل إسلامي لهذا التخطيط؟ وهل من عمل تخطيطي رشيد لتدارك الوضع، ومعرفة آلياته، وأسس نجاحه على مستوى الأفراد والأمة في كافة شؤون الحياة؟

نعم، يمكن ذلك.





يحكي العربُ حواراً قديماً بين خشبةٍ ومسمارٍ.

قالت فيه الخشبةُ للمسمار: لم تشقني؟

فقال لها المسمار: سلي من يدقني!!

وحال الأمة الإسلامية اليوم كحال هذه الخشبة تماماً وذلك من

جهتين!

الأولى: أنَّ الخشب يمكن أن يستفاد منه في كثير من الأعمال النافعة، والصناعات الراقية، كما أنه يمكن أن يستخدم للحرائق أو آلات الطرب وغيرها من الأمور المضرة الفاسدة. وهكذا هي طاقات الأمة يمكن أن تفعل في الخير، ويمكن أن تفعل في الشر.

والثانية: أنَّ قطعة الخشب هذه التفت للمسمار ولم تلتفت لمن يدقّه! وكذلك نحن! عندما نلاحظ الشر في بعض المسلمين على مستوى الشباب والنساء والأغنياء والمفكرين، فإننا نتساءل: من أين أتى هذا الشر؟ وغالباً ما نتهم الصورة الأولى التي أمامنا، ولا نتنبه للصورة الخلفية والأساسية التي أوجدت ودعّمت هذا الشر. تماماً كما في

الحكاية! قالت الخشبة للمسمار: لم تشقني؟ قال: سلي من يدقني!!
صحيح أن المسمار هو الذي يقوم بتمزيق الخشب، ولكن هناك يداً
فاعلة وراء هذه العملية...

وأضرب مثلاً على ذلك: في صحيفة «المدينة» قبل عشرين كتب
الأستاذ المتألق محمد صلاح الدين في عموده الشهير (الفلك يدور)
مقالة ذكر فيها أن ثمة رسائل كثيرة تصله لتشجع أو تنقد ما يكتب،
ونقل بعض هذه الرسائل من جمهرة الناس. وكان جل هؤلاء المعلقين
يتحدثون عن مقالة «ستار أكاديمي» البرنامج التلفزيوني الهابط. وقال له
أصحاب الرسائل: لقد استنكرت وذكرى سوء مثل هذه البرامج
وناشدت وزير الإعلام والتجارة لمراقبة مثل هذه البرامج، وتوعية
النشء بها، ولكنك لم تخاطب ولم تناشد رئيس تحرير الصحيفة التي
تكتب أنت فيها والتي تنشر قبل مقالك بصفحة واحدة إعلاناً يومياً في
ربع صفحة بألوان بديعة جميلة، وبصور حيّة يدعو لترشيح الفائزين،
واستمرار الاتصال على المشاركين.

فلاحظوا المثال الذي ذكرته الآن أيها الإخوة: الصحيفة نفسها
تدعو للبرنامج وتنشر الإنكار عليه في نفس الوقت! وهذه الورطة هي
التي نشاهدها في مطارات العالم المحترمة، ومجلاتنا الثقافية المنتشرة،
في إعلان شركات التدخين! إعلانات كبيرة مثيرة، وفي آخر الإعلان،
تحذير صحي بأن التدخين يسبب أمراضاً خطيرة!!

وصدق العامة لما قالوا: «من حفرة لدحيرة ويا قلبي لا تحزن».

إذاً أيها الإخوة... إذا أردنا أن نعرف كيف شقَّ الخشب، فعلينا
أن نبحث عن الذي يطرق المسمار أو يحرك المنشار، أما النظر إلى
المسمار أو المنشار فقط فهو قصورٌ في النظر والتحليل والمعالجة.

في بيوتنا يوجد السكين وربما الساطور، فهل سمعنا عن أحدٍ قتل بهذه الأدوات؟

وعندما تحصل جريمة قتلٍ بها، هل السبب هو هذه الأدوات أم الإنسان القاتل نفسه؟

لا شك أنه الإنسان... لأن هذه الأدوات موجودة في بيوت الآلاف المؤلفة ومع ذلك لم يستعملها في سوء إلا شواذ الناس.

ولكننا عندما نوجد الخصام والنكد ومدّ اليد في البيت، وعندما نسمح بشرب المسكر والمخدرات في البيت فإننا نسهل لهذا المخدّر وشارب الخمر أن يمدّ يده للسكين ليقتل أمه أو أخته أو صاحبه لأنه بلا وعي!

وكذلك وبشكل صريح وواضح، وبمكاشفة جريئة نحن السبب الرئيسي في حصول هذه المصائب والجرائم التي تقذف حممها علينا صباح مساء.

لو أن هذا الشاب الوطني «الدلوعة» الذي يضحك مع البنات ويكشف العورات في الغرف، تمت مخاطبته من الجهات المسؤولة، ومن قِبَل السفارة في تلك البلاد لما تجرأ شباب البلد على هذا؛ لأن مثل هذه التصرفات هي الإرهاب الفكري، والانحلال الأخلاقي، الذي يشجع على نمو بذور الفساد بين شباب الأمة ويسيء السمعة للبقية، ولو أن رؤساء التحرير الذين ينشرون مثل هذه الإعلانات حذّروا من قِبَل الهيئات الشرعية والإعلامية الرسمية لما اتصل متصل ولما شارك مشارك.

المسمار والمنشار أيها الإخوة موجودان في كل حي وفي كل

شارع، وفي كل قرية وفي كل مدينة وفي كل دولة. ولكن كيف نوجد الأمان والطريقة الصحيحة لاستخدام هذه الوسائل بالشكل المناسب؟

في هذه الخطبة المهمة اليوم أودُّ أن أذكر لكم المشروع الغربي في منطقة الشرق الأوسط الذي أسميه: «المسمار الغربي» وهذا المشروع له شعار هو: «نَقُبُ السفينة من عمقها».

والمشروع الإسلامي هو «السفينة المصنوعة من الخشب»، والتي وصف بها النبي ﷺ الأمة.

وهذا المشروع الغربي الذي سأذكره لكم الآن هو المسمار الحقيقي الذي سيمزق سفينة الأمة من الداخل والخارج.

والمشروع الغربي في الشرق الأوسط أيها الإخوة مشروع معلن ومعروف. ففي (٣٠) يناير الماضي (٢٠٠٤م) نشرت صحيفة تركية خبراً مفاده أن رئيس دولة عظمى عرض على رئيس الوزراء التركي رجب أردوغان المشروع الغربي الجديد «للشرق الأوسط الكبير» الذي يمتد من المغرب حتى أندونيسيا، مروراً بجنوب آسيا وآسيا الوسطى والقوقاز، وتضمنت الخطة الحملة لفرض الديمقراطية على العالم الإسلامي، باستلهاً النموذج التركي العلماني.

وقد أكد الكاتب والمفكر الإسلامي «فهمي هويدي» أنه اتصل برئيس تحرير الصحيفة الذي أخبره بحضور وفد من الصحفيين وسماعهم لهذا المشروع الغربي. ولم يمضِ على هذه المعلومة أسبوع واحد حتى نشرت صحيفة «واشنطن بوست» في هذا الشهر بتاريخ ٨ فبراير ٢٠٠٤م تفاصيل الخطة الغربية في الشرق الأوسط.

وفي اليوم الذي يليه أي: (٩) فبراير الموافق للثامن عشر من ذي

الحجة لهذا العام ١٤٢٤هـ، نشر معهد واشنطن للشرق الأدنى تقريراً عن الخطة جاء فيه - وتنبهوا لهذا الكلام المعلن بشكل رسمي -: «سيتم البدء بالضغط على دولة عربية صغيرة لتحقيق الديمقراطية، بيد أنها ستنتظر قليلاً بالنسبة للدول العربية الكبيرة التي تربطها بها علاقات استراتيجية، سامحةً لهذه الدول «الصديقة» بإجراء إصلاحات ذاتية بطيئة».

وقطعاً هذه الخطة لا تجري لوجه الله، ولكن في سياق مصالح معروفة لترويض هذه الدول، ولتحقق فيها النموذج التركي.

وللمضي قدماً في هذه الخطة هناك إدارة تخطيط مقتدرة في السياسة الغربية لمعرفة المعالم المهمة والخطوات العملية لتحقيقها، هذا أولاً.

وثانياً: هناك ثماني دول متعاونة مالياً ومعنوياً لتحقيق هذا المشروع أطلق عليها: «قمة الثماني»، وقد وضعت هذه الدول شعاراً تجميعياً لها هو: «المبادرة من أجل الشرق الأوسط الأكبر».

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن أيها الإخوة: ما هي تفاصيل هذه الخطة؟ التفاصيل التي سيمثل كل منها مسماراً يشق سفينة الأمة. والجواب هو:

أولاً: الإصلاح الثقافي: والذي يقوم على إزالة كل ما يدعو لكرهية اليهود ودول الغرب، ونزع مصطلح الولاء والبراء، والعيش الكريم في سلام وأمان واطمئنان. وتهدف خطة الإصلاح الثقافية إلى نشر مبدأ الحرية: حرية الرأي، وحرية الثقافة، وحرية الأديان في كل البلدان.

ثانياً: الإصلاح الإعلامي: وذلك لتحسين صورة الغرب في حس العالم الإسلامي، وفي نفس الوقت تشويه صورة كل ما يدعو للإرهاب، طبعاً بالطريقة الغربية. وذلك عبر وسائل كثيرة من أهمها نشر قناة «الحر».

والعجيب أيها الإخوة أنه في العام الماضي قرأت تقريراً غربياً يقول: «إن الداعية عمرو خالد يعتبر من كبار الإرهابيين المسلمين، وذلك لأنه ينشر قصص الصحابة الجهادية الدموية، وهي طريقة لتنشيط الجهاد الإرهابي في العالم». واكتمل العجب عندما قرأت في صحيفة «الوطن» خبراً بالخط العريض والصور على مدى نصف صفحة خلاصته: أن «ديفيد كين» الموظف بوزارة الأمن الوطني اتهم الدكتورين الفاضلين «يوسف القرضاوي وطارق السويدان» بأنهما داعمان كبيران للإرهاب!!

مع أن اعتدال الدكتور القرضاوي مضرب المثل، والدكتور السويدان قد عاش بين ظهرائهم خمسة عشر عاماً، وكان نموذجاً للشخصية الإسلامية المعتدلة، بل كان من أوائل من ندد بأحداث (١١) سبتمبر، وخطورة أعمال التسرع، وأثرها على العالم الإسلامي، ومع ذلك يقول هذا المسؤول الغربي العالي الشأن: لقد راجعت أشرطة السويدان المسجلة في الفيديو عن تاريخ فلسطين، فوجدت أنه يدعم الجهاد الفلسطيني، ويرى أن فلسطين لا تحرر دون التضحية بالدماء!!!

وهكذا سنرى أسماء جديدة في القوائم الغربية لتشويه صورة المسلمين والدعاة والمليزمين.

ولا تظنّوا أيها الإخوة أنهم يقولون ذلك عن مكابرة أو بلاهة؛ بل هناك من يمسك هذا الخيط، ويجري وراءه، حتى يضع العقدة، ويسكت السنة الطهر والعفاف على جميع المستويات والطبقات.

ثالثاً: الإصلاح الاجتماعي: يقول أحد الدعاة: كنت في واشنطن يوماً ما، فأخذني أحد الإخوة إلى دار الأرشيف الوطني الأمريكي الذي تُحفظ فيه كل وثائق هذه الدولة، ورأينا في هذه الوثائق ملفاً عنوانه: (تقرير من السفارة الأمريكية في بغداد) وتاريخه: ١٩٢٨م، وفي هذا التقرير يتحدث السفير عن أخبار العوائل البغدادية التي تتعاون مع هذه السفارة الغربية في الترويج لسفور البنات، فطلب الداعية هذا التقرير على أمل أن يطلع على ما فيه، ولكن جاءت الموظفة بعد قليل تعتذر وتقول: نأسف، هذا تقريرٌ سرّيٌّ لأنّ العوائل ما زالت حية، والأمر ما زال مستمراً، ولا نستطيع أن نكشف السر!

أكثر من سبعين سنة وهم يخططون لتبديل المجتمع العراقي! وقد كان هذا. وهذه الدول منكفئة على نفسها في داخل حدودها، فما بالك بها اليوم بعد أن اختطت لنفسها بعد الحرب العالمية الثانية خطة العولمة والسيطرة على العالم؟

نحن إذاً تحت ضغطٍ اجتماعيٍّ وأخلاقيٍّ يمس مناحي الحياة جميعاً. إنهم لم يأتوا للنفط فقط - كما يقولون - بل يريدون أن يبدلوا التربيّات والمناهج والنفوس والمعنويات.

حتى إنني قرأت تقريراً عن بعض شركات المطاعم السريعة الغربية، في غاية العجب والله، وهذا التقرير رأيته في دولة خليجية اكتشفه أحد المسؤولين في العمل الاجتماعي، وفيه: أن دور بعض شركات المطاعم السريعة هو تشتيت الأسرة العربية المسلمة، فلا تلتقي على طعام أو شراب، لتحدث الفجوة بينهم، هذا أولاً. وثانياً: تقوم هذه المطاعم بنشر بعض الأفكار الغربية كالعاب الأطفال وأشرطة الـ CD، بل وبعض الصور المخلة!

يقول لي هذا الأخصائي الاجتماعي: وقد قمنا بدراسة واقعية حول هذين الأمرين، فوجدنا أن نسبة كبيرة من الشباب لا يحبون الجلوس مع أهلهم في أثناء الوجبات ويفضلون هذه المطاعم السريعة، كما اكتشفنا أن أحد أكبر هذه المطاعم يقوم بالترويج لمسابقة خاصة، جوائزها جوائز هاتفية متنوعة، وطبيعة المسابقة جمع أكبر عدد من الصور، وكلها لا أخلاقية!!

ونحن لسنا من السذاجة أن نحكم على كل المطاعم بهذه السهولة، ولكن القصص الحقيقية تخرج المختبئ وما أكثرهم!!

رابعاً: الإصلاح الاقتصادي: أما الغرب فقد توحد في «اليورو»، وأوجد سوقاً اقتصاديةً مشتركةً، لتقوية إنتاجياته من طرف، ولإشغال الشعوب في متطلباتها الحياتية وملذاتها الشهوانية من طرف آخر، مع الحرص على دعم كل أعمال التطوير وإنعاش الحركة المالية، على قول العامة: «سد البطن ينسد اللسان».

بينما الخطة الاقتصادية في دولنا العربية والإسلامية تشجع على كبت حركة الانتعاش المالي، وترصد للمحاولات الناجحة. وبمجرد رؤية هذه المحاولات فإن التشويه ينالها، ويكون وصفها بأعمال العنف سريعاً، ولو قدروا على مصادرة هذه الأموال تحت أي حجة لفعلوا ذلك!

خامساً: الإصلاح العسكري:

وباختصار:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود واليوم يتحرك اليهود وأمام نظر العالم الإسلامي كله، والصور

والفضائيات تنقل صراخ العالم من جراء فصل القرى عن القدس، وآخرهم الأمير سعود الفيصل ليلة البارحة عندما قال: «إن الجدار الفاصل الذي أنشأته إسرائيل لا يشكل عزلاً للفلسطينيين فحسب ولكنه يقف عائقاً أمام جميع المبادرات والحلول السلمية الجادة، وإن هذا الجدار من شأنه زيادة تعقيد الأوضاع». وستعقد الأوضاع طالما أنه لا يوجد رادع لهم.

ومختصر هذه الخطط الخماسية أيها الإخوة:

١ - السيطرة الغربية بمعتقداتها وأفكارها على الشرق الأوسط.

٢ - استمرار دولة اليهود مصونة محفوظة.

هذه أيها الإخوة هي الخطط الغربية الخمس المعلنه في منطقة الشرق الأوسط والتي تمثل المسمار الذي يشق سفينة الأمة وهو ينشد «فإننا نقبها من أسفلها». فيا ترى ما هو حال السفينة؟

أيها الإخوة... كما أن الغرب قد أعلن رسمياً وبوضوح عن خمس خطط استراتيجية في منطقة الشرق الأوسط. فها أنذا أضع بين أيديكم خمس حقائق مقابلة، تهدف لإبراز دور المسلمين، وما هو المطلوب منهم. وهذه مفاهيم خمسة أو أدوار أو حقائق تقابل الخطط الغربية الخمسة.

❑ **الحقيقة الأولى: توعية النشء بفشل كل فكرة سوى الإسلام:**

هذا التاريخ - أيها الإخوة - ينبغي أن نستحضره وأن نعرف أن العلمانية تتعدد أشكالها، وهي ذات تنظيم وذات قواعد وذات فكر تبشر

به كمثل الحزب الشيوعي وكثير من الأحزاب المغالية، فكانت هذه العلمانية تعمل ولها خيانات وتحالفات مع أعداء الإسلام، ولكن أين هي الآن؟

كُنست تلك العلمانية وذهبت تلك الأحزاب، جاءت أيام الحزب الشيوعي ثم ذهبت، وجاءت أحزاب أخرى تدّعي القومية ولكنها ظلمت الناس وسلمت أرض الشام لليهود، وجاء الفكر البعثي ولم يقدم سوى احتلال الكفار لبلاد المسلمين.

وهكذا علينا أن نعطي للشباب حقائق التاريخ حول الأفكار التي ضاعت أو أضاعت، وأن نبين لهم أنّ الإسلام بقيمه وأخلاقه هو السبيل الوحيد لنجاح المجتمعات.

❑ الحقيقة الثانية: انفتاح المجال للأعمال الإسلامية:

هذه الحقيقة أيها الإخوة هي بنت الحقيقة الأولى: المجال منفتح لنا لكي نثبت ونبرهن ما قلناه دائماً، فالناس عطاش للإسلام، والناس يفتشون عن الفكر الإسلامي، لذلك هذا يومنا، هذا يوم تألفنا، هذا يوم عملنا، كيف نستطيع أن نقدّم فكرنا الإسلامي إلى الجمهور وشباب الأمة الذي يفتش عن البديل؟ البديل موجود بحمد الله سبحانه وتعالى، وليس ببعيد، ومعنا الله سبحانه وتعالى، ومعنا التجارب التي تراكمت عندنا، فاليوم نستطيع الاستئناف والاستدراك بسرعة كبيرة لكي ننقذ الشباب من المتاهة التي يصرُّ البعض - من أصحاب الضلال القديم - على أن يدخلوه فيها، فالمسؤولية اليوم هي مسؤوليتنا جميعاً، علينا أن ننقذ الشباب، وأن نبدع في الأفكار والمشاريع للمحافظة على جيلنا.

□ الحقيقة الثالثة: وجوب التوجيه والاستفادة من جميع الطاقات:

وعلى ذلك فإنه لا يصح الحياد اليوم، وليس لأحدٍ من المسلمين الواعين عذر في أن يتخلف عن المسيرة، وأن يكل الأمر إلى غيره أو يلتمس العذر لنفسه، بل الجميع في هذه الساحة في عمل لنصرة قضايا المسلمين، لا يقل أحدٌ: ماذا أفعل أنا ولستُ بالعالم الشرعي؟ أو: ماذا أفعل ولست بالبطل الشجاع الذي تذكر جرأته وشجاعته؟ أو: ماذا أفعل ولست بالمُؤمِّل الذي يمدُّ قضايا المسلمين بماله؟ كلا، بل في كل مسلم خير، وعلى كل مسلم أن يحدث نفسه أن يقدم شيئاً، وعلى الدعاة أن يكونوا أهل سعة صدر لاستقبال هذه الطاقات وتوظيفها فعلاً، فالأعمال القليلة مع الأفكار القليلة إلى ألف جزء تكون أعمالاً عظيمة تهزم عنترة وغيره ممن هو موجود في الساحة اليوم، وتلك هي معجزة المسلمين حين يتعاونون.

□ الحقيقة الرابعة: أننا نعمل ببركة الله سبحانه وتعالى:

لو كنا نعمل بالموازين الرياضية ($١ + ١ = ٢$) لربما نالنا الإحباط، ولكن الله سبحانه وتعالى يطرح البركة في العمل، والبركة خلقٌ خفي من مخلوقات الله سبحانه وتعالى، يجعل القليل كثيراً، والضعيف قوياً، ويعود بالمنسحب إلى التقدم، ويقذف في قلب المتردد الإقدام، فالبركة من الله سبحانه وتعالى هي الأصل في عملنا، وهكذا نؤمن بأن نعمق إيماننا، وأن نواصل توجهنا إلى المحراب، وأن نواصل نظرننا في القرآن الكريم، وأن نتربى بالتربية الإيمانية، لأنَّ هذه البركة لا تنزل إلا على قوم مؤمنين.

هذه المسألة - أيها الإخوة - من المسائل التي نعظ بها أنفسنا، وينبغي أن نثق بالله سبحانه وتعالى، فهو ناصر المؤمنين، وهو الذي يضاعف الجهود، وقصص المسلمين كثيرة، وناهيك بمعركة «ملاذ كرد» بقيادة «ألب أرسلان السلجوقي» الحاكم العادل رحمة الله عليه يوم جاءت جيوش النصاري وقابلته في الأراضي الإيرانية قرب همدان، وكان تعداد المسلمين أقل من اثني عشر ألف مسلم، وأولئك أكثر من ستمائة ألف، معنى ذلك أنّ الواحد من المسلمين في مواجهة خمسين من العدو، لكنه فكر واستعمل الحيل وحقائق علم النفس التي اكتشفها بإيمانه فقال: (إنّ كان الأمر بالمواجهة وبالميمنة والميسرة فلن نستطيع أن نتوغل وننتصر، ولكن تعالوا نستثمر ما نعلمه عن هؤلاء، أما نحن المسلمين فصلتنا بالله سبحانه وتعالى، وأما هؤلاء النصاري فإنما يرتبطون بسادتهم وليس لهم مبدأ ولا ثقة بالله، فإذا استطعنا أن نأسر الملك أو نقتله، فلا شأن لهم) قال: (فلنتقدم كتلة واحدة على خيمة الملك)، وبالفعل نجحت خطته وتقدم جنود المسلمين إلى خيمة الملك فأسروه، فشاع بين جنود النصاري أن الملك قد قتل، فولوا الأدبار، وغنم المسلمون سلاحهم وأموالهم، فكان نصراً مؤزرأ أعاد إلى الأذهان أيام الفتوحات الإسلامية الأولى.

هذه قصة واقعية من بين عشرات بل مئات من أمثالها تشهد بأن البركة من الله، وأنّ عليها المعول، نحن - كما أسلفت - لا نقاتل بقوتنا ولا بحولنا ولا بعلمنا، بل بما علمنا الله، وبما يسره الله لنا، وببركة الله التي تضاعف لنا قوتنا.

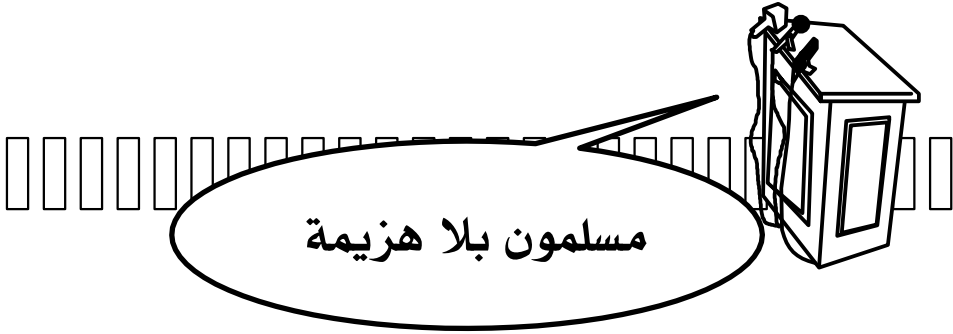
□ الحقيقة الخامسة: الابتعاد عن العمل الارتجالي:

المنهجية اليوم هي ديدن كل السياسات وكل رجال الأعمال الجادين. إن لم تكن عندنا المنهجية الإسلامية المعتدلة في العمل فلن نستطيع أن ننافس الآخرين، ذهب عصر الارتجال، ذهب عصر الفوضى، ذهب عصر التفرد بالقرار. في الشأن المشترك ينبغي أن نتقدم على بيئة من الأمر، ومن هذه البيئة: التربية الدقيقة، والاختيار الناجح للرجال في أماكنهم، وتقسيم الأعمال، وتوزيع التخصصات، واتخاذ الخطط الاستراتيجية بعيدة المدى والمرحلية، والتدرج المدروس بعيداً عن قفز المراحل.

وأروي لكم حكمةً لخليفة عباسي قيل له في يوم من الأيام وقد جاءته رسالة الوالي من خراسان بأنّ هناك ثورة في خراسان قام بها خمسون من العصاة، فاسترجع وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، واستعظم المسألة وقال: (اكتبوا للوالي يقول لنا ما هنالك)، فجاءه الخبر بعد أسبوع أن هؤلاء الذين كانوا في حدود الخمسين صاروا في حدود الخمسمائة، فقال: (لا حول ولا قوة إلا بالله، الأمر كبير ويستفحل، اكتبوا له)، فجاءه الخبر بعد أيام أن هؤلاء الخمسمائة صاروا في حدود الخمسة آلاف، فقال: (الحمد لله رب العالمين)، فاستغرب الوزير: (كيف تحمد الله بعد أن صاروا خمسة آلاف وقد كنت تسترجع وهم خمسون؟) قال: (نعم، لما كانوا خمسين قلتُ: لعلهم كانوا على شيء وعلى قلب رجل واحد، ولما صاروا خمسمائة قلتُ: لعلهم نادوا ودعوا من هم على شاكلتهم، أما أن يكونوا في أسبوعين خمسة آلاف فهذا دليل على أنهم اجتمعوا على لا شيء وبلا وعي ومثل هذا لا يخيف).

نريد أن نعلم الناشئة الشجاعة والعلم والتطور وحسن الدعوة والأمانة والمسؤولية حتى يخرج لنا جيل يسير سيراً موزوناً، يعمل بوضوح ومكاشفة، لا يخاف إلا الله وحده، قد تعاون مع بني قومه، وولاة أمره، وعلمائه. سدّد الله مسيرة المسلمين، وأجارهم من فتنة الغربيين والمتعاونين على الجرم.





مسلمون بلا هزيمة

نيابة عن وكالات الأنباء العالمية أقدم لحضراتكم نشرة أخبار الأمة الإسلامية الرئيسة الأولى لهذا اليوم الجمعة الثاني عشر من شهر شعبان لعام ١٤٢٣هـ من إذاعة المنبر الحر، وهذا موجزها:

- مركز أمريكي متنفذ يدعو الرئيس الأمريكي بوش إلى ضرورة الضغط على السعودية واعتبارها ممولاً رئيسياً للإرهاب.
- مجزرة إسرائيلية جديدة في غزة يروح ضحيتها ثمانية قتلى وأربعون جريحاً.
- بوش وشارون يتفقان على سياسة مشتركة في موضوعي العراق وفلسطين.
- بعد الاستفتاء الكبير الرئيس صدام حسين يحصل على نسبة ١٠٠٪ من أصوات الناخبين.
- هذا هو الموجز وفي النشرة أخبار عربية وعالمية مختلفة.

مع كل موجز أخبار وللأسف لا بدّ أن تحتل أخبار الأمة العربية والإسلامية العناوين البارزة، كما أنه لا بدّ أن نسمع كل جديد وغريب، بل ومستحيل! ومختصر الكلام، قهر الرجال أو ترويع النظام!

أأست تعمل في مهنة شريفة؟ ولو كان عملك الصغير لا يوازي ما لديك من شهادة ماجستير أو دكتوراه! أأست تأكل أيها المواطن في وطنك لقمةً حلالاً؟ وتتعلم كيف تأكل بعرق جبينك؟ فالزهدي والورع والبعد عن الشهرة والمنصب والفتنة أولى بك، وأحفظ لك من العوائق والمنزلاقات، إذاً فلتشكر ثم تشن.

ثم أيها المواطن العربي، أأست في نعمة وصحة وعافية، وآآرون يؤدون دوراً عظيماً عنك، يكافحون الإرهاب، ويشيعون روح السلام، ويستأجرون بالنيابة عنك حبالك الصوتية ليشجبوا ويستنكروا، ويشجبوا ويستنكروا، ثم يشجبوا ويستنكروا؟ أليس في هذا إعداءً لك أمام الله حيال ما ترى من قصف وتدمير وتمزيق للمصاحف، وغصب للعنفات، وهدم للمساجد، وقتل للأبرياء؟!

تفكر أيها المواطن العربي ثم تفكر، وبعد ذلك تذكر أن تشكر ثم تشني. وأنا معك أيها المواطن أنه قد يوجد في كثير من بلاد الوطن العربي مضايقات، ونوع من انفتاحية دولية، أو حرية سياحية في المسارح والشواطئ المختلطة، واختلاط حتى في بعض المدارس والمطاعم، نعم موجود، ولكنه مضبوط! ويوجد هناك أمن يا أخي، الأمر ليس فوضى، والذي يجاهر ويسبب إيذاءً يكتب عليه تعهد، وإن كان (غلباناً يعني يمكن ويمكن)! هذا فضلاً عما لو كان (ابن بشوات)...!!

والحمد لله أيها المواطن، أليس في بيتك سجادة وسبحة، وراديو وجوالات؟ أأست تصبح على صوت كوكب الشرق وتمسي على صوت كوكب الغرب، فما تريد بعد ذلك؟! ولو افترضنا جدلاً أن بعض الرجال تُراقب في حضور صلاة الفجر فصلً في بيتك، وتذكر جيداً أنك في أجمل فترات التاريخ، ألم تسمع أن المسلمين في عهد التتار لم يدخلوا المساجد أربعين يوماً؟ وأنت والحمد لله تدخلها كل جمعة، تسمع الموعظة، وتكرر عليك في كل أسبوع مرة، والمقصود هو التذكير، ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَى لَنُفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)!!

(١) الذاريات، الآية (٥).

إذاً أيها المواطن العربي، افتح قلبك، وخذ نفساً عميقاً،
 وهرول، وافرح وامرح، وابتسم وضحك، ثم اضحك، ثم اضحك،
 ثم اعلم أنك سيصيبك غثيان ودوارٌ وهذيان، وقبل أن تسقط في الوطن
 العربي وقبل أن يُغمى عليك لا تنسَ أن تشكر ثم تشني، ثم تشكر ثم
 تشني، ثم تستغفر، ثم تلعن، ثم تدعو، ولكن أنصحك أن تدعو في
 نفسك بحيث لا يسمعك أحد، فإن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله
 حجاب!

لست أدري إلى متى سيظل هذا المسلسل النكد والتركيز الشديد
 المؤبد لعدة عقود، والاستمرار لحملة الهزيمة النفسية على المسلمين،
 وعلى أبناء الوطن العربي تحديداً والبلاد الإسلامية عموماً؟

إننا إذا فتحنا المذيع، أو رأينا الأخبار، أو قرأنا الصحف، في
 أي وقت كان من ليل أو نهار، فلا بدَّ أن نحزن أو نقلق، أو نحترق،
 أو نبكي، أو أن نكون لا إنسان، أو أن نكون أصحاب قرار لا ندري
 ما مصيره؟! حتى صار الشعار الواقعي يقول: في البلاد العربية لا تنتظر
 أن تأخذ حقوقك، ولكن انتظر أن تسلب منك حقوقك!

إنها أيها الإخوة، الحملة النفسية على المسلمين، ومحاولة وضع
 سياج عقلي وفكري على أي تفكير جديد أو جاد أو مصيري ربما. إنها
 حملة نفسية لكي يسكت المسلمون، ويكثروا من التشكي وإقرار قوة
 الخصم فقط.

والسبب هو طريقة عرض صور البطولة أو القوة الظاهرة أو
 الخفية لأمريكا أو روسيا أو إسرائيل أو أتباعها أو حلفائها، والتي
 تضغط على النفس فتستسلم لقوة الأعداء.

وكذلك بث الأخبار والتقارير العربية الجائرة بطريقة مستفزة عن الانتخابات التي تدل على الحب والولاء والتعاطف بنسبة ١٠٠٪.

إن نشوب المعارك أيها الرجال يبدأ بالكلام، وما من هزيمة يُمنى بها المقاوم عن طريق الكلام إلا وتكون سبباً في هلاكه و فشله.

إن أمريكا اليوم والدول القوية العظمى كما يقال، تحرص غاية الحرص على إبراز الدور الإعلامي لها. فهي تقوم عبر وسائل الأقمار الصناعية بمتابعة تحركات الجيوش والأسلحة العربية والإسلامية، واتهامها بامتلاك أسلحة الدمار النووية، والضغط على الدول الإسلامية والعربية بالديون، والتمركز في مناطق الحدود. هذا موجود، ولكنه لا يعني بحال ضياع الأمة وخسارتها، وتركيعها وإذلالها.

الأمة العربية والإسلامية فيها رجال أقوياء، لديها مبادئ، الأمة الإسلامية تملك العدد، تملك السلاح، تملك العقول، تملك الإمكانات، تملك أعظم ثروة (الإيمان)، وتملك أعظم سلاح (الدعاء). الأمة الإسلامية مطالبة بسلاح المادة وهي تملك ما تستطيع، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(١)، وبعد ذلك تملك الجراءة، تملك المواجهة، تملك المقاومة، تملك التضحية، تملك القدرة على بذل الروح رخيصة في سبيل الله. هذه لا يملكها اليهود، ﴿وَلَجَدْنَاهُمْ أَرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ﴾^(٢)، إذاً ماذا نخاف؟ نخاف متابعة الأقمار الصناعية؟ نخاف أسلحة الدمار الشامل؟ نخاف الصواريخ؟
الراجحات؟

(١) الأنفال، الآية (٦٠).

(٢) البقرة، الآية (٩٦).

إِنَّ أبرهة الأشرم ملك أعظم سلاح مدمر في عصره ليهدم الكعبة
فعطل الله هذا السلاح!

قريش ملكت أعظم عدة وأعظم سلاح، ووصلت لمرحلة
الإبادة، والتدمير الشامل، وكان بينها وبين الوصول للتدمير الشامل
وقتل النبي ﷺ أقل من متر واحد، فتعطل السلاح، وتعطلت
العقول!

أليست لنا تجربة في أفغانستان أيام الغزو السوفييتي الغاشم؟ أما
كانت الصواريخ تضرب فوق أسطح المنازل، وكانت موجهة عليها؟
ومع هذا لم تصل بفضل الله، بل كانت تضل مسارها، أليست أجهزة
كمبيوتر، وأجهزة رصد دقيقة؟ فما بالها في ساعة العسرة تضل
السبيل؟!

اليوم في مرحلة المقاومة وانطلاقة البطولة، أمامنا طريق دام،
نعرفه ونحبه، ونُعد أنفسنا له، أمامنا طواغيت متسلطون، وبشر
غافلون، وفسقة منحرفون. لقد عرفنا طريق الإسلام الحق، ورضينا به،
رضينا بتكاليفه وتبعاته، وأتعبه وآلامه، وننتظر آماله وأفراحه، دفعنا
لهذا الثمن مقدماً.

ثمن المجد دم جدنا به فاسألوا كيف دفعنا الثمن؟

علينا أيها الإخوة... أن نشق بقدرة الله وعظمة الله، وأن ننزع من
صدورنا الوهن، والخوف والهلع من قدرة البشر. إن الذي خلق الكافر
والمؤمن هو الله، والذي سخر للعبد أن يفكر ويصنع الصواريخ
هو الله، والذي يسر للإنسان الضعيف المهين أن يصعد إلى أعالي
السماء وأن يغوص في داخل المحيطات هو الله. إذاً لماذا هذا الخوف

من أمريكا وأوروبا؟ ولو شاء الله لأبادهم في لحظة، وعطل أجهزتهم في ثانية.

إن أعداءنا أيها الإخوة يحاولون أن يرسموا لنا مساراً إعلامياً يطغى على عقولنا وتفكيرنا، ويصورون لنا أننا بحاجة إليهم كل لحظة، وأننا بغيرهم سنغرق إلى آذاننا في الديون، ولن نجد بعد ذلك الرغيف والماء!

يا لهول ما أصابنا من خيبة قوم أذلة؟ أنسينا أنهم كفار أذلة؟ أنسينا أنهم مترفون مخمورون؟ أنسينا أنهم في ظلمات الهوى والتهيه؟ أنسينا أنهم سفكة الدماء ولصوص الحروب؟ أنسينا أنهم يهود؟

إنني لا أستهين بقوتهم، فلست مغفلاً لأفعل ذلك، ولكنني أقول: إنهم مدمرون من الداخل، يصيحون من التفكك ومن الخسائر التي ستؤدي بهم إلى السقوط.

لا تعجبوا أيها الإخوة، فالحقائق الرقمية الصادرة منهم تثبت تراجعهم وسقوطهم الاقتصادي بشكل مرعب.

يقول أحد كبار خبراء السياسة الأمريكية ويسمى (هاملتون): إن العجز في الميزانية الأمريكية والديون التي عليها فاقت كل التصورات. ففي عام ١٩٥٠م كانت ديون أمريكا (٤٣) بليون دولار. وفي فترة رئاسة (ريجان) عام ١٩٨٠م ارتفعت الديون إلى (٢،٦) تريليون دولار. وفي عام ١٩٩٢م ارتفعت الديون إلى (٤) تريليون دولار، وفي قرابة عام ٢٠٠٠م سترتفع هذه الديون إلى أكثر من (١٠) تريليون دولار، نتيجة للهزة الاقتصادية، وخسائر الحروب الأمريكية المتوقعة!

وهذا الذي حصل...

إن المتأمل في الواقع الأمريكي الحالي يجد أنه في طريقه للانهار على المستوى الداخلي وعلى المستوى الخارجي وهذا الذي نقوله يصدقه الحال، وتنطق به الأرقام الرسمية لديهم.

أما على المستوى الداخلي: فهذه الديون كما لاحظتم قد أغرقتهم، وأضيف إليكم ما قاله الخبير الأمريكي (بيرو): إن نسبة البطالة في أمريكا تصل إلى ٧٠٪، وإن المجتمع الأمريكي فقد خلال الفترة من (١٩٨٩ - ١٩٩٢م) أي: في ثلاث سنوات فقط أكثر من (٧٠٠,٠٠٠) ألف وظيفة في القطاع الخاص. وأنه بحلول عام ٢٠٠٠م سيكون هذا العدد أضعاف هذا الرقم الضخم، وهذا هو الحال اليوم يصدق هذا الخبر.

إذاً أمريكا تنهار اقتصادياً من الداخل، وهي منهارة أصلاً أخلاقياً وروحياً واجتماعياً، وهذه هي عوامل بقاء المجتمع!

وأما على المستوى الخارجي: فإن أمريكا قد أرهقتها الديون بسبب الحروب الفاجرة التي استدرجها الله إليها، والخسائر الكبيرة التي منيت بها. وسبحان الله، من يقرأ في تاريخ أمريكا المعاصرة يجد أنها لا تدخل معركة إلا وتعود ذليلة صاغرة خاسرة مدينة. لقد دخلت إلى الصومال وأشعلت المشكلات وخرجت ولم تبني حضارة ولم تستفد ثروة، ودخلت إلى أفغانستان وأنفقت الأموال ودمرت وفجرت وخرجت بعد أن سُحِل جنودها على الأرض.

وها هي الآن تسعى للدخول إلى أرض العراق وستُدمر، وتُخرج ملايين المتابعة وستُفجر ثم ستُخرج خاسرة مدينة، أو مهزومة نفسياً على أقل تقدير، وستذكرون هذا إن شاء الله.

والله يا إخوة، هذا ما نجده منها في كل معاركها. لا توفق لشيء ولا تهتدي لشيء، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٦) (١).

إن أمريكا تحرص على وسائل الإعلام، وتصور للناس أن لها وحدها كل مظاهر القوة والسيادة التي تدعيها. وتخفي كثيراً من الحقائق. ولو كانت في الصومال أو أفغانستان أو فلسطين أقمار صناعية ووسائل إعلام متطورة لرأينا والله صور الهوان والهزيمة والنكبة الأمريكية.

أبشروا أبشروا، والله، إن خيول الفجر قادمة، وهزيمة أمريكا واليهود وأتباعهم آتية. سيجربون الذل بأنفسهم ولكنهم قوم يستكبرون. لست أدعي أن ذلك سيكون غداً صباحاً، كلا، ولكن سترون إن شاء الله وعد الله الحق. علينا أن نُسهم في إعادة الحق، وإعادة بناء الثقة في أنفسنا وأمتنا.

لنكن نحن من أهل الحق وجنده وأنصاره، لنرفع شعار (مسلمون بلا هزيمة نفسية). فإنَّ الإسلام لا ينتصر بغيرنا نحن المسلمين، ولا يمكن أن ينتصر بجنود السماء ما لم يكن هناك جنود الأرض، جند السماء تنزل لتثبت جنود الأرض وتقوي قلوبهم، فلنحمل روح التفاؤل، ولنحيي عزة الإسلام في الأمة.

الأمة فيها الخير، وفي كثير من أهلها الرغبة في نصره الحق، ولكنها بحاجة إلى من يزيل عنها لباس الخوف، ويدثرها باليقين،

(١) الأنفال، الآية (٣٦).

ويدفئها بالإيمان، ويمسح عنها غبار الغفلة، وصداع الغرب وقوته. علينا أن نُعلم الأمة القرآن والسنة، وصيحات جيل الأمة، وأن نُحفظهم نشيد المسلم ونقول لهم:

لا يَقْبَلُ أَبَدًا بِالذُّلِّ	المُسلِمُ حُرٌّ فِي الدُّنْيَا
لِلظَّالِمِ فِي أَعْتَى لَيْلٍ	لَمْ يَسْجُدْ لِلطَّاغُوتِ وَلَا
لِلهِ بِسَاحَاتِ الْهَوْلِ	قَدْ بَاعَ الرُّوحَ وَأَرْخَصَهَا
سَيَظُلُّ يَسِيرُ وَيَسْتَعْلِي	فَلْتَعْصِفْ رِيحُ اللَّيْلِ بِهِ
أَنْقَذَهَا مِنْ شَرِّ الْجَهْلِ	المُسلِمُ نَوْرٌ فِي الدُّنْيَا
وَلِغَاصَتِ فِي لُجَجِ الْوَحْلِ	لَوْلَاهُ لَمَا عَرَفْتَ حَقًّا
وَلِعَاثِ الْبَاطِلِ فِي الْقَتْلِ	لَوْلَاهُ لِمَا جَ الْمَوْتُ بِهَا
فَالْوَيْلُ لَهَا كُلُّ الْوَيْلِ	وَإِذَا مَا غَابَ عَنِ الدُّنْيَا
يَشْغَلُكَ الْقَوْلُ عَنِ الْفِعْلِ	يَا مُسلِمُ هَذَا أَنْتَ فَلَا
تَتْرُكُ أَهْوَاءَكَ تَسْتَوَلِي	يَا مُسلِمُ هَذَا أَنْتَ فَلَا
لِتَفُوزَ وَتَنْعَمَ بِالْوَصْلِ	يَا مُسلِمُ أَنْتَ لَهَا فَاَنْهَضْ
كَ فَلَا تَكُ عَنْهُ فِي شُغْلٍ	فَاللَّهُ يَرَاكَ وَلَنْ يَنْسَا





واقع المسلمين وواجبنا تجاههم

لقد تزاممت النداءاتُ عليّ، وكثرت الاستغاثات، وكلُّ منْها يستجدي أن يكون هو موضوعاً لهذه الجمعة، ويعلم الله أنني حاولت التفكير في موضوع بعيد عن الواقع والأحداث فما استطعت! لأنني إن فعلتُ فسأجني على نفسي قبل أن أجني عليكم! وأترك ورائي ركام الأحداث المهولة التي تتابعت خلال الأسبوع الفائت.

قولوا لي أيها الإخوة: من أي أحداث الأسبوع الماضي نبدأ؟

هل نبدأ بالمؤامرة الصليبية تجاه المسلمين المستضعفين العُزّل في فلسطين وأفغانستان وآخر الأخبار عنهم؟

أم نبدأ بالمخطط الغربي لتغيير المناهج الدينية في أرض المسلمين، وما حصل فيه من تطورات خلال الأسبوع الماضي؟

أم تريدون أن أشاطركم الحزن على حال إخواننا وأخواتنا في فلسطين، وأسهم في توديع الأمة للمقاتلة الشهيدة بإذن الله وفاء إدريس؟

أم تريدون أن أقض مضجعكم، وأنغص عليكم، بحال الشباب

الأربعة الذين قتلوا وسقطوا جثثاً بعد انتهاء المباراة الختامية ليلة الجمعة المشرفة الماضية؟

وليس هذا كل شيء!

فثمتَ الأسرى وآخر التقارير عنهم، والضغط المتواصل الواقع على الجمعيات الإغاثية والخيرية والمطالبات الدولية بتحجيمها.

لا تحزنوا ولا تتأثروا، فكل ما قلته قبل قليل أخبار عامة، ولعلها لا تغير من الحقيقة شيئاً، فالأمور كلها بخير! والأوضاع كلها بخير! والمسلمون كلهم بخير! نعم، المسلمون كلهم بخير، الذين في القصور والدور، والذين في المساكن والقرى، والذين في الأودية والصحاري، كلهم بخير، بل وفي أتم صحة وعافية! بل أبشركم بأن أمورهم تمضي من خير إلى خير!!

ولنبداً بهذه المبشرات، ونشارك أمتنا المسلمة الحبيبة أفراحها، فهي أُمُّنا ونحن أبناءها.

ففي يوم الإثنين الماضي في العاصمة اليابانية طوكيو عقد مؤتمر حضره ممثلون من أكثر من ستين دولة، من أجل الإعلان عن خطة مساعدات لأفغانستان قدرت الأمم المتحدة والبنك الدولي تكلفتها بنحو خمسة عشر مليار دولار خلال عشر سنوات، ويرى المراقبون أن هناك مطالباتٌ لعدد من الدول العربية والإسلامية للمشاركة في نفقات تعمير أفغانستان المتهدمة، وتحمل نصيبٍ من تكاليف إعادة الإعمار.

المطلوب من العرب والمسلمين أن يتبرعوا لصالح المسلمين في أفغانستان لإصلاح الأراضي التي تهدم، والمطلوب من غير الدول العربية والإسلامية أن تهدم! أنتم يا مسلمون مطالبون بالبناء، وإرسال

إغاثات إنسانية دوائية وغذائية، وأن تجمعوا الملابس الزائدة،
والبطانيات القديمة، وتنظروا في جيوبكم، وما زاد من آخر الشهر إذا
بقي منه شيء فلتتبرعوا به لهم!

أمّا غيركم فلهم شأن آخر، هم يطلقون الصواريخ على المساجد
والمعاهد، وأقصى ما يطلب منهم أن يقولوا: إن الصواريخ التقنية
أُطلقت بالخطأ! يكفيكم أيها المسلمون اعتراف اليهود والنصارى بالخطأ
وكل بني آدم خطاء!

المساجد التي هدمت بالخطأ، والمعاهد التي قصفت بالخطأ،
والمنازل التي دمرت بالخطأ، والأرواح التي أزهقت بالخطأ، والنفوس
التي شرّدت بالخطأ، والجرحى الذين في المستشفيات بالخطأ! ولو
استطعتم أيها المسلمون أن تتطوروا في تفكيركم وتقولوا: إن التجمع
والتحالف الغربي كان بالخطأ، فهذا دليل على صفاء نفوسكم، وصلاح
قلوبكم، وحسن ظنكم، وهذا هو ما يعرف عنكم!! ولكن يا أيها
المسلمون، لو فكرتم مجرد تفكير أو تسلل إلى عقولكم حُلم وأنتم نيام
وذكرتم شيئاً آخر، فسيكون مصيركم كحال ذاك الرجل الذي تمت
مساءلته، فهل تذكرونها أو أذكركم بها؟!

قلت للحاكم: هل أنت الذي أنجبتنا؟

قال: لا... لست أنا.

قلت: هل صيرك الله إلهاً فوقنا؟

قال: حاشا ربنا.

قلت: هل نحن طلبنا منك أن تحكمنا؟

قال: لا.

قلت: هل كانت لنا عشرة أوطان وفيها وطن مستعمل زاد على حاجتنا فوهبنا لك هذا الوطن؟

قال: لم يحدث... ولا أحسب هذا ممكناً.

قلت: هل أقرضتنا شيئاً على أن تخسف الأرض بنا إن لم نسدد ديننا؟

قال: كلا.

قلت: إذا ما دمتَ لست إلهاً أو أباً أو حاكماً منتخباً أو دائناً...

فلماذا لم تزل تضربنا؟

وانتهى الحلم هنا...

أيقظتني طرقات فوق بابي:

افتح الباب لنا، افتح يا ابن كذا.

إن في بيتك حُلماً خائناً!!!

أمّا ما تسمّونه عن الحملة لتغيير المناهج الدينية، وأنها حملة مدعومة ومدروسة، فهذا كله محض كذب وافتراء، وليس حقيقة، وتأمّلوا الواقع. هي مجرد إشاعات، وإن كنتم تقصدون المخطط الغربي للسيطرة على المدارس الدينية في باكستان المسلمة، وتوفير ملياري دولار لمراقبتها ودمجها في النظام الحكومي، فهو مجرد مراقبة ليس إلا! وليس سيطرةً ولا فرضاً للنفوذ، وأما الملياران فهو رقم طبيعي لأي دراسة بسيطة يقوم بها الغرب!

ثم إنكم أيها المسلمون لديكم حساسية مفرطة، وعاطفة غريبة تجاه أي كلمة تقال ضدكم. إن حرية الكلمة تعني أن يعبر كل إنسان عما يعتقد، ويقرأ المثقفون وغير المثقفين ويحكمون بأنفسهم، لماذا تقولون: إنَّ هذه حملة؟ لماذا تسمون هذه الكتابات نظرات؟ لماذا لا تكون مجرد وجهات نظر، ولو قرأها الملايين، وكتبها رموز المفكرين الغربيين؟

لماذا تغضبون من قول المفكر الأمريكي (فوكوياما): «يمكن تصنيف الفكر الوهابي بسهولة على أنه إسلامية فاشية: فهناك كتاب دراسي إجباري للصف الـ(١٠) أي: الأول ثانوي، يشرح أنه «يجب على المسلمين أن يخلصوا لبعضهم البعض وأن يعتبروا الكفار أعداءهم، والسعوديون لم يروجوا هذه العقيدة في الشرق الأوسط فقط فحسب بل في الولايات المتحدة أيضاً، حيث قيل: إنهم أنفقوا مئات ملايين الدولارات على بناء المدارس والمساجد». هذا الكلام الذي قاله المفكر الأمريكي الشهير مجرد وجهة نظر! ثم لماذا يا أيها المسلمون لا تقبلون مثل هذه الكلمات بروح حلوة طيبة؟ لماذا تُستفزون بسرعة؟ فكروا في هذا الكلام على أقل تقدير، إن لم يكن اليوم فغداً وإن لم يكن غداً فبعد غد، أو بعد أسبوع أو بعد شهر، أو بعد سنة أو بعد قرن، فلن نمل كتابةً حتى تملوا، وإن لم تكونوا أنتم، فلعل جيلاً آخر أكثر نضجاً، وأفضل وعياً، يصنع مثل ما صنعت أجيالٌ وأجيالٌ في كثير من الدول العربية والإسلامية، ألستم أمة واحدة، أفكاركم سواء، وعقيدتكم سواء؟!«

وعلى فكرة... ما دام الحديث قد جرَّنا إلى الأمة الواحدة، والفكرة الواحدة، والجسم الواحد، والبنيان المرصوص، وغير ذلك

مما تشربه عقولكم أيها المسلمون، فإننا نحب أن نقول لكم: إنَّ الشعور والإحساس المرهف والبكاء والحزن شيء، والمصالح والأوضاع المتشابكة والراهنة شيء آخر. واعلموا جيداً أنكم لا تستغنون عن الحماية والديون منا تماماً كما لا تستغنون عن الماء والهواء!

فلولا ديوننا التي أغرقتكم، وحمايتنا لكم، لأكلتم كما أكل الذئبُ الغنم!

أمّا ما تدّعون أيها المسلمون بشأن قوانيننا وتصرفاتنا، فأنتم تعرفون أن هناك فقهاً للواقع، والفقهاء عندهم يقول: الفتوى يمكن أن تتغير بحسب الزمان، ونحن كذلك استفدنا هذا الأمر من شريعتكم الموقرة! صحيح أن اتفاقية جنيف لمعاملة الأسرى في الحرب تنصّ على أنّه: يحق للأسرى أن يأكلوا الطعام الذي يريدون، وأن يلبسوا اللباس الذي يريدون، وأن لا تمارس معهم أي وسائل للتعذيب، أو التعريض للمرض والتعب.

لكنكم تعرفون أن الزمان قد تغير، وأن الأوضاع قد تطورت، وماذا يعني إجماع الدول؟! وماذا تعني اتفاقية؟! كلها كلمات أي: حبرٌ على ورق!

وأما قولكم: إنّنا ندعم إسرائيل بمائة مليار دولار بإعلان رسمي من الكونجرس، فما هي المشكلة؟ حبيب يحب حبيبه، وصديق يودُّ صديقه! وإذا كان هذا الأمر يضايقكم فلا تنزعجوا، سموها ديوناً على إسرائيل بحساب مفتوح! وأما الصواريخ المهداة لهم فهي هدايا أو منح!

نرجو أخيراً أيها المسلمون أن تتفهموا الأوضاع والمتغيرات والسياسات الدولية الصعبة، وإذا لم تستطيعوا أن تستوعبوا ما يجري -

ولن تستوعبوا - فاصنعوا ما بدا لكم! وخذوها منا: لن تصنعوا شيئاً،
لأننا خَيْرُناكم وَجَرِّبناكم، فما أنتم فاعلون؟
أيها الأخوة:

إن معرفة الحقيقة هي البوابة الأولى للتحرك، وحياة القلب هي
الخطوة الأولى نحو العمل. وإدراك الحقيقة يتطلب منا نحن المسلمين
واجبات ومستلزمات:

أولاً: اليقين بالله، ومعرفة عظمة الله. ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ
أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (١٥) ﴿١﴾.

فمن أوروبا؟ ومن الغرب؟ من فرعون؟ ومن النمرود؟

﴿الْهَمُّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ
يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا
تُظْهِرُونَ﴾ (١٩٥) ﴿٢﴾ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴿٢﴾.

ثانياً: معرفة مخططات اليهود والغرب، وطرق مواجهتها بخطط
مبكرة، كاتفاقية سايس بيكو وغيرها.

ثالثاً: المحافظة على الفرائض المؤدية إلى الثبات على الدين
والتمسك به.

رابعاً: دعاء الله سبحانه وتعالى بصدق أن ينصر المسلمين ويصلح
أحوالهم.

(١) فصلت، الآية (١٥).

(٢) الأعراف، الآيتان (١٩٥، ١٩٦).

خامساً: مقاطعة العقائد والأفكار الكافرة، والمنتجات التي يمكن الاستغناء عنها.

سادساً: تربية الجيل المسلم على حب الأمة المسلمة وضرورة نصرتها، والقيام بالأعمال الميدانية والقراءات التاريخية لإثبات هذا المفهوم.

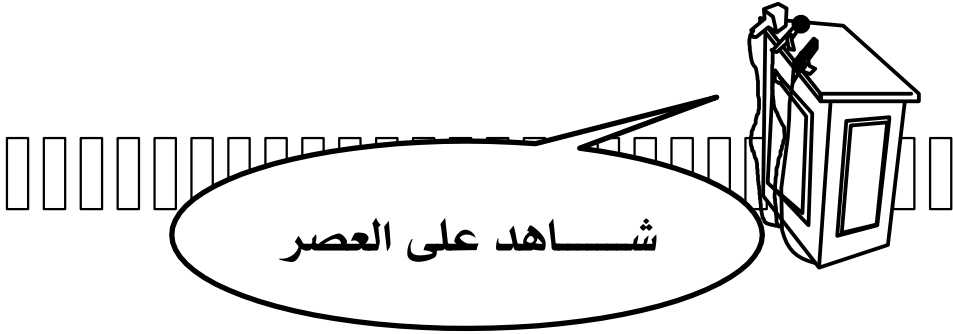
سابعاً: التمسك بحبل الله المتين وسنة نبيه ﷺ، وأن نكون بهذه العقيدة وما تدعو إليه لحمة واحدة مع ولاة الأمر والعلماء، والدعاة وشباب الصحوة. وأن يتماسك الصف الإسلامي من الداخل، ليهون علينا لقاء العدو الخارجي.

ثامناً: دعم المجاهدين والمقاومين، بالمستطاع والمتاح، وتأييدهم ونصرتهم.

تاسعاً: الدعم الذي يسمى (اللوجستي) عبر وسائل الإعلام المختلفة، وجعلها قضية رأس عام، والصمود والمصابرة لإنجاح المؤسسات الإسلامية الداعمة لقضايا المسلمين.

سدد الله الخطى، وحمى حوزة الدين.





لقد ظننت أنني سأعود إلى أحلام اليقظة، ولطائف الحياة التي لا تستمر، ولكنني أوقفت في وقت أزمة، وها أنا ذا أعود في وقت أزمة!

فيا ترى عن أي شيء سأتكلم...؟

هل أتكلم عن بغداد ومنظر أبنائها يتراقص في عيني، ولم يغادر مخيلتي بعد.

هل أنسى بغداد اليوم؟ أنسى ألفين وخمسمائة غارة جوية مدمرة؟

هل أتناسى قول وزير دفاع الدولة المتغطرة وهو يؤكد أمام الملاء أن قواته استخدمت صواريخ «هيلفاير» الحرارية وذلك للمرة الأولى في الحرب على العراق، هذه القنابل التي تستهلك كل الأوكسجين في المكان الذي تضرب فيه بحيث يموت الضحايا اختناقاً.

يا ترى هل أتجاوز بغداد، لأن الناس نسوها أو كادوا أن ينسوها؟ ولم أكن وقت سقوطها موجوداً؟!

هل أغمض عيني عن القتل والجرحى؟

هل أغمض عيني عن مشاهد القنابل والصواريخ؟

هل أغمض عيني عن آلاف الضحايا وآلاف الشظايا؟

هل أغمض عيني عن آلاف المعتقلين والمسجونين المقاومين؟

ربما، ربما يقول القائل منكم: نعم، لقد جئت يا شيخ في الوقت الضائع!

ولربما يقول القائل: حدثنا يا شيخ عن اليوم، وانس أمس، فليس لك من الأمر شيء، والخير لك ولرزقك أن تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا تنس أن تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، والسلام على بغداد!

بغدادُ معذرةٌ ومثلي ليس يعتذرُ...

ما لي يدٌ فيما جرى فالأمر ما أمروا...

وأنا ضعيف ليس لي أثرُ...

عارٌ عليّ السمع والبصرُ...

وأنا بسيف الحرف أتحرُّ

وأنا اللهب وسادتي المطرُ...

فمتى سأستعُرُّ؟!

سأتحدث عن بغداد ولو مؤدياً لواجب العزاء فقط!

ولا أظن رجلاً شهماً في قلبه نبض يتحرك لن يعذرني من باب الواجب الاجتماعي أو الإنساني أو الديمقراطي أو أي شيء، المهم أن أتكلم بصوت مسموع، كما قال الرافعي: «من لا يملك على الأرض شيئاً يملك على الأقل أن يفرح وأن يحزن».

لقد سقطت بغداد، أو قل سقط العرب أو سقط المسلمون.

سقطت بغداد وهي الأم، هي حاضنة الرجال، وصانعة الأبطال، ومأوى العظماء والقواد والأحرار، ومنجم الخيرات والثروات.

سقطت وقد حوّل المعتدون ليل الناس إلى رعب، ونهارهم إلى ضجيج، هربت السكينة وحلت النقمة والبلية.

سقطت بغداد بعد أن سقطنا في مستنقع الجهل وقلة الدين، بعد أن سقطنا في بحر من الملذات والفجور.

سقطت بغداد ونداءات الأحرار أخرست، وأصوات الحق كملت.

سقطت بغداد وحاملو السلاح مكتوفو الأيدي، بعد أن ملك الساسة الأناية وحب الذات.

سقطت بغداد وقد حاربنا أنفسنا، وأشهرنا ألسنتنا على أهلنا ودعاتنا وشيوخنا ودعاة الإصلاح منا.

سقطت بغداد وخططوا وما خططنا، ودرسوا وما درسنا، وأكلنا يوم أكل الثور الأبيض.

جاؤوا ومعهم ٧٥ مليار دولار أقنعوا بأخذها مجالسهم وشعبهم، وقد أتينا ومعنا ما تلفظه الجيوب لعدم رغبتنا بها.

سقطت بغداد بعد أن حاربنا الاجتهاد، وصادرنا الحرية، ورمينا بأهل الإبداع في أحضان غيرنا.

سقطت بغداد وقد أحسنا الصياح وما أحسنا العمل.

سقطت بغداد وعدونا أتى بكامل القوى العسكرية والنفسية وفوقها القناعة والقدرة الذاتية.

وسقطنا ونحن لم نقل بحق: يا الله، يا الله، يا الله... فوكلنا إلى ذاتنا، وانهزمنا في أنفسنا.

إن قتل أعداؤنا المسلمين علناً فنحن قتلناهم سرّاً، وإن قتل أعداؤنا المسلمين مباشرة فنحن قتلناهم على مهل، إن ظلموا فقد ظلمنا، وإن أساءوا فقد أسأنا، ولئن عبثوا بجوارحهم وخسئوا في معاصيهم، فقد عبثنا بجوارح قلوبنا حسداً أو حقداً أو تعدياً، فخسئنا أكثر.

لقد سقطت بغداد:

الدين يحكم أو صلاح	سقطت وما في الشرق نور
لكنهم نكؤوا الجراح	كنا نسينا ما مضى
لو مشى في الريح طاح	لم يخجلوا من ذبح شيخ
ينبت لهم ريش الجناح	أو صبية كالزهر لم
سفحوه في صلف وقاح	لم يشف حقدهم دم
في انتشاء وانشراح	عبثوا بأجساد الضحايا
يخشوا قصاصاً أو جناح	وعَدَوْا على الأعراض لم
يخفوا وجوههم القباح	كشّروا عن الأنياب كي
ن دانهم أو باقتراح	لم يعبأوا بقرار أم
جنكيز ذو الوجه الوقاح	عاد التتار يقودهم
دُ بالخراب والاجتياح	عادت جيوشهم تهدّ
المسلمين إلى الكفاح	عادوا ولا قطز ينادي
وقاتلوه بهذا السلاح	غنموا السلاح من العدو

لقد سقطت بغداد وكأنّ كابوساً انزاح، وهماً راح، كأن شبحاً كان يطارد مستقبلنا...

بالله عليكم، من ذهب منكم إلى الجمعيات الإغاثية فأخذ فراشه
الوثير، ووسادته الناعمة وأرسلها إلى أمه وأخته وأبيه في بغداد؟

من منا تجبره دموعه في سجوده، فيتأثر داعياً الله المولى العظيم
ليفرج الهم وينفس الكرب؟

أعتقد أنه لا يوجد أحد إلا القليل، والقليل جداً ممن يطارده
هول المصائب، وعظم الفاجعة.

هذه قصة بغداد خذوها من الواقع عبرة وعظة ولا تأخذوها من
ذاك الرجل الذي سألوه:

يا صاح هل عبر الغزاة ضفافاً؟ أم كان زعماً أطلقوه جزافاً؟
ولم الأشاوسُ غادروا ساحاتهم متسابقين مع الرفاق خفافاً
ولم المهيب قد اختفى وهو الذي وعد العروبة أن يحرر يافا
فأجابهم: لا تسألوني واسألوا العليج والطرطور والصحافا!!

لقد انتهت الحلقة الأولى من الأزمة وأنضجت لنا ثمرات منها
حلو مفيد، ومنها مر شديد.

فثمرات الأزمة الإيجابية منها:

أولاً: زيادة الوعي في صفوف المسلمين، وإدراكهم مدى بشاعة
الغرب في جشعهم وحرصهم على دنياهم. وكشف أكذوبة (أسلحة
الدمار الشامل) التي لعبوا بها على الشعوب حتى نجحوا في شنّ
الغزو، وحين فعلوا نسوا قضية هذه الأسلحة واشتغلوا بالسيطرة على
ثروات المسلمين!!

ثانياً: البدايات اليسيرة للمّ الشمل، وتوحيد الصف الإسلامي

على جميع طبقاته لتحديد العدو الحقيقي ونسيان شيء من الخلافات التي كانت تفرق رموز العلم وأهل الإصلاح.

ثالثاً: صيحات النذر، والدعوات الراشدة لاتخاذ خطوات عملية حضارية متكاملة لمقاومة العدوان الغاشم.

وأما ثمرات الأزمة المرة:

أولاً: غياب صوت علماء الأمة الربانيين المرشدين المنصفين الواعين بشكل واضح متقارب يؤثر في حركة المجتمع المسلم. والصيحات المتناثرة والمختلفة كلياً أو جزئياً أدت إلى موجة جهاد غير مدروسة الخطى، ولا معروفة الأثر، أو إلى موجة تخدير واستكانة. ولست أنكر أنّ من علماء الأمة من سجّل موقفاً حميداً، وقال كلمة فيها رشد وصراحة وعقلانية تجمع بين فقه النصوص وفقه المقاصد، ولكنها بقيت خافتة يعرفها من تابع حلقة فضائية، أو صفحة إنترنت أو مجلة محددة في يوم معين ولم يكن تأثيرها كبيراً.

ثانياً: تضارب الآراء، وفتح المجال للمفكرين العقلانيين، والمحللين السياسيين ليناقدوا المسألة الشرعية في واقع الأمة، فأسأؤوا وخربوا، وكانوا بناء الإرهاب الفكري المعاصر.

أقف عند هذه النقطة الخطيرة أيها الإخوة لأجعلها مدخلاً رئيساً لما حدث في تفجير الرياض الآثم يوم الإثنين الماضي.

إنه لا يسطو للصوص إلا على الكنوز في خزائنها، ولا يتلصص السارقون إلا على الثروات في مخابئها. والصبيان والأوغاد لا يرمون إلا أعلى الشجر من أجل إسقاط يانع الثمر.

وبلاد الحرمين - حرسها الله - بمقدساتها وثمراتها وتوحيد أهلها

كنز من الكنوز. وإنها لعالية القدر في مقامها، ويانعة الثمر في منجزاتها، وما حادث الرياض المشؤوم ليلة الثلاثاء الماضي إلا دليل على تهوّر ضعفة النفوس وأرباب الإجرام المتناهي.

وفي صبيحة اليوم نشرت إحدى الصحف صوراً لهؤلاء المعتدين على الحرمات، الظالمين لأنفسهم ولأمتهم. تسلط غادر، وفعل فاجر، وانهزامية نفسية مقبحة، وتفكير سطحي أهوج، وغيظ متأجج ما له من قرار.

لربما تشير التقارير والصور الأولية إلى أنهم شباب عرب ومسلمون، وقبل الخوض في الحديث عن هذا، يجب أن نثبت وبصوت مسموع أن التعدي على الآمنين والمستأمنين الذميين فضلاً عن المسلمين حرام شرعاً، وانتهازية دموية لا تقرها النفوس السوية بل هي سلوك شاذ مقبحة. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٩٣) (١).

ولست أدري إلى أي تأويل ذهب هؤلاء المعتدون لتبرير فعلهم هذا؟ وإن كنت لا أريد الاستعجال في الحكم عليهم إذ الأخبار لا تزال في أولها والحقائق الكاملة لم تظهر بعد. لكنني أريد أن أؤكد أنه إن كان ما حصل هو من فعل بعض الشباب العرب المسلمين فإني أظن أنهم أرادوا شفاء غيظ بغيظ، وغفلوا أو تغافلوا عن أن السبب الذي أغاظهم بالأمس هو نفس ما فعلوه اليوم! إذ النتيجة قتل أكبر عدد من المسلمين وترويع أهليهم وكراهية المجتمع المسلم الواعي لأمثالهم!

لقد قلت: إن أزمة العراق أثمرت نتائج مرّة، ينبغي أن لا نتجاهلها ولو على محيطنا نحن، ومنها:

١ - غياب صوت العلماء المرشدين الربانيين المنصفين الواعين، مما ترك فرصة لجمهور الأمّة أن يختار لنفسه الطريق الأمثل في رأيه للإصلاح في زعمهم. خاصة وأننا في زمن الفضائيات والمعلومات الواسعة، والأفكار المنتشرة، قربة التناول، حتى عند طاولة الطعام، وفراش النوم. وهذا الغياب كما قلت جعل نفراً من المسلمين عامة وخاصة، نخباً ومبتدئين يحللون الأحداث بأنفسهم، ويقتحمون الحمى بذواتهم.

ولهذه النقطة تعلّق كبير بمشكلة الرياض القريبة. فشاب اليوم ما عاد كالأمس، وليس الحل فقط في أن نوجه كلاماً منا فحسب. وذلك لأن الشاب المتحمس أصبح يرى صور العالم كله عبر قنواته وشبكات معلوماته الواسعة. فإذا لم يظهر قول العلماء بوضوح وإجماع وقوة، فُتح الباب لأصوات ربما تكون نشاراً وذات أثر سلبيّ.

ومن المشكلات التي ذكرت قبل قليل تضارب الآراء، وترك من لا ناقة له ولا جمل يتكلم في قضايا الأمّة الشرعية بوجهة نظر سياسية أو عقلية يريد فرضها على الشرع. وقصد الإعلام بذلك فتح الباب لنظرية (الرأي والرأي الآخر) ومثال ذلك: أفتى أحد شيوخ البلد الثقات بعدم الذهاب للعراق للكبار أو الشباب الغيورين من المسلمين لخطورة الواقع، ولأن مفهوم الجسد الواحد لا يعني أن نقتل كلنا برصاصات طائشة. فتكلم أحد الكتاب العقلانيين وقال: هل المفتي هو الشيخ فلان أم صدام حسين؟ فأخذ ينقض فتواه بغير برهان، ويشوه رؤية الفتوى بالنظرية العقلانية. وما النتيجة؟ النتيجة أن

الإعلام ترك المجال لمن هب ودب بحجة نظرية الرأي، والرأي الآخر دون فحص وتثبت.

إنني باختصار أريد أن أثبت القاعدة الربانية القرآنية، ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ﴾^(١)، وبتوضيح أكثر أشبه المعنى بحال أب كبير جاء يوماً من الأيام شاكياً ولده الذي صفعه بيده على خده. فأبكي هذا الموقف الأب، وجعله يعيش حالة رعب من ولده، وسبب له هزة نفسية، ونكسة قلبية قد لا يشفى منها. ولكننا سنسأله: ألا يمكن أن تكون أنت السبب المباشر لحدوث المشكلة! وبدون فلسفة يعني: قد تكون أنت ممن ضربه على خده عشرات المرات، وممن أسمعته هديراً من الشتائم وأطناناً من السباب. ولربما جاء متأخراً من جلسة عادية مع أصدقائه فسجنته في الغرفة أياماً لتعلمه الأدب، ولربما ظلمته وطرده وإخوانه وأمه... أفلا يمكن بعد هذا أن يكون الأب هو السبب؟ أعرف أنه مهما حصل فسيبقى الأب أباً، والأم أمّاً، ولكن مع هذا الأمر المقرر لا بدّ أن نقول أيضاً: إنّ الإنسان إنسان، وإنّ الغضب غضب، وإنّ الدم دم، والنص الإنجيلي المحرف الذي يقول: (إذا صفعك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر) قد ولى وانتهى في زمن العولمة وبركة ساسة الغرب.

لذا فإني أرى أن من دورنا:

١ - بيان الحكم الشرعي في التعدي على المستأمنين والذميين فضلاً عن دماء المسلمين المعصومة. وإن كنا قد نجحنا في هذا و لكن لا بدّ من التذكير.

(١) آل عمران، الآية (١٦٥).

٢ - فتح أبواب العلماء الثقافات المتبصرين الواعين لمشاكل أبناء الأمة اليوم، فزمن الأمس ليس كزمن اليوم.

٣ - توسعة نشاط الأعمال الخيرية والمحاضن التربوية. فوالله العظيم، إن ناشئة حلقات تحفيظ القرآن الكريم ومراكز الأحياء والأندية الصيفية ليتلقون مبادئ التربية والفكر الإسلامي الرشيد. ولا بدّ من ضرورة دعم هذا المسار المهم لقبول الناشئة في زمن الفتن والفكر الجوّاب.

٤ - إيقاف الاستهزاء بالدين وعلماء المسلمين.

٥ - لا يعني التماسك وفتح أبواب الحوار الصادق الشفاف إنهاء الابتلاءات وسكون المحن. فأعداء هذا البلد متربصون، والحمقى والمغفلون أرهقوا ابن الجوزي فألف كتاباً عنهم ولا يزالون، ولكن الحرص على فتح أبواب الحوار الحقيقي هو أيسر وأنفع أسلوب.

ثم لنعلم أنه لن يتم سكون ولا عافية إلا بتقوى الله وخشيته حق الخشية، ورد المظالم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فشبابنا أمام فتنين:

فتنة التغريب والانحلال الأخلاقي التي تؤدي للغفلة، والغفلة تؤدي إلى المجاهرة بالمعصية، والمجاهرة تؤدي إلى سخط الله وغضبه وحلول النقم.

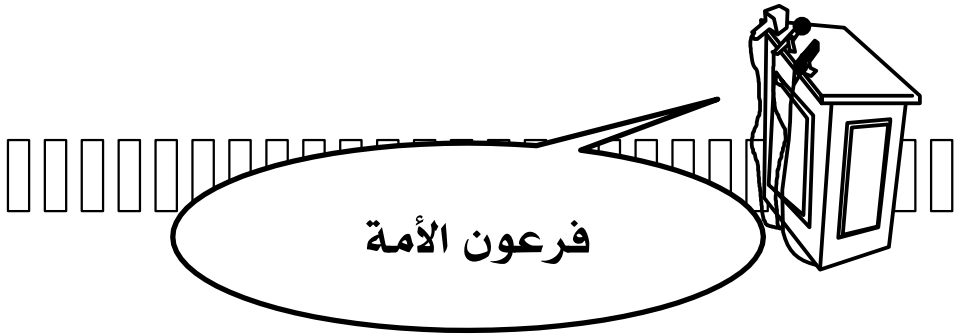
وفتنة التكفير وسطحية الرأي الشرعي التي تؤدي إلى الفوضوية، والفوضوية تؤدي إلى إهلاك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد.

إنها فتنة من الفتن، وابتلاء وتمحيص إن شاء الله لهذا البلد
الطيب الغالي.

حفظ الله لبلادنا أمنها، ورعى الله ولاة أمرها، وسدد الله خطى
علمائها، وبارك في رجالها.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، ربنا لا تجعلنا فتنة، وهب لنا
من لدنك رحمة.





فرعون الأمة

موضوعٌ أخذ يحيط بي من كل جانب، ويعلم الله أنني كلما حاولت الهروب منه رجعت إليه، شغل كل شيء في روحي وعقلي ومشاعري، وكلماتي وخواطري بل أحلامي.

وما قيمة الإنسان إلا روحه، فاستسلمت إلى هذا الموضوع، ليس استسلام خضوع لا والله. بل هو الحقيقة المرة التي لا بدّ منها.

إنني تذكرت والذكرى مؤرقة	مجداً تليداً بأيدينا أضعناه
أنى اتجهت إلى الإسلام في بلدٍ	تجده كالطير مقصوصاً جناحاهُ
ويح العروبة كان الكون مسرحها	فأصبحت تتوارى في زواياهُ
كم صرّفنا يدٌ كنا نُصرفها	وبات يملكنا شعبٌ ملكناهُ
كم بالعراقِ وكم بالهندِ ذو شجنٍ	شكا فرددت الأهرامُ شكواهُ
هي الحقيقة عين الله تكلؤها	فكلما حاولوا تشويهها شاهوا

إنّهُ الحقيقة، حقيقة الواقع الأليم الذي تعيشه أمتنا في هذا الزمان.

حقيقة التغير، التغير نحو الشر والفساد والإجرام، حقيقة التجاوز عن القيم والمُثل والمبادئ.

أصبحنا مسلمين، ولكن بلا هوية؛ لأن الهوية يملكها غيرنا.

تسال دماء المسلمين، وتنتهك أعراضهم، وتسلب أراضيهم، ويسجن شبابهم، وتسبي نساؤهم، وتهدم مساجدهم، وتحرق منازلهم، وتسحق شرايينهم، وتتفجر أحشاؤهم من الداخل كمدأ وألماً... وليس بأيدينا إلا أن نرفع أمرنا إلى مجلس الأمن!

وكلما زادت الصرخات: فلسطين، الفلبين، البوسنة والهرسك، كوسوفا، الشيشان، داغستان... قال مجلس الأمن: كفى!

لا ترفعوا رأساً فإنَّ حسامنا	بإزالة الرأس العزيزة مُغرماً
لا ترفعوا كفاً فإن عيوننا	مبثوثة والقيد قيد أدهم
لا تنطقوا حرفاً ففي قانوننا	أن الشغور الناطقات تكتم
وإذا ضربناكم فلا تتحركوا	وإذا سحقناكم فلا تتألموا
وإذا أجعناكم فلا تتذمروا	وإذا ظلمناكم فلا تتظلموا
نلقي الطعام لكم فإن قلنا: كلوا	فكلوا وإلا بالصيام استعصموا
عرب وأجمل ما لديكم أنكم	سلمتمونا أمركم وغفلتم
ماذا دهاكم؟ تطلبون حقوقكم	طلب الحقوق من الضعيف محرم
نحن الذين نقول أما أنتم	فالجافلون الصامتون النوم
الأرض كل الأرض مسرحنا الذي	تجري الفصول عليه وهو مقسم
لن تستريح قلوبنا إلا إذا	لم يبق في الأرض الفسيحة مسلم

وعندما تأملت هذا الاستبداد، وهذا الإذلال الذي تعيشه أمتنا، تحت أقدام هيئة الأمم، ومجلس الأمن، عرفت أنه لا بدَّ من القوة والسيادة كي تحترم. فرجعت إلى القرآن أطوف حول آياته، فأمنت وأيقنت، أنه لن يتم السؤدد إلا بالرجال الذين هم السبب الأكبر في تغيير حال الشعوب والأمم.

وأخذت أتابع آيات القرآن في أكثر من أربعة وسبعين موضعاً ذكرت اسم رجلٍ غيّر التاريخ، وبدل حال العالم كله.

والله، ما مر على أمة رجلٌ أعظم من هذا الرجل، ولا زعيم أقوى من هذا الزعيم!! والعجيب أنّه مع مكانته هذه يندر أن يتحدث الناس عنه، وعن سيرته، وتحليل شخصيته، بل قلما تجد كاتباً أو واعظاً أو خطيباً ذكره. مع أنه رجل عظيم والله، وزعيم كبير، فلماذا لا تتحدثين يا أمتي عنه، لماذا؟ لماذا لا تستفيدين من تاريخه لماذا؟

إنه والله عظيم، عظيم الجبارة في الأرض، وزعيم قساة القلوب على مرّ التاريخ. إنه «فرعون». ولا تتعجبوا من هذا الموضوع فما ستسمعون سيفتح قلوباً بإذن الله كانت مغلقة، ويعرفنا بأخطار حولنا محدقة، ويرينا السبيل. فلا تتعجبوا... فرعون رجل دوّخ أمته، ولعب بشعبه. فرعون أنزل الله فيه آيات، تبين حاله:

لقد شتم موسى عليه السلام فقال - كما حكى الله عنه -: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ (١).

وأخذ يتكلم ساخراً من موسى عليه السلام؛ لأن في لسانه عقدة: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٢).

فرعون سبّب نكبات أمته كلّها، ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ (٣).

فرعون له تاريخ عجيب مع أمته يتكرر في كل زمان ومكان.

(١) الإسراء، الآية (١٠١).

(٢) الزخرف، الآية (٥٢).

(٣) طه، الآية (٧٩).

إن فرعون أيها الإخوة ليس فرعون موسى فحسب إنه مجرد رمز، إنَّ هناك فراعنة سيتكررون في كل زمان. كيف لا والنبِّي ﷺ يقول: «فرعون هذه الأمة أبو جهل»^(١).

وكان فرعون إنما هو رمز تتجسد فيه شخصية فرعون الأول، ثم هو يتكرر عبر الأزمنة والأمكنة، ففي زماننا فرعون، وفي أيامنا فرعون، وفي كل مكان وزمان فراعنة يأخذون من سيرة فرعون موسى. فرعون الأول، وفرعون الأخير ومن بينهما يأخذون نفس المنهج، يقول الله تعالى عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾^(٢)، أي: جعلهم طبقات متباينة، فمنهم الفقراء ومنهم الأغنياء، ومنهم الوجهاء ومنهم العمال المستضعفون.

ثم هو ﴿يَذْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾^(٣)؛ فمن يقف في طريقة فالعدل هو القتل! ﴿وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ﴾؛ إذا أحب أن يظلمهن ويقتلن فعل، وإن أحب أن يتركهن أحياء، ويبطش بهن، ويفعل بهن الفاحشة فعل، ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٤).

وفرعون هذا الزمان كفرعون موسى، يدخل الرعب في قلوب المسلمين في كل زمان، ولا يحترم أي شخص ولو كان عالي القدر رفيع المنزلة، ولو كان نبياً من الأنبياء.

ما احترم موسى، وهو نبِّي من الأنبياء، وهو كريم من الكرماء

(١) أخرجه أحمد (٣٨٢٤) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) القصص، الآية (٤).

(٣) القصص، الآية (٤).

(٤) القصص، الآية (٤).

وهو كليم الله، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(١)، ولا احترام فرعون أم موسى عليه السلام.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرَجًا﴾ أدخل في قلبها الرعب، ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فرعون الظالم الجبار يستخدم وسائل العنف، ويستخدم المجازر ضد من وقف في طريقه.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبَلَدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾^(٢).

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾، من وقف في طريقه وضعه على الأرض وكبل يديه وقدميه بأوتادٍ من حديد، وأخذ صخرةً ورمها على صدره ليتلوى ويصرخ. كل من يقف في طريق فرعون. فرعون هذا الزمان وكل زمان، يُشهر به في الإعلام! وتلوكة الألسنة! وتهيجُ ضده الجماهير ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾^(٣) أي: المستضعفين من المؤمنين، ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ﴿وَلَهُمْ لَنَا لَغَاطُونَ﴾^(٤) هذا هو سبب حقد فرعون، سببه أن هؤلاء المستضعفين من المؤمنين يغيظون القلوب من الداخل: ﴿وَلَهُمْ لَنَا لَغَاطُونَ﴾ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ ﴿وَلِئَا لَجَمِيعُ حَذَرُونَ﴾^(٥) فرعون الذي بيده القوة والسلطة يقول: ﴿وَلِئَا لَجَمِيعُ

(١) النساء، الآية (١٦٤).

(٢) الفجر، الآيات (١٠ - ١٢).

(٣) الشعراء، الآية (٥٣).

(٤) الشعراء، الآية (٥٤، ٥٥).

(٥) الشعراء، الآية (٥٦).

حَذِرُونَ ﴿٥٦﴾. نحذر من المستضعفين ونخاف منهم، لأن الله وضع في قلبه الرعب. فرعون ينادي: إن المسلمين هم الوحشيون، وهم الإرهابيون، وهم الأصوليون، وهم المتطرفون، ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾^(١)، إِنَّ المسلمين هم المبدّلون، إنهم الوحشيون، إنهم هم المفسدون في الأرض!!

يا فرعون هذا الزمان، من الوحش؟ من الظالم؟

من الوحش قد قذفته البحار	على وطن مثقل بالشّمَر؟
فمزقه مثلما مزقت	صداء السكاكين لحم الجُزُر
ويشوي على الفحم أولادنا	ويرمي بنا في البرايا غجر
من الوحش؟ يفترس القدس من؟	ومن وجه من جسمها يقشعر؟
من الوحش؟ من ذا الذي اغتال عكا؟	ومرج ابن عامر المزدهر؟
من اغتال حيفا؟ من اغتال يافا	ولُداً ورَمَلَةً من ذا نحر؟
مئات القرى غرقت في الظلام	وكانت تلاً مثل الدرر؟
ألوف المساجد تبكي طلولاً	حطاماً مآذنّها والجدر
من الوحش؟ كم من رضيع نرى	وكم من بطون الحبالى بقر؟
ودق المسامير في لحمنا	ليَبْنِي مستوطنات كبر
من الوحش حقاً؟ من السرطان الـ	خبيث الذي كل عظم نخر؟
ويلبس زي الحمام الوديع	لأن البرايا لديه حُمُر
ويسحب ما تحتنا قائلًا	هناك فلسطين شرق النهر

فرعون، يعود في هذا الزمان أيها الإخوة...

(١) غافر، الآية (٢٦).

في أمرٍ يقلق مشاعرنا، ويؤذي إيماننا. هل قرأتم ما تنادي به بعض وسائل الإعلام لمن يقرأ ويتدبر؟
أيعقل هذا؟

صحفُ بلاد التوحيد... البلاد التي ينادي أهلها بالإيمان والاستسلام لله... هذه الصحفُ يُدعى فيها إلى المنكر جهاراً نهاراً عبر ترويج شعاراتِ القنوات الفضائية الهابطة؟! ولو اقتصر الأمر على ذلك لربما سكتنا سكوتاً نسأل الله العافية والسلامة منه.

ولكنَّ الكارثة أنهم أتوا بصورة امرأة راقصة فاتنة، لا ترتدي من ثيابها ما يسترها. ثم قالوا: إن فئاتنا تدعو للإثارة والمتعة!!
صورة امرأة في صحفنا تدعو للإثارة والمتعة؟!
إثارة ماذا؟

إثارة الإحساس الميت في قلوبنا؟ أم إثارة الإيمان الغائر فينا؟

إثارة ماذا يا أهل الفضائيات؟

إثارة النخوة والشرف؟ إثارة الكرامة والعفة؟ إثارة الحياء والخلق؟
(الإثارة والمتعة).

إثارة ماذا يا أهل الإعلام؟ يا أهل الفضائيات؟

ما بقي فينا إلا ذرة إيمان، بل خردلة الإيمان... حتى هذه تريدون أن تجتثوها من صدورنا؟ أما يكفي ما تفعلون؟ أما يكفي الرقص والغناء؟ والصراخ الذي يغضب الله؟

أما تستحيون إن كان في قلوبكم حياء؟

أما ترحمون حال الأمة وهي تتجرع الغصص في عام الحزن
بموت ثلة من علمائها الكبار؟

أما ترحمون الأمة المنهوبة المستضعفة التي أذلت في كوسوفا؟

أما تتقون الله في النساء، والرجال، والشيوخ؟

أما يوجد في قلوبكم رحمة على المساجد والجوامع التي هدمت؟
الإثارة والمتعة.

ماذا تعنون بهما؟

إلى هذا الحدّ وصل بكم الحال؟ تنشرون مثل هذا الإعلان في
صحفنا؟

وفي أطهر بلاد العالم، تضعون مثل هذه الصور وتلك الكلمات
يقرؤها الناس بجوار الحرمين؟

ماذا يقول عنا الناس وهم يرون فينا بقيّة الأمل في هذا العصر
المسكين؟

أيقولون: إنّ الحياء قد ذهب منا؟ وضاع الإسلام من بين أيدينا؟

أم يقولون ما قال الشاعر:

يا ضيعة الإسلام لما ولي مظلّم الناس أبو عمرا
عُيِّن مأمونا على أمة وليس بمأمون على بَعرا

إننا نعلم أنكم تحاولون إذلال هذه البلاد والتي رفعت راية
الإيمان، وهي الراية التي فيها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»،
وهي الأرض التي تطبق شرع الله.

تريدون أن تذللونا، ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) (١).

بقيت فينا النخوة، وبقيت فينا سجايا الفطرة، وبقي فينا الإيمان،
وسنحاربكم بأقلامنا وكتاباتنا والله معنا بإذن الله.

ونحن في هذه الأرض التي ستظل تعلن راية الإسلام، وستبقى
شامخة بلا إله إلا الله محمداً رسول الله.

إِنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ مَهْمَا عَاشُوا، سِيرَجُونَ إِلَى يَوْمٍ يَدْمُرُ اللَّهُ فِيهِ
أَعْمَالَهُمْ، ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا
يَعْرِشُونَ﴾ (١٣٧) (٢)، أي: ما كانوا يبنون ويخططون. كل المستوطنات
يا فرعون ستبید وستهلك؛ لأنكم ستبیدون وتفنون، والله يبقى لا
يفنى ولا يزول، ﴿وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ
بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠) (٣)، وَأَمَّا الرَّجُلُ الصَّالِحُ الْوَاعِظُ الْمَذْكُورُ،
﴿فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ (٤٥)
النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ
أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (٤٦) (٤).

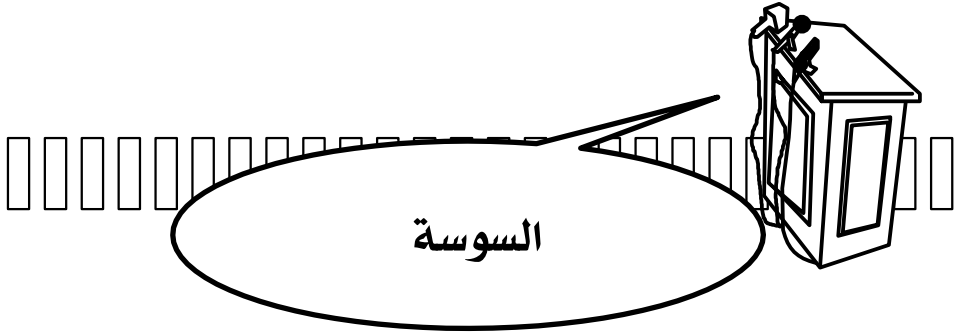


(١) التوبة، الآية (٣٢).

(٢) الأعراف، الآية (١٣٧).

(٣) يونس، الآيتان (٩٠، ٩١).

(٤) غافر، الآيتان (٤٥، ٤٦).



حضرت في مدينة بيروت مؤتمر القدس، وهذا المؤتمر يتبع لمؤسسة القدس، المؤسسة الرسمية العالمية التي تخدم قضية فلسطين والقدس. وقد حضر أكثر من مائتي شخص من جميع أنحاء العالم منهم العلماء والدعاة والمثقفون والمفكرون والمهتمون بقضية القدس، وكان مؤتمراً عملياً رائعاً، وقد أكرمني المولى جلّ جلاله بحضوره، وقبل أن أبدأ خطبة اليوم المهمة والمثيرة في نفس الوقت... أحب أن أشارككم فيما جرى في هذا المؤتمر عبر نقاط ثلاث:

أولاً: السعي العملي الجاد لمناصرة قضية فلسطين:

إن هذا المؤتمر لم يكن فيه خطب، ولا أشعار، ولا مهرجانات، بل كان فيه لقاءات للعديد من الساعات للخروج بأفكار عملية تخدم قضية القدس كل في مجاله وتخصصه، وعلى حسب قدراته وإمكانياته. وقد أنجز الحاضرون عدداً من الأعمال التي ربما تكون يسيرة في ظاهرها، إلا أنها كبيرة في ميادين الأعمال، لأن الأعمال الكبيرة بدأت صغيرة، ثم نمت ببركة الإخلاص، ودوام الجهد، والسعي لتطوير الأداء نحو الأفضل.

وأعجبني قول أحد الدعاة: كثير من الناس يأتونني ويحدثونني

عن هموم المسلمين، وآخر الأخبار عنهم، وخاصة قضية فلسطين،
وعندي وعندهم من الهموم والمعلومات والأخبار ما يكفيني ويكفيهم،
وأحب إليّ من طول الكلام أن يأتي أحدهم وفي يده ظرف فيه مائة
ريال، ويقول: هذه لإخواننا في فلسطين!!

نريد مع الكلام عملاً، ولو يسيراً، حتى نحقق ثمرة من كلامنا.

ثانياً: كنت قد زرت مخيم «عين الحلوة» وهو مخيم لإخواننا
اللاجئين الفلسطينيين في ضواحي بيروت. بعد صلاة العشاء إلى قرب
الفجر، وكنت بصحبة الشيخ الداعية الدكتور: محسن العواجي
حفظه الله. وصلنا بعد صلاة العشاء، وكان بعض العارفين بأحوال
المخيم يقول لنا: لا تذهبوا للمخيم في النهار لأنكم لن تتحملوا
الموقف، بل اذهبوا ليلاً، حتى لا تروا المعاناة والمأساة. المهم أننا
وصلنا ليلاً «مخيم عين الحلوة» كان أصله مجموعة خيام يسكن فيها
اللاجئون الفلسطينيون، ثم مع مرور السنوات تحوّل إلى مباني بسيطة،
مساحة المخيم (٢ كيلو متر تقريباً) ويسكن فيه نحو (٧٠,٠٠٠) سبعين
ألف مسلم فلسطيني! ربما تسكن العائلة الواحدة المكونة من سبعة
أشخاص في غرفة واحدة، وأحوالهم المادية ضعيفة جداً جداً،
والأضواء تطفأ في الثانية عشرة ليلاً، لعدم وجود تيار كهربائي قوي،
والأماكن ضيقة للغاية، وإن سألتهم عن المدارس فإن عدد الطلاب في
الفصل الواحد يصل إلى ستين طالباً، وإن سألتهم عن المستشفى أو
المستوصف فإن المريض إذا مَرَضَ مرضاً عادياً مفاجئاً عليه أن يصبر
عشرة أيام أو أكثر حتى يأتي دوره للكشف عليه، لا لتقرير علاجه!!

ومع هذه الحالة المأساوية أيها الإخوة إلا أننا وجدنا عجباً والله،
وجدنا محلات للإنترنت، ولاحظنا وجود كابلات على سطح كل بيت!

وحين سألنا عنها أخبرونا أن هناك قناة تسمى (قناة الأقصى) تبث في كل بيت، وهي قناة فضائية، وفيها حوارات اجتماعية وتربوية وشرعية وسياسية، وفيها برامج مع الجمهور على الهواء مباشرة، إلى غير ذلك من العجب العجائب. وهذه الحادثة أكدت لي مرة أخرى أهمية العمل، وضرورة بث الوعي، ونشر الأمل في حياة الناس، والخروج من دائرة الصندوق الأسود الوهمي الذي يصور لنا عدم القدرة على العمل والإنجاز، وأن الأمور ميؤوس من صلاحها، فيقعد الإنسان عن أداء دوره بالحكمة والموعظة الحسنة، لقد أيقظتني هذه الأعمال في هذا المخيم من غفلة ربما تطرأ على الذهن، والحمد لله على لطفه جلّ جلاله.

ثالثاً: عندما جاء يوم الجمعة، وبعد أن أدينا صلاة الجمعة في المسجد المجاور للفندق الذي كُتّا فيه، بدأت علائم التغير، وكأن آثار السكينة والرحمة زالت بزوال العلماء والدعاة، والمصلحين، أي والله أيها الإخوة... منذ أن غادر أكثر العلماء والدعاة مقر الفندق الذي انتشرت فيه أوراق اتجاه القبلة، ووضع في كل دور مصلى خاص، وكأنك داخل إلى مسجد لا إلى فندق خمسة نجوم، أقول: منذ أن غادر الدعاةُ تغيّر الحال، فانتشرت أصوات الموسيقى الصاخبة في أرجاء الفندق، ونزعت البركة، وارتفعت السكينة.

وهذا يدل على أهمية تجمع الصالحين، واتحادهم وتعاونهم، فإن الرحمة تنزل، والبركة تحصل، ونسأل الله أن يثبتنا على إيماننا وحسن أخوتنا حتى نلقاه.

هذه وقفات ثلاث حول مؤتمر القدس الذي عقد في مدينة بيروت في الأسبوع الماضي.

أما حديثي اليوم فهو في ذكر حيوان من الحيوانات، وكائن من الكائنات الحية التي خلقها الله، ولا عجب في ذلك، فهناك عدد من سور القرآن الكريم سميت بأسماء حيوانات كسورة البقرة وسورة النمل وسورة الفيل وسورة العنكبوت... وغيرها. وقد يقول قائل: ما الحكمة في ذكر بعض الحيوانات وعرضها في القرآن الكريم؟ فأقول: الجواب عن هذا السؤال في القرآن الكريم، استمع ما يقول الله تعالى في كتابه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٨) (١).

فالمعنى إذاً: أنه لا يوجد طائر في السماء ولا كائن حي يدب على هذه الأرض إلا أمم أمثالكم، يعني صفاتها وأعمالها كصفاتكم أيها البشر وأعمالكم!!

ففي الحيوانات نسر جارح، وفي البشر أناس كالوحوش تجرح بغير سبب.

وفي الحيوانات حمير مأمورة، وفي البشر أناس كالعبيد على طاولات اللثام.

وفي الحيوانات ذئاب خادعة، وفي البشر أناس يعطونك أطيب الكلام في وجهك، ويلعنونك وراء الكواليس.

وفي الحيوانات جرابيع عابثة، وفي البشر أناس يعبثون بقيم وأخلاق المجتمع، همهم القاذورات والأوساخ - أجلكم الله - .

(١) الأنعام، الآية (٣٨).

وفي الحيوانات خرفان، وما أدراك ما الخرفان؟ وقد سبق الحديث عنها!

وفي الحيوانات بطّ، يحب أن يسبح ويلعب فقط، ولا يدري ماذا يجري في العراق ولا فلسطين ولا الشيشان ولا أفغانستان ولا كشمير، همه أن يلعب ويعانق البط فقط، وفي البشر أناس لا يهتمهم ما يجري لأمتهم، ولو كان همهم موسمياً.

وفي الحيوانات طواويس، تحب أن ترقص وتمرح، وتفرد ريشها، وفي البشر أناس كل تاريخهم اللعب والمسخرة وكشف الغرف على بعضها، وفرد الريش على المساكين من عباد الله.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٨) (١).

والحيوان الذي أودّ أن أحدثكم عنه في هذه الخطبة، بعد هذا التفسير الإيضاحي الشرعي المعاصر للآية: حيوان له دوره في حركة الحياة، والتأثير على الناس، ذكر في القرآن الكريم. فيا ترى ما هو هذا الحيوان؟ وكيف كان له الدور العظيم في حياة المجتمع. وكيف أثر على كثير من المسلمين فضلاً عن غيرهم؟

لنستمع الآن إلى هذه القصة التي يرويها لنا أمير الشعراء أحمد شوقي، وتستنبطون من خلالها معرفة الحيوان الذي ذُكر في القرآن:

حكى أن ملكاً للغربان يعيش في مملكته، وقصره مشيد على قمة نخلة كبيرة، وكان لهذا الملك خادم أمين ناصح، اسمه ندور.

(١) الأنعام، الآية (٣٨).

جاءت ذات يوم سوسة فانغrust في جذور هذه النخلة فانتبه لذلك الأمر الخادم الناصح، فدار بينه وبين ملك الغربان حوار لطيف تدور أحداثه وكلماته حول هذه السوسة، وما يمكن أن تحدثه من مصائب على الأمد البعيد، يقول أحمد شوقي شارحاً هذا الحوار:

كان للغربان في العصر مليك فيه كرسى وخدر ومهود جاءه يوماً ندور الخادم قال: يا فرع الملك الصالحين سوسة كانت على القصر تدور فابعث الغربان في إهلاكها ضحك السلطان من هذا المقال أنا رب الشوكة الضافي الجناح «أنا لا أنظر في هذي الأمور» ثم لما كان عام بعد عام وإذا النخلة أقوى جذعها فهوت للأرض كالتل الكبير فدها السلطان ذا الخطب المهول يا ندور الخير أسعف بالصياح قال: يا مولاي لا تسأل ندور	وله في النخلة الكبرى أريك لصغار الملك أصحاب العهود وهو في الباب الأمين الحازم أنت ما زلت تحب الناصحين جازت القصر ودبت في الجذور قبل أن نهلك في أشراكها ثم أدنى خادم الخير وقال: أنا ذو المنقار غلاب الرياح أنا لا أنظر تحتي يا ندور! قام بين الريح والنخل خصام فبدا للريح سهلاً قلعها وهوى الديوان وانقض السرير ودعا خادمه الغالي يقول: ما ترى ما فعلت فيها الرياح «أنا لا أنظر في هذي الأمور»
---	---

أظنكم قد عرفتم هذا الكائن الحي الذي ورد خبره في القرآن، إنه السوسة! نعم السوسة... هذا الكائن الحي الصغير الحقير في أعيننا.

يقول تعالى: ﴿وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١). قال قتادة ومجاهد إماما التفسير رحمهما الله في قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: هو السوس والدود.

وروى البيهقي عن شعبة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال: «من استطاع منكم أن يجعل كنزه في السماء حيث لا يناله اللصوص ولا يأكله السوس فليفعل فإن قلب كل امرئ عند كنزه»^(٢).

هذه السوسة المخلوقة الصغيرة التي تتحرك على الأرض لها أثر كبير في خلخلة وتخریب ما حولها، ولها جنود وأتباع يعملون الليل والنهار، ولو بالحركات المستترة الخفية.

ووجود هذه السوسة ابتلاء من الله سبحانه وتعالى كوجود بقية الكائنات الحية، والمهم أن نعرف أن لهذه السوسة أشباهاً من البشر كثيرين ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾^(٣)، هؤلاء البشر هم مثل هذه السوسة في نخر المجتمع، وخلخلة الصف، وتفتيت المجتمع، وإساءة الفهم، وهز الثوابت، وتمكين الواهي، وهم لا يفعلون كل هذا لأنهم أقوياء، كلا بل هم ضعاف، ولكنهم لم يجدوا أي مقاومة...

ومع طول الأيام، تنخر وتتجذر إلى أن تجعل الحلیم حيران، والنائم يقظان، والعزیز ذليلاً، والكبير حقيراً، والغني فقيراً، والتقوي فاجراً، والمصلح فاسداً، وتقلب الحقائق فقد تجعل الحق منكراً، والمنكر حقاً، والشريف وضيعاً، والوضع شريفاً!!

(١) النحل، الآية (٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠٣/٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٧٥/٧) عن عبدالله بن مسعود موقوفاً.

(٣) الأنعام، الآية (٣٨).

هذه السوسة فيها ميزة خطيرة، وهي الانتقال من مكان إلى مكان بكل هدوء ومكر، وفجأة تجدها في كل مكان، حتى في بيوت الله.

سوسة تدخل البيت المسلم فتشتته وتحزنه.

سوسة تدخل المجتمع المسلم فتغيّبه وتدمره.

سوسة تدخل العقل المسلم فتسكره وتسطّحه.

سوسة تدخل القصر المعظم فتتهيجّه وتغطّسه.

سوسة تدخل المسجد المقدس فتقلّله وتهوّنه.

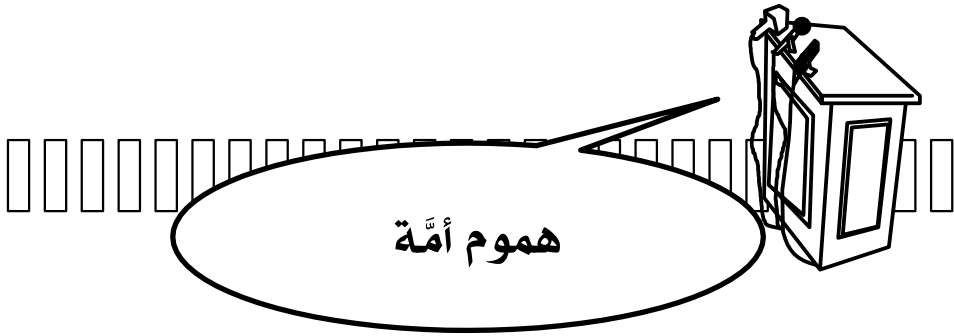
سوسة تدخل القلب المؤمن فتضعفه وتمزقه.

سوسة تدخل الحزب المسلم فتبعده وتحزّبه.

وأيّما جال الإنسان يبصره في أرجاء هذه الأُمَّة وجد سوسة تنخر في جسدها، سوسة تفتك بالدين والقيم والخلق، سوسة لا ترحم، سوسة يبصرها أولو الأحلام والنهى ويقدرّون عاقبتها... ألا إن عاقبتها وخيمة!

ولذلك علينا أن نتتبّع مسارَ انتقال هذه السوسة، وخطوات عملها، حتى نتعرف على مخاطرها، ونحذر من شرها، ونستخدم العقل لنعرف مَنْ مِنَ البشر يعمل كعملها!!





من قلب جو الأحداث المظلم أتيتم اليوم، لأجعله جواً مشرقاً:
 أتيت أحمل في كفي الحياة إلى كونٍ تدثر أزماناً بإفسادٍ
 أتيتم اليوم وأنا أحمل في قلبي قصة عظيمة، سأخوض بها
 غمرة هذه الخطبة. قصة رجل هداني السبيل، ونور لي الطريق، فكم
 شد من عزم، وبصر من عمى، وأيقظ من نوم، وذلل من صعب.

قصة اليوم: من روائع قصص التاريخ.

ستتعرف في هذه القصة على حياة هذا الرجل الإنسان الذي عاش
 حياة الألم والمعاناة.

ستتعرف في هذه القصة على كيفية التعامل مع البشر.

ستتعرف في هذه القصة على بعض عوامل النصر.

قصة تعج من أولها إلى آخرها بالدروس والعبر.

سنعرف في هذه القصة أننا لا نقرأ تاريخنا جيداً.

وأمة لا تدرس تاريخها جيداً ليست جديرة بالقيادة.

قصة اليوم، قصة قرآنية كريمة. وإذا قصَّ الله القصة في القرآن

فتنبه، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِ﴾ (٣) ﴿١﴾، ولن نستفيد من هذه القصة ما لم نتدبر، ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٢٩) ﴿٢﴾، فما لم نتدبر لن نتذكر.

إنها قصة ابن عمّ فرعون، الذي صنع التابوت لأم موسى حين ولدته وألقتة في اليم، لقد كان نجاراً خادماً لفرعون ابن عمه مائة سنة. وكانت زوجته ماشطة ابنة فرعون. وظيفتها القيام بتمشيط شعر ابنة فرعون.

إنها قصة ابن عم فرعون، قصة مؤمن آل فرعون، وتخليداً لقصته، سميت السورة التي حوت قصته بسورة المؤمن أو سورة غافر. عاش هذا الرجل المؤمن في قصر آل فرعون أكثر من مائة عام كاتماً إيمانه، مخفياً عبادته (٣). خَبرَ فرعون عن قرب، وعاش حياة أطغى رجل في التاريخ، حياة الرجل الذي هو أكثر مجرم ذكراً في القرآن.

وكان من قدر الله لهذا الرجل المؤمن أن يعرف المؤتمرات التي يعقدها رموز الكفر وأعداء الدين (فرعون وهامان وقارون).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٣) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقُرُونٍ فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٤) ﴿٤﴾. وهذه هي مداولات المؤتمر أن موسى ساحرٌ وكذاب. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا

(١) يوسف، الآية (٣).

(٢) ص، الآية (٢٩).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٢٦/٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٣٠٦/١٥)، و«تفسير الطبري» (٣٨/٢٤).

(٤) غافر، الآيتان (٢٣ - ٢٤).

أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ^(١)، وهذه هي توصيات المؤتمر. أبناء المؤمنين يقتلون ونساء المسلمين يبقين أحياء.

ولماذا يبقين أحياء؟ ذلك لأنَّ لهنَّ حقوقاً في المجتمع! إذ يمكن أن تعمل المرأة موظفة أو راقصة أو عارضة أزياء!!

المهم أنَّ النساء يبقين أحياء.

وذهب فرعون في نهاية هذا المؤتمر والتقى بوزرائه، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ^(٢) إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ^(٣)﴾.

فرعون المجرم العاتي، الذي يقول: أنا ربكم الأعلى، ويقول: ما علمت لكم من إله غيري. فرعون الذي يقتل من أراد، ويعذب من أراد، ويترك من أراد، فرعون يقول لوزرائه: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾! يعني: اسمحوا لي أن أقتل موسى! ومن يجروء على الوقوف أمام أمر فرعون؟ من؟... من يستطيع أن يحرك شفته. من يريد أن تشكله أمه، ويُنسى من الحياة في لحظة؟... من؟

فلماذا يستأذن إذن؟ لأنه لا بدَّ أن تكون المؤامرة جماعية فما يدري قد تدور الأيام، ويطلب أهله الدم، ويخاطبون منظمة حقوق الإنسان. فإذا ما جاءت المنظمة وجدت أنَّ كل الوزراء وقعوا على أن القضية قضية سياسية، والشهود مثبتة تواقعهم!! ولأجل الوقت يبدأ فرعون...

(١) غافر، الآية (٢٥).

(٢) غافر، الآية (٢٦).

هيا أيها الوزراء، هيا، كلُّ يوقع على الاتفاقية.

تعال يا وزير، تعال يا رئيس، تعال يا صاحب المنظمة...

ماذا تريد يا فرعون؟

أريدكم أن تشخموا بأقلام ملونة رقيقة وثخينة، وبماركات مختلفة.

هيا... وقع هنا... وقع هنا... وقع هنا... وقع هنا...

«في أراجوز نحن؟ أم أمام ساحر يحرك الحيطان؟»

تحركت جنازة الأوطان.

فقام صاحب حقوق الإنسان.

وقال: أين عزتي؟

قال فرعون: يدق رأسها السجان.

الماء مالح، والجوع كاسح...

ونصفها يُلف في الأكفان...

وأين شعبان الذي قد كان؟

مشرد في اللازمان واللامكان...

وكلما أراد أن يقول: (موطني)...

تدق رأسه الكسير كلمتان:

اسكت...

وقع هنا... وقع هنا... وقع هنا... وقع هنا.

وبعد أن تناول الجميع الطعام على مائدة فرعون.

قال الوزراء: وماذا بشأن الناس، العامة؟

قال: أرسلوا في القنوات. موسى أراد أن يبدّل الدين، ولكن اسمعوا نصيحتي قولوها بلغة حزينة: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾^(١)، والأخرى بصوت عالٍ: ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾^(٢). ألبسوه أيّ تهمة! بيان غير لائق، تجمع مشبوه، تحريض على الأمن القومي! أي شيء. هيا اخرجوا لديّ أعمال أخرى، وطبقوا ما قررناه بشأن حقوق المرأة عملياً، أريد راقصة مغنية، عارضة أزياء.

ويريد الله عزّ وجلّ أن يطّلع مؤمن آل فرعون على الورقة السرية لمؤتمر فرعون وجنوده، والهيئات المختلفة (هامان وقارون)، وفي ليلة من الليالي ينظر مؤمن آل فرعون في الورقة ويقرأ ما فيها متعجباً، ويقول: تبا لك يا علقمة - يصف فرعون بهذا الوصف - وكأنّ الذين أرادوا أن يضيعوا أمر موسى كالعلقم في حلقة.

وهنا خاف الرجل المؤمن الذي كان يكتُم إيمانه.

خاف على قتل موسى، وعلم أنّ الدعوة تضحية.

ولئن جاز كتم الإيمان سنين طويلاً فواجب عليه إبرازه هنا؛ لأنّ المسألة أصبحت مسألة قتل وتشويه سمعة.

ويخرج الرجل المؤمن من صمته بعد تخطيط وتدبير لأمره، ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ

(١) (٢) غافر، الآية (٢٦).

وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ (١).

وتصل الأخبار إلى موسى.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (٢٧) (٢)، التربية الإيمانية الكافية لموسى علمته أن يرجع إلى ربه.

والرجل المؤمن كان متفنناً في طرق الحوار وكسب الناس.

ألم أقل إننا لم نتدبر القرآن جيداً؟

والله إنه ليخاطبنا عن واقعنا اليوم.

الإعلام ومخاطبة الجماهير، أهم وسيلة لجأ إليها مؤمن آل فرعون، بعد دراسة متأنية في كيفية الوصول للعامة وجماهير الناس.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (٢٨) (٣).

عَرَضَ الحقائق دون أمر، وهكذا المربي يتسلل إلى القلوب بالعرض لا بالأمر.

﴿يَقَوْمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَهَرْنَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَصُرْنَا مِنْ بَاسٍ

(١) غافر، الآية (٢٨).

(٢) غافر، الآية (٢٧).

(٣) غافر، الآية (٢٨).

اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَتَقَوَّمُ إِنَّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾
مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾
وَيَتَقَوَّمُ إِنَّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾^(١).

واعتمد مؤمن آل فرعون على الله وحده، والاستعانة بمن حوله،
واتخذ كافة الوسائل الممكنة للمواجهة والحماية، ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا
مَكَرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ﴿٤٥﴾^(٢).

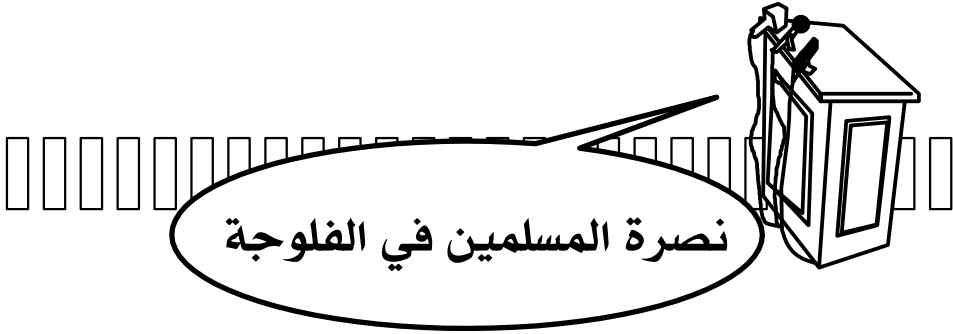
رجل واحد مقابل آل فرعون. وغلبت القلة الشجاعة!

ورحم الله أبا الدرداء عندما كان يقول لإخوانه قبل المعركة: أيها
الناس، عمل صالح قبل الغزو، فإنما تقاتلون بأعمالكم. وكان العابد
الفضيل يقول للمجاهدين: عليكم بالتوبة، فإنها ترد عنكم ما ترده
السيوف.



(١) غافر، الآيات (٢٩ - ٣٣).

(٢) غافر، الآية (٤٥).



نصرة المسلمين في الفلوجة

جاء في السير عن عمرو بن ميمون رضي الله عنه أنه قال: شهدت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة قبل أن يصاب بأربعة أيام وقد وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف، وكانا ممن ولاهم عمر شؤون أهل العراق آنذاك، فقال لهما: «كيف فعلتما؟ أتخافان أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق؟»، وكأنه علم عن أهل العراق ما يُحزن. فقال عمر رضي الله عنه: إن سلّمني الله لأدعنّ أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي!!

يا أمير المؤمنين عمر، يا أيها المؤمن اليقظ، يا أيها المسؤول عن رعية المسلمين... أنت في أقصى الجنوب في المدينة، ورعيتك في أقصى الشمال في العراق... تسأل عن أرامل أهل العراق كلهم، بل تسأل عن البغلة التي تسير في طريقها إلى بغداد لو عثرت خشية أن يسألك الله: لم لم تصلح لها الطريق!!

يا عمر... إن منا من لم يسأل عن أرامل أهل الفلوجة فضلاً عن أرامل العراق كلها.

يا عمر... قتل في ثلاثة أيام أمام أعينهم ثلاثمائة وخمسون شهيداً من الشيوخ الركع، والصغار الرضع.

يا عمر... لم يستطع أهل المريض أن ينقلوا مريضهم إلى المستشفى؛ لأن القوات المتحالفة تضرب من منابر مساجد المسلمين بالقنصات وتردي الأبرياء قتلى، وكلما اتصل أهل بيت على مستشفى لنقل مصابهم لم تستطع سيارة الإسعاف أن تتحرك لأن أولئك الغزاة يتعمدون ضربها!!

بالأمس فقط يا عمر تتحرك سيارة الإسعاف أربع مرات لنقل مريض فتضرب من قبل آليات من جاؤوا لعمارة العراق! من جاؤوا لمساندة المسلمين في العراق! من جاؤوا لإقامة حكم عادل! من جاؤوا لنصرة حقوق الإنسان! من جاؤوا لإعادة الحضارة إلى العراق!

والله، إن صدام حسين أشرف وأحسن من هؤلاء الشرذمة، لأن صدام حسين عندما قتل المسلمين سنة أو شيعة قتلهم عن سابق إصرار وترصد، لكن هؤلاء يقتلون وهم يدعون أنهم يحملون رسالة السلام والوئام والمحبة وعمران الأرض وإحياء الحضارة!

هذه هي الحضارة...؟ منع المرأة الحامل أن تصل إلى المستشفى...!

هذه هي الحضارة...؟ الصعود على منارات المساجد المقدسة وقتل الناس الأبرياء في الشوارع...!

هذه هي الحضارة...؟ قطع الكهرباء على الناس في الليل، وبدء الضرب بشدة في الساعة الحادية عشر حيث لا يستطيع أحد أن يرى ما أمامه.

هذه هي الحضارة...؟ الضرب العشوائي لمنازل الآمنين، وبيوت رب العالمين بطائرات الـ f16...!

هذه هي الحضارة... يا أهل الحضارة...؟ (عشرون ألف) مقاتل، حتى اليابان وفنلندا، ممن ليس لها تاريخٌ عسكري مع الآخرين طيلة هذه السنوات، حتى هذه الدول أسهمتُ بجيوشها وأسلحتها!! (والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها).

لسائل الدمع عن بغداد أخباراً فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا فما بذاك الحمى والدار دياراً
تاج الخلافة والربع الذي شرفت به المعالم قد عفاه إقفاراً
أضحى لِعَطْنِ البلى في ربعه أثر وللدموع على الآثار آثاراً
يا أرض العراق...

والله، ما أحسستُ في خطبة بالعجز عن الوصف كما أحسَّ به اليوم... وحالي كحال أحد المراسلين ليلة البارحة في أرضك يسأله المذيع: ما هي الأخبار عندكم، صف لنا الحال؟ فقال المراسل: لن أصف لك الحال، ولكن اسمع إلى دويِّ القنابل وصوت الرصاص والصواريخ، فهي الوصف الحقيقي.

سامحيني اليوم يا أرض العراق... فإني أشعر بالذنب وأنا أرثيك، وأرى احتضار أبنائك أمام عيني... إنني وإخواني يا أرض الرافدين لم نعرفك إلا الآن، ولو عرفناك من قبل لما جرى لك ما جرى...

سامحينا يا أرض العراق... على تقصيرنا... على ندبنا... على شجبنا... على استنكارنا... على بياناتنا... فقد حُبست الأنفاس، واختنقت العبارات...

والله، إنني لأسمع هتافك، وصوتك الحزين، وأنت تقولين: ما هو ذنبي، ماذا صنعت لكم؟

يا سادة العالم المتحضر، يا رعاة حقوق الإنسان، يا من وقعتم على اتفاقيات جنيف! ماذا صنعنا لكم؟ يا أهل القيم والمثل، يا أصحاب القوانين والنظم، هل كل ما يجري لنا نستحقّه؟
هل الدمار والانهيّار، والشتات حقٌّ؟

يا أيتها الأمم المتحدة... يا راعية السلام قَتَلُ أربعة لا يعرف قاتلهم جريمة لا تغتفر، وقتل أربعمئة معروف قاتلهم مسألة فيها نظر!
أحرامٌ على بلابله الدوح حلالٌ للطير من كل جنسٍ
نحن المجرمون فقط، وإسرائيل مظلومة؟!!

نحن - الشعب المسكين - نملك أسلحة الدمار الشامل ومنا من لا يملك سيارة لنقل ابنه وزوجته المريضة للمستشفى؟
يا من تأكلون وتشربون كما تشاؤون، وتلعبون وتتصلون على البرامج الساقطة كما تريدون، هل هذا جزاؤنا؟!
أنسيتم من أنا؟

أنا سيدة التاريخ، أنا العراق... حاضرة الحواضر، وحاضنة الأئمة والأجيال، أنا قدر الله الذي غدّى الأُمَّة بالعلم والحضارة والمجد، أستحلفكم بالله اسألوا التاريخ، واستنطقوا الدنيا سلوهم: من هي العراق؟

أنسيتم عاصمة الإسلام، ومشرق شمس الحضارة، وحاملة راية العصر الذهبي.

أرض العلم أين هي؟ ... أبو حنيفة والشافعي وأحمد.

أرض الزهد أين هي؟ ... بشر بن الحافي، والجنيد، ومعروف الكرخي.

أرض القراء أين هي؟ ... الكوفيون الثلاثة ورواتهم، وأبو عمرو البصري.

أرض الخلفاء أين هي؟ ... الرشيد، والمأمون، وخلفاء المسلمين على مدى خمسة قرون.

أين الرصافة والجسر، أين سر من رأى والأعظمية؟

أين أولئك العلماء الذين أترعوا الدنيا علماً، وملؤوا آفاق الأرض نوراً وهدياً؟ أين مواكب العظماء والقواد حيث ...

الخيال تصهل والفوارس تدّعي

والبيض تلمع والأسنة تزهر

أين فرسان المنابر وأبطالها؟

أين جيران المحاريب وجلاسها؟

أين؟ أين أيها المسلمون؟

لقد سرق المسجد، وهدم المنبر، وضاع المحراب، وتفجر نهر

الدم ...

دعونا نبكي وحدنا، دعونا نصرخ وحدنا، دعونا نقضي على

الحزن وحدنا، دعونا نصيح في وجه المعتدي وحدنا، دعونا نضمد

جراح أبنائنا بدموعنا، دعونا نسقيهم مرارة القهر بقلوبنا، دعونا نشأ

وحدنا، لقد اشتكى منا كل عضو، الأعضاء الحقيقية لا الميتة،

الأعضاء السليمة لا المخدرة، الأعضاء المتحركة لا المشلولة، تحركت

الأعضاء في بغداد، وكركوك، والفلوجة، وكربلاء، تحركت كل الأعضاء المتوضئة، لا تحزنوا ولا تبكوا على العراق فإن كل شيء يعود ما بقي في القلب إيمان، وفي الفم لسان، وفي اليد سنان!

هنا العراق، هنا أرض البطولات، هنا القواد والعلماء والأبطال والرجال، هنا الخطباء وشعراء الحماسة.

ترقبوا العراق الذي سمعتم عنه في التاريخ، أباً عن جد، وكابراً عن كابر، ولن نقيم على المذلة والضيم، ولم تخلُ العراق من الأحرار...

تالله ما الطغيان يهزم دعوة
ضع في يديَّ القيد ألهب أضلعي
لن تستطيع حصار فكري ساعة
فالنور في قلبي وقلبي في يدي
يوماً وفي التاريخ برُّ يميني
بالسوط ضع عنقي على السكين
أو نزع إيماني ونور يقيني
ربي وربي ناصري ومعيني

انتهى الليل وراح، وجاء إشراق الصباح. لقد أسمعناكم يا أيها العالم ليلة البارحة بأعلى صوتنا، أسمعناكم هتافنا ونشيدنا: سنحافظ على ثرى العراق الأبى المسلم ولو بأيدينا، وسنخرج إلى الشوارع لا نهاب أحداً، وسنحرر الأرض من رجس الكافر المعتدي، ولنا إحدى الحسينين النصر أو الشهادة. هكذا علمنا شاعرنا وليد الأعظمي (هو الإسلامُ معركةٌ ورَحْفُ)!

ولنا سلف صالح فيما نقوم به، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ﴾ (٤٥) (١). فالقوة في تنفيذ الحق طريق إيماني

أصيل، وأرض المعركة فيها رأي ورمي سواء، لا يفترقان أبداً...

فليس يُزيح الكفر رأي مسدّد إذا هو لم يؤنس برمي مسدّد

ورمينا يباركه الله، بل إنه معنا، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

يا أيها المحتلّ الغاشم، يا أيها العليج المعتدي، لقد رمت العراق بفلذات أكبادها، منهجهم المرسوم سنّة لا ابتداء، نتلو أواخر سورة الحديد، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢)، يرشدنا ابن تيمية رحمه الله بقوله: (بيّن سبحانه أنه أنزل الكتاب وأنزل العدل وما به يعرف العدل ليقوم الناس بالقسط، وأنزل الحديد، فمن خرج عن الكتاب والميزان قوتل بالحديد). وقد خرج هؤلاء المتحالفون عن الكتاب وعن الميزان، هؤلاء الذين قتلوا وظلموا بغير حق، ودكوا بصواريخهم وطائراتهم منازل الآمنين ومساجدهم، فاستحقوا بذلك أن يقاتلوا بالحديد.

ولنا تأييد آخر من ابن القيم وهو يقول: (جعل السيف ناصراً للحجة) والحجة معنا ندافع بها عن أرضنا.

إذ كيف يرتاح للبلوى أخو شم وعينه تبصر الأوباش يبغونا وكيف يسكت ذو حق وقد عبث بحقه عصبة تقفو الشياطينا

(١) الأنفال، الآية (١٧).

(٢) الحديد، الآية (٢٥).

عافت هدى الله وانقادت بعاطفة معصوبة العين لم تعرف موازيننا
لقد اخترنا طريق الحفاظ على الدين والوطن، وهجرنا وساطة
وتباطؤ العاجزين الشهبانيين الذين اجتمعت فيهم كل السيئات:

إن خوطبوا: كذبوا أو طولبوا: غضبوا أو حوربوا: هربوا أو صوحبوا: غدروا
على مجالسهم سبحان خالقهم عاشوا وما شعروا ماتوا وما قبروا

إن ما يجري لنا أيها المسلمون هو ما أخبر عنه النبي ﷺ في
الحديث الصحيح حيث قال: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما
تداعى الأكلة إلى قصعتها». قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟
قال: «لا، إنكم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل»^(١). في هذا
الحديث يبين لنا النبي ﷺ سبب ما يجري لنا نحن المسلمين.

السبب الأول: تداعي الأمم وتجمعها علينا، «يوشك أن تداعى
عليكم الأمم».

والسبب الثاني: هو ما نقوم به نحن من منكرات ومعاصٍ وتكالب
على الدنيا (حب الدنيا وكرهية الموت).

أما عن السبب الأول: فقد عرفنا مكرهم وتجمعهم وسياستهم في
التجمع والتآلف والتحالف ضدنا. ونحن مع الله سنقاوم بكل ما نملك،
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^(٢).

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٢٢٤٥٠) عن ثوبان رضي الله عنه، قال
الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) الأنفال، الآية (٦٠).

لقد أعلن رسمياً أنه قد قتل منهم (خمسون مقاتلاً) واضربوا هذا الرقم في عشرة إن أردتم أن تعرفوا الحقيقة التي يخفونها. ولا يزالون يحاولون تشويه صورة المجاهدين المقاومين، حيث قالوا: إن عدداً منهم دخل هارباً إلى المسجد الكبير في الفلوجة، وإنهم معتصمون هناك. لا والله، كذبوا وخسئوا، لم يعتصم منا أحد، ولم يختبئ خلف الجدران أحد، نحن في الشوارع نقاومهم، نحمل السلاح ونحمي الثرى، وما هؤلاء بالذين يستطيعون أن يमितوا فينا روح المقاومة، ونحن أبناء العراق الأبى.

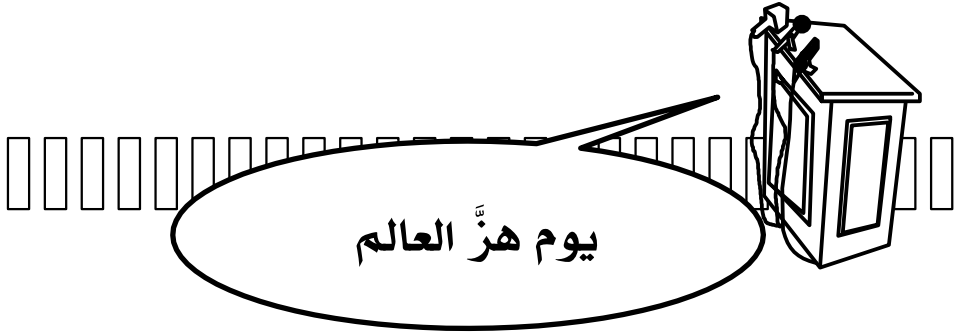
وأما عن السبب الثاني: وهو (حب الدنيا وكراهية الموت) والغشائية التي لا تنفع، فقد أدركنا ذلك، وأيقنا أنه لا بدّ من العودة إلى الله، وأن لا ننادي إلا بالإسلام. المساجد معمورة، والطاعات لله مستمرة، أزلنا كثيراً من المنكرات، وانطلقنا نأمر بالمعروف ونذكر الناس بالله، ونرفع شعار التوحيد، والعودة إلى الله، حررنا أنفسنا من قيود العبودية للعبيد، هتافنا لله، ونداؤنا لله، وسؤالنا لله، وجعلنا أمامنا خياراً واحداً لا ثاني له، ولا تنازل عن بعضه: أن نطلقها نحن أهل العراق صيحة تكبير لله تعالى يهتَزُّ لها الطواغيت، ونقيم الصلاة، ونسجد ونذل الجباه لله، ونبدأ مرحلة التغيير، ومهمة البناء.

وتعالى التكبير: يا سدة الأصنام
فالصلاة الطهور عالية الأصداء
هزّت الجاهلي فاهتز إنساناً
ميدي ويا علوج تنائي
جوابة... بكل فضاء
ثابت العزم مثقل الاعباء

فبوركت يا شعب العراق، وبورك أبناؤك، امضوا في طريقكم،

ولكم إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وقتلاكم في الجنة، وقتلاهم في النار، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢١).





«يوم هزّ العالم».

أقوى ثلاث كلمات في قاموس التاريخ المعاصر.

«يوم هزّ العالم».

حدث وحديث، قصة ورواية، مشهد وتمثيلية، دراما ومسرحية.

«يوم هزّ العالم».

شؤون وشجون، أحزان وهموم، دموع وغموم، هواء وسموم.

«يوم هزّ العالم».

دماء، أشلاء، لأواء، شقاء.

«يوم هزّ العالم».

أرض تتفجّر، وحرائق تتسرّع، ولصوص تتستّر، وفراعنة تتكبّر.

«يوم هزّ العالم».

سماء سوداء، أرض جرداء، نفوس خواء، أفئدتها هواء.

«يوم هزّ العالم».

قد لا يدري القاتل كيف قُتل، ولا يدري المقتول كيف قُتل؟

«يوم هزّ العالم».

لا يُعرف ليله من نهاره، ولا صباحه من مساءه، ولا صيفه من شتائه، ولا يدري فيه والد عن ولده، ولا مولود عن والده.

«يوم هزّ العالم».

يوم جليل، خطير، عظيم، تجتمع فيه نفوس لم تكن قد اجتمعت من قبل، يوم حوارات ونقاشات، ومداولات وقرارات، واتهامات ومحاكمات، يوم غضب وثورة، وبركان وقصاص.

«يوم هزّ العالم».

يوم اجتمعت فيه كل ألوان الطيف، وكل مواد الدراسة، فهو يوم تاريخ، وجغرافيا، وفيزياء، وكيمياء، ورياضيات، ودين، ونصوص، واقتصاد، وسياسة، وإدارة، ونظم، ومعلومات، ومكتبات، وتربية فنية، وكل أنواع العلوم.

«يوم هزّ العالم».

يوم عالمي، جماهيري، قنواطي، إخباري.

يوم فكري، عقلي، روحي، جهادي، عاطفي، تربوي، تكتيكي، مستقبلي.

«يوم هزّ العالم».

يوم ولا كل الأيام، وحدث ولا كل الأحداث، ونقله ولا كل النقلات، وقرارات ولا كل القرارات، ومستقبل وما أدراك ما المستقبل؟

إنه يوم فصل، وما أدراك ما يومٌ فصل؟

«يوم هزّ العالم».

لا تظنوا ولا تفكروا، ولا تتوقعوا ولا تتخیلوا، ولا يدر بخاطرکم أصلاً، أنني سأتحدث عن أحداث ١١ سبتمبر كما يقال. فإن هذا الموضوع خطير وخطير، فهو يوم حوله من الأمور ما حوله!!

وأزعم والله أعلم، أنكم قرأتم وشاهدتم وتسمرتم عند بعض البرامج ساعات وساعات في ضحوة النهار وزلفاً من الليل.

وكان الموضوع حديث المجالس، والبيوت، بل وحتى (الكفريات)، والمطاعم، والسيارات، تحدثت عنه كل أعمار الحياة، وأشكال البشر، وأقسام الجنسيات. فعلام أكرر لحضراتكم معلومات عرفتموها، وقضايا شاهدتموها، وأدركتم أو أدرك بعضكم شيئاً من حقيقتها أو ملابساتها، أو صحة أفكارها أو تشويهها وفبركتها؟! المهم أيها الإخوة أكرر عذري مرة أخرى بأنني لن أتحدث عن أحداث ١١ سبتمبر، ولكني سأتحدث عن «يوم هزّ العالم».

إن هذا اليوم أيها الإخوة ليس أول يوم، ولا أقدم يوم، ولا آخر يوم.

«يوم هزّ العالم» حدث ويحدث في كل بلدان العالم: أعرقها وأقواها، وأضعفها وأسوأها، يحدث في البلاد الغنية والفقيرة، وفي البلاد الزراعية والتقنية، وفي البلاد العربية وغير العربية، شيء طبيعي... طبيعي جداً.

دعوني أسألكم. ما الشروط التي إذا انطبقت على يوم معين،

قلنا: إنه يوم هزّ العالم؟

هل هذه الشروط هي وجود القتل والدمار؟ ربما.

هل هي الفيضانات والزلازل والبراكين؟ ربما.

هل القضية في الظلم وسرقة الأموال؟ ربما.

هل القضية في السجون والمعتقلات؟ ربما.

هل القضية في القرارات والانتخابات؟ ربما.

هل القضية في المكان والزمان والعدد؟ ربما يكون هذا أكيداً!

وليكن اجتماع هذا كله أو بعضه يشكل هزة عالمية لأرض من أراضي هذا الكون الفسيح... لو كان الأمر كذلك. دعونا نتساءل:

ماذا نسمي إذن ما جرى من حرق المسجد الأقصى والتعدي على أشرف بقعة في القدس، على مسرى الأنبياء وملتقى رحلة الإسراء والمعراج؟

إن كان المكان فهو أشرف مكان، وإن كان ما حدث فيه، فقد حصل القتل والدمار والحريق، حصل السجن والاعتقال، حصل الظلم والتعدي.

فماذا نسمي هذا اليوم إذن؟!

ماذا نسمي حرق المسجد البابري وتدميره في ديسمبر ١٩٩٢م على يد الهندوس في وضح النهار؟ وبمشاركة عدد من الوزراء المسؤولين الكبار: وزير الداخلية، ووزير الرياضة، ووزير تنمية الموارد البشرية، والصور والمشاهد المسجلة على أشربة الفيديو تشهد بجريمة هؤلاء؟

ماذا نسمي ما حدث في أرض أفغانستان منذ بدايات الاعتداء

السوفييتي طيلة تلك السنوات، والعالم كله ينظر، ويتفرج ولا يسعى لنصرة المستضعفين إلا على استحياء؟ أنسينا عزاماً، وتميماً، وبقية الرجال؟ أنسينا الدموع التي ذرفناها طيلة تلك الفترة المؤلمة؟ أنسينا كل ذلك؟

ماذا نسمي ما حدث في البوسنة والهرسك؟ ودول العالم كلها رأت الصور والمشاهد، وإلى اليوم أشرطة الفيديو والمجلات والأشرطة السمعية تحكي مجزرة البوسنة والهرسك.

ماذا نسمي ما جرى في الشيشان في وقت البرد القارس؟ أنسى الجرافات التي كانت تحمل جثث المسلمين بالمئات وترميها في القبور الجماعية؟! أنسى حادثة جمع المسلمين في المسجد الجامع الكبير واستغاثتهم بالمسلمين في مكبرات الصوت حتى هدم المسجد على رؤوسهم، صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً؟!

ماذا نسمي ما حصل وما يحصل إلى الآن في أرض كشمير، والنداءات والاستغااثات، وقتل الآلاف عرايا كل حين، ودونكم مجلة «كشمير المسلمة» التي توثق شهرياً ما يحصل هناك من جرائم واعتداءات؟

ماذا نسمي المعتقلات في البلاد العربية والإسلامية؟ والمجازر في عدد من البلاد؟

ماذا نسمي ما حدث عندما وصل المسلمون في الانتخابات إلى الحكم في إحدى البلاد الإسلامية في أوائل التسعينات؟

ماذا نسمي ما حدث في صبرا وشاتيلا، وقانا، ومرج الزهور؟

ماذا نسمي ما حدث في هيروشيما حين حصدتها القنبلة النووية
المحرمة عالمياً؟

ماذا نسمي ما حدث في كردستان، وأربيل، وحلبجة، وديار
بكر؟

ماذا نسمي ما حدث في الكويت؟

ماذا نسمي، وماذا نسمي، وماذا نسمي؟

إنني أقول وبكل صراحة: إِنَّ الإعلام الغربي صور ما حدث في
١١ سبتمبر على أنه اليوم العالمي الذي اهتزت فيه الكرة الأرضية كلها.
صوروا للناس قاطبة أنها جريمة الكون.

جعلوا كلمة «١١ سبتمبر» الكلمة الرائجة في أذهان المسلمين
وغير المسلمين. لينطلقوا من خلالها فيضربوا من أرادوا، وكيفما
أرادوا، ومتى ما أرادوا؟

يجب علينا نحن المسلمين فقط أن نسمع لكلمتهم، ونتألم
لألمهم، ونبكي لبكائهم، ونقتل لأجلهم؟!

يجب علينا فقط نحن المسلمين أن ننسى كل ما سبق، ننسى قتل
إخواننا في فلسطين، ولبنان، والشيشان، والبوسنة والهرسك، وكشمير.
كما يجب أن نغمض أعيننا عن كل الجرائم الإنسانية البشعة التي حدثت
في هيروشيما بسبب ضرب القنبلة النووية الأمريكية!

كل ما حدث منهم كان خطأ، أو اجتهداً، أو أمراً مقدراً، أو
شيئاً مغتفراً!!

علينا فقط نحن المسلمين أن ندفع الجزية من صناديق دولنا الإسلامية، وأن تصادر أموالنا الخيرية، وأن نتهم بالإرهاب. إنهم لا يريدون أي مجال للمناقشة العقلية المنطقية.

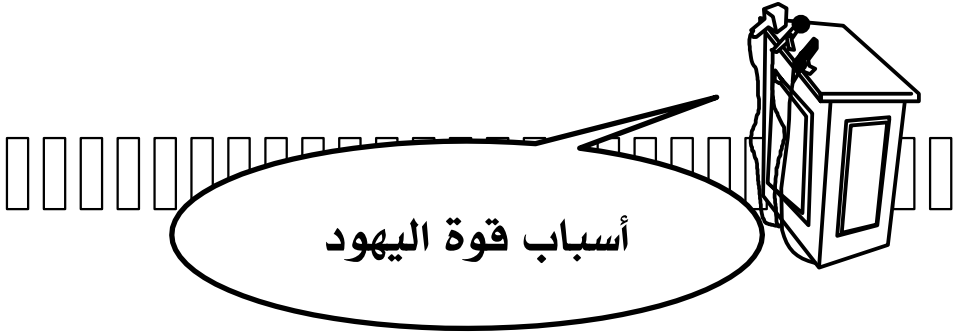
والله، لو جُمع ما حدث للمسلمين في عام واحد من قتل وتدمير ونهب لبكت السماء والأرض. وما حصل لهم لا يمثل عشر معشار ما يفعلونه بنا، ولكن صدق من قال:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود
إن حديثي اليوم ليس عن تبرير بعض الأعمال الخاطئة أو غير
الخاطئة، إنما حديثي بصراحةٍ عن دور الإعلام في تبرير النوايا والأفعال
السيئة، وكسب المواقف لما يريده الساسة في الأمة.

إن على رجال الإعلام، والكتّاب، والعارفين بوسائل التقنية
كالإنترنت والفضائيات وغيرها، أن يوضحوا الصورة المشوهة عن العمل
الغربي ضد المسلمين، وأن يدافعوا عن دينهم، وحق إخوانهم
المسلمين، وأن يقارعوا الحجة بالحجة، وأن يدمغوا الباطل بالحق،
بوسائل العصر المتقنة، بكل موضوعية وإنصاف وعدل.

بارك الله في جهود العاملين، وحمى الله حوزة الدين. اللهم آمين.





فدائيون رايتنا الفداء
كفاح الخالدين لنا دليل
فدائيون نبسم للمنايا
ومنطقنا شواظ من حديد
إذا هاجت من الأقصى شجون
زهت حطين لما أن رأتنا
وهلل شاطئ اليرموك لما
على اسم الله أشعلنا لظاها

وعُدَّتْنا العقيدة والدماء
وصبر المؤمنين لنا لواء
فالاستشهاد معناه البقاء
فلا خطب تصاغ ولا هراء
تلظى الثأر واشتعل الإباء
أسوداً لا يزعزعها البلاء
رأى أحفاد سيف الله جاؤوا
وبالإيمان نحن الأقوياء

دعونا اليوم نفكر ونتحاور، ونترأى ونتشاور. ما هو الحل تجاه ما يجري في أرض فلسطين؟... أين مكن المشكلة؟ ما هو السبب وراء هذه التطورات؟ هل هذه الحادثة تحدث لأول مرة في التاريخ؟ وما هو الحل؟ هل هو الجهاد؟ وهل مسموح به؟ هل هو السلام؟ وهل هو معترف به؟

وقبل هذا وذاك... ما المشكلة أصلاً؟ ومن أطرافها؟

هل هي بين إسرائيل وفلسطين فقط؟ هل هي مشكلة عدم قبول

الخيار الاستراتيجي؟ هل المشكلة في الدول أم في الشعوب؟ وهل مشكلة القدس تحديداً خاصةً بها أم تشمل غيرها أيضاً؟

هناك سؤال عجيب وغريب طالما كنت أسأل نفسي عنه خلال سنين طوال، إنه السؤال عن سر قوة اليهود وإذلالهم للعرب والمسلمين، علماً أن عددهم لا يتجاوز أربعة عشر مليون يهودي، والأمة العربية والإسلامية مليار وثلاثمائة مليون مسلم. لا شك أن هذا يدعو للاستغراب ويزداد العجب أكثر عندما تعرفون أن القوات العسكرية العربية أكثر من مليونين وثلاثمائة ألف عربي! على حين أن الجيش اليهودي لا يتجاوز عدده (٧٢) ألف جندي!

وتتكسد أكثر من ثلاثة آلاف طائرة حربية مقاتلة، وستمائة طائرة مروحية، وثلاثين ألف مصفحة، وستة عشر ألف دبابة، واثنى عشر ألف مدفعية في الأراضي العربية، ولم تستطع هذه الترسانة الهائلة بعد أن تطلق طلقة واحدة على معدات يهودية لا تتجاوز عشر هذه المعدات.

ما هو السبب؟ ما هو السر وراء ذلك؟

ويزداد الإنسان تعجباً أكثر عندما يقرأ القرآن الكريم فيعلم أن اليهود ملعونون بنص القرآن، وأنهم مفضوحون بالجرائم والدسائس والخبائث والعصيان والقتل، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧٩) ﴿١﴾.

٥٠٪ يتعاطون المخدرات، ٣٠٪ يحملون أدوات حادة خشية الاعتداء عليهم، ١٥٪ حالات انتحار، ١٠٠٪ يؤيدون قتل كل فلسطيني، إذن ما السبب؟!

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفْقَهُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾^(١).

إن هذا الآية الكريمة تبين أن اليهود ضربت عليهم الذلة والمهانة أينما ما اتجهوا، إلا إذا وُجدَ سببان فإنهم سيقون في التسلط والقوة. السبب الأول هو: ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ﴾، يعني: نصرة الله لهم وتوفيقه إياهم. وهذا لم يتم ولن يتم لأنه حكم عليهم باللعنة، والحبل بينهم وبين الله مقطوع. والسبب الثاني: ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾، يعني: أن يمدّهم الناس بالإعانة، وهذا هو الواقع!

إن اليهود عبر التاريخ كله شرذمة قليلة ضعيفة، ولكنهم عندما يجدون المناصرة والتأييد من الناس ﴿وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ يستأسدون، ويتعاملون بمكرهم وخبثهم، هذا هو سر بقاء وقوة اليهود (التحالف الغربي والأمريكي)، هذا هو الحبل الممدود الداعم المبقي لهم. وهذا الذي جعل زعيم أكبر دولة كافرة يطالب بعض الدول العربية والإسلامية بأن تقضي على حركة المقاومة الإسلامية حماس، وكتائب الأقصى، ويهدد هذه الدول العربية والإسلامية بتصنيفها ضمن الدول الإرهابية إن لم تقف ضد حماس. لا يريد أن يسمح بأي عمليات استشهادية، لا يريد أن يسمع أن يهودياً واحداً قتل بهذه العمليات، لا يريد أي ضحية أو صوتٍ لسيارات الإسعاف، لا يريد هذا المسكين أن يسمع أو يرى

(١) آل عمران، الآية (١١٢).

أثأت اليهود، وبكاء اليهود، ودموع اليهود، لقد تفجرت أعصابه وهو يسمع ويشاهد أن فتيات صغيرات في عمر الزهور رمين بأنفسهن في العدو فداءً لفلسطين والقدس.

اسمع يا هذا... ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾^(١).

ويندد في تصريحه ويقول: إنَّ هذه العمليات الاستشهادية عمليات انتحارية، وإن فاعلها يجنى على نفسه، ويقتل نفسه؛ لقد أصبح قاضياً ومفتياً شرعياً ! لقد خرج من دائرة السياسة إلى الشريعة، ولكن مهما قلت فإن الفتوى الشرعية منك مردودة إجماعاً... وما أقلقك من هذه العمليات فهو ماضٍ.

باسم الشريعة، باسم العلماء، باسم القضاة، باسم طلبة العلم، باسم الأمة.

هنا العداة والأخلاق والشم	هنا الشريعة من مشكاتها لمعت
هنا الإباء هنا العليا هنا الشم	هنا العروبة في أبطالها وثبت
واليوم تشرق للدنيا وتبتسم	هنا الكواكب كانت في مقابرها
تطغى وتكتسح الطاغى وتلتهم	هنا البراكين هبَّت من مضاجعها
صارت سهاماً من السجان تنتقم	إنَّ القيود التي كانت على قدمي
سراً غدا صيحة تصغي لها الأمم	إنَّ الأنين الذي كنا نردده
وينتهي بزئير ملؤه نغم	والحق يبدأ في آهات مكتتب

إن هذه العمليات المباركة التي أقلقتك وأتباعك، وأصدرتم فتوى

(١) النساء، الآية (١٠٤).

كونجريسية بعدم جوازها هي عملياتٌ جائزةٌ على رغم أنفك، وها أنذا أقول لك من أجازها، وأصرحُ بذلك علانيةً لتحفظَ بها في المكتبة العالمية البيضاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العظيم: (قاعدة في الانغماس في العدو وهل يباح ذلك؟). بعد ذكره لحديث النبي ﷺ الصحيح في «السنن»: «عجب ربنا من رجلين، أحدهما: رجل غزا في سبيل الله عزَّ وجلَّ، فانهزم مع أصحابه، فعلم ما عليه في الانهزام وما له في الرجوع، فرجع حتى يهريق دمه. فيقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي حتى يهريق دمه»^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية معلقاً على هذا الحديث الشريف: «فهذا رجل انهزم هو أصحابه ثم رجع وحده فقاتل حتى قتل، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله يعجب منه وعجب الله من الشيء يدل على عظم قدره، وأن ما فعله هذا يحبه الله ويرضاه، ومعلوم أن مثل هذا الفعل يقتل فيه الرجل كثيراً أو غالباً، ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّكَ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢)».

وهذه المسألة تلقتها الأمة كابراً عن كابر، وقرناً إثر قرن، حتى سئل سماحة الشيخ عبدالله بن حميد المتوفى سنة ١٤٠٢هـ عن حكم

(١) أخرجه أحمد (٣٩٤٩)، وأبو داود (٢٥٣٦)، والحاكم (١١٢/٢)، وصححه ووافقه الذهبي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) النحل، الآية (١١٠).

الإسلام في مسلم ارتدى حزاماً ناسفاً ثم دخل مجموعة من أعداء المسلمين وفجّر نفسه ليقتل أكبر عدد ممكن منهم؟ فأجاب سماحته رحمه الله:

«الحمد لله، إنَّ قيام الفرد من أفراد المسلمين بحمل هذا الحزام الناسف أو أية وسيلة متفجرة ثم انخراطه ضمن صفوف الأعداء ثم قيامه بتفجير ما يحمل بقصد قتل أكبر عدد من الأعداء وهو يعلم أنه أول من يقتل، أقول: إن هذا العمل ضرب من ضروب الجهاد المشروع، وهذا الرجل قتل شهيداً بإذن الله».

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ (١).

يا هذا... إن خوفك على شاب أو شابة مسلمة في فلسطين لا يخيفنا، نحن والحمد لله مليار وثلاثمائة مليون، فليذهب ألف، فليذهب عشرة آلاف، فليذهب مائة ألف، فليذهب مليون، الحمد لله... ماذا يعني مليون من مليار وثلاثمائة مليون إن كان هذا منطقكم؟

ثم إنهم لو قتلوا هم أحياء عند الله لم يموتوا!

ثم إن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

عجيبٌ أن تتظاهروا بالحزن لقتل مسلم واحدٍ بينما المسلمون في كل أرض يقتلون ولم تلتفتوا لهم!! هل قسمتم لنا العذاب ولكم

(١) آل عمران، الآيتان (١٦٩، ١٧٠).

الحرية؟ هل نصبتم أحدكم إلهاً من دون الله يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويعطي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء؟

وإذا كانت الديمقراطية منطقتكم، فلماذا منعتم الشعب الفلسطيني المسلم أن يسير أمام السفارة وهو لم يحمل أي سلاح؟ إنما حمل معه حنجرته ليصيح بطلب وقف إطلاق النار.

حتى هذا الطلب الإنساني منعتموه! دعوا الشعب داخل فلسطين يعبر عن رأيه. حتى اليابانيون الذين لا ملة لهم عملوا مسيرة احتجاج عليكم، ودول شرق آسيا معهم. أفلا يحق لمن بداخل المعركة أن يتكلم؟ يتكلم يا قوم ولا يحمل سلاحاً، حتى هذا حرام؟!!

ثم لنخرج عن منطق السلاح ولغة القتال... أنتم أيها الغربيون أظهرتم استطلاعا للرأي عن موقف شعوبكم ضد ما يجري في فلسطين. ونشر هذا في المحطات عندكم وبثته وكالات الأنباء العالمية ليلة البارحة، ٨٠٪ من شعوبكم تؤيد الضربات الإسرائيلية للفلسطينيين، والـ ٢٠٪ الباقون متعاطفون مع فلسطين؛ على أن منهم من عارض الضربات خوفاً على السلام اليهودي لا حرصاً على الشعب الفلسطيني! إذن أنتم وشعوبكم تكادون تجمعون على ما يحدث وهذا التقرير الرسمي منشور على مستوى أكبر دول العالم الغربي. ولكم أيها الإخوة أن تعرفوا أنهم أجروا تقريراً آخر للشعوب العربية، والذي قام بالتقرير هم بأنفسهم حتى لا تُتهم بالتزوير في الأرقام. في الجامعة الأمريكية في بيروت مؤخراً أجرى البرفسور «كاسان» استفتاء ضم عدداً كبيراً من العرب من سوريا والأردن وفلسطين، وكانت النتائج أن ٨٧٪ يؤيد العمليات الاستشهادية ضد إسرائيل، و٨٢٪ يؤيدون الحرب ضدها، و٧٧٪ لا يريدون أي تعاون اقتصادي معهم.

إذن لا أنتم ولا شعوبكم تتفقون معنا في شيء، ولا حكامنا ولا أمتنا يتفقون معكم في شيء.

إذن ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُ﴾ (١) ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) ﴿وَلَا أَنْتُمْ عِبُدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٣) ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ (٤) ﴿وَلَا أَنْتُمْ عِبُدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٥) ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٦) (١). إذن:

حُقَّ الجهاد فليس عنه خيارٌ وغلت مراجلٌ ما لهن قرارٌ
خيل المنيا أسرجت فتأهبي حطين إن رحاك سوف تدارُ
يا مسلمون ومن سواكم للحمى إن كشرت عن نابها الأخطارُ

دعوا فلسطين المناضلة، دعوا رجالها الأشاوس، دعوهم، وادعوا لهم بالجهاد في سبيل الله.

دعوهم يدافعون بصدورهم ونحورهم، اتركوا شباب حماس، اتركوا الفتيات والأطفال. دعوهم يخرجون من المدارس ليلبسوا حزاماً ناسفاً يقاتلون به. دعوا الطفل يخرج من بيته ليحمل الحجارة، ويلعب بها ويتسلق برجمها عليكم، دعوا النساء يخلطن الدماء بالدموع. دعوا دنياهن جحيماً يلتهب عليكم. دعوهم ينشدون ويصيحون: لبيك إسلام البطولة كلنا نفدي الحمى. دعوهم يقررون حق المصير. دعوهم يسمعوننا ويمتعوننا ويسلوننا ونحن نشاهد في التلفاز أن أختنا الصغيرة التي في سن الزهور رمت بنفسها، نسيت لعبها، نسيت جمالها، نسيت دنياها، وأن أخانا الصغير في الابتدائية قتل وهو يرمي بالحجر.

دعونا نحس ولو مجرد إحساس بأن لدينا نفساً بين جوانحننا، وأن

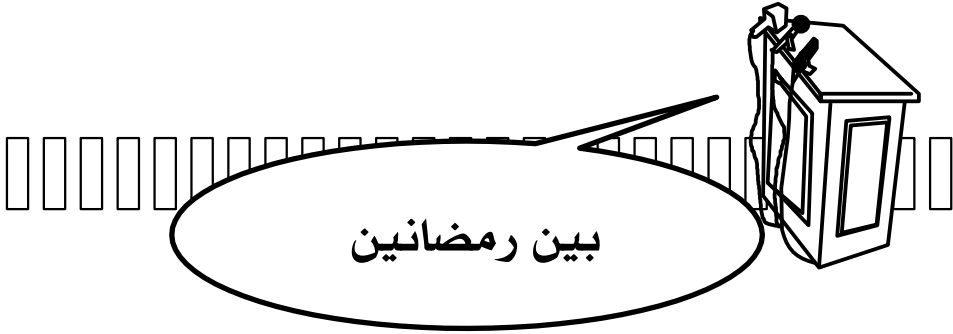
لدينا أعيناً تبصر من وراء الجدران، دعونا نشعر أن الجهاد لم يمت بعد، دعونا نقرأ ونشاهد ونتابع الأحداث في فلسطين بعد أن غشيتنا الغفلة بأخبار النوادي والمراقص، وتسيير الشعوب على ترهات الأحداث، دعونا نحلم أننا سنصلي يوماً في المسجد الأقصى، دعونا ونحن في أماكننا ليس لنا إلا الكلام والشجب والصياح فقط.

ودعوني أنتم أيها الرجال أختم هذه الخطبة على خير!!





شؤون المواسم والمناسبات



إلهي رأيك ...

إلهي سمعتك ...

تعاليت ... لم يبد شيء لعيني ...

تباركت ... لم ينب صوت بأذني ...

ولكن طيفاً بقلبي يطل ...

ومن طيفه كل نور يهل ...

قبل عام ... وقبل ختام رمضان بأيام قلت:

«هذه هي الليالي الأخيرة من رمضان تودعنا، بعد أن هلّ هلاله،
 وشع نوره، واكتمل نموه، يتعاقب يوماً بعد يوم. أين نحن من هذه
 الأيام؟ ما هي أحوالنا؟ ما هي تجلياتنا؟ ما هي أسرار نفوسنا؟ وخفيا
 سرائرنا؟ ونبضات قلوبنا؟ وحركات جوارحنا؟ وهموم أفكارنا؟ ... قد
 أذن رمضان بالرحيل، فأين سر الروح؟ أين راحة الفؤاد؟ أين نور
 الإشراق؟ أين التقوى والخوف من الله؟

لماذا تسرّب منا الوقت سريعاً وبعضنا لم يكمل ختم القرآن تدبراً وخشوعاً. ولم يجلس ليقراً فيه إلا قليلاً؟

لماذا هذا الجهد القليل لقراءة القرآن؟ أين ساعات التأمل؟ أين جلسات التدبر؟ أين الوقوف على آية أو آيتين؟ أين التمتع بالقرآن، والتدبر لمعانيه، والوقوف عند قصصه وأحكامه وأسراره؟

فما أغلقت أبواب النار، وما فتحت أبواب الجنة، وما سلسلت الشياطين إلا ليقى الإنسان مع نفسه فقط.

نعم، ليتفرغ لها مؤدّباً، ومراجعاً ومحاسباً. ليتفرغ لها ليبصر حاله، ويصحح أخطائه. ليعيش شهراً خالياً من وسواس الشيطان، بعيداً عن نقمة النار، أفلا يصحُّ منك العزم لتهتم بنفسك؟ وترقى وتصعد، وتسمو وتسعد؟ لتعمر الأوقات، وتملاً ساعات الليل والنهار بما يرضي ربك الذي خلقك؟

إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الرحمة.

أين الرحمة في شهر رمضان؟ أين رحمة الصائمين بالمؤمنين؟ أين إشراقة الوجه؟ وحنان الصوت؟ وسلامة الصدر؟ والصبر والتفاهم والرضا؟

لماذا لا نقبل أن نتغير؟ أو أن نتقدم للأفضل؟

تفتح أبواب الرحمة، ونحن لا نرحم أنفسنا، أو أهلينا، أو جيراننا، أو إخواننا المسلمين.

إلى متى ونحن مختلفون؟ متباغضون؟

شهر الرحمة لمن؟ شهر الصفاء لمن؟ شهر التقوى لمن؟ ألا من

تدارك لما بقي، واستغفار يقي من الزلل، ويسد الخلل، فما بقي إلا القليل، فمن كان محسناً فعليه بالتمام، ومن كان مسيئاً فليختمه بالحسن، فالعمل بالختم».

أيها الإخوة:

تلك كلماتٌ قلُّتها في رمضان العام الماضي... وسبحان من يجري الأيام... ها هي من جديد تعود فهل ستكون الحال كذلك الحال؟!

لقد مضت تلك الأيام... بما لها وما عليها، ولا شك أنَّ المَلَكَ سَجَّلَ علينا ما نفرح به، وما نخجل منه، ولا حول لا قوة إلا بالله!

أيُّها الناسُ كُلُّنا شارب الكأ... سين إن علقماً وإن سلسبيلًا
مضى عام على رمضان ومن يعيش فإنَّه يرى حلولاً ومرأً، فلا الحلو دائم، ولا المرُّ جاثم، والليل والنهار متعاقبان، والآلام تكون من بعد زوالها أحاديثٌ وذكرى. ولا يبقى للإنسان إلا ما حمّله من زاد للحياة الأخرى.

ثم يكونُ الموتُ الذي يصير إليه كلُّ حيٍّ.

يشبُّ الصغير، ويهرم الكبير، وينظر المرء ما قدمت يداه، وكلُّ يجري لأجل مسمى.

قعدت بالمؤمنين آجالهم عن بلوغ آمالهم. ومنهم قوم وعدوا أنفسهم بالصالحات فعاجلهم أمر الله.

الموتُ الذي يستوي عنده الكبير والصغير، والأمير والحقير،

والغني والفقير، والملك والمملوك. ليس لزيارته موعد محدد، ولا لقدمه زمن معين، ولا لهجمته وقت معلوم، يدلف في السحر، ويقدم في الظهيرة، ويبهت في الغفلة، ينزل الراكب من دابته، ويبطش بالملك على كرسيه، ويختطف الوالد من بين ذويه، والصبي من يد والديه، لا يمهل المفترط حتى يتوب، ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِسْلَامَ﴾ (١). ولا يرجى الجائع حتى يشبع، ولا العطشان حتى يشرب، ولا المسافر حتى يعود، ولا النائم حتى يفيق، ولا الصغير حتى يكبر، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفِدُّونَ﴾ (٢).

يأخذ العريس في ليلة عرسه، ويختطف الحسنة في يوم زفافها، ويقبض صاحب المنصب في أول أيامه وأولى ساعاته. يحول الأفراح إلى أتراح، والسعادة إلى شقاء، وأيام الأنس إلى نكد، وليالي الفرح إلى ماتم، والضحك العريض إلى بكاء مرير، والزغاريد إلى حزن كبير. بينما الأم قد حضرت طعامها، وهيأت نفسها، وبشّرت أبناءها بقرب قدوم أبيهم إذا بالخبر المفزع، والنبأ الفاجع: مات الأب! فترملت الأم، وتيتّم الأبناء. وبينما الوالدة تنتظر قدوم ولدها الغائب، وابنها الحبيب، تشوّق إلى رؤيته، وتتطلّع إلى احتضانه إذا بالخبر الأليم، والنبأ العظيم: مات الولد الحبيب!!

إنه الكأس الذي لا مناص من شربه، والثوب الذي لا مفرّ من لبسه، ويترك الإنسان بعدها مرهوناً بعمله، مأسوراً لقوله وفعله. ولكن للأسف لا يفتن لهذا، ولا ينتبه لأمره أهل الغفلة، فتمضي عليهم

(١) النساء، الآية (١٨).

(٢) الأعراف، آية (٣٤).

أعمارهم وهي عليهم حجة، ويسمعون عن المودعين ولا يزالون يرجون التوبة مع غفلة وطول أمل وكأن المنون لا تجيء بغتة!

هذا رمضان سيُهلُّ إن شاء الرحمن بعد أيام... بظلاله وجماله. إنه الشهر الأجل بين الشهور، يأتي وينادي منادي السماء معه: «يا باغي الخير أقبل، يا باغي الشر أقصر»^(١).

فهل نحن مستعدون، مستغفرون، متطهرون، مرحبون؟

«يا باغي الخير أقبل، يا باغي الشر أقصر».

إي والله، مرحباً وأهلاً.

مرحباً بك يا رمضان... لقد أتيت في موعدك...

مرحباً بك يا رمضان... لقد جئت ونحن بأمس الحاجة إليك...

مرحباً بك يا رمضان... لنبت إليك الشكوى، وتخبرنا عن حالنا...

مرحباً بك يا رمضان... لتعيننا على الصيام، وتدعونا للقيام...

مرحباً بك يا رمضان... لتحفظ ألسنتنا، وتضبط جوارحنا...

مرحباً بك يا رمضان... لتجدد إيماننا، فنشتاق إلى جنة ربنا...

(١) أخرجه الترمذي (٦٨٢)، والنسائي (١٢٩/٤)، وابن ماجه (١٦٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وصححه الألباني في «صحيح السنن».

مرحباً بك يا رمضان... لتملأ قلوبنا بحب الله جلّ في علاه...

لنكون أشد حباً لله، أشد حباً لله من كل شيء نراه، ومن كل شيء نسمع عنه، ومن كل شيء يخطر على بالنا، ليكون هذا الحب استسلاماً وانقياداً كاملاً وشعوراً غامراً بالحاجة إلى امتلاء القلب والعقل بالرضا عن الله... ليمتد هذا الحب عبر كل العروق والأوردة والشرابين، لنخشع في صلاتنا ونقول كما كان يقول رسولنا ﷺ: «خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي»^(١).

نعم، خشع سمعي: فلن نستمع إلى الأغاني المنكرة أو الغيبة أو النيمة أو الاستهزاء بالمسلمين أو الدعاة والمصلحين.

خشع بصري: فلن نرى المسلسلات الفاتنات، والبرامج الساقطات بعد صلاة المغرب بحجة التسلية والمرح، لن نرى الاختلاط المحرم بين الرجال والنساء.

خشع لك مخي: فأعماقي منقادة لك ولن أتحرك إلا فيما يرضيك.

خشع لك عصبي: فحركاتي وسكناتي منك وإليك.

أهلاً يا رمضان... المساجد تنتظرك، المساكين ينتظرونك، الحرمان ينتظرانك، الأقصى ينتظرك، الأرحام تنتظرك، المظلومون ينتظرونك، الدموع تنتظرك، المحسنون ينتظرونك، الجمعيات الخيرية تنتظرك، المغتربون ينتظرونك، التائبون ينتظرونك، المقهرون ينتظرونك.

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

يا رمضان، أقبل وعجِّلْ، أقبل لتتحدى أهل الغفلة والدعارة من المسلمين، الذين فتحوا الفضائيات على الرقص والفيديو كليب والمسابقات الجمالية المدمرة للأخلاق.

يا رمضان، أقبل وعجِّلْ؛ لتعيد الأمة لله، ليعرفك الناس بعد أن جهلوك، وتنكروا لك، وخاصموك.

يا رمضان، أقبل وعجِّلْ، لتسكن هذه الجوارح التي لم تهدأ، ولم تزل تصرُّ على المعاصي، ونظرات الخلوات، وسوءات الحرام.

يا رمضان، أقبل... يا رمضان أقبل... يا رمضان أقبل... هل تسمعي...؟ أناديك من هذا المنبر فهل تسمعي...؟ أقبل ولا تخف...!! نعم، ستأتي... ستأتي بإذن الله... ستأتي وأنا متأكد.

سيأتي رمضان... رمضان لا يخون، رمضان لا يتوارى، رمضان لا يهرب، رمضان وفِّي، رمضان أبِّي، رمضان سيأتي وسيقبل.

سيقبل على المسلمين شهر رمضان المبارك بأمر الله، يقبل هذا الشهر والأمة الإسلامية تعاني من شياطين الإنس والجن، تعاني من تسلط مجرميها، وقسوة ظلامها، وطغيان أعدائها، وفجور أرباب الهوى فيها؛ إذ ما تركت المحنة بيتاً مسلماً إلا دخلته، ولا قلباً مؤمناً حياً إلا آلمته.

حيث توارت الفضيلة، وفشت الرذيلة، واحتلت مكاناً صُعداً في حياة المسلمين، عبر القنوات الفاضحة ووسائل التقنية الحديثة، بسبب السماح لأعمال الغواية والفتن، وأصبح الضغط على أعمال الهدى حرفة لدى الظلمة والجبابرة، حيث وضعوا حواجز الحديد لكل عمل صالح يتحرك في ميدان الناس، بينما وضعوا أسوار الحماية لكل عمل

رخيص يستشري في الأمة، وظلّوا على هذا العهد الشيطاني يروغون ويتبجحون، ويعتقدون أن لن يقدر عليهم أحد.

ويأبى الله لهذه الطائفة أن تسود كلمتها أو أن تثبت شوكتها في قلب الأمة. فكان شهر رمضان بمثابة الأمر الإلهي الذي بغتهم، والنداء الحي الرباني الذي استفزهم.

سيأتي رمضان ومعه صوت الحرية التي نحبها.

سيأتي رمضان والأمة ستقف لوجهة واحدة، وقبله واحدة.

سيأتي رمضان والأمة تجتمع من أجل الله وحده، لا من أجل احتفال ولا وعد على دنيا.

سيأتي رمضان والأمة تلتقي في موعد إيماني في صلاة التراويح والتهجّد لتذلّ جبهتها لله لا لتُذلّ نفسها لأحد من البشر.

سيأتي رمضان والأمة تدعو في وقت واحد، وبصوت واحد ضد المجرمين الماكرين، والمعتدين الفاجرين، والظلمة المستبدين، ولن يستطيع أن يوقفهم أحد.

سيأتي رمضان والأمة ستخرج زكاة أموالها وستنفقها رغم أنوف من صادروا الأموال، وستتحرك لنصرة المستضعفين؛ لأن شياطين الجن قد كُبلت ولن يستفزها صوت شياطين الإنس، بل ستخرس بإذن الله.

سيأتي رمضان وأبواب الجنان تُفتَح، لتشتاق الأمة إلى هناك، إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ليشم ريحها المجاهدون والصالحون والمعتقلون والمظلومون، ليقنوا جميعاً أن الموعد هناك. فيصبروا ويحتسبوا.

سيأتي رمضان وآلاف الأمة تلتقي لتشارك في عمل البر مشاعراً ودموعاً، روحاً وفكراً، قولاً وفعلًا، رغم وضع الحواجز والقيود.

سيأتي رمضان ويعرف الناس ربهم، ويصومون، ويقرؤون القرآن، ليلعنوا فرعون وهامان، ليلعنوا النمروذ وأبرهة الأشرم، وكل يهودي ونصراني معتدٍ خوان، ليقرؤوا المقرر القرآني غير محذوف منه حرف واحد، مهما حاول أولئك حذف آيات القرآن.

سيأتي رمضان بمنحه وعطائه، بخيره وبركاته، بفضله وأسراره، ليعمَّ الكون بنوره، ويشعَّ بضوئه على الدنيا بنور الإسلام، لا نور العلمانية ولا الحداثة ولا القومية، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾^(١).

سيأتي رمضان ليذكر الناس بمعركة بدر، وفتح مكة، والأندلس، وموقعة بلاط الشهداء، وعين جالوت، وغزوات جهادية ماضية وستمضي ولو كره الخاسئون الخاسرون.

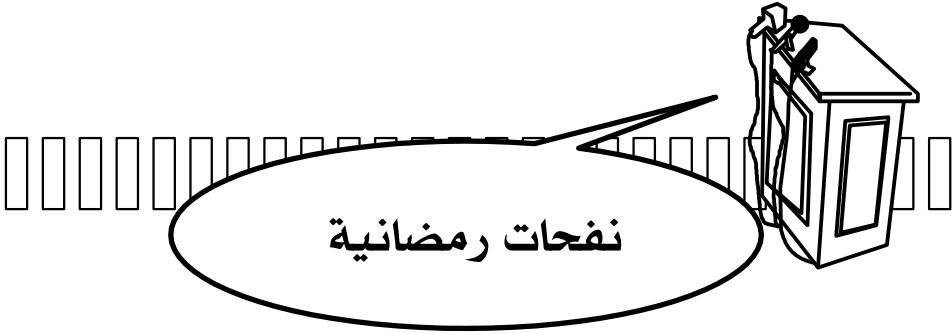
سيأتي رمضان وصوت الحرية معه، ليعيد الناس لله، ولتمضي شريعة الله، وسيُحرم من فضله وخيره، أولئك الأشقياء العتاة، والذين سيكون عليهم ثقلًا، وسيفتح الله لهم أبواب المصائب ما يكدر عليهم صفوهم، ويشغلهم في عيشهم حتى لا يستفيقوا، وهذا لعمر الحق هو عين الحرية لهم لكي لا ينافسوا الأطهار في هذه النعمة التي سيكرمهم الله بها، نعمة الحرية، لتبقى لهم بقية الشهور عاراً في الدنيا، وفضيحة في التاريخ، ولعنة على لسان الأحرار في كل رمضان.

(١) الأنفال، الآية (٤٢).

فأين (رمضان) الذي هذه صفاته؟ أين هو؟ دلوني عليه! دلوني عليه! رمضان الذي يتوب فيه كل عاص، ويتصل فيه كل منقطع، ويشهد فيه كل محجوب، وتسطع فيه الأنوار في كل قلب، حتى لتمتلئ بالرضا والاطمئنان والحب، ويقوم الناس في الأسحار ساعة يتجلى الله على الوجود تجلي الرحمة والغفران، وينادي المنادي من السماء: «ألا من سائل فأعطيه، ألا من مستغفر فأغفر له». فيهتفون من أعماق قلوبهم: يا أرحم الراحمين، ويسألون الله ويستغفرونه، فيحسون أن قد صعدوا بأرواحهم إلى حيث يرون الأرض كلها ومن عليها ذرّة تجول في هذا الفضاء. الدنيا كلها بأطماعها وأحقادها ومغرياتهما، ويتذوقون أعظم اللذات، اللذة التي لا تقاربها لذة، لذة الاتصال بالله، ومناجاته في سككات الليل، وهدآت الأسحار، فتسطع أنوار الإيمان في كل قلب، ويمتلئ بالرضا والاطمئنان والحب، والقلب كالنسر الذي يضرب بجناحيه في أطباق السماء ولكننا قيدناه بقيود المادة، ثم أغرقناه في حمأة المطامع والشهوات. فكيف يطيرُ نسرٌ مقيّد الجناح؟

هذا هو رمضان... فلنحلّ القيود فيه عن قلوبنا، ولنغسلها من أوضار الحمأة التي غمسناها فيها، ودعوها ترتفع لتطّلع على جمال الوجود، وترى من هذا المرقب العالي جمال رمضان.





إليك وإلا لا تُشدُّ الرِّكائبُ
وفيك وإلا فالغرامُ مضيعٌ
ومنك وإلا فالمؤملُ خائبُ
وعنك وإلا فالمحدثُ كاذبُ
هنيئاً:

هنيئاً لمن أضحى وأنت حبيبه
وطوبى لعبدٍ أنت ساكنُ سرِّه
وما ضرَّ صَباً أن يبيتَ وما له
ومن تكُ راضٍ عنه في طي غيبه
فيا علّةً في الصدر أنت شفاؤها
تصدّق على من ضاع منه زمانه
ولو أنّ لوعاتِ الغرامِ تُذيبُه
ولو بأنَّ عنه إلفه وحبيبه
نصيبٌ من الدنيا وأنت نصيبُه
فما ضرَّه في الناس من يستغيبه
ويا مرضاً في القلب أنت طبيبه
ولم يدرِ حتى لاح منه مغيبُه

يقول نبينا وحبيبنا محمد ﷺ لأم المؤمنين: «يا عائشة، ذريني أتعبد لربي».

اتركيني أخلُ بنفسي لربي...

ذريني أتعبد لربي... فيا سبحان الله... يقول هذا رسول الله...

وهل القلب موصول إلا به؟ ... وهل العمر مقضي إلا في حبه؟

ما أجمل أدبك يا رسول الله... وما أعظم حبك لله...

إنها الرغبة في المناجاة، والأمنية في الخلوة بالله، والأنس به جل في علاه... ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ﴾ ﴿قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿يَصْفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾^(١).

منذ أن سمع النبي ﷺ هذه الآيات، طوى فراشه، وأحيا ليله، ليخرج من صمت الدنيا وضجيجها إلى أفق أرحب، ورحمة أوسع، يأخذ من الليل جماله، وألقه وأسراره...

في عالم الروح يسري، ومع ملكوت السماء يمضي، يدلف إلى الليل متأملاً داعياً: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض وما فيهن».

وتصعد الروح، وتتألق النفس، وتتجاوب الأعضاء، وتسكن الخشية كل خلية، وكأنه في عالم آخر... ينادي الله ويقول: خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي. فيا لله، كم من الأنوار والأسرار تفيض على قلوب الخاشعين، وكم من الطهر ينتشر في حنايا العابدين؟

إنها انطلاقة روحانية إيمانية رمضان، تستعلي فيها الروح على مطالب الجسد.

ليالي رمضان... ليالي العمر، ليالي الأنس والمنى والذكر.

(١) المزمّل، الآيات (١ - ٤).

ليالٍ تعمر فيها الأوقات، وتحسن فيها الكلمات، وتجمل فيها الحياة.

وقوفٌ في القيام، وإطعامٌ للطعام، وتقوى وإحسان، دعوات
تضجُّ بها أفواه المسلمين، وأثَّات تُشكى إلى رب العالمين. جموعٌ
تلتقي، ونفوسٌ ترتقي، كم فيها من عتيق من النار، كم فيها من مصلح
قاد خيراً للأمام؟

كم من دمةٍ سُكبت؟ وكم من سجدةٍ سُجِّدت؟ وكم من دعوةٍ
صعدت؟ وكم من درجةٍ رُفعت؟

إن هذه الأيام هي رِواء الروح، وغذاء الجسد الحقيقي. إنها فترة
الانطلاقة، والبداية الصحيحة، والمسار القويم، إنها فترة للوقود ثم
السير، إنها فترة لإصلاح الجوارح وضبط النفس، إنها الحياة.

إنَّ ظلمة الليل تسكن الجوارح، وإنَّ انبثاق الفجر يدعو للعمل،
﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ (١).

الله أكبر، ما أجملها من أوقات، وما أسعدها من لحظات...

يُصلحُ الله فيها هذه النفوس التي ضعفت، ويقوي العزائم التي
فترت، ويغفر الذنوب التي سلفت.

نعيش أياماً نعرف الله فيها معرفة حقيقة، ونغدو ونروح وفي
أعماقنا إحساس بأن قلوبنا تتحرك، وعيوننا تبصر، وأيدينا تتحرك
بقدره الله، وتنضم هذه النفوس مع زمرة المقبولين، ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾
(٢٩) ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٢٠).

(١) المزمّل، الآية (٦).

(٢) الفجر، الآيتان (٢٩، ٣٠).

نفس طيبة في شهر طيب، استراحت إلى الله وتعاليمه، وأثرته على غيره من متع الحياة.

نفس طيبة لا يُعلم لصاحبها سوء، ولا يُعرف عنه تكدير. أما النهار فحفظ للسان، وذكر لأجمل الكلام، وإن سابه أحد أو شاتمه قال: إني صائم. تالٍ لورده، ساعٍ لحاجة إخوانه، مع الله في الصلوات الأولى والوسطى، يستمع للموعظة، ويرحل إلى صومعة أو سارية فيتغنى بالقرآن، فيملاً أقطار نفسه إعجاباً وحباً لهذا الكتاب العزيز، يتنفس بذكر حروفٍ مباركات تملأ جوانحه إيماناً وإجلالاً، وتدفعه للسير الصالح.

وفي دقائق الغروب جلسة إيمانية، وتفرغ مع النفس، في دقائق يهدى إليها المرحوم، حيث الدعاء المستجاب، فيختلي بنفسه، ويترك الحديث مع أهله، فيدعو ويدعو، علّه أن يقابل لحظة قبول ورضا وهو المأمول بإذن الله.

فإذا ما جاء الليل الأول، صلى مع المسلمين صلاة المغرب، ولا يفتح إفطاره برؤية مشاهد محرمة، أو لقطات ساقطة، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان. ثم يستغل كل لحظة، فيبادر مبكراً إلى بيت الله في صلاة العشاء، مصطحباً معه أبناءه، مذكراً أهله، فإن كن قدرات على القيام في بيوتهن، أو محافظات على أبنائهن وصغارهن فهو أفضل، وإن كن لا يستطعن القيام، وقد حافظن على الأبناء فإلى بيوت الله، «ولا تمنعوا إماء الله مساجد الله»^(١)، وهي فرصة لسماع آيات الله تُتلى.

(١) أخرجه أبو داود (٧٦٥)، وأحمد (٥٧٢٥) عن أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهما. وصححه الأرناؤوط في تحقيق المسند.

فإذا حانت الصلاة... قام هذا العبد الملهم، ليطمئن ويرتاح:
«يا بلال، أرحنا بالصلاة»^(١).

ومن كان أقوى إيماناً كان أحسن صلاةً وأطول قنوتاً، وأعظم يقيناً، «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٢).

صلاة الليل قربةً إلى الله، وروحانيةً عباد الله، ومنهاةً عن الإثم، وتكفيرٌ للسيئات، ومطردةٌ للداء عن الجسد.

في قيام الليل يَشْرُفُ الوضيع، وَيَعِزُّ الذليل، ومن أحب أن يهون الله عليه طول الوقوف يوم القيامة فليره الله في ظلمة الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.

إنهم عباد الرحمن، يبيتون لربهم سجداً وقياماً، انتزعوا نفوسهم من وطأة الفرش، وهدوء المساكن، وسكون الكون، وهواتف النفس، وآثروا الأنس بالله، والرجاء في وعد الله، والخوف من وعيده، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ عَائَةً أَيْلٍ سَاجِداً وَقَائِمَا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٣).

عباداً لله قانتون متقون، قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحر هم يستغفرون.

يقول أبو سليمان الداراني: (أهل الليل في ليلهم ألدّ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل لما أحببت البقاء في الدنيا).

(١) أخرجه أحمد (٢٣٢٠٢) عن علي رضي الله عنه . قال الأرنؤوط: رجاله ثقات لكن اختلف فيه على سالم بن أبي الجعد.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٧/٤)، ومسلم (٧٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الزمر، الآية (٩).

الله أكبر، ما طاب لهم المنام لأنهم تذكروا يوم النشور، يوم يبعث ما في القبور، ويُحصّل ما في الصدور، ولهذا قال قتادة: (ما سهر الليل بالطاعة منافق).

فإذا ما جدّوا، رزقهم الله من عطاياه ومنحه، وفضائله وكرمه. فإذا ما انتهت صلاة التراويح والقيام، لم تزل نفوسهم متذكّرة واعيةً لهذه الحكمة الراشدة: (دقائق الليل غالية فلا ترخصوها بالغفلة). فالله يعلم أنه حفظ بصره، ولسانه، وجوارحه، فهو إما في زيارة قريب أو صديق، أو عمل طيب مبرور، أو فعل مباح مقبول، ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

إنها التعبئة الإيمانية أيها الإخوة... وإلا لأصبحنا لاعبين. تصدق علينا أُنات ابن المبارك في شيخ زمانه الفضيل بن عياض. فما يصح أن تكون هذه الأيام موسماً للتعبد والقعود فحسب، بل هي استراحة المجاهدين، والاستعداد ليوم الملحمة، وما هي تغنّ بآيات الجهاد والقتال، بل هي العزيمة على الرشد، والسعي نحو الآخرة.

إنّ أيام رمضان مهد انطلاق حيوية للأمة، ووقفه عملية تأملية، تستعيد فيها الروح عافيتها، وتجدد بيعتها لربها، وتذكر الرابطة المقدسة، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتَ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾^(٢)، فينادي: (قد بعثها لله والله اشترى).

إلى ميدان الحياة والعمل يسعى ولا يتكل، ويبذل ولا ينخدل، في طريق الحق يمضي يبتغي رفع اللواء.

(١) الأنعام، الآية (١٣٢).

(٢) التوبة، الآية (١١١).

ولأهمية هذه الأيام أحببت أن أجعل في هذه اللحظات برنامجاً عملياً أضعه بين أيديكم، لا يتم التنازل عنه أبداً مهما كانت الأحوال، فحاول أخي الكريم إتمامه، بل وناجح وجاهد لأجله، ولا أقبل لك أدنى من هذه المنزلة أبداً، ولا أوافقك على ترك كثير منه، بل لا بدّ منه قدر المستطاع:

أولاً: الدعاء لله سبحانه وتعالى قبل الإفطار بخمس أو عشر دقائق، ابتعد عن أهلك، واسأل الله من خيري الدنيا والآخرة (فالدعاء قبيل الإفطار مستجاب)، ولا تدري لعل دعوة تُقبل تكون بها سعادتك في الدنيا والآخرة.

ثانياً: الحضور إلى الصلوات الخمسة في المساجد مبكراً مع جماعة المسلمين، جَرِّبْ أن تأتي إلى الصلاة مبكراً مع الأذان أو قبله، وحافظ على السنن الرواتب، ودع عادة تناول طعام الإفطار دفعة واحدة، هذه العادة التي تجعلك تحرم نفسك صلاة المغرب جماعة مع المسلمين، وتضيّع خطوات المشي إلى المساجد، فالمؤمن حريص على كل حسنة ودرجة في الجنة.

ثالثاً: المقبول من قرأ كل يوم جزءاً من القرآن، والجيد من قرأ جزأين، والأجود من يقرأ أكثر من ذلك متدبراً، ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١)، وأنصح بتحديد أوقات معلومات للقراءة.

كما أنصح بقراءة ما تيسر من كتب التفسير الميسرة والمختلفة، وتخصيص وقت للاهتمام بالقرآن وعلومه، والتأمل والتدبر مع أهلك

(١) الأنعام، الآية (١٣٢).

وأبنائك وجيرانك وأقاربك. لُتُحيا مجالس القرآن، فهي والله نور على نور، أحيوا الخواطر القرآنية ولو بالقراءة.

رابعاً: تحديد مالٍ لتفطير الصائمين، واختيار أيام تنادي فيها من أحببت من أقاربك أو جيرانك أو أصدقائك، أو حتى بعض العاملين والمساكين، «ومن فطر صائماً كان له مثل أجره لا يُنقص من أجره شيء»^(١)، فاحرص على هذه الفضيلة، ولو بإعطاء شيء من طعام بيتك أو قليل من ماء أو لبن تجعله في سفرة الإفطار في أحد المساجد.

خامساً: عدم التأخر في الذهاب إلى مكة لأداء العمرة، وإن كان لك أهل وأبناء؛ فإما أن يذهبوا معك أو مع غيرك ممن تثق به.

سادساً: مقاطعة كل القنوات الفضائية التي لا فائدة فيها. العربية على وجه الخصوص، والغربية على وجه العموم. وهي فرصة لمقاطعة المنكرات، فالشيطان مصدود، فاستحيوا من الله حق حياته، ولتحفظوا الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكروا الموت والبلى.

سابعاً: استماع موعظة الإمام بعد صلاة العصر غالباً، والسؤال عما تحتاجه من معرفة الأحكام، وأنصت للموعظة فلربما سمعت حكمةً كانت لك خيراً في الدنيا والآخرة، أو كانت لك مغفرةً ومجلساً من مجالس الجنة.

ثامناً: الجلسة مع النفس، وإعلان التوبة عن كل خطأ سابق، والعفو عن كل من ظلمك وأخطأ في حقك، وإعلان العفو العام لكل المسلمين، ولتدعُ: (اللهم إني تصدقت بعرضي على كل من شتمني أو

(١) أخرجه الترمذي (٨٠٧)، وابن ماجه (١٧٤٦)، وأحمد (١٧٠٤٤)، عن زيد بن خالد الجهني. قال الأرناؤوط: حسن بشواهده.

انتقصني أو أساء إليّ، اللهم اغفر لي وله وارحمني وارحمه، وتجاوز عني وعنه^(١).

وليكن الشهر فرصة للمسامحة والمساهلة، والأخلاق الحسنة، والتودد للناس، والصبر عليهم، ومحبتهم، ولتشع الابتسامة، والهدية، وكسب المواقف، فالنفوس مهينة، وشبكة المؤمن حريصة على الصيد.

تاسعاً: ترك السهر فيما لا فائدة فيه، وليتق الله من كان مؤتمناً على عمل في النهار، فلله أعمال بالنهار لا يقبلها بالليل، والله أعمال بالليل لا يقبلها بالنهار، فلتكن مجالس الليل في خير وإحسان.

عاشرأ: الاستعداد للعشر الأواخر، وتهيئة الأهل مبكراً، وإنهاء كل الاحتياجات الاجتماعية، فما هي إلا أيام معدودات.

ها نحن في نعمة رمضان، فالبدار البدار...

وإلى ميدان المنافسة والسباق، فلله درّ أقوام لطفهم الله بأنسه، فتقربوا إليه بقلب سليم، أذاقهم مناجاته، فكلّ منهم بحبه يهيم، أسكن قلوبهم حُبّه، فليلهم بالأشواق عظيم، نفوسٌ طهرّها من الهوى، فحُبُّ الدنيا عنها راحل، وحُبُّ الآخرة فيها دائم، فأهلاً به من تنعم، وأهلاً به من نعيم.

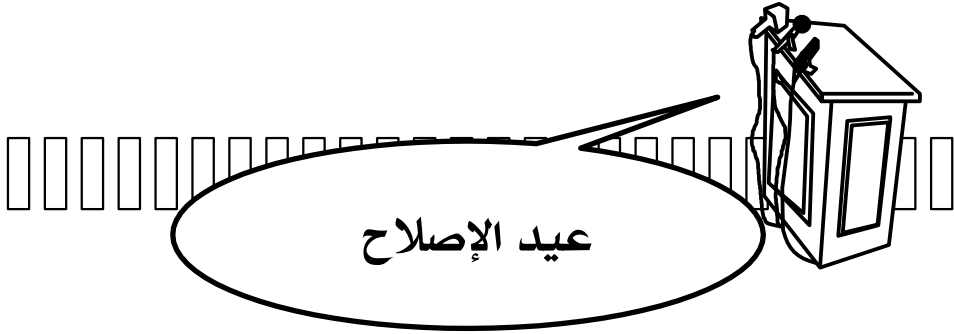
للصالحين كراماتٌ وأسرارٌ لهم من الله تخصيصٌ وآثارٌ
صفت قلوبهم لله واتصفت بالصدق واكتنفت بالنور أنوارٌ
واستغرقت كلّ وقت من زمانهم في طاعة الله أوراذاً وأذكارا

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٦٢/٦) عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مرفوعاً. وذكر له شاهد آخر يقويه. وروي مختصراً عن قتادة عند أبي داود (٤٨٨٦)، قال الألباني: صحيح مقطوع.

صاموا النهارَ وقاموا الليلَ ما سئَمُوا حتى تَعَرَّتْ على الظلماءِ ظُلماءُ
 خَلَوْا به وَرُواقُ الليلِ مُنسدِلُ حتى لهم قد تَجَلَّتْ منه أنوارُ
 طوبى لهم فلقد طابت حَيَاتُهُمْ وشُرِّفتْ لهم في الناسِ أقدارُ
 فازوا من الله بالزلفى وأسكنهم جناتِ عدنٍ فنعم الدَّارُ والجَارُ

اللَّهُمَّ تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت
 التواب الرحيم.





لأن الإصلاح أمر شاق، وجهد يعتمد على الصبر، وتأمل يحتاج إلى تأنُّ، فإن خطبة الإصلاح هذه في مثل هذه الظروف جمعت بين المشقة والجهد والتأمل، فلکم غنم ما تسمعون، وعليّ غرم ما تفهمون، والله المستعان. الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله. الله أكبر، الله أكبر، والله الحمد.

سنمضي في منهج هذه الخطبة عبر مقاطع معمقة، يمثل كل مقطع منها مرحلة وفكرة ورسالة محددة يفصل بينها التكبير ويختم كلاً منها خلاصة مركزة. فلنبداً بإذن الله.

في مرحلة ما قبل الإسلام، وهي المرحلة التي سبقت بداية رسالة الإسلام والدعوة المحمدية التي ننتمي إليها، كانت الأمة تعيش حياة الجاهلية، من الفوضى الأخلاقية، والنعرات القبلية، والخرافات الفكرية، والطبقية العرقية. فلا قيم ولا مبادئ عامة، ولا رسالة ولا حضارة تستحق أن تكتب، اللهم إلا شيئاً من أخلاق العرب. وأنتجت تلك النظم والأفكار جيلاً يعمل لمصلحته ولا يفكر في إنسانيته، ولا يستقر على قيمه، فيوماً حاج ويوماً خمار، ويوماً أمين ويوماً سارق، ويوماً كريم ويوماً لئيم، وهي باختصار معيشة الغابة التي مبدؤها أنت ابن من؟

وجاءت الرسالة الربانية النورانية ببعثة سيد البشرية والإنسانية بمحض من عظيم كريم من لدن خير عليم، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وكلمة ﴿ضَلَلٍ﴾ تكفي لوصف حال ذلك المجتمع المتخلف روحياً وفكرياً وسياسياً وأخلاقياً. ثم هو ليس ضاللاً فحسب، بل هو ﴿ضَلَلٍ مُّبِينٍ﴾.

وجاء الرسول ﷺ برسالة الإسلام، واستطاع في ثلاثة عشر عاماً أن يأتي بدعوة الإصلاح ليغيّر من خلالها بناء ذلك الإنسان الجاهلي... ذلك الإنسان الذي كان يعبد إله الحجر والتمر، الإنسان الذي كان يقتل ابنته ويدفنها بيده تحت التراب، الإنسان الذي يطوف حول الكعبة ويعاقر الخمر، وينظر للقيان، ويختلي بالحرام، الإنسان الذي لا يعرف سوى البطش والأنانية واسترقاق العبيد، الإنسان الذي يعيش في مبدأ ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حِكَاؤُنَا﴾ [المؤمنون: ٣٧]، نعم ﴿حِكَاؤُنَا﴾، ولا شيء غيرها... الحياة بما فيها من متع من الخمر إلى الفجور، ومن السرقة إلى الإهانة، ومن هتك للأعراض إلى سفك الدماء، نعم ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حِكَاؤُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧]، هي ذي الحياة ولا شيء غيرها نموت لأجلها، ﴿وَمَا يُهْلِكُهَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، إنها الطبيعة التي يؤمنون بها، جيل إنساني، فيه كل صفات الإنسانية، ولكنه يعطل ويعطل كل جواذب التحريك نحو الإصلاح.

وبدأت الرسالة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، بدأت رسالة الإصلاح التي استغرقت أثنى حياة محمد ﷺ وغيّبت عنه أحب أهله إليه، وجعلته يقاسي الشدائد فطرد من وطنه، وشتم من

قومه، وعذب من قريته، واتهم في عرضه، وأوذى في نفسه وجسمه، ولكنه وقف بعد ثلاثة عشر عاماً يخاطب أمته ويقول: «ألا قد بلغت اللهم فاشهد، ألا قد بلغت اللهم فاشهد، ألا قد بلغت اللهم فاشهد»^(١).

يا ترى ما الذي بلغ؟ هل بلغ كلاماً؟ هل بلغ أوامراً؟ هل بلغ أحكاماً؟ هل بلغ وهو في بيته لا يرى ولا يُرى؟ هل بلغ وهو ممتنع عن قومه لا يحاور ولا يناقش؟

يا ترى ماذا بلغ؟ وكيف بلغ؟ وأين بلغ؟ ولمن بلغ؟

أما جواب ماذا بلغ؟ فقد بلغ رسالة القرآن ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

تلك الرسالة العظيمة التي تأمر بطاعة الله ورسوله، ﴿مَنْ يُطِيعِ الرُّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وأما جواب كيف بلغ؟ فقد قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُم بِآيَاتِنَا هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال جل جلاله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، إنه البلاغ الحكيم باللسان الذي يفهمه المخاطبون، والحكمة هي وضع الشيء في موضعه الصحيح فقد يدعو بكلامه، وقد يدعو بسلاحه، وقد يدعو بمحاضرتة، وقد يدعو بمفاوضته، وقد يدعو برسائله، وقد يدعو بمصالحته، وقد يدعو بمخالفته.

كان ﷺ يزن الأمور بميزان الحكمة الصحيح، مهما كلفت

(١) أخرجه البخاري (٥٣/١)، ومسلم (١٦٧٩) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

الحكمة من ثمن، ولو رأى أصحابه يقتلون أمام عينيه، ولو رأى أصنام الشرك حول بيته، ولو سمع بتعذيب إخوانه في وطنه، ولو شتم بجوار بيت ربه، فلكل مقام مقال: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقد اقتضت هذه الحكمة منه الصبر الطويل ليبلغ رسالة ربه.

وأما جواب أين بلغ؟ فقد بلغ في كل مكان قولاً وفعلاً وكتابةً وإرسالاً للوفود، ﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

وأما جواب لمن بلغ؟ فقد بلغ العرب والعجم، والإنس والجن.

إذاً نلخص هذا المقطع بأن الجاهلية كانت تعيش في حالة وصفها القرآن بالضلal المبين، وأن النبي ﷺ جاء برسالة الإسلام ليغير هذه الحالة البيئية بالحكمة والموعظة الحسنة، قولاً وفعلاً وكتابةً وإرسالاً للوفود وللإنس والجن.

والسؤال هنا: ما هي المنهجية التي غير من خلالها الناس في ثلاثة عشر عاماً؟ وما هي طريقة الإصلاح التي سار عليها في التغيير؟

ما هي منهجية النبي ﷺ في التغيير والإصلاح. وكيف نجح في تغيير أولئك القوم الجاهليين؟

إنه من خلال الاستقراء والتأمل في سيرة النبي القدوة محمد ﷺ بشمولها وفقها، نلاحظ أن النبي ﷺ كان يسير وفق القاعدة الربانية الكريمة التي تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. لقد كان النبي ﷺ قبل أن يبدأ خطوات التغيير قد وعى هذه الآية وفهم مراد الله منها، وإنني على يقين أن كثيراً من رغبات

الأمّة في التغيير لم تنطلق من الفهم الصحيح لمعنى هذه القاعدة التغييرية القرآنية، والتي احتوت على خمس مسائل مهمة هي:

أولاً: إنّ التغيير نحو الأفضل في المجتمعات يسير وفق سنن الله التي لا تحابي أحداً، وهذا يعني أن الكفار وغير المسلمين لو عملوا بها لتغيروا نحو الأفضل، وهذا معنى كلمة (قَوْم) التي جاءت نكرة لا معرفة، ولذلك نرى تقدماً حضارياً وتقنياً وعلمياً في عدد من الدول غير الإسلامية التي سارت وفق مقتضى السنن.

ثانياً: إن تغيير المجتمع نحو الأفضل لا بدّ فيه من تغيير (المجموع) وليس تغيير (فرد واحد)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ [الرعد: ١١]، فالتغيير الذي يتوجه نحو الأسرة المسلمة، والقرية المسلمة، والمجتمع المسلم، هو التغيير الحقيقي العمراني المؤثر، وتغيير الفرد في نفسه، ووقوعه في داخله، وانعزاله في بيته ليست من منهجية الإصلاح الحقيقي إلا إذا وصل الأمر إلى عموم الفساد زماناً ومكاناً كما هو الحال في آخر الزمان.

ثالثاً: في الآية تغييران، تغيير من الله، وتغيير من الناس، التغيير الأول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ [الرعد: ١١]، والتغيير الثاني: ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فالله سبحانه وتعالى وفق سنّته يهيئ ويعدّ ما يمكن لدينه وإظهاره على الدين كله، وهذا التغيير من الله. ولكن على القوم اللذين يريدون التغيير وأداء واجب الخلافة والمسؤولية والعمران في الأرض أن يغيروا هم، ويعملوا هم، ويخططوا هم، ويجتهدوا هم، ويتعاونوا هم.

رابعاً: إن التغيير للأقوام يبدأ من التغيير الداخلي، كل إنسان يبدأ

بنفسه، ليغير ما حوله. فتغيير القلب وتنظيفه من الأدران القبيحة تغيير لكل الجوارح. (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)^(١). وإذا صلح القلب من الداخل صلحت الجوارح. وإذا صلحت جوارح الإنسان صلح من حوله، كما قال الإمام العارف المحاسبي: «إذا صلح العبد أصلح الله بصلاحه سواء، وإذا فسد العبد أفسد الله بفساده سواء».

خامساً: أن تغيير الله وفق سنَّته مشروط بتغيير الناس، وهذا معنى (حتى) في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. فما لم يكن لهم جهد ومصابرة وثمرن مقدم فلا حق لهم مشروع في التغيير والتقدم!

إذاً خلاصة هذا المقطع: أن النبي ﷺ عندما وضع خطوات التغيير الخمس التي سنعرّفها بعد قليل، بدأ وهو واع تماماً لدلائل الآية الكريمة، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. والتي دلت على أن التغيير يشمل أي قوم مسلمين كانوا أو كافرين، وإذا ساروا على حسب السنن الكونيّة وهو معنى ﴿مَا بِقَوْمٍ﴾ وأن التغيير الحقيقي المؤثر لا بدّ أن يكون للأقوام، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ [الرعد: ١١]. ولم يقل سبحانه: إن الله لا يغير ما بإنسان، وأن الله تعالى يُغير وفق سنَّته ولكن لا بدّ للعباد من تغيير مهيبٍ لهذا التغيير الرباني، وتغييرهم هذا ينبغي أن يكون من الداخل، وأنه لا بدّ من جهد يبذلونه ليحقق الله التغيير الإيجابي.

والسؤال هنا: بعدما فهم النبي ﷺ هذه الآية ما هي الخطوات الخمسة المهمة التي غيّر بها المجتمع الذي أرسل إليه؟ هذا ما سنعرّفه

(١) أخرجه البخاري (٢٨/١)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

بعد تكبيرنا لربنا... فالله أكبر، الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر والله الحمد.

استطاع النبي ﷺ تغيير الأفراد، وبناءهم البناء الصحيح الذي أدى إلى تغيير المجتمع بهذه الخطوات الخمس، وهذه الخطوات هي التي يجب أن يتبنّاها كل مصلح ومرب:

أولاً: تغيير العلاقة من الأرضية إلى السماوية الربانية.

ثانياً: تغيير القيم من البشرية إلى الشرعية الشمولية.

ثالثاً: تغيير الأفكار من السطحية إلى المعرفية المقاصدية.

رابعاً: تغيير الاهتمامات من الدونية إلى العمرانية الحضارية.

خامساً: تغيير المنطلقات من الذاتية إلى الإنسانية العالمية.

وأدت هذه التغييرات إلى وجود قيادات متعاونة تحققت فيها شروط القيادة الثلاثة: القدرة على التأثير، والعمل، والمنهج الصحيح.

كما أدّت تلك التغييرات إلى وجود مجتمع راشد محافظ، وأدت ثالثاً إلى استمرارية البقاء في الحياة.

إذن خمس خطوات تغييرية تبناها النبي ﷺ أدت إلى ثلاث

نتائج:

أما التغيير الأول: فهو تغيير العلاقة من الأرضية إلى السماوية الربانية، ليتصل الفرد المسلم بربه وحده لا شريك له، يصلي له ويعبد، ويركع ويسجد، ويخضع ويذل، صلة بالله وحده، بالطريقة المشروعة التي تؤدي إلى المحبة لله، وعدم الخوف على رزق لم يكتب، أو من مضايقة بشر، أو من عدو.

تلك الصلة التي تجعل أحدهم يفقد عشرة ملايين في صفقة واحدة وينام بعدها قرير العين، ليس لأنه يملك مال قارون، ولكن لأنه اجتهد وقدر الله صاحب المال ما شاء، فرضي بالله وقدره.

والتغيير الثاني: تغيير القيم من البشرية إلى الشرعية الشمولية؛ فلا قوانين ولا نظم ولا لوائح إلا وفق منهج الشرع الذي يراعي مصالح الناس. وبالتالي تغيرت تلك القوانين البشرية التي تعقد البشر وتعقد مصالحهم، وتعقد حياتهم إلى تلك القيم الشمولية الربانية التي تبيح النكاح وتحرم السفاح، وتأمّر بالولاء كما تأمر بالبراء، وتطالب ببر الإنسان كما تطالب بالإحسان إلى الحيوان، وتوجب على الولد بر والديه، وتلزم الوالدين بإعطاء حقوق الأبناء، وتحضّ الزوج على العطف على زوجته، وتحضّ الزوجة على الصبر على زوجها.

والتغيير الثالث: تغيير الأفكار من السطحية إلى المعرفية المقاصدية ليتحرك العقل، ويستنبط، ويخطط، ويفكر، ويرجح.

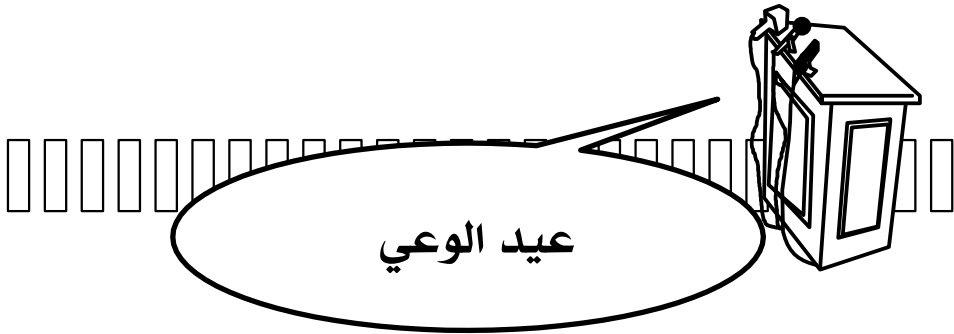
إنه تغيير يعصم العقل من الممارسات السطحية المضلّة؛ فلا يهدم، ولا يحصر الرأي، ولا يقصد أفكار الأشخاص، ولا يضع العصمة لعلماء محددين في مكان محدد من بلدة محددة، فلا يتجاوزهم الرأي والمشورة والفتيا والحكم والإمامة، ولا يدعي العصمة لآراء أشخاص محددين فيلزم بها كل إنسان في العالم ولو كان مسكنه وراء المحيطات!

إنه تغيير شرعي مقاصدي معرفي لأهله الموصوفين بذلك، يعتمد بعد نصوص الشرع على حركة العقل، وعلى تلك الأفكار النيرة التي تراعي فقه الأولويات والموازنات والضروريات والحاجيات، والمصالح والمفاسد، والمقاصد الأساسية.

والتغيير الرابع: تغيير الاهتمامات من الدونية إلى العمرانية الحضارية؛ فلا غش، ولا لعب، ولا جري وراء العري، ولا إضاعة للوقت في القمار، ولا ترفيه بالحرام من السماع والكلام والفعال، بل اهتمام بالكسب والسعي في البناء، ورؤية العالم منوراً برسالة الإسلام، والاحتكاك بالمجتمع المسلم، والعلم والتعلم...، وروائع الاهتمامات في الزراعة والصناعة والحضارة، مما جعل شعلة الإبداع تظهر، ومكانم الذات تتفجّر.

إنّ غياب هذا الجانب التغييري في حياتنا المعاصرة أورثنا صوراً مؤلمةً محزنةً، كهذا الذي نراه من اللهث وراء اللعب، وضياح الأموال الطائلة فيما لا طائل من ورائه ! حتى إنّك لتجد الملايين تدفع للاعب كرة فيكون لكل أصبع قدم مليون و مليونان بينما الشعوب العربية مطحونة من الجوع!! وحتى إنّك لتجد العقول المسلمة المبدعة تتسرب إلى الخارج لأنها لم تجد ما يحقق لها ذاتها.

والتغيير الخامس: تغيير المنطلقات من الذاتية إلى الإنسانية العالمية، ليصبح هم الإنسان إخوانه المسلمين، وما يخدم العباد والبلاد، دون التقيد بحدود الأرض والقومية المزعومة، ودون الإغراق في الأنانية والتكبر والتسلّط القبلي، والتجبر والفرعنة التي لا حدود لها. وبهذه التغييرات الخمسة استطاع النبي ﷺ أن يخرج جيلاً مؤثراً في الحياة، ومجتمعاً غير مجرّى التاريخ في ثلاثة عشر عاماً، واستحق أن يكون الجيل الذي لا مثيل له باعترافات المستشرقين وأعداء الإسلام قبل اعتراف المسلمين أنفسهم، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].



كل عام وأنتم بخير، وقديمتم خير مَقدم، هنيئاً لكم الصيام والقيام، وتقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال، والحمد لله على ما يسر، ونسأل الله أن يكون ما مضى متقبلاً في الصالحات.

وهذه الأيام الجديدة الطاهرة دونكم فاغنموها، اللهم افتح بخير، وأتمم بخير، واختم بخير.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (١).

فليسعد الصابر المحتسب، المتقي المجاهد، بالبشارة والنجاة، وليستمر مع ثلة المسلمين الأطهار في الطاعات المتنوعة، مع شيء من النصب والتعب يجده، وليسعد بعدها براحة ورشد، وليحتسب قرباته ومجاهدته نفسه لله، فإنما والله، يكتال من الأجر، ولا يبخل على نفسه بالحسنات، وليكن كريماً، وليربأ بنفسه أن يحشرها مع زمرة البطالين، أو الناظرين لمحرم، أو المختلين بسوءة في جنح الليل وسويعات النهار، فإن العاصي أبداً خفي المكان، ولا بدّ لعيوب الحرام أن تتكشف، وليتحمل مرارة الهوى والغفلة والشهوة، فإنما الدنيا أيام،

(١) السجدة، الآية (١٨).

وليربّ نفسه على المجاهدة والمصابرة والتضحية من أجل صيانة سمعته
لدى الملائكة، ثم لدى الناس، ثم ليبشر وينادي نفسه:

غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه
الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر والله الحمد.
عيد الوعي، عنوان هذه الخطبة لعيد الفطر لهذا العام.

أيها الإخوة...

في القرن الرابع الهجري المبارك كان أمير البيان والشعر المتنبي
يصف يوم العيد الذي عاشه قائلاً:

عيد بأي حال عدت يا عيدُ بما مضى أم لأمر فيك تجديدُ
أما الأحبة فالبيداءُ دونهم فليت دونك بيداً دونها بيدُ
لقد سمعنا وقرأنا أبيات المتنبي هذه، وهو يذكر حالته وآلامه،
وأحاسيسه ومشاعره، ويصف حال العيد الحزين ووضع رفقته الذين
تغيرت حالهم. ونحن بعد أكثر من عشرة قرون طواها الزمان، نحس
بآلمه وحزنه، وحال إخوانه، ونعيش معه حالته، ووضع العيد الكئيب
الذي أصيب به إخوانه. إنها أبيات من الشعر خرجت صادقة حارة،
كتبها التاريخ، ونطقت بها الدنيا، وسارت بها الركبان، وقيلت من فوق
هذا المنبر الحر بعدئذ، ولا زلتُم تسمعونها أنتم اليوم. وإن كنا لا
نوافقه على أن العيد موسماً للحزن والكآبة!

ولكننا نتساءل: إذا كان بيتان من الشعر يصفان مشاعر، ويحركان
أحاسيس، وينقلان صورة حزينة لواقع مجموعة من البشر البدو على
قضية اجتماعية ليس إلا، أفلا يمكن لوسائل القرن الخامس عشر

المتطورة، وآلياته المتنوعة المؤثرة أن تنقل لنا حال المسلمين، وتنقل الصورة العامة بكل أحاسيسها ومشاعرها، وآلامها وآمالها، بل وآهاتها ونفثاتها؟

إذا كان المتنبي قد أوصل حال إخوانه في القرن الرابع ببيتين من الشعر نطقت بهما الدنيا، أفلا يمكن لآلاف من الأبيات الشعرية اليوم، ومئات من الفضائيات، والصحف، والإنترنت، والمجلات والأشرطة، والهواتف، والأقمار الصناعية، ورسائل البريد، والصور، والرسوم والإعلانات والدعايات، أن تنقل حال الأمة الإسلامية المشرق والمحزن إلى المسلمين والعالم بأسره؟

نعم يمكن، يمكن أن نُحدث ضجّة إعلاميةً تربويةً إسلاميةً عارمةً، يمكن أن نشارك في صناعة الحضارة، وتغيير مجرى التاريخ، وبناء الفضيلة، والتفنن في حشد جهود الخير، والتملص من فسقة الهوى والمتسلطين. يمكن هذا.

يمكن أن نبرز صورة الأمة الإسلامية في جميع جوانبها. جانبها الكالح الحزين في كشمير وبورما وبعض الدول العربية الظالم ساستها، كما يمكن أن نبرز جانب الأمة المشرق الوضاء، في صناعة ماليزيا، وشيء من وزارات تركيا، وفنون الدعوة في الخليج عموماً وبلاد الحرمين المباركة خصوصاً، يمكن.

ولكن هذا كله لا يمكن أن يتأتى بطريقة المتنبي القديمة وهي خير. بل لا بدّ من طرق جديدة تضاف إليها، وأفكار جديدة تسهم في البناء والتقدم، وتقاوم سيل الفساد والظلم.

وما البناء الأول، والأساس للتقدم المعاصر بعد الإيمان الراسخ،

إلا الوعي والفهم، ومن غيرهما، يتورط رجال، ويُظلم جيل، ويُساء تاريخ، ويتأخر بناء، ويستبد ظلمة، ويتسلط فسقة.

الوعي والفهم محوران مهمان للبناء والرشد، ولا استمرار مسيرة الإصلاح، بعد فترة ذل حيناً من الدهر، نبحت فيها كلاب، وصرخت فيها وحوش، واستعدت فيها ذئاب، واستأسدت فيها ققط!

أيها الإخوة... عيد الوعي: فما الوعي إذن؟

الوعي هو الفهم والإدراك والمعرفة لحقائق الأمور ما تقدم منها وما سيأتي. هو الإدارة والتخطيط والبناء الصحيح الراسخ. الوعي هو تحريك العقل، هو الفكر، هو التأمل، هو التدبر، هو الخطوة الصحيحة قبل العمل ابتداء، بل وأثناء العمل. والمتأمل في نصوص الوحي الكريم يلحظ هذا عياناً:

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾^(٢)، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾^(٣)، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾^(٤)، ﴿قَالَ أُولُو حِجْتُكَ شَيْءٌ مُبِينٌ﴾^(٥)، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾^(٦).

إنها نصوص تخاطب العقل، وتحرك الفكر، وتستجلب الوعي الصحيح...

(١) يونس، الآية (١٠١).

(٢) الروم، الآية (٩).

(٣) الأعراف، الآية (١٨٤).

(٤) الزخرف، الآية (٨١).

(٥) الشعراء، الآية (٣٠).

(٦) الكهف، الآية (٢٩).

﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾^(١)، ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾^(٢).

إنها موازين لا تختل، وسبل للتقدم لا يتوارى عنها العقلاء.

لماذا أغرق قوم نوح وقد دعاهم نبيهم؟ إنهم ﴿كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾^(٣). ولماذا دُمِّر قوم عاد وقد بين لهم، ﴿إِنذِرْكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ﴾^(٤)؟ ولماذا أخذت الرجفة قوم صالح وقد قال لهم: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾^(٥)؟ ولماذا أخذت الصيحة قوم شعيب وقد ناداهم، ﴿وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾^(٦)؟

ألم يبين كل نبي لقومه حال من سبقه، وكيف عذبوا؟

لماذا لم يستفيدوا من التجارب؟ ولماذا لم يغيروا طريقة التفكير
الرتيب العقيم؟ لماذا؟ لماذا؟

إن مسلسل الدمار هذا هو نفس المسلسل النكد الذي تسير عليه
الأمم والشعوب اليوم.

وما لم تُعد الشعوب النظر في وعيها، فإنه يخشى أن تصاب

(١) يونس، الآية (١٠٨).

(٢) النحل، الآية (٣٦).

(٣) الأعراف، الآية (٦٤).

(٤) الأعراف، الآية (٦٩).

(٥) الأعراف، الآية (٧٤).

(٦) هود، الآية (٨٩).

بغفوة لا يعود لها الوعي بعدها أبداً، ولا تنفع كلمة ﴿رَبِّ
أَرْجِعُونِ﴾ (٩٩) (١).

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر والله الحمد.

لماذا الحديث عن الوعي؟

حديثنا عن الوعي والفهم حتى نصصح أخطاءنا، ونتجاوز
المعوقات التي في حياتنا، ونتطور في أساليبنا، ونبني في موطن البناء
النافع، ونعيش حياة سعيدة تجمع بين خيري الدنيا والآخرة.
إن هذا الوعي... يستضيء بنور القرآن والسنة.

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْأَيَّاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ
لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١١) (٢).

من غير إيمان لا قيمة ولا حضارة ولا إنسانية ولا نجاح ولا
فلاح. وعندما يفهم الإنسان ويستوعب ويعي حقيقة لا إله إلا الله محمد
رسول الله فسيتحرر من القيد، ويستتهين بكل عسير، ويسترخص كل
فتنة، فإن قلَّ المال، أو خسر الضياع، أو مات له القريب، أو تنكر له
الحبيب، أو ضاع منه المنصب، أو مرض أهله، أو أصيبت بنيته أو
سيارته، أو شاتمه سفيه أو انتقصه غريب أو قريب، لم يستخفَّ ولم
يخفَّ، ولم يضطرب ولم يتهرب، ولم يسخط ولم يضجر... ولقد
سمعت عمن خسر مائة مليون ريال في صفقة خلال لحظة! ثم نام بعد
سماعه الخبر بخمس دقائق! ليس لأنه يملك مال قارون، وليس لأنه قد

(١) المؤمنون، الآية (٩٩).

(٢) يونس، الآية (١٠١).

أصيب بشلل أو خبل! كلاً، ولكن لأن له ضميراً حياً يرفض أن يموت قهراً على ضياع دراهم واهبها وسالبها واحد. هو الله الأحد.

فالله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر والله الحمد.

لئن كان الأساس الأول من أسس الوعي يقوم على الإيمان المستنير بوحى القرآن والسنة، فإن الوعي يتلازم كذلك مع فهم الشريعة الخالدة التي أرست قواعد الفقه، وأصول الفقه، وفتحت المجال للاجتهاد، ورسمت فقه المصالح والمفاسد.

إنّ هذا الوعي يعني أن نفكر في فقه المصالح والمفاسد بطريقة شرعية مقاصدية، فإن أردنا التقدم والقوة، فلا بدّ أن نفهم ونعي قوتنا وقوة أعدائنا، وأن نخطط لأنفسنا ولكيفية مقاومتنا. ولذا عندما سئل الإمام أحمد بن حنبل عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو: أحدهما قوي فاجر، والآخر صالح ضعيف مع أيها يُغزى؟ فقال: أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين. فيغزى مع القوي الفاجر، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»^(١).

والمودودي رحمه الله أدرك هذه المعاني بعدئذٍ فقال: (إنما تنتصر الأمم بالإيمان، وإذا تخلت عن الإيمان فإنما تنتصر بقوتها).

يجب أن نحرك فقه المصالح والمفاسد ليس لأجل أن ننام ونحافظ على كرسيّنا وأرضنا، ولكن لنحافظ على إيماننا وأمتنا. ولا بد

(١) أخرجه البخاري (٤/٤٢٦)، ومسلم (١١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أن تشاع معاني الوعي في كيفية السيادة والقوة، ليس قوة السلاح فقط، بل قوة التسلل للنفوس، والتغيير نحو الأفضل، وفنّ المسايسة، وكسب المواقف، ومبادرة الفرص، واللعب بالنار الهادئة، والدخول في الحرب الباردة، والسباحة في المياه الدافئة!

أعني بدون فلسفة أيها الإخوة: فتح الباب لفقه المصالح والمفاسد، مع أنفسنا، ومع أسرنا، ومع دعوتنا، ومع مجتمعنا، ومع أحلافنا، ومع أعدائنا. فإن كانت المصلحة في أمر قَدِمنا، وإن كانت المفسدة في شيء تأخرنا، والله يتولانا.

فالله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر والله الحمد.

ومن أسس الوعي الصحيح: تحريك العقل، واستثمار الذكاء، وحشد الطاقات نحو البناء.

لقد وعى هذه المسألة الخطيرة خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قال: إنني لأشتري ليلة من ليالي عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بألفي درهم من بيت مال المسلمين. فاستنكر هذا عدد من فقهاء الصحابة ووجهائهم وكبارهم. كيف تصنع هذا، وأنت أكثرنا ورعاً وشدةً على مال المسلمين؟ فقال لهم: وأين يُذهب بكم - أي: بعقولكم ووعيكم وتفكيركم -، إنني أعود برأيه واستشارته بآلاف الدراهم على بيت مال المسلمين.

الله أكبر ما أجمل وأعظم هذا التفكير، ولو خالف كبار الصحابة! إنها مسألة اجتهادية، آثارها بعيدة جداً، لها مردود إيجابي، وأثر حضاري على الأمة كلها.

ويعجبني رائد الحضارة المجدد شيخ الإسلام ابن تيمية. إن هذا

العلم الشامخ قال آراءً فقهية جديدة خالف فيها شيوخاً وأساطين وعلماء كباراً، بل إنه خالف بعض إجماعات الأئمة قبله. ونحن اليوم نأخذ بآرائه الجديدة المتأخرة قروناً عما سبق؛ لأننا نحتاج إليها. فهي اجتهادات مقاصدية حضارية إنسانية نعتز بها ونلجأ إليها؛ لأنها بنيت على تفكير شرعي منطقي مقبول، ولو خالفت من خالفت.

والسؤال المهم: لماذا لا نسمح اليوم لبعض العلماء المعاصرين أن يجتهدوا وهم لذلك أهل؟ ولماذا لا نسمح لبعض الآراء الفقهية الخلافية المقبولة أن تُقال؟

لماذا نحصر سلامة العقيدة، وصواب فروع الفقه، وصحة الفكر عند فرد أو عالم أو مدينة أو منطقة أو جماعة محددة؟

لماذا نضع العصمة حتى في الآراء الفقهية الخلافية عند أحد من العلماء في أرض معينة، أو عند كاتب محدد من انتماء ما؟

لماذا نضع قبول الأحاديث الشريفة وردها عند شخص أو شخصين؟

لماذا نجعل قبول الفتوى عند واحد أو اثنين؟

أيعقل أن تكون الأئمة قد عقلت فما خرج منها عالم أو مفسر أو خطيب أو مفتٍ؟ إنني أعرف هذا الاحتكار لا يكون إلا عند الظلمة وأرباب الفسق والتسلط كما قال الشابي:

كلما قام في البلاد خطيب موقظٌ شعبه يريد صلاحه
أخمدوا صوته الإلهي بالعس ف أماتوا صداحه ونواحه

وأما الأئمة الولود فهي التي تعلم أبناءها أن يحبوا لغيرهم ما

يحبونه لأنفسهم. والتي حفظت عن نبيها: «بلغوا عني ولو آية»^(١).

يمكن أن يبلغ هذه الآية شامي أو سوداني أو مصري أو تونسي أو ابن جزيرة العرب؟

إنها آية واحدة ليس إلا، والنبي الكريم ﷺ يقول لأبي هريرة عن الشيطان: «صدقك وهو كذوب»^(٢).

ألا يمكن للدعاة اليوم والدعوات والجماعات الإصلاحية أن يكون فيها رجل صادق؟

من قال: إنه يلزم كل خطيب وواعظ وشيخ ومفت ومفكر وكاتب وصحفي أن يكون ملتزماً بكل شرائع الإسلام جملةً وتفصيلاً؟

كلا، المطلوب التزام أوامر الدين، ولا بدّ من الخطأ لأنهم بشر. فيُصحّح الخطأ المستطاع وبأحسن الطرق، ويقبل الصواب وينشر.

لماذا إذا زلّ الخطيب أو المفتي أو الواعظ أو الكاتب أو الجماعة الإصلاحية جعل هذا الخطأ في قفص الاتهام، وكأنها لم تحسن قط؟

إنّ هذا ضلال فكري، وجهالة وعي.

لقد دخلنا عصر الانفتاح، ولا يمكن لأحد أن يظن أن بإمكانه بتصنيفه الناس أن يقصي المسلمين عنهم!

لا بدّ أن ينتهي هذا الظلم الواضح، لا بدّ أن نتعامل مع الخطأ

(١) أخرجه البخاري (٣٦١/٦) عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٦/٤، ٣٩٨) تعليقاً عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال الحافظ في «الفتح» (٣٩٨/٤): هكذا أورد البخاري هذا الحديث هنا ولم يصرح فيه بالتحديث، وقد وصله النسائي والإسماعيلي وأبو نعيم.

بحسب حجمه، وأن لا يكون الخطأ تعويقاً وفضحاً، وألاً نظنّ بمسلمٍ أنه تعمّد الخطأ وأرادَه قصداً، نعوذ بالله من سوء الظن والفهم.

ومن أسس الوعي، الوعي الأخلاقي الإنساني:

فلئن كان التأخير عن وقت الصلاة تعمداً حراماً، فالتأخر عن العمل المطلوب تعمداً حرام.

وإن كان تأخر الراتب عليك من الناس حراماً، فتأخير حق الخادمة والسائق عليك حرام.

وإن كان نظر أهل الشوارع إلى أهلك حراماً، فنظرك في التلفاز المحلي والعالمي للنساء حرام.

وإن كان تأخر العامل عليك لإصلاح شيء في بيتك حراماً، فإن تأخرك عن مواعيد الناس حرام.

وإن كان تأخر المعاملة عند موظف حراماً، فإن تعطيل الناس في سياراتهم حتى ينتظروك حرام.

وإن كنت تعتقد أن في احترام الناس لك ومعاملتهم الأخلاقية أجراً، فإن في سلامك ورعايتك للمسلمين والعمال أجراً كذلك.

وإن كان في إطعام الطعام الطيب، والحلّو المستطاب أجراً، فإن في طيب رائحتك، ونظافة أسنانك، وطهارة ثوبك أجراً.

وإن كنت تريد المسؤول أن يسمع منك، فاسمح أنت لأولادك أن يتكلموا معك.

وإن كنت تطالب بحقوقك، فاسمح للناس أن يطالبوا بحقوقهم.

وإن كنت تغضب، فلا تنزعج من الناس إن غضبوا عليك.

هكذا... الدين المعاملة، وكما تدين تدان، فالمحترم والإنسان المسلم الذواق الراقى يحترم فيُحترم.

ومن أسس الوعي: الوعي العالمي...

إن الناس أصناف: هناك الكافر المقاتل، وهناك الكافر المسالم، وهناك المعاهد، وهناك، وهناك... أصناف مختلفة. عند الغرب إرهاب، وعند العرب إرهاب...

عند الغرب إرهاب دموي...

في أمريكا التي تمول إسرائيل بالمعونات العسكرية، وآخر ذلك ما فعلته قبل أيام والمسلمون يصلون ويدعون إذ أرسلت معدات عسكرية بقيمة ألفين ومائة وستين مليون دولار، لماذا؟ لسحق الشعب الفلسطيني المسلم... ثم يقولون: (الحرب ضد الإرهاب)!

أمريكا التي سمحت لصدام حسين أن يقتل أحفاد صلاح الدين الأيوبي من أبناء العراق في حلبجة وكركوك والسليمانية وديار بكر بحجة أنها لا تملك القدرة المالية لمساعدة أبناء كردستان! فلما مُنع عنهم المال، أبيدوا على عين أمريكا صاحبة العظمة والرحمة والشفقة. واليوم انقلب السحر على الساحر، فأصبح صدام إرهابياً، والعجيب أنّ أمريكا لم تجعله إرهابياً يوم احتلّ الكويت!

من قال لكم: إنّ أمريكا بلد إرهاب؟!

أبدأ... إن إحصائياتهم تقول: إنّ لديهم ١٥ مليون مشرد أمريكي.

من قال: إن أمريكا بلد إرهاب؟!

إنَّ العاصمة الأمريكية واشنطن وحدها فيها «٥٠٠» حالة جريمة يومياً ما بين قتل وإصابة بليغة.

إنَّ في أمريكا «٢٠٠٠» حالة اغتصاب يومياً.

٧٠ ٪ من فتيات المدارس يتعرضن للضرب والاغتصاب.

و٧٣ ٪ من المدارس أنشأت مستشفيات للتوليد للأبناء غير الشرعيين.

على مستوى الديون، فإن أمريكا عليها أكثر من ثلاثة ترليون دولار من الديون للصندوق الدولي العالمي.

علينا أن نعي حال أعدائنا الداخلي، حتى لا يصيبنا الرعب من قوتهم وجبروتهم كما يحاول البعض أن يغرس في نفوسنا.

كلا، إنهم يتمزقون داخلياً كما لاحظتم الآن وسمعتهم.

إن زوال الغرب والمتحالفين الظالمين قريب، قريب إن شاء الله؛ لأن الله لا يحب المفسدين وهم مفسدون.

وعلىنا أن لا نرتكب ما ارتكبه، وأن لا نقع فيما وقعوا فيه، وتمزقوا وضلوا بسببه، وإلا فما قيمة الوعي إذن؟!

فلنع هذا جيداً، ولنقرأ ولنبصر ما عليه أعداؤنا. ولنعمل وفق سنن الكون التي جعلها الله.

وإذا أردنا لعملنا أن ينجح وأن يوازي المقاييس العصرية والتطور الحضاري؛ فإن هذا يلزمنا بالانتقال من العفوية والارتجال والصيحات والتخطيطات الغامضة والمسارعات العاطفية إلى أداء متقن قياسي، وفق منهج شرعي أصيل، نمكن فيه لأهل التخصص في كل الميادين،

ونسعى للإشادة بهم وبتطويرهم والإعلان عن أعمالهم، حتى يشاع منهج الإسلام وفق وعي صحيح، ففي رجال الإسلام خير وبركة، وفيكم أنتم كذلك إن كان منكم الدعم والتأييد، والدعاء بالتوفيق لكل من أراد أن ينشر فقه الإسلام بوعي صحيح.

نفع الله بجهود الجميع، والله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر والله الحمد.

أيتها الأخوات...

طبتن وطاب ممشاكن، وتبواتن من الجنة منزلاً.

إنني أثق تمام الثقة بأن النساء المسلمات صبرن صبراً جميلاً عظيماً في مثل هذا الزمان على شدائد الأيام، وكدر بعض الأزواج. وإن الواقع ليفرض من سوء الأعمال ما الله به عليم، ولكن صبرهن واحتساب ذلك عند الله يعني رفعتهن في الدنيا والآخرة فليستبشرن، ووالله إن هذا الخلق العالي النبيل، إن هذا الصبر الجميل عاقبته حسنة ومرضية.

شاركن همومكن أخواتكن الصالحات، واسعين بالمعروف، واعلمن أن الله عاقبة الأمور.

وشيء آخر مهم ألا وهو ما يعرض من فتن في طريقكن، في المسارح، وفي الفضائيات، وفي حفلات الزواج، وفي عروض الأزياء...

فتن كثيرة يُخالف فيها منهج الإسلام. عليكن بالنصح والتذكير وترك كل ما يخالف أمر الله ورسوله. أسألوا، استفتوا، فإن هذا الدين عزيز غال. وما تخبُطُ المرأة الغربية مع وصولها إلى أعلى المناصب إلا لتخلفها عن حياتها وحشمتها وعفافها وحجابها الأصيل.

سدد الله أركان، وحفظ عليك دينكن وأبناءكن. واللّٰه اللّٰه في الطاعات والواجبات، والصبر على الأزواج والإحسان إليهم، فإنكن مأجورات، نفع الله بكن، ورفع قدركن، وجعلكن أمهات مباركات حيث كنن وحللتن.

إننا في يوم عيد. والعيد يوم فرح وسرور.

أحيوا السنّة بالفرح، والكلام الطيب، والمعاييدة والمزاورة والتهادي. صلوا الأرحام، وزوروا الجيران، وتمتعوا بالحلال من الطعام والسماع، اعفوا عمن أساء، وافتحوا صفحة بيضاء.

واجعلوا مع كل حلوى تتناولونها في العيد، كلمة حلوة تجميلون بها كلامكم وتسعدون بها إخوانكم.

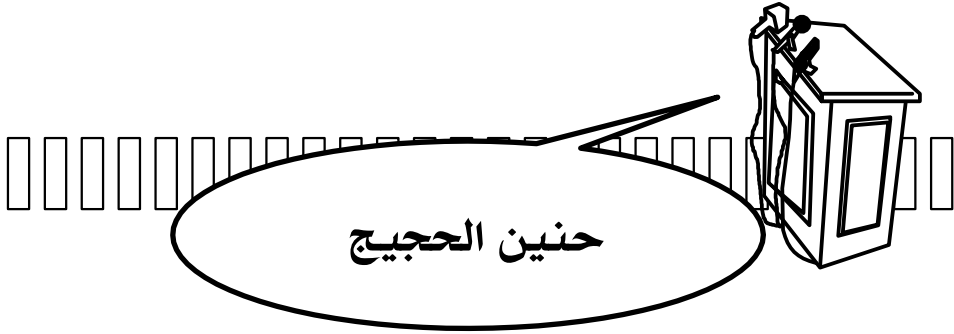
حافظوا على الفرائض، ورتبوا الأوقات في هذه الأيام.

وتذكروا إخوانكم المسلمين، فعيدهم هو اليوم الذي لا يُمطرون فيه بالصواريخ والقنابل والرصاص، ونحن في صحة وعافية. احمدا الله، وادعوا لهم وتصدقوا لهم، وشاركوهم الفرح.

متعكم الله بالصحة والعافية، وتقبل الله طاعاتكم، وكل عام وأنتم بخير، وجعل الله هذا العيد سعيداً لنا ولأمتنا.

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر والله الحمد.





إنها لحظات ويأذن الله تبارك وتعالى ببدء المناسك لهذه الحشود المؤمنة الوافدة من بقاع الأرض التي قطعت المهاد والقفار، وعبرت الأودية والبحار، وتركت الديار والأوطان، والأولاد والجيران، والمال والمتاع، والأهل والضياع، مقبلين إلى مكة... ليكونوا من وفد الله، ومن ضيوف عباد الله.

الحجاج والعمّار وفد الله دعوه فأجابهم، وسألوه فأعطاهم. علموا أن الحج ركنٌ من أركان الإسلام، وفريضةٌ من فرائضه العظام، أحاديث النبي ﷺ التي تدلُّ على فضائل الحج تغلغلت في شغاف قلوبهم، ينتظرون ليلة البدء، ليفوزوا بموعد الله على لسان رسول الله ﷺ. كما روى الترمذي بسند حسن عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الذنوب والفقر، كما ينفي الكيرُ خبث الحديد والذهب والفضة، وليس لحجة مبرورة ثوابٌ إلا الجنة، وما من مؤمن يظلُّ يومه محرماً إلا غابت الشمس بذنوبه»^(١).

(١) أخرجه الترمذي (٨١٠)، والنسائي (١١٥/٥)، وابن ماجه (٢٨٨٧)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، من حديث عبدالله بن مسعود، وفي مسند أحمد (١٦٧) من حديث عمر رضي الله عنه. قال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

إما الإفراد: وهو أن يذهب إلى مكة لأداء الحج فقط.

أو التمتع: وهو أن يأتي بعمره كاملة ثم يتحلل ثم يحرم بالحج يوم الثامن من ذي الحجة.

أو القران: وهو: أن ينوي الحج والعمرة بإحرام واحد فيأتي بعمره كاملة كالتمتع، ولكن يبقى على إحرامه حتى يحج.

وأما عن الأفضل في أنواع الأنساك فهو مختلف فيه، وفي كل خير. فمالك والشافعي، أخذوا برأي الخلفاء الراشدين الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وعائشة أم المؤمنين وجابر بن عبد الله وغيرهم، في أن الأفراد أفضل.

وأما الإمام أبو حنيفة وسفيان الثوري وغيرهم فيرون القرآن أفضل، وأما الإمام أحمد فأرى التمتع أفضل ومثله عدد من التابعين.

ولكل اجتهاده، فمن اختار أحد هذه الأنساك متأولاً السنة، مجتهداً، أو ناقلاً عن مجتهد فله ذلك، دون تثريب على أحد. فإذا ما استعان الحاج بالله واختار نسكه بعد تطهره وتنظفه، لبي الله تعالى رافعاً صوته، لقول النبي ﷺ: «أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإلهال والتلبية»^(١)، رواه الترمذي. ويستمر في التلبية فلا يسمع صوته حَجَر ولا مَدَرٌ إلا شهد له يوم القيامة، شهد له بالصدق، والتوجه لله، شهد له أنه لن يرجو ولن يؤمل ولن يسأل إلا الله، الله وحده لا شريك له.

والتلبية سنة لفعله ﷺ، وأمره بها، ويُسنَّ ابتداء التلبية عَقَبَ إحرامه لقول جابر رضي الله عنه: فأهل رسول الله ﷺ بالتوحيد:

(١) أخرجه الترمذي (١٨٢٩) عن خلاد بن السائب عن أبيه، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

«لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك، لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك»^(١).

ويُسَنُّ الإكثارُ منها ورفعُ الصوت بها للرجال دون النساء لقوله ﷺ: «أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإلهال والتلبية». رواه الترمذي.

ويستحب الإكثار من التلبية إذا صعد نشراً، أو هبط وادياً، أو أقبل الليل أو النهار، أو التقت الرفاق. وإن زاد المسلم على هذه التلبية ما جاء في الأثر: «لبيك ذا المعارج، لبيك وسعديك، والخيرُ بيدك، والرغباءُ إليك والعمل»^(٢)، أو كما قال عمر رضي الله عنه: (لبيك ذا النعماء والفضل، لبيك لبيك مرهوباً ومرغوباً إليك لبيك)، فلا حرج.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (والأفضل أن يلبي تلبية رسول الله ﷺ، وما نُقل عن الصحابة من زيادة في التلبية فهو جائز غير مكروه، ولا مستحب عند أصحابنا).

إلهنا ما عدلك	مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك	لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك	ما خاب عبد سألَكَ
أنت له حيث سلك	لولاك يا رب هلك
لبيك إن الحمد لك	والملك لا شريك لك
والليل لما أن حلك	والسباحات في الفلك
وكل من أهل لك	سبح أو لبي فلك

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) عن جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (١٨١٣)، وابن ماجه (٢٩١٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

يا مخطئاً ما أغفلك عجل وبادر أجلك
 اختم بخير عمالك لبيك إن الحمد لك
 والمملك لا شريك لك والحمد والنعمة لك

ويلبي الحاج منذ أن يخرج من البنيان حتى يصل إلى بداية الطواف، فإذا شرع في الطواف قطعها ثم عاد إليها بعد فراغه.

ويسنُّ الدعاء بعد التلبية فيسأل الله الجنة ويستعيدُ به من النار، كما روى ابن خزيمة عن النبي ﷺ، وتُسَنُّ كذلك الصلاة على النبي ﷺ بعد التلبية، ولكن لا يرفع صوته بالدعاء.

والحج لا يخلو من نصب وكد، وإن حج مع أرقى المخيمات، وتناول أحلى الطيبات. وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً...

روى الطبراني بسند رجاله ثقات عن عبادة بن الصامت قال: (صَلَّى بنا رسول الله ﷺ فتخطى إليه رجلاً من الأنصار، ورجل من ثقيف فسبق الأنصاري الثقيفي فقال رسول الله ﷺ للثقيفي: «إِنَّ الْأَنْصَارِيَّ قَدْ سَبَقَكَ بِالسَّأَلَةِ»، فقال الأنصاري: لعله يا رسول الله أن يكون أعجل مني فهو في حلٍّ، قال: فسأل الثقيفي عن الصلاة فأخبره، ثم قال رسول الله ﷺ للأنصاري: «إِنْ شِئْتَ خَبَرْتُكَ بِمَا جِئْتَ تَسْأَلُ عَنْهُ، وَإِنْ شِئْتَ تَسْأَلُنِي فَأُخْبِرُكَ؟»، فقال: يا رسول الله، تُخبرني. قال: «جِئْتَ تَسْأَلُنِي: مَا لَكَ مِنَ الْأَجْرِ إِذَا أَمَمْتَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ، وَمَا لَكَ مِنَ الْأَجْرِ فِي وَقُوفِكَ بِعَرْفَةِ، وَمَا لَكَ مِنَ الْأَجْرِ فِي حَلْقِ رَأْسِكَ، وَمَا لَكَ مِنَ الْأَجْرِ إِذَا وَدَّعْتَ الْبَيْتَ»، فقال الأنصاري: والذي بعثك بالحق، ما جئتُ أسألك عن غيره.

قال ﷺ: «فَإِنَّ لَكَ مِنَ الْأَجْرِ إِذَا أَمَمْتَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ أَنْ لَا تَرْفَعَ قَدَمًا أَوْ تَضَعَهَا أَنْتَ وَدَابَّتْ لَكَ كُتُبُكَ إِلَّا كُتِبَتْ لَكَ حَسَنَةٌ وَرَفَعَتْ لَكَ دَرَجَةٌ، وَأَمَّا وَقُوفُكَ بِعَرَفَةَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِمَلَائِكَتِهِ: يَا مَلَائِكَتِي مَا جَاءَ بَعْبَادِي؟ قَالُوا: جَاءُوا يَلْتَمِسُونَ رِضْوَانَكَ وَالْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَإِنِّي أَشْهَدُ نَفْسِي وَخَلْقِي أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ عِدَّةَ أَيَّامٍ الدَّهْرِ وَعِدَّةَ رَمَالٍ عَالِجٍ - وَهُوَ رَمَلٌ كَثِيرٌ مُتْرَاكِمٌ - وَأَمَّا رَمِيكَ الْجِمَارِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١)، وَأَمَّا حَلَقُ رَأْسِكَ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَعْرِكَ مِنْ شَعْرَةٍ تَقَعُ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا كَانَتْ لَكَ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَمَّا الْبَيْتُ إِذَا وَدَعْتَ فَإِنَّكَ تَخْرُجُ مِنْ ذُنُوبِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ» (٢).

ناس جاؤوا من حول البحر الأبيض والأسود والأحمر، ومن شطآن المحيط الأطلسي والهندي والهادي، ومن أعماق القارات الخمس، من كل شبر يطلع عليه نور الشمس، أو تحلُّ فيه هدأة الليل، علموا أن الحج ركن من أركان الإسلام، وفريضة من فرائضه العظام فهان عليهم كل أمر، ليستجيبوا لأمر الله، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (٣).

جهزوا أنفسهم، وحزموا أمتعتهم؛ إذ علموا أن الدنيا غير مأمونة، وأن الأجل قد يدنو فسارعوا قبل الرحيل، يحدوهم قول النبي ﷺ كما في «صحيح الجامع»: «عَجِّلُوا الْخُرُوجَ إِلَى مَكَّةَ؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي

(١) السجدة، الآية (١٧).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٦/٣) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣٥٤/٣) وقال: رجاله ثقات.

(٣) آل عمران، الآية (٩٧).

ما يعرضُ له من مرضٍ أو حاجة»^(١).

والنبي ﷺ يذكر الناس ويحثهم على المسارعة والتعجيل، ويلقي باللائمة على من تقاعس وتكاسل، كما ثبت في الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يقول: إن عبداً أصححتُ له جسمه ووسعتُ عليه معيشته تمضي عليه خمسة أعوامٍ لا يَفِدُ لي لمحروم»^(٢).

وما جاء هذا التأنيب الكريم إلا لأنهم سيكرمون ويُجلُّون ويَنالون أنس الحياة في الدنيا والآخرة.

فَهَانَ على أولئك الحجاج كلُّ أمر، فاستخاروا الله، وتزودوا بالتقوى، وساروا مع الرفقة المذكورة وقتَ الفترة، الناصحة وقتَ الغفلة، تركوا أوطانهم وأولادهم. فيا ترى إلى أين؟ إلى أين أيها الحجاج؟

سرنا نشقُّ البَيْدَ للبلدِ الذي	بِجُهِدٍ وَشِقِّ لِلنَّفُوسِ بِلِغْنَاهُ
رجالاً وركبانا على كلِّ ضامرٍ	ومن كلِّ ذي فج عميقٍ أتيناهُ
نخوضُ إليه البرَ والبحرَ والدُّجى	ولا قاطعٍ إلا وإنَّا قَطَعْنَاهُ
ولا صدنا عن قصدنا فَقَدْ أَهْلَنَا	ولا هجرَ جارٍ أو حبيبٍ أَلْفَنَاهُ
عرفنا الذي نبغي ونطلبُ فَضْلَهُ	فهان علينا كلُّ شيءٍ بَذَلْنَاهُ
فَمَنْ عَرَفَ الْمَطْلُوبَ هَانَتْ شِدَائِدُ	عليه ويهوى كلُّ ما فيه يلقاهُ

يسير هؤلاء الحجاج بهتاف واحد، ولباس واحد، ودعاء واحد، ومقصد واحد. يا ترى ما هو جزاؤهم بعد هذا المسير المتعب، وهذا السفر الشاق، وهذه الرحلة المضنية؟

(١) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٢٤٠/٤) وأبو نعيم في «الحلية» (١١٤/٧) عن ابن عباس رضي الله عنه. وهو في صحيح الجامع: ٣٩٩.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١٩٩٢.

إن جزاءهم أنهم ما ساروا مسيراً، ولا رفعوا قدماً ولا وضعوا أخرى إلا حُطَّت عنهم خطاياهم، كما ثبت عن نبينا ﷺ: «ما ترفعُ إبل الحاج رجلاً ولا تضعُ يداً إلا كتبَ الله تعالى له بها حسنةٌ أو محاةٌ عنه سيئةٌ أو رفعه بها درجة»^(١).

والبعض يفكرون في نفقة الحج، ومدى ما يخسرون! لا يا أخي الحاج بل استبشر بما أخبرك به نبيك المصطفى ﷺ: «النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله ويضاعفها الله إلى سبعمائة ضعف»^(٢).

فإذا ما جاءت لحظة الانطلاقة في اليوم الثامن من أيام الحج اجتمعوا في ملتقاهم التحضيري الرائع لاستقبال يوم عرفة، اليوم الثامن هو يوم التجمع والاستعداد، والرجاء والتعرض لرحمة الله.

وها هو ذا الشاعر العربي المسلم، يرى أفواج الحجيج في منى، ولم يستطع اللحاق بهذا الفوج المبارك، وهذا الوفد العزيز فينادي في أهل منى:

انقطعنا ووصلتم فاعملوا واشكروا المُنعمَ يا أهلَ منى
قد خسرنا وربحتُم فَصِلُوا بِفُضُولِ الرِّيحِ من قد غُبِنَا
وقال آخر:

يا سائرِينَ إلى البيتِ العتيق لقدُ سرتُم جُسوماً وسرنا نحنُ أرواحا

(١) صحيح الجامع: ٥٥٩٦.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٥٦٦) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه. وله شواهد ذكرها الألباني في «الصحيحة» (١٦٢٥).

إنا أقمنا على عذر وقد رحلوا ومن أقام على عذر كمن راحا
 فإذا ما أصبح الحاج في اليوم التاسع ازداد القلب هيجاناً،
 والنفس تعلّقاً بموعد أرحم الراحمين.

يا الله... ما هي إلا لحظات ويحشر مع الملايين في بقعة
 واحدة، ملايين البشر يدعون في مكان محدد، فيسمعُ الله أصواتهم
 جميعاً. الله أكبر، كم في هذا اليوم من ذنوبٍ غفرت، وكم من عيوبٍ
 سُترت، وكم من أمراض شفيت، وكم من أرزاق بسطت، وكم من
 قلوب صلّحت، وكم من سرائر نُفّيت، وكم من أعين دُمعت، وكم من
 دعوة رُفعت، وكم من نفوس قُبِلت، ووالله، ما كان لها إلا هذا
 المكان!

يوم عرفة، يوم مغفرة الذنوب، والتجاوز عنها، والعتيق من النار،
 والمباهاة بأهل الموقف. كما جاء في صحيح مسلم عنه عليه الصلاة
 والسلام أنه قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار
 من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ماذا أراد
 هؤلاء؟»^(١).

يا الله... ربنا يسأل ملائكته، ماذا أراد هؤلاء، ماذا أراد
 هؤلاء...:

ووجهك نبغي أنت للقلب قبله إذا ما حجبنا أنت للحج رُمناء
 فما البيت ما الأركان ما الحجر النقي ولا زمزم أنت الذي قد قُصدناه
 وأنت مُنانا أنت غاية سُؤلنا وأنت الذي دنيا وأخرى أردناه

(١) أخرجه مسلم (١٣٤٨) عن عائشة رضي الله عنها.

وخرَّج ابن حبان في «صحيحه» عن جابر رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء فيباهي بأهل الأرض أهل السماء، فيقول: انظروا إلى عبادي شُعثاً غُبْراً ضاحين جاؤوا من كل فج عميق يرجون رحمتي ولم يروا عذابي، فلم يُر أكثر عتيقاً من النار من يوم عرفة»^(١).

وخرَّج الطبراني وغيره من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «إن الله عزَّ وجلَّ يدنو إلى السماء الدنيا عشية عرفة، فيقبلُ على ملائكته فيقول: أَلَا إِنَّ لِكُلِّ وَفِدٍ جَائِزَةً، وهؤلاء وفدي شُعثاً غُبْراً، أعطوهم ما سألوا، وأخلفوا لهم ما أنفقوا، حتى إذا كان عند غروب الشمس أقبل عليهم فقال: أَلَا إِنِّي قَدْ وَهَبْتُ مَسِيَّتَكُمْ لِمَحْسِنِكُمْ، وَأَعْطَيْتُ مُحْسِنَكُمْ مَا سَأَلَ، أَفِيضُوا بِاسْمِ اللَّهِ»^(٢).

فيخرجون من يوم عرفة وذنوبهم مغفورة، وعيوبهم مستورة، رجعوا من ذنوبهم كيوم ولدتهم أمهاتهم. أكرمهم الله أحسن إكرام، وأنعم عليهم أفضل إنعام، فهم ضيوف الرحيم الرحمن، وأنعم بضيف الله في وفادة الله!

يخرجون من عرفات وقلوبهم طاهرة، ونفوسهم صافية، يودعون هذا المكان، ويحيون هذا الجبل الذي حطمه الناس، جاؤوا بذنوب تهتُّ الجبال والجبلُ يتحملهم، ويحضنهم، وهو يسمع نشيجهم وحزنهم.

(١) أخرجه ابن حبان (٣٨٥٣) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال الأرنؤوط: حديث صحيح إسناده قوي.

(٢) انظر روايات الحديث المختلفة في صحيح الجامع (١٨٦٣ - ١٨٦٤).

ثم بعد ذلك إلى أين... إلى المشعر الحرام... إلى مزدلفة... ﴿فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ (١٩٨) ﴿١﴾. فيصلون المغرب والعشاء جمع تأخير ثم يبقون إلى الفجر، ويرخص للنساء والضعفة ومن في حكمهم في الانصراف إلى منى بعد منتصف الليل.

ويأتي صباح اليوم العاشر يوم الحج الأكبر، أعظم الأيام عند الله، كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَعْظَمَ الْأَيَّامِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ النُّحْرِ ثُمَّ يَوْمَ الْقَرِّ»، رواه أبو داود (٢).

إنها أيام منى... «أَيَّامُ أَكَلٍ وَشَرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (٣).

الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً. في هذه الأيام يعيش الحجاج أجمل لحظات العمر، وأمتع وأسعد أوقات الحياة. يعيشون مع ضيوف الله، مع وفد الله جلَّ جلاله. الله أكبر.

كم من أرواح تعانقت، وكم من قلوب تألفت، وكم من مجالس إيمانية أقيمت، يلتقي الحاج بإخوانه في الله، بالعلماء، بالصالحين، بالمحبين الذين جمعهم الله في هذا الموسم، ووالله، لو نادى من نادى لما جُمعوا.

(١) البقرة، الآية (١٩٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٢٥/٢)، وهو في صحيح الجامع (٨٠٤٤).

(٣) رواه أحمد (٣٢٢/٣٤) بسند صحيح، وهو في صحيح الجامع (٢٦٨٧).

لا تصدقوا أنَّ الحَجَّ مغفرة للذنوبِ فحسب. لأن المغفرة موجودةٌ في الحج وفي غيره.

إنما الحج وصفه الله بثلاث كلمات، لو علم بها أهل الأرض لما تخلَّفوا عن الحج، يقول الله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفْعَ لَهُمْ﴾^(١)، هذه الكلمات الثلاثة، هي هدية الله الخاصة للحجاج، ولا توجد والله إلا في هذا الموسم، إنها منافع الراحة والأمن والمغفرة ولقيا الصالحين، والأنس بالله، وتعمق مشاعر الحب للإسلام، ورؤية المسلمين من كل أرض، والتفكير في قضايا الأمة، وتذكر المصير.

ثم بعدئذٍ تأتي اللحظات التي لا بدَّ منها، لحظات الوداع، لحظات الختام، ليودع الحاج بيت الله الحرام. فقد بدأ به مسيرة الحج، وهو يختم به المسيرة لتكون رحلة المؤمن في حياته دوماً وأبداً مع الله.

وفي الشوط السابع من طواف الوداع يقف الحاج مع نفسه، ينظر إلى البيت العتيق، وعينه تدمع، وقلبه يَألم، بدأ بالبيت يطوف قدوماً، وها هو يطوفه وداعاً، وبينهما صلاة وسجود، وتهليل وتلبية، وتكبير ونحر، ومشى على الأقدام، وذكر على الدوام، يبدأ الطواف بطلب المغفرة، وينتهي بطلب المغفرة، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «من طاف بهذا البيت أسبوعاً (أي سبعا) فأحصاه، كان كعتق رقبة، ولا يضع قدماً ولا يرفع أخرى إلا حط الله عنه بها خطيئة وكتب له بها حسنة»^(٢). ثم يدعو الله وهو في الشوط الأخير: (اللهم هذا بيتك وأنا عبدك وابن عبدك، حملتني على ما سخرت من خلقك، وسيرتني في

(١) الحج، الآية (٢٨).

(٢) صحيح الجامع: ٦٧٨٠.

بلادك حتى بلغتني بيتك، وأعنتني على أداء نسكي، فإن كنت رضيت عني فزدني رضا، وإلا أرجوك فمن الآن قبل أن تنأى عن بيتك داري، فهذا أوان انصرافي إن أذنت لي غير مستبدل بك ولا بيتك، ولا راغباً عنك، ولا عن بيتك، اللهم فأصحبني العافية في بدني، والصحة في جسمي، والعصمة في ديني، وأحسن من قلبي، وارزقني طاعتك ما أبقيتني، واجمع لي بين خيري الدنيا والآخرة، إنك على كل شيء قدير).

هنا تنتهي هذه الرحلة المباركة، فقد كان ضعيفاً من ضيوف الله، ومنعماً بتوفيق الله، ومعرضاً لمغفرة الله ورحمته، وأنساً بحب الله، هنا يقف ويقول: يا ربّ قد سرت لرضاك، حفظت لسانني، وسعيت بأركانني، هطلت عيني دمعاً، وتحرك قلبي خوفاً، اتبعت سنة نبيك ﷺ ما استطعت، راجياً ثوابك، مؤملاً في فضلك.

يعاهده على استمرار الطاعة، فيودع البيت، وكلّه أمل بالله كبير أن يرجع طاهراً نقياً، بقلبٍ أزكى، ونفسٍ أصفى، ولسانٍ أحلى، يحمل شريطاً رائعاً لن ينساه في عمره.

وهكذا أيها الإخوة الحجاج... إن رجعتم إلى بيوتكم فكونوا شاكرين لآلائه، مثنين على نعمه.

أحجاج بيت الله ألف تحية	بأوجهكم نور من الله يسطع
نزلتم ضيوفاً في رحاب كريمة	إليها يحن القلب دوماً ويخشع
ضيوفاً على المولى الكريم ببيته	وأنتم سجدوا في حماه وركع
ولما سعيتم بين مروّة والصفاء	صفا قلبكم مما يرين ويطلع
وقد شكر الباري لكم سعيكم بها	فطوبى بهذا الأجر طوبى تمتعوا

ولمّا وقفتُم للنداء جَمِيعُكُمْ علمتم بأنّ الأمرَ لله يَرجعُ
هنيئاً لكم قد نِلتم العفوَ والرضا وذِكرُكم يومَ القيامة يُرفعُ
وأما من لم يكتب له الحج، فإن رحمة الله تعمه بإذن الله إن كان
ذاكراً طائعاً.

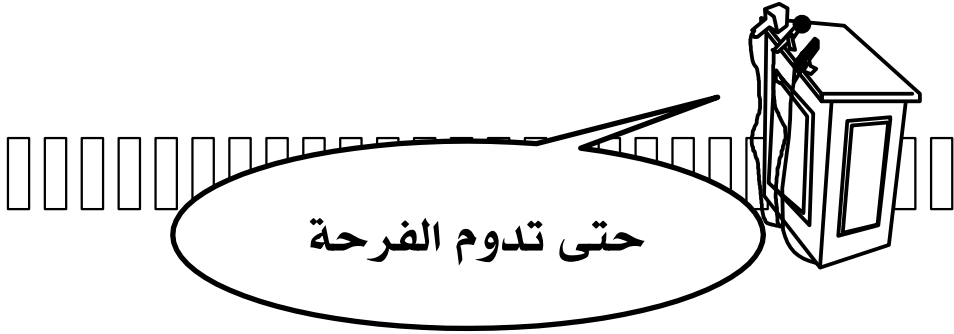
فمن فاته في هذا العام القيام بعرفة فليقم لله بحقه الذي عرفه.
ومن عجز عن المبيت بمزدلفة فليبيت عزمه على طاعة الله وقد قرّبه
وأزلفه. ومن لم يُمكنه القيام بأرجاء الخيف فليقم لله بحق الرجاء
والخوف. ومن لم يقدر على نحر هديه بمنى، فليذبح هواه هنا، وقد
بلغ المُنى. ومن لم يصل إلى البيت لأنه منه بعيد فليقصد رب البيت
فإنه أقرب إلى من دعاه ورجاه من حبل الوريد.

نُفِحت في هذه الأيام نفحةٌ من نفحات الأنس من رياض القدس
على كلّ قلبٍ أجاب إلى ما دعي. يا همم العارفين بغير الله لا تقنعي،
يا عزائم الناسكين لجميع أنساك السالكين اجمعي، ولحبّ مولاك
أفردني، وبين خوفه ورجائه اقربي، وبذكره تمتعي. يا أسرار المحبين
بكعبة الحبّ طوفي واركعي، وبين صفاء الصفا ومروّة المروى اسعي
وأسرعي. وفي عرفات العُرفات قفي وتضرّعي، ثم إلى مزدلفة الزلفى
فادفعي، ثم إلى منى نيل المُنى فارجعي، فإذا قرّب القرايين فقربي
الأرواح ولا تمنعي. لقد وُضح الطريق ولكن قلّ السالك على التحقيق
وكثر المدعي.

لئن لم أحجّ البيت أو شطّ ربّعه حججتُ إلى من لا يغيبُ عن الذكرِ
فأحرمتُ من وقتي بخلع نقائصي أطوفُ وأسعى في اللطائف والبرِّ
صفائي صفائي عن صفاتي ومروتي مروءة قلبي عن سوى حُبّه فقري

وفي عرفاتِ الأُنس بالله موقفي ومُزدلفي الزُلْفى لديه إلى الحشرِ
 وَبَتُّ المُنَى مِنِّي مَبِيتِي في مَنْى ورمي جماري جمر شوقي في صدري
 وإشعارُ هديي ذبح نفسي بقهره وخَلعي بمحو الكائنات عن السرِّ
 ومن رامَ نَفراً بعدَ نُسكِ فإنني مقيم على نُسْكي حياتي بلا نَفْرِ





حتى تدوم الفرحة

أوقات الفرح لحظات جميلة تتسلل إلى حياتنا، فتملؤها بالورود وتغمرها بألوان الطيف، وتملأ الأرجاء بالعطر، لنعيش لحظات نختلسها اختلاساً من عمر الإنسان المخلوق في كَبَدٍ، إنها لحظات الفرح والكلمات الحلوة الجميلة. وهي إضاءات نجد من واجب الإخوة الإسلامية أن نشارك فيها الفرحة، بالحقوق بيننا وبين المحبين، آمليين أن يبارك الله في أفراح المسلمين.

وندعو لكل محبين بالبركة والفرحة (بارك الله لكما وبارك عليكما وجمع بينكما في خير)^(١).

لقد دعا الإسلام الحنيف إلى النكاح ورغب فيه، وأوصى بالتحري والاختيار، لتطيب الصلة، وتحسن العلاقة، وتكمل الحياة، وتسمو الأرواح، في ظل المحبة والألفة والأنس، كما ثبت في «سنن أبي داود» عن النبي ﷺ أنه قال: «تزوجوا الولود الودود؛ فإنني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»^(٢).

(١) أخرجه أبو داود (٢١٣٠)، وابن ماجه (١٩٠٥)، وأحمد (٨٩٤٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال محقق المسند: إسناده قوي رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه النسائي (٣٢٢٧)، والطبراني في «الكبير» (٥٠٨)، والبيهقي في «الكبرى» (١٣٢٥٣)، عن معقل بن يسار رضي الله عنه، وصححه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/٩).

وفي «معجم الطبراني الكبير» عنه عليه السلام قال: «تزوجوا الأبنكار؛ فإنهن أعذب أفواهاً، وأنتق أرحاماً، وأرضى باليسير»^(١).

والإسلام الحنيف أيها الإخوة يدعو إلى إقامة هذه الرابطة القوية على أسس الشرع وأحكام الدين، وأمر الإسلام المسلمين بإجابة الدعوة إلى عقد النكاح وفرح الزواج وشهوده، فإن شهوده من السنّة الكريمة وحضوره دليل على أصالة المسلمين في مشاركة أفراح إخوانهم. بل أوجب بعض العلماء حضور وليمة العرس إن لم يكن ثمة عذر أو منكر.

كما روى ابن عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أجيبوا هذه الدعوة إذا دُعيتُم لها». وكان ابن عمر رضي الله عنه يأتي الدعوة في العرس وفي غير العرس، ويأتيها وهو صائم^(٢). متفق عليه.

وثبت في «صحيح مسلم» من رواية أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ومن لم يجب الدعوة فقد عصا الله ورسوله»^(٣).

فالمسلم إن دعاه أخوه لحضور حفل النكاح فعليه بالإجابة، ومشاركة الفرحة، وله في هذا عظيم الأجر، وجزيل الثواب، ما لم يكن له عذر أو عِلْم منكرٌ سيكون فيه، فطاعة الله أوجب وألزم.

ولقد جعل دين الإسلام الحنيف هذا الزواج من العبادات والقربات التي يتقرب بها العبد إلى ربه، وجعل ما يحصل بين الزوجين

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٢٤٤) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وأورده الهيثمي في المجمع (٤٧٥/٤) وقال: رواه الطبراني وفيه أبو بلال الأشعري، ضعفه الدارقطني.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٠/٩ - ٢١٤)، ومسلم (١٤٢٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٢٩).

من الاجتماع قربةً وصدقةً، كما سأل أحد الصحابة رسول الله ﷺ: «أأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر، قال ﷺ: «أرأيت لو وضعها في حرام كان عليه وزر؟»، قال الرجل: نعم، قال ﷺ: «كذلك لو وضعها في حلال كان له بها أجر»^(١).

فالإنسان يأخذ الأجر على إتيان أهله في الحلال. وثبت عن ابن الجوزي قوله: (رُبَّ نكاح خير من عبادة ألف سنة).

إنَّ في حفل القران أو النكاح آداباً ينبغي التزامها والدعوة إليها، وفيه محظورات يجب تجنبها والدعوة لنبذها وتركها. فمن آداب النكاح:

أولاً: إجابة الدعوة، ومشاركة الفرح، ومساعدة أهل النكاح. وقد بينا الآثار والأحاديث الواردة في ذلك.

ثانياً: إعلان النكاح، وإشهاره، واستحبَّ بعض الفقهاء إنشاء عقد النكاح في المسجد، لما روى الترمذي وابن ماجه من قول النبي ﷺ: «أعلنوا هذا النكاح، واجعلوه في المساجد، واضربوا عليه بالدفوف»^(٢).

فمما دعا إليه النبي ﷺ في هذا الحديث إعلان النكاح وإشهاره، وإعلام الناس به، وإشاعة خبره ليعرف الناس وليهنئوا. وليكون تفرقة بين القران الحلال والحرام، كما ثبت في مسند الإمام أحمد، قول

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٦) عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (١٠٨٩)، وابن ماجه (١٨٩٥) عن عائشة رضي الله عنها. قال الحافظ في «الفتح» (١٣٣/٩) «إسناده ضعيف». اهـ. لكن يشهد له حديث محمد بن حاطب رضي الله عنه الذي بعده وهو حسن.

النبي ﷺ: «فصل بين الحلال والحرام الصوت والدف في النكاح»^(١).

قال العلماء: المراد بالصوت: إعلان النكاح والذكر في الناس، ويكون عند النساء بأمور منها اضطراب الأصوات كالزغردة، ويكون عند الرجال بصور متعددة منها ترديد الأهازيج والأشعار الطيبة.

ومما يؤخذ من قول النبي ﷺ: «واضربوا عليه بالدفوف».

إباحة أن يغني النساء بينهن الغناء المباح، وينشدن مع الضرب بالدف لا غيره.

قال العلماء: (وأن تكون الأشعار والكلمات حسنة، مما لا تغزل فيه بالحب الممنوع، والخدود والقُدود والفجور، فيقلن قولاً نظيفاً لطيفاً فيه إظهار الفرح والسرور بالزواج الميمون).

ولقد دعا سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ زوجته عائشة أم المؤمنين إلى المشاركة في الفرح، كما روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبي الله ﷺ: «يا عائشة، ما معكم من لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو»^(٢).

قال العلماء: المقصود باللهو: الغناء والضرب بالدف، وقد فسره النبي ﷺ في الحديث الذي بيناه سابقاً.

وكما أن النبي ﷺ دعا إلى المشاركة في الفرح والأنس، أسهم عليه الصلاة والسلام في فرح المسلمين وشاركهم بكلمات تقولها

(١) أخرجه الترمذي (١٠٨٨)، والنسائي (١٢٧/٦)، وأحمد (١٥٤٨٩) عن محمد بن حاطب رضي الله عنه، قال محقق المسند: إسناده حسن.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٠/٥) عن عائشة رضي الله عنها.

الجواري ويتعنين بها مع الضرب بالدَفِّ، كما جاء في معجم الطبراني الأوسط عن عائشة رضي الله عنها قالت - وهي تذكر زواج إحدى النساء -: قال لي النبي ﷺ: «هل بعثتم معها جارية تضرب بالدَفِّ وتغني؟»، قلت: - أي: عائشة رضي الله عنها -: تقول ماذا؟ قال: «تقول»:

أَتِينَاكُمْ أَتِينَاكُمْ فحَيَّانَا وَحَيَّاكُمْ
ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم
ولولا الحنطة السمراء ما سمنت عذارىكم^(١)

هذا ما دعا إليه حبيبنا محمد ﷺ. فاللهم صلّ وسلم وبارك على صاحب الخلق الأعظم، والنبّي الأكرم.

والم تأمل في الأحاديث السابقة يجد أن الذي دعا إليه النبي ﷺ في الفرح هو الغناء اللطيف النظيف، المصحوب بالدَفِّ، الممتع للنفس، المطرب للأذن، ليزداد الأنس وتكمل الفرحة.

ثالثاً: ومن آداب النكاح أيها الأحبة: أخذ الزينة المشروعة لهذا اللقاء الطيب الكريم، فقد كان الصحابة إذا تزاوروا تجملوا، ومن التجميل وضع الرائحة الطيبة، فكل هذا أدعى إلى الإبهاج وأقرب إلى النفوس.

رابعاً: ومن آداب النكاح: الدعاء والتهنئة للزوجين بالبركة، وهو من الأمور المستحبة، والدعاء لهما بأفضل دعاء دعا به النبي محمد ﷺ: «بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير».

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٢٦٥) عن عائشة رضي الله عنها، وحسنه الألباني في «آداب الزفاف» (١٠٩/١).

ولقد أغنانا الله أيها الإخوة بدعاء نبينا ﷺ، فأحرى بالمهنيين أن ينشروا سنة حبيبهم محمد ﷺ، فما أجمل أن يدعى لهذه الأسرة منذ نشأتها بالبركة والتوفيق والسعادة. ثم من أراد أن يدعو بعد ذلك (أي: بعد تهنئة النبي ﷺ) بما شاء من دعوات جميلة مقبولة فله ذلك.

فعلى المسلم أن ينشر السنة وأن يدعو لها، وأن لا يجد الحرج في هذه التهنئة، والبركة كل البركة في الحرص على السنة والدعوة إليها.

خامساً: ومن آداب النكاح: الالتزام بآداب المجالسة والمحاورة، وآداب طعام الوليمة.

ويحرص المسلم في هذه الأفراح على إعطاء الهدية، واستحب ذلك بعض الفقهاء، لقول النبي ﷺ في الحديث الحسن: «تهادوا تحابوا»^(١). والهدية إما بطيب جميل، أو شيء مما يلبس، أو كتاب لطيف ممتع، أو بطاقة بها أبيات روائع يترنم بها الزوج لزوجته، والزوجة لزوجها، أو رسالة مودة ودعاء، وغير ذلك مما يمتع به المسلم أخاه، والمسلمة أختها.

ومما يحرص عليه المسلم في هذا الحفل كثرة السلام على الناس، والجلوس مع أكبر قدر من الأرحام والأقرباء. فهي فرصة ليجتمع بهم، فليحرص على السلام عليهم وأخذ أخبارهم.

ومما يحرص عليه المسلم اصطحاب أولاده معه، ليعرفهم على بعض أقربائهم الذين نأت بهم الديار، وبعدت عنهم الأسفار بسبب

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال الألباني في تحقيقه له: حسن.

الأعمال والأشغال. فمن الأولاد من لا يعرف أقرب الأقربين إليه، بسبب البعد والشقة، فإذا ما كانت هذه المناسبة، حسنت الصلة، ووجب السلام والمشاركة. فليحرص الآباء على ذلك، حتى ينشئوا هذه الصلة المهمة بين الأهل والأرحام.

وكما دعا الإسلام إلى آداب تنبغي مراعاتها، نهى عن محظوراتٍ ينبغي اجتنابها ونبذها.

إنه نتيجة لفشو مظاهر الرذيلة عبر وسائل الإعلام، ونتيجة للقصور الشرعي عند جملة من الناس، ونتيجة لضعف الإيمان في النفوس، ولترك الواجبات المتحتمة على الرجال الذين بيدهم دفة العمل والأمر والنهي، سادت جملة من المظاهر التي يجب على أهل العلم وعقلاء الرجال أن ينكروها، وأن يوجهوا وينصحوا الناس بشأنها. ومن ضمن هذه المظاهر:

أولاً: الإسراف في هذه اللوائم:

ما من شك أيها الإخوة أن الكرم وحسن الضيافة من أخلاق الإسلام العالية التي تدل على احترام الضيف وتقديره، وينتج عنها ترابط وتماسك بين أفراد المجتمع، ولكن أن يتعدى هذا الكرم إلى إنفاق المال على أشكالٍ من الطعام يغني بعضها عن بعض بإسراف. فهذا يعدّه العلماء من الكرم الجاهلي. فكما أن الإنسان مأمور بالإنفاق والبذل، فهو مأمورٌ كذلك بعدم البسط في البذل المرهق، والمطلوب التأدب بآداب القرآن، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٢٩) (١). وبعض الأشكال والأغلفة التي تقدم

(١) الإسراء، الآية (٢٩).

أثناء الطعام لو جعلت على طبق النظافة والبساطة، لما تكلف الزوج من الدين ما تكلف.

ومما يلاحظ كذلك: أن البعض لا يهتم ببقايا الطعام بعد الحفل. فإذا ما أكل الناس وشربوا وسهروا، بدأوا يفكرون أين نضع هذا الطعام؟ وهل هناك من الفقراء من يأكله؟ وهذا في الساعة الثانية أو الثالثة ليلاً!

إنَّ الواجب أن يقدر الإنسان هذه النعمة ويجلِّها، فكم من الناس من لا يجد طعاماً يجتمع عليه وأهله؟ فالواجب أن يجعل هذا الأمر من أولويات الترتيب في حفل النكاح، ويتفق مع قوم يأتي لهم بهذا الطعام ليأكلوه: «وفي كل كبد رطبة أجر»^(١).

ثانياً: ومن الملاحظات غير المقبولة في حفل النكاح (إهمال الأولاد):

إن تعويد الأولاد على المشاركة في مثل هذه الحفلات، وتعريفهم بأقربائهم وأهليهم أمر محمود وعمل مشكور. ولكن:

أن يترك الأولاد في مثل هذه الحفلات يسرحون ويمرحون في مجموعاتٍ صاحبة فذلك شيء غير حميد، فقد يتعلم الولد ألواناً من العبث والتردي الأخلاقي. وكم رأينا أولاداً قلبوا العرس مائماً بكثرة الصياح واللعب بالألعاب النارية التي قد تسبب أمراضاً لا تحمد عقباها؛ لأن بعض الأولاد جهلة، وقد يكون فيهم الحقود والغضوب، فيقرَّب مثل هذه الألعاب النارية إلى وجه صاحبه وأخيه، فيفزعه فزعة تسبب له عقدة نفسية لا تنتهي!

(١) أخرجه البخاري (٣١/٥)، ومسلم (٢٢٤٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إننا ندعو إلى الفرحه والأنس، ولكن ندعو كذلك إلى الاهتمام، ومراقبة الأولاد. فلا يفرح الأب مع الأصدقاء والأقرباء، ويكتفي بنظرات خاطفة كل ساعة على ولده إن هو مرَّ عليه لطلب مالٍ!!

وعلى الأب كذلك أن يجعل ولده أثناء تناول الطعام بجانبه، إذ علينا أن ننتبه أن الآداب الإسلامية لا يُغفل عنها على حساب اللعب والضحك. لا يا إخوتي الكرام، فالمواقف التي تراعى فيها الآداب هذا وقتها ويجب المحافظة عليها.

ثالثاً: ومن الملاحظات غير المقبولة في حفل النكاح:

شغل المجالس بالكلمات الجارحة للناس، والخوض في قضايا الناس الخاصة، وملء تلك المجالس باللهو والطرب المذموم، فهذا يوم فرح وسرور، وليس يوم انتقام وخصام وتشفٍّ من خلق الله وعباده.

ويجمل بأهل العرس إن استطاعوا أن يشغلوا أوقات الناس التي قد تطول قليلاً بفوائد خفيفة، وأناشيد ممتعة، في مواضيع جميلة قريبة من معنى الفرح والجمال ودعوة الإسلام للزواج. علَّها تحرك شاباً عزباً، وتصون زوجاً وأباً، فيَقَرَّ بأم عياله، ويبدأ شهر عسل جديد ولو كان ابن الخمسين!

ومما ينبه له، أن يكون هذا البرنامج خفيفاً ظريفاً سريعاً، لأن كثيراً من الناس لم ير بعضهم بعضاً منذ فترة، فلتتلون البرامج الظريفة، ويعطى العرس متعته، ويسمح للناس بالسلام والكلام والتحايا.

رابعاً: ومن هذه الملاحظات: التساهل في شأن ملابس النساء وقاعات صف الشعر:

إننا نحث على النظافة والجمال، والتزين بالمباح. والمرأة تحب

أن تطلع على أخواتها بحلة طيبة، وشكل جميل. وما في ذلك حرج، بل الجمال حسن، والزينة مطلوبة. وفي الحديث الصحيح: «إن الله جميل يحب الجمال».

وأعان الله الأب على الذهاب مع أهله إلى السوق لشراء حاجات أهله، أو إلى محلات التجميل للرغبة في تصفيف الشعر وتجميله. ولكن! أصبح القدر يفور، والطعام يحترق!

فكم من أموال تهدر في هذه الصوالين تكدر حياة الزوج وتفسد عليه تدبير معيشته؟

وكم في بعض هذه الأماكن من موبقات! ففي بعضها أماكن للإنترنت تفتح على كل رذيلة، وفي بعضها مجلات مليئة بالصور الخليعة الفاجرة! ولا رقيب إلا الله.

فالمطلوب التذكير والتوجيه، ومتابعة الزوج والسؤال عن هذه الأماكن، وعدم السماح بهذه الساعات الطوال في مثل هذه الأماكن إلا بعد التحري والأمانة.

ابحثوا أولاً عن الحشمة والحياء، ثم جملوا الشعور بعد ذلك.

خامساً: ومن هذه الملاحظات: ضغط بعض أفراد العائلة بالتصوير أو إحضار الفرق الموسيقية:

كلنا أيها الإخوة يحب الفرح والأنس، لأن هذا طبيعة فينا بل هو من السنة في مثل هذه الأوقات. ولا أعتقد أنني بحاجة للتذكير بمراعاة نفسية الفتاة المتزوجة وإذكاء روح المحبة والمتعة بالأناشيد والأغاني المقبولة المصاحبة بالدف. فالنساء غالباً ما يشغل هذا الموضوع فكرهن، ولا تكاد تنسى إحداهن ذلك. ونحن معهن في هذا الاهتمام،

بل ونشكرهن على إدخال السرور لأهليهن، ولكن!! نهمس في أذن القلوب الرقيقة، إن كن صواحب قرار فنقول: أي أخواتي، الأنشودة الملحنة متعة، ولها أثر سحري على النفس ولا شك. وقد ثبت في الصحيح قول النبي ﷺ لأنجشة: «رفقاً بالقوارير يا أنجشة»^(١). فقد فتن النساء بصوته، وعذوبة ألحانه، ونداوة كلماته. ومع ذلك لم يمنعه النبي ﷺ من إكمال كلامه الملحن الشجي للنساء، ولكن طلب منه الرفق بهن!

ولكن يا إخواني المسلمات أن يزيد هذا فيؤدي إلى استخدام أدوات الموسيقى المختلفة كآلات العود والبيانو وغيرهما، فلستن والله بحاجة لهذا إذا عرفتن هدي حبيبكن محمد ﷺ. وكيفيكن هذا امثالاً.

ولا تقلن لم يكن في عهده ﷺ أدوات طرب. لا... بل كان يوجد، وقد ضرب الله على أذنيه في أول بعثته عندما ذهب ليحضر حفل زفاف، فسمع أصوات الغناء المصحوب بأدوات الطرب غير المباحة. فنومه الله فنام.

ومن مستجدات حفل النكاح التصوير داخل القاعات:

وأول ما فيه: أنه أصبح هناك نساء متخصصات بالتصوير، تحلف إحداهن بالله أنها تحافظ على الصورة ولا تعطيها لأحد. ثم إذا جاء حفل آخر، وأرادت أن تقنع أهل الزواج فتحت ألبومات التصوير لثري العروسين فنّها وإبداع تصويرها! فيرى كل منهما حفلات الناس، بما فيها من صور النساء، وغرفة الزفاف! فيرى الزوج والزوجة بحجة المقارنة، ثم الموافقة على ذلك!

(١) أخرجه البخاري (٢١١/٥)، ومسلم (٢٣٢٣) عن أنس رضي الله عنه.

هل وصل الحال إلى مثل هذا؟ أين حرمان الناس؟ أين أدب النظر؟

وليت أن الأمر وقف عند هذا، بل وأصبح بعض النساء يأخذن كاميرات للتصوير بطريقة شريط الكمبيوتر، لا ترى أي ضوء يخرج، فيتم التصوير لجميع الحاضرات بغير إذن. والطيبة منهن إذا رأت المنظر تغطت أو خرجت، حتى إن بعضهن سمعتها تقول: والله، اختفيت تحت طاولة الطعام لما رأيت التصوير بالفيديو من بعد، وبطريقة يدوية خفية غير ملفتة!! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والقضية الآن ليست في حكم التصوير فقط، إنما القضية أكبر في أثر مثل هذه الصور.

فيا سبحان الله... أين الأدب؟ أين الحشمة؟ أين مراعاة حال النساء؟ ولو كان البعض منهن يرضين، فليس كل النساء يقبلن ذلك. ثم ما الفائدة من تصوير النساء؟ هل سيزيد علاقة الحب؟ هل سيعيد شهور الخصام إلى شهور عسل؟

ثم من يأمن بقاء هذه الصور دون أن يراها أحد؟

يا أخواتي، اتقين الله، وتذكرن أيام أهليكن، أيام الستر، و«من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة»^(١).

ومن طرق باب الناس اليوم، فإن بابه غداً سيُطرق!!

إن على العقلاء وأهل الدين والستر والعفاف، وعلى الرجال

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأهل البصيرة الدعوة إلى الاحتشام والتأكد من السلامة من مثل هذه الأمور.

وعلى الآباء مسؤولية، وضرورة مناقشة أهلهم في هذا.

ومن الملاحظات سادساً: طول السهر:

لقد أصبح بعض الناس يفر من الحضور لمثل هذه الحفلات لطول السهر، وعدم وضع العشاء إلا في وقت متأخر، وهذا في الحقيقة من سوء الضيافة، وضعف الخلق. إذ ما يليق بالضيف أن يبقى ساعات طوال لا يكرم بالطعام إلا في الثانية عشر أو الواحدة ليلاً.

ولو تعود الناس على الحضور المبكر والعشاء المبكر لطابت الأوقات، ودعا الناس للجميع بالخير. ويعجبني ما يكتب على بعض الكروت من تحديد وقت الحضور ووقت العشاء. فبالتالي تحترم الأوقات، ويُعطى للفرح والعرس قيمته وجماله. وأخشى والله أن يكون أهل الفرحة قد كسبوا إثماً بتأخير الناس وتعطيلهم عن صلاة الفجر، خاصة النساء، والأمر والله ميسور، ولكن أين الرجال والعقلاء؟ وأين الأخوات المسلمات الراشدات؟ والفتيات الواعيات؟ ليجتمعوا جميعاً فيفرحوا الناس، ويخرجوا الجميع الرجال والنساء في أول الليل، وقد رأينا زواجا كهذا فما أجمله وما أيسره وما أروع! جُمع فيه الناس، وسمعوا لذيق الكلام، وروائع الألحان، وامتلأت البطون، ثم دعا الجميع للعروسين. فماذا نريد أجمل من هذا؟

إن قوماً منا حفظوا كلمات يرددونها ولا يحاولون فهم ما وراءها.

يقولون: أنتم لا تحبون أن نفرح ونأنس! هل الكل على خطأ عندما يغنون ويرقصون ويفرحون؟ لماذا تعقدون البنات في لباسهن وهن

صغيرات؟ لماذا لا نسهر ولو ليلة واحدة؟ لماذا وكثير من الناس يصنعون ذلك؟ والكثير يفتخر بمن حضر من الناس ومن الفرق في عرسهن؟

والله، إن قلوبنا مع المحبين العروسين، ونتمنى لهما أجمل فرح وأسعد لحظات. ومن قال: إننا نطالب بألا يوجد في الحفل إنشاد وغناء مباح، وضرب بالدف، بل وحتى رقص للنساء فيما بينهن بالمعقول، ولبس لأجمل وأبهى وأحلى الملابس؟ من قال هذا؟ ومن قال: إنه لا يُؤتى بجميل الطعام؟ إننا والله نتمنى كل هذا، نتمنى أن نسمع الجميل، وأن نأكل من الجميل. ولكننا مع هذا نجد أن من واجب الإخوة والمحبة أن نشارك الفرح بالتوجيه والتسديد بمقتضى شرعنا الحنيف. فالذي دعا إلى الزواج هو الإسلام، والذي حدد طريقه هو الإسلام. فلماذا لا نكمل هذا الفرح والزواج بما يريد الإسلام؟

وما نريد والله إلا حفلاً جميلاً ممتعاً تنتصر به الفضيلة، ويسود فيه الخير، ويحفظ به العفاف.

أيها الزوج، أيتها الزوجة: متعكما الله بأحلى الأيام، وأجمل الأوقات، وجمع بينكما على خير، إي والله جمع بينكما على خير. والله لا نريد في زواجكما إلا ما يرضي الله، وعلى سنة رسول الله. فيا أحبتي لا تخذلونا، واللّه اللّه فيما يحب الله. أسأل الله أن ينزل في قلوبكما الرضا وحب الله ورسوله، واتباع السنة، والسير في الحلال، كما جمعكما على الحلال.

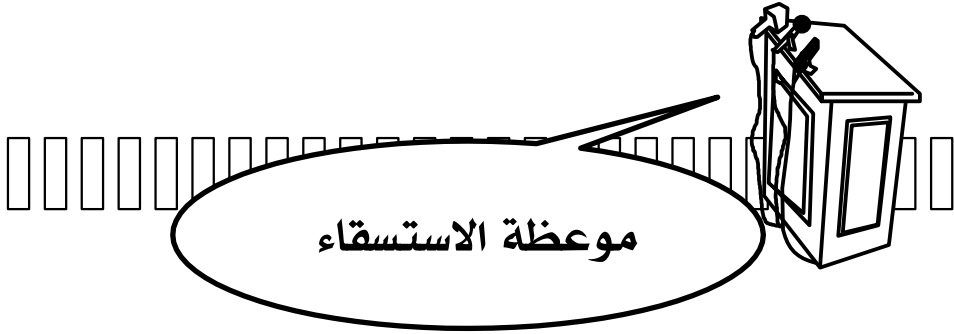
أيها الأب، أيتها الأم: من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس.

أيها الأبوان الكريمان، يا من رزقكما الله الأولاد من فضله، وجعل العقم لآخرين، وأمتعكما الله بالصحة والعافية حتى كبر أبناءكما، وها أنتما الآن تنتظران ليلة الفرح. هل من شكر نعمة الله اتباع الشيطان ونسيان الرحمن؟ هل من شكر نعمة الله النظر فيما يقول الناس عنكم ونسيان ما سيقول الله لكم؟

يا حبيبي... يا أيها الأبوان: البيت المسلم، والفرح الجميل كما يريد الإسلام، يَرْضَى الله به عنكما، ويُدعى بسببه لكما، تطيعان به الرب، وتتبعان فيه الحبيب المقرب ﷺ. وتجدون أثره يوم تكونان على سرر متقابلين.

يا رب... أسعد الأبوين، وأصلح قلوبهما، ولا تجعل للشيطان ولا للناس عليهما سبيلاً. ووفقهما ليدلا أبناءهما على طاعتك، ويسر لهما حفلاً جميلاً على مرضاتك... آمين.





ها نحن اليوم جئنا - عفا الله عنا - نستسقي الله ونستغيثه بأن ينزل علينا الغيث، ويلطف بنا وعباده.

ولست أدري كيف نتجرأ على الله ربنا، ونحن على حال بئس تجعل الحليم حيران؟!

لقد كنا نقرأ في الأحاديث الصحيحة، والأخبار الثابتة، أن النبي ﷺ كان يستمع إلى شكوى الناس، وحاجتهم لنزول الغيث، فيواعد الناس، فيلتقون، فما إن يصلي النبي ﷺ ويعظ الناس، ويدعو، إلا والسحاب يلتقي من هنا وهناك إيداناً بنزول المطر، وهكذا كان الجيل الأول في الكثير من المواقع، يهل عليهم المطر سريعاً، ولا يمهلهم طويلاً.

لقد أصبحت هذه الروايات والأخبار عجباً من العجب والله في زمننا هذا، تمر الشهور تلو الشهور ونحن نستسقي ونستسقي، ولا يستجيب الغمام، ولا يجتمع الركام، وكل هذا دليل هواننا على ربنا والله، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(١). كيف ينزل المطر، وكيف يهل الغيث، وكيف تستجيب السماء. كيف؟

(١) الأعراف، الآية (٩٦).

كيف وقد كان النبي ﷺ يواعد أصحابه يوماً ليستسقوا، نعم يواعدهم في يوم، أتدرون لماذا؟ لكي يرجع كل إنسان إلى نفسه، ليستغفر الله عما جرى منه من قصور وذنوب، وغشيان لمحرم، وتعد على مسلم، يواعدهم بعد أيام ليرد كل مسلم لأخيه مظلّمته وحقه، يواعدهم بعد أيام ليتصدق الناس، ويبدلوا من فضل الله ورزقه الذي أعطاهم، يواعدهم بعد أيام فيخرج الصغير والكبير، الذكر والأنثى، الصالح والعاصي، التقي والمخطئ، الإنسان والحيوان، بل وحتى الشيوخ والأطفال، يخرجون جميعاً يبثون حاجتهم وشكايتهم إلى الله، ليقولوا: يا رب، لا غنى لنا عن فضلك ورحمتك، إن لم نكن أهلاً للرحمة، فارحمنا بهؤلاء الصغار الذين لا ذنب لهم، وارحمنا بهؤلاء الشيوخ الذين في محاربيهم، وإن لم نكن أهلاً للرحمة، فارحمنا بهذه البهائم التي لا تعصيك.

يواعدهم بعد أيام ليدرك الجميع أنهم لا غنى لهم عن الله، من الذي ينزل الغيث إلا الله؟ ومن الذي يغيث المستغيث إلا الله؟ ومن يجيب المضطر إلا الله؟ ومن يرفع الضر إلا الله؟ ومن يكشف الغم إلا الله؟ ومن يزيل الهم إلا الله؟ ومن يرحم إلا الله؟ لتنادي كل نفس:

عرفتك رباً فأذلت قلباً وروحاً ولباً إلى عزتك
وأخضعت نفسي وفكري وحسي ووجهي ورأسي إلى قدرتك

يواعدهم النبي بعد أيام ليستشعر الجميع حالة الفقر والجذب، وينظروا ويقارنوا حالهم وقت المطر، ونزول الغيث، وحصول الرحمة.

ففي «صحيح ابن خزيمة» بسند صحيح عن جابر بن عبد الله

رضي الله عنهما قال: أتت النبي ﷺ بواكي فقال: «اللَّهُمَّ غِيثًا مغيثًا عاجلاً غير آجل نافعاً غير ضار»، فأمرت السماء^(١).

أين نحن من هذه المعاني؟ أين نحن عن هذه المفاهيم؟ أتينا النبي ﷺ بواكي!

أين نحن من هذا المنهج العظيم؟ وهل يا ترى نأتي لصلاة الاستسقاء بمثل هذه الحال؟ أكاد أقول: والله، لا يوجد إلا القليل، بل وأقل من ذلك بكثير!!

من منا يأتي إلى صلاة الاستسقاء وقد ردّ حقوق الناس، فلم يبت إلا وقد أرجع مال هذا، وحق هذا في أي زمان كان؟ وإن لم يستطع سجّل ذلك وقيّده خوفاً من الله، وخشية أن يُحرم المسلمون من فضل الله بسببه؟ من متّا راجع نفسه، واستغفر الله على كل نظرة وخطرة وفكرة ما كان لله فيها نصيب؟ من متّا من أحسّ ولو مجرد إحساس بالخوف من الله، وعظمة الله، وغضب الله، وحلم الله، وستر الله؟

كيف ينزل المطر، ويهل الغيث، وكيف تستجيب السماء كيف؟ والله تعالى يقول عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۖ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾^(٢).

أما النبي ﷺ فكان يستغفر الله تعالى في اليوم مائة مرة، وفي المجلس أكثر من سبعين مرة، وهو المعصوم الطاهر، والوجل

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٤١٦)، وهو عند أبي داود (١١٦٩)، وأحمد (١٨٠٩٠) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه. قال محقق المسند: صحيح لغيره.

(٢) نوح، الآيتان (١٠، ١١).

المشفق... ونحن كأن شيئاً لا يعيننا... وكأننا لسنا بحاجة إلى استغفار، وكأن الذنوب ما جرحتنا!

ورحمة الله على سادة التقى من أئمة السلف القائلين: (نحن قوم مساكين، ولولا ستر الله لافتضحنا).

وذكر العابد الصالح داود الطائي عند بعض الأمراء، فأنثوا عليه، فقال: (لو يعلم الناس بعض ما نحن فيه ما ذلّ لنا لسان بذكر خير أبداً).

وقال الشيخ الصالح محمد بن واسع رحمه الله: (لو كان للذنوب ريح، ما قدر أحد أن يجلس إليّ)، يقول هذا محمد بن واسع، الرجل الذي لم يفتر لسانه عن ذكر الله، الرجل الذي كان يأتي الناس ليروه فيزدادوا برويته إيماناً لمدة أسبوع، من شدة تقواه وورعه.

وفي كتاب الزهد لأحمد بن حنبل: (أن رجلاً من بني إسرائيل تعبّد ستين سنة في طلب حاجة، فلم يظفر بها، فقال في نفسه: والله، لو كان فيك خير لظفرت بحاجتك، فأتي في منامه ف قيل له: أ رأيت ازدرائك نفسك تلك الساعة؟ فإنه خير من عبادتك تلك السنين). فهل حقاً نحن نستغفر الله كل يوم وليلة؟

كيف نغاث وينزل المطر رحمة بنا، ونحن والذنوب أصحاب؟، فأخر شيء نفكر فيه أن نعاقب أنفسنا على تقصيرنا، وخطئنا وعمدنا، فضلاً عن أن نستغفر الله تعالى مما حصل منا.

بأي شيء سنقابل الله، ونحن سمعنا عن عقبة بن صهبان رضي الله عنه أنه قال: (سألت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ

ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ^(١)، فقالت: يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله، شهد له رسول الله بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم، فجعلت نفسها معنا^(٢).

كيف ينزل الغيث، ونحن لا نفكر في شؤم المعصية، ولا نفكر في التوبة منها، بل نتحايل عليها! ووالله لو شق الله ما في صدور العالمين لفسدت السماوات والأرض، ولكن ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾^(٣).

وما لنا والله سوى هذه الكلمات نسلي أنفسنا بها كما أمرنا ربنا، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٤).

كيف يا أيها الإخوة ينزل المطر والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٥). إن بركات السماء من نزول الغيث والرحمة مرتبطة بتقوى أهل القرى، ومن هذه التقوى ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

(١) فاطر، الآية (٣٢).

(٢) أخرجه الطيالسي (١٤٨٩)، والطبراني في «الأوسط» (١٦٧/٦)، والحاكم (٤٦٢/٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) الشورى، الآية (١٩).

(٤) البقرة، الآية (٢٨٦).

(٥) الأعراف، الآية (٩٦).

وَذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾^(١). وإلى هذه اللحظة ندخل بيوت الربا، ومزابل الربا، ومستعمرات الربا، وقواعد الحرب مع الله، ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٢). والله حقاً ﴿لَطِيفٌ بِّعِبَادِهِ﴾.

ماذا تريدون أكثر من هذا التفسير؟ ماذا تريدون أكثر من هذا الإيضاح؟

كثير من المسلمين يتحايلون على أحكام الشريعة، ولا يباليون أن يركبوا سيارة فارهة، أو يسكنوا في بيت واسع على حساب الربا المحض، والمال حرام، والمحاربة لله ورسوله.

والله والله، إن الحلال شرف، ولا يحتمل السرف. ورحمة الله على الإمام الزاهد بشر بن الحافي الذي قال عنه المأمون: (لم يبق على وجه هذه الأرض أحد من البشر يُستحي منه، غيرُ هذا الشيخ، بشر بن الحافي).

يقول بشر، هذا العبد الصالح: (إني لأشتهي الشَّواء منذ أربعين سنة، فما صفا لي درهمه). ما صفا له درهم واحد من حلال خلال أربعين عاماً وهو قرين الإمام أحمد في القرن الثالث فكيف بزمان القرن العشرين؟! اللهم يارب عفوك ولطفك...

كيف ينزل الغيث، وتستجيب السماء أيها الإخوة؟ والله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا فَتَقُوهُ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾^(٣)،

(١) البقرة، الآية (٢٧٨).

(٢) البقرة، الآية (٢٧٩).

(٣) الشورى، الآية (٢٨).

فجعل نزول الماء رحمة، وهي رحمة من رحمت السماء، وهذه الرحمة السماوية لا تنزل إلا إذا تحققت المعادلة النبوية التي تقول: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

كيف تنزل رحمة السماء وبلاً وطلاً، تجمل به الحياة، ويتسم له السحاب، وتحلو به الأرض، ويتمتع به الناس؟ كيف تكون سعادة والكون يعيش في شقاوة؟ من في الناس اليوم يمكن أن يقول: إنَّ أهل الأرض يرحم بعضهم بعضاً؟ لا يقدر على قول هذا غير العاقل فكيف يقوله العاقل؟ فالحيوانات غير العاقلة تلعن البشر من أهل الأرض عندما يقل المطر، كما ثبت في تفسير الطبري في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ (١٥٩) قال: (هم الدواب تلعن البشر بسبب ذنوبهم التي كانت سبب القحط وعدم نزول المطر).

أين رحمة أهل الأرض...؟

أين رحمة المسلم بالمسلم؟ أين رحمة الأب بولده، وعطفه وحنانه، وصبره وتعليمه، وتوجيهه وتأديبه وبذله؟ أين رحمة الولد بوالده، والتودّد له، والعطف عليه، ومؤانسته، والاستجابة لأمره، وبره، وطاعته، وخدمته؟

أين رحمة الزوج بزوجته، وحنوه، ومداراته، وسماحته، ودعابته، وملاطفته، ومجالسته، ولطافته، وصدقه، ونفقه، وحسن عشرته، وصلاح نفسه، وسمو خلقه؟ وأين رحمة الزوجة بزوجها، وحسن عشرته، وشرف خدمته، وصدق رعايته؟

(١) البقرة، الآية (١٥٩).

أين رحمة الأمة برجالها، ودعاتها، وعلمائها، ومجاهديها،
ومناضليها، وصالحيها، وأبنائها، ومقدساتها، وأراضيها؟

بل أين رحمة أبناء الأمة بأبناء الأمة؟ أين رحمة المسلمين
الإعلاميين، وأرباب الأموال؟ أين سخروا عقولهم، أين أنفقوا أموالهم،
ماذا صنعوا بأمتهم؟ يا ترى أيّ برامج صوروا؟ وأيّ نساء أخرجوا؟
وأيّ فتن أظهروا؟ وأيّ خلق أفسدوا؟ وأيّ حياء أماتوا؟ وأيّ منكر
أذاعوا؟

أين رحمة هؤلاء في الأرض؟ أين رحمة الطغاة والمفسدين؟ أين
رحمة العلمانيين والمفكرين الحديثين؟ بل أين رحمة بعض الصالحين
المفرقين والمغتائبين والشامتين بعلماء ودعاة المسلمين؟

أخشى والله أن يصيبنا القنوط، وندعو فلا يستجاب لنا كما كان
بشر يقول: (والله ما تركت الذنوب لنا حقاً ندعو به ربنا). ولكن
رحمة الله واسعة، وفضله عظيم، ورُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه
له، مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره، ولو أننا مذبذبون كلنا.
وبرحمة الله المدافعة، وعليه الملتجأ والمتكّل... فإننا نرجوه، فمنه
العون والمدد، فهو المعطي بلا حد، والمجيب بلا عدّ، فيا رب...
يا عالم السر والجهر، يا محصي قطرات الماء وهي تمشي في النهر،
يا من لا يؤاخذ بالجريرة، ولا يهتك الستر، يا حنّان يا مَنَّان يا عظيم
الإحسان، أغث قلوبنا بالإيمان، وأغث بلادنا بالأمطار يا رحيم يا
رحمن.



متاف المناير



المسجد قلب المجتمع الإسلامي، وملتقى المؤمنين بالغدو والآصال لأداء حقوق الله، واستلهام الرشد، واستمداد العون منه جلّ شأنه.

وهو مصدر طاقة عاطفية وفكرية بعيدة المدى خصوصاً أيام الجمع عندما تنصت جماهير المصلين في سكينة وخشوع «للإمام» وهو يشرح لهم تعاليم الإسلام ويبين لهم حدود الله، ويفقههم على ما في الكتاب والسنة من عظات وآداب.

إن خطبة الجمعة من شعائر الإسلام الكبرى، ومعانيها تنساب إلى النفوس في لحظات انعطاف إلى الله وتقبل لوصاياه.

ومن ثم كان موضوعها جليل الأثر كبير الخطر.

والإمام الذي يدرس موضوعه، ويجيد عرضه، يقوم بنصيب ضخم في تثقيف الأمة، وترشيد نهضتها، ودعم كيانها المادي والأدبي، ووصل غدها المأمول بماضيها المجيد...

لما كنا نريد الوصول بمستوى الخطابة في المسجد إلى مكانته

اللائقة به، ونريد جعل المنبر مرآة لما حوى الإسلام من معرفة سالحة وتربية واعية، فقد أثبت هذه التوجيهات الموجزة لما ينبغي أن يتوافر في خطبة الجمعة من زاد روحي وثقافي منظم:

١ - يحسن أن يكون لخطبة الجمعة موضوع واحد غير متشعب الأطراف ولا متعدد القضايا، فإن الخطيب الذي يخوض في أحاديث كثيرة يشتت الأذهان وينتقل بالسامعين في أودية تتخللها فجوات نفسية وفكرية بعيدة، ومهما كانت عبارته بليغة، ومهما كان مسترسلاً متدفقاً فإنه لن ينجح في تكوين صورة عقلية واضحة الملامح لتعاليم الإسلام.

والوضوح أساس لا بد منه في التربية، والتعميم والغموض لا ينتهيان بشيء طائل، وخطبة الجمعة ليست درساً نظرياً بقدر ما هي حقيقة تشرح وتغرس.

٢ - عناصر الخطبة يجب أن يسلم أحدها إلى الآخر في تسلسل منطقي مقبول كما تسلم درجة السلم إلى ما بعدها دون عناء بحيث إذا انتهى الخطيب من إلقاء كلمته كان السامعون قد وصلوا معه إلى النتيجة التي يريد بلوغها، وعليه أن ينتقي من النصوص والآثار ما يمهد طريقه إلى هذه الغاية.

٣ - ولما كانت الخطبة الدينية تنسج من المعاني الإسلامية المستمدة من «الكتاب والسنة» وآثار السلف الصالح فإن لحمتها وسداها يجب أن يكون من الحقائق المقبولة، وفي آيات القرآن الكريم، ومعالم السنة المطهرة متسع يغني في الوعظ والإرشاد، ولذلك لا يليق البتة أن تتضمن الخطبة الأخبار الواهية بله الموضوعية.

وإذا كان العلماء قد تجوزوا في الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة

في فضائل الأعمال فقد اشترطوا لذلك: ألا تخالف قواعد الإسلام الكلية ولا أصوله العامة، وفي الأحاديث الصحيحة والحسنة مجال رحب للخطيب الفقيه، وفي سيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين والأئمة المتبوعين ما يغني عن الأساطير والأوهام.

٤ - لا يجوز أن تتعرض الخطبة للأمور الخلافية، ولا أن تكون تعصباً لوجهه نظر إسلامية محدودة... فإن المسجد يجمع ولا يفرق، ويلم شمل الأمة بشعب الإيمان التي يلتقي عندها الكل دون خوض في المسائل التي يتفاوت تقديرها، وما أكثر العزائم والفضائل التي تصلح موضوعاً لنصائح جديدة وخطب موفقة.

وقد شقي المسلمون بالفرقة أياماً طويلة وجدير بهم أن يجدوا في المساجد ما يوحد الصفوف، ويطفئ الخصومات.

٥ - بين الخطبة والأحداث العابرة، والملابسات المحيطة، والجماهير السامعة، علاقة لا يمكن تجاهلها ومما يزرى بالخطيب ويضيع موعظته أن يكون في واد، والناس والزمان والمكان في واد آخر.

ولأمر ما نزل القرآن منجماً على ثلاث وعشرين سنة، فقد تجاوب مع الأحداث وأصاب مواقع التوجيه إصابة رائعة.

ولما كان القرآن شفاء للعلل الاجتماعية الشائعة؛ فإن الخطيب يجب عليه أن يشخص الداء الذي يواجهه وأن يتعرف على حقيقته بدقة، فإذا عرفه واستبان أغراضه وأخطاره رجع إلى الكتاب والسنة فنقل الدواء إلى موضع المرض، وذلك يحتاج إلى بصيرة وحذق؛ فإن الواعظ القاصر قد يجيء بدواء غير مناسب فلا يوفق في علاج، وربما

أخطأ ابتداء في تحديد العلة فجاءت خطبته لغواً وإن كانت تتضمن مختلف النصوص الصحيحة.

٦ - هناك طائفة من الأحاديث تسوق الأجزية الكبيرة على الأعمال الصغيرة... وقد قرر العلماء المحققون أن هذه الأحاديث ليست على ما يفهم منها لأول وهلة... وأن ما فيها من أجزية ضخمة إنما هو لأهل الشرف في العبادة وأهل الصدق في الإقبال على الله. وليس ذلك للأعمال الصغيرة التي اقترنت بها.

ومن هنا لا يجوز للخطيب أن يضمن خطبته هذه الأحاديث سرداً مجرداً فيحدث فوضى في ميدان التكاليف الشرعية، ولكن إذا قضى ظرف بذكر هذه الأحاديث ذكرها مع شروحها الصحيحة.

٧ - تقوم التربية الدينية على بيان الجوانب الخلقية والاجتماعية في الإسلام وشرح ما يقترن بالخير والشر من معان حسنة أو سيئة، ومن عواقب حميدة أو ذميمة، ولا بأس من التعرّيج على الأجزية الأخروية وعرض ما أعده الله في الآخرة للأبرار والفجار بيد أن الإسهاب والتفصيل في ذكر الأجزية المغيبة لا لزوم له ويكتفي بالإلماح إلى ما جاء في القرآن والسنة عن ذلك دون تطويل وتعمق.

٨ - من الخير أن تتضمن خطبة الجمعة أحياناً شيئاً من أمجاد المسلمين الأولين الثقافية والسياسية وتنويعها بالحضارة الياقة التي أقامها الإسلام في العالم مع الإشارة إلى أن ينابيع هذه الحضارة تفجرت من الحركة العقلية التي أحدثها القرآن الكريم واليقظة الإنسانية التي صنعها الرسول ﷺ ويكون الغرض من هذه الخطب - على اختلاف موضوعاتها - أن ترجع إلى المسلمين ثقتهم بأنفسهم ورسالتهم العالمية.

٩ - معروف أن هناك فلسفات أجنبية ونزعات إلحادية تسربت إلى الأمة الإسلامية في كبوتها التاريخية الماضية وطبعي أن تتعرض الخطبة لذود هذه المفسد النفسية عن أبناء الأمة، ووظيفة الخطبة في الإسلام عندئذ أن تتجنب الأخذ والرد والجدال السيئ... ولكن تعرض الحقائق الإيجابية في الإسلام بقوة وترد على الشبهات دون عناية بذكر مصدرها لأن المهم هو حماية التراث الروحي العلمي... وليس المهم تجريح الآخرين وإلحاق الهزائم بهم.

١٠ - قبل أن يواجه الخطيب الجمهور ينبغي أن تكون في ذهنه صورة بينة لما يريد أن يقوله، بل يجب أن يراجع نفسه قبل الكلام ليطمئن اطمئناناً إلى صحة القضايا التي سوف يعرضها وإلى سلامة آثارها النفسية والاجتماعية.

وعليه أن يتثبت من الأدلة والشواهد التي يسوقها في معرض الحديث فإن كان قرآناً حفظه جيداً وإن كان سنة رواها بدقة، وإن كان أثراً أدبياً أو خبراً تاريخياً فإن توفيقه يكون بحسب مطابقتها أو اقترابه من الأصل المنقول عنه.

إن التحضير المتقن دلالة احترام المرء لنفسه ولسامعيه وقد تفجأ الإنسان مواقف يرتجل فيها ما يلقي به الناس ويصور ما بنفسه.

والواقع أن القدرة على الارتجال تجيء بعد أوقات طويلة من الدربة على التحضير الجيد وعلى تكوين حصيلة علمية مواتية لكل موقف.

ومع ذلك فإن المهارة في الارتجال لا تغني عن حسن التحضير

للعالم الذي يريد أداء واجبه بأمانة وصدق والذي يقدر إنصات الناس له واحتفاءهم بما يقول.

١١ - الإيجاز أعون على تثبيت الحقائق، وجمع المشاعر والأفكار حول ما يراد بثه من تعاليم.

فإن الكلام الكثير ينسي بعضه بعضاً، وقد تضع أهم أهدافه في زحام الإطناب والإضافة.

ألا ترى الأرض تحتاج إلى قدر محدد من البذور كيما تنبت، فإذا كثر النبات بها تخلصها الفلاح باجتثاث الزائد حتى يعطي البقية فرصة النماء والإثمار.

كذلك النفس البشرية لا تزكو فيها المعاني إلا إذا أمكن تحديدها وتقديمها، أما مع كثرة الكلام وبعثرة الحقائق فإن السامع يتحول إلى إناء مغلق تسيل من حوله الكلمات مهما بلغت نفاستها.

وللإطناب الممل أسباب معروفة؛ منها: سوء التحضير؛ فإن الخطيب الذي يلقي الناس بالجزاف من الأحكام والتوجيهات لا يدرى بالضبط أين بلغ قوله وهل وصل إلى حد الإقناع أم لا فيحمله ذلك على التكرار والإطالة... وما يزداد من الجمهور إلا بعداً...

وقد تنشأ الإطالة عن سوء التقدير للوقت والمواقف فيظن الخطيب أن بحسبه أن يقول ما عنده وعلى الناس أن ينصتوا طوعاً أو كرهاً، وهذا خطأ.

ومما يحكى في قيمة الإيجاز أن أحد الرؤساء طلب منه إلقاء خطبة في بضع دقائق فقال: «أمهلوني أسبوعاً» فقليل له: نريدها في ربع

ساعة، قال: «أستطيع بعد يومين» قيل له: فإذا طلبناها في ساعة؟ قال: «فأنا مستعد الآن».

إن الإيجاز يتطلب الموازنة والاختيار والمحو والإثبات، أما الكلام المرسل فالجهد العقلي فيه أقل والحقيقة أن خمس دقائق تستوعب علماً كثيراً وعشر دقائق وخمس عشرة دقيقة تستوعب خطبة أو محاضرة جيدة.





خطب الجمعة الشيخ علي الطنطاوي

كان وفد من العلماء يزور واحداً من كبار أولي الأمر من عهد قريب، يشكو إليه فساد الأخلاق، وانتشار المعاصي، وهذه المنكرات البادية، فقال لهم:

أنا أعجب من أمركم، عندكم هذه المنابر التي تستطيعون أن تصلحوا بها كل فاسد وتقوّموا كل معوج ثم تشكون إليّ ما تجدون. وهي كلمة أجراها الله على لسانه لتقوم بها الحجة علينا مرتين: مرة لأنها كلمة حق، لا ينازع في صحتها منازع.

ومرة لأنها جاءت موعظة منه هو لمن يتصدّون لوعظ الناس. ولو كان عُشرُ هذه المنابر في أيدي جماعة من الجماعات العاملة المنظمة، لصنعت بها العجائب. فما بالنا، وهي في أيدينا، لا نصنع بها شيئاً؟

وما أذهب في الاستدلال إلى عرض أوجه الاحتمال، وعندي الواقع الذي ليس فيه جدال، هو منبر رسول الله ﷺ وهذه المنابر. كان للرسول صلوات الله عليه منبر واحد: درجات من الخشب،

ليس فيها براعة النقش، ولا فيها روعة الفن، وليس عليها قبة، ولا لها باب، دعا منها، فلَبَّت الدنيا، واستجاب العالم، وترك بها على الأرض أعظم أثر عرفه تاريخ الأرض.

وعندنا اليوم مائة ألف منبر مبثوثة ما بين آخر أندونيسيا وآخر المغرب. كلها مزخرف منقوش، استنفد جهد أهل العمارة، وعبقريّة أهل الفن، وفيها المكبرات والإذاعات، تحمل الصوت منها إلى آفاق الأرض، فيُسمع خطباؤها الملايين، ولا نرى لها مع ذلك أثراً في إصلاح، ولا عملاً في نهضة.

فما هو السر في تلك القوة وفي هذا الضعف؟

تعالوا نفكر في ذلك جميعاً؟

نعرض أحوال هذه الخطب، ونفتش عن حالها، ولا يغضب مني أحد فما أريد الفضيحة ولا التشهير، إن أريد إلا الإصلاح، وأنا بعدُ واحد من الخطباء لست غريباً عنهم ولا مبرّأ من عيوبهم. وما يقال فيهم يقال مثله فيّ أنا. ومن أجراك مجرى نفسه ما ظلمك.

ولو سألت من شئت من المصلّين عن هذه الخطب لسمعت منه طرفاً من عيوبها.

فمن عيوبها هذا التطويل، وهذا الإسهاب، حتى لتزيد الخطبة الواحدة أحياناً على نصف ساعة، مع أن السنّة تقصير الخطبة، وتطويل الصلاة، وألا تزيد الخطبة على سورة من أوساط المفصل، أي على صفحتين اثنين فقط.

وهذه خطب الرسول المأثورة، وخطب الصحابة، منها ما هو صفحة واحدة، أو أقل من ذلك.

ويا ليت دائرة الإفتاء، أو الأوقاف، تلزم الخطباء بآلا تزيد أطول خطبة يلقونها عن ربع ساعة.

وأنا أخطب في مسجد جامعة دمشق فلا تمر ثلث ساعة، أو خمس وعشرون دقيقة على أذان الظهر، حتى تكون قد انتهت الخطبة والصلاة، ذلك لأننا تركنا هذه البدع التي تكون قبل الخطبة، فلا نقرأ ما يسمّى (الصمدية) ولا يجهر المؤذن بهذه الصلوات، بل نسمع أذان الظهر فنصلي السنّة، ويصعد الخطيب المنبر فوراً.

وكذلك كان يفعل رسول الله وأصحابه، ولا خير فيما لم يفعله رسول الله ﷺ.

ومن عيوبها: أنه ليس للخطبة موضوع واحد معين، بل تجد الخطيب يخوض في الخطبة الواحدة في كل شيء.

ينتقل من موضوع إلى موضوع، فلا يوفّي موضوعاً منها حقه من البحث، فإذا جاء الجمعة الثانية عاد إلى مثل ما كان منه في الجمعة الأولى، فتكون الخطب كلها متشابهة متماثلة، وكلها لا ثمرة له، ولا يخرج السامع له بنتيجة عملية.

ولو أن الخطيب اقتصر على موضوع واحد جلاً أو أدقّ، كبر أو صغر، فتكلم فيه ولم يجاوزه إلى غيره، لكان لخطبته معنى، ولأخذ السامع منها عبرة، وحصل منها فائدة.

ومن عيوبها: أن الخطيب - أعني: بعض من يخطب - يحاول أن يصلح الدنيا كلها بخطبة واحدة، فلا يخاطب الناس قدر عقولهم، ولا يكلمهم على مقتضى أحوالهم، ولا يسير بهم في طريق الإصلاح خطوة

خطوة، بل يريد أن يبلغوا الكمال بقفزة واحدة، مع أن الطفرة في رأي علمائنا محال.

ومن عيوبها: أنها صارت «كليشات» معينة، ألفاظ تردد وتعاد، لا سيما في الخطبة الثانية، مع أن الخطبة الثانية لا تختلف في أصل السَّنة عن الأولى، وما يلتزمه الخطباء فيها من الصلاة الإبراهيمية، والترضي عن الخلفاء والتابعين بأسمائهم، لم يلتزمه أحد من السلف.

وخطبة الجمعة عند الحنفية لا يشترط لصحتها إلا أن تكون دينية، وأن يكون فيها تذكير بالشرع وهذه «الكليشات» كلها ليست من شروط الخطبة.

والدعاء الذي يكون في آخر الخطبة ليس شرطاً، ولا كان السلف يواظبون عليه.

والدعاء المطلوب وهو مَحَّ العبادَة وروحها، ولكن الدعاء المطلوب هو الذي يكون عن قلب حاضر، ومراقبة لله، وثقة بالإجابة، فإن كان دعاء بالمأثور كان أحسن.

أما أن يكون الغرض منه إظهار سعة الحفظ، وبلاغة اللفظ، فلا.

والدعاء للسلطين بأسمائهم بدعة وقد نصَّ الحنفية على أنه مكروه إن ذكر السلطان بالتعظيم، فإن قال عنه ما ليس فيه كما كان بعض الخطباء في مصر يقولون عن فاروق... فكذب وافتراء.

وآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، التي يلتزمها الخطباء في آخر الخطبة، ويظنها العامة من شرائط الخطبة، ليست شرطاً فيها. فإن تلاها، أو تلا غيرها، أو لم يتل في ختام الخطبة شيئاً، لم يكن عليه شيء.

وكونها خطبتين والقعود بينهما سنّة، فإن جعلها خطبة واحدة، ولو جملاً معدودات، فقالها ونزل لا شيء عليه عند الحنفية.

ولما ولي عثمان الخلافة صعد المنبر ليخطب أول جمعة فارتج عليه ولم يستطع الكلام.

فقال: إن من كان قبلي كان يعد لهذا المقام كلاماً، وأنا إن أعش فستأتاكم الخطب على وجهها إن شاء الله.

ونزل، وكانت هذه هي الخطبة ولم يعترض عليها أحد من الصحابة.

ومن عيوبها هذا التكلف في الإلقاء، وهذا التشدق في اللفظ. وهذه اللهجة الغريبة.

وخير الإلقاء ما كان طبيعياً لا تكلف فيه، والرسول ﷺ قد كره المتشدقين وذمهم.

ومن أعظم عيوب الخطبة في أيامنا أن الخطيب ينسى أن يقوم مقام رسول الله، ويتكلم بلسان الشرع، وأن عليه أن يبين حكم الله فقط لا آراءه هو، وخطرات ذهنه، ويحرص على رضا الله وحده، لا على رضا الناس، فلا يتزلف إلى أحد، ولا يجعل الخطبة وسيلة إلى الدنيا، وسبباً للقبول عند أهلها.

ومن عيوبها: أن من الخطباء من يأتي بأحكام غير محققة، ولا مسلمة عند أهل العلم، يفتي بها على المنبر، ويأمر الناس بها، ولو اقتصر على المسائل المتفق عليها فأمر بها العامة، وترك الخلافات لمجالس العلماء لكان أحسن.

ومنهم - وهذا كثير - من يأتي بالأحاديث الموضوعة، أو الضعيفة المتروكة، مع أنه لا يجوز لأحد أن يسند حديثاً إلى رسول الله ﷺ حتى يتوثق من صحته، بأن يصححه أحد المحدثين الموثوق بهم، كأصحاب الكتب الستة على اختلاف شروطهم في تصحيح الأحاديث أو يعتمده فقهاء مذهب من المذاهب الأربعة، ويتفقوا على الأخذ به، ومن أخذ كل حديث يجده في كتاب، أو يسمعه من فم إنسان، فنسبه على المنبر إلى الرسول، من غير أن يعرف درجته من الصحة، ومن غير أن يبحث عن مخرجه وراوييه، أو شك أن يكون داخلاً تحت حديث: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

فليتنبه الخطباء إلى هذا، فإنه من أهم المهمات.

ويا ليت خطيب كل مسجد يعد لخطب الشهر برنامجاً، يعلقه على باب المسجد، أو يبين للناس على الأقل أن خطبة الجمعة القادمة موضوعها كذا، ومدتها كذا، ليكون المصلي على بينة من أمره، ويجعل الخطبة الثانية مطلقة يتكلم فيها عما يجد بعد إعلان موضوع الخطبة الأولى، أو يجعلها موعظة عملية.

وأن يكون منهج الخطيب أن يعمل لإصلاح الأفراد أولاً، ثم يتكلم عن إصلاح الأسر والبيوت، ثم يبحث في الإصلاح العام، وأن يبدأ بما بدأ به الشرع فيصحح التوحيد أولاً، ثم يأمر باجتنب المحرمات، ويُعَدِّدها ويجعل لكل منها خطبة، من آفات اللسان كالكذب والغيبة والنميمة، إلى السرقة والزنى والغش وعقوق الوالدين، وشهادة الزور وأمثالها، ثم يأمر بالفرائض، ويجعل لكل منها خطبة يبين فيها أحكامها، لا بيان الفقيه الذي يعدُّ الشروط والأركان، والسنن والمكروهات، بل بيان المرشد الذي يبين الأعمال، ويدل على طريق

الإخلاص فيها، فيتكلم عن الصلاة والصيام والزكاة والحج والأمر بالمعروف وما إلى ذلك.

وعلى السامعين أن يعلموا أن سماع الخطبة ليس للبركة فقط، بل للاتعاظ بها، والعمل بما يتعلمه منها، والعاقل منهم من استفاد من صحة القول ولو شك في حال القائل، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها من حيث وجدها.

هذه خواطر في الموضوع، لم أقصد فيها لَمَّ جوانبه، وجمع أطرافه، واستيفاء القول فيه، لأن الكلام فيه طويل، والمجال قليل، والقصد التنبيه.





الخطبة والخطيب الشيخ يوسف القرضاوي

إن المسجد في الإسلام له رسالة أساسية في الحياة الإسلامية، فهو يقوم بمهمة كبيرة: دعوية وتثقيفية وتربوية، ولكن روح المسجد هو إمامه وخطيبه الذي يمكن أن يوقظ الناس وأن ينوّمهم، يمكن أن ينهض بهم وأن يخذّرهم، وذلك بحسب ما يقدم لهم في خطبه ودروسه، فإذا قدم لهم الدين: عقيدة سليمة، وعبادة خالصة، وأخلاقاً فاضلة، وآداباً سامية، وأعمالاً صالحة، وتشريعات عادلة، وعلومًا نافعة، وفنوناً راقية، وحضارة متوازنة، معبراً عن أفكاره بأسلوب بيّن، وشرحه شرحاً يقنع العقل، ويستميل القلب، ويحرك الإرادة، جامعاً بين الأصالة والمعاصرة، معتمداً على المصادر الموثقة، بعيداً عن إسرائيليات التفسير، ومنكرات الحديث وموضوعاته، وخرافات العوام، وأوهام الخواص، متحريراً منهج الاعتدال والوسطية في تناوله للقضايا، بمعزل عن غلو الغالين، وتفريط المتسيبين... إذا فعل ذلك كان في عداد المصلحين المخلصين، والموظفين النافعين، والعلماء الربانيّين، وقليل ما هم.

أما إذا قدم الدين على عكس هذه الصورة فإن إثمه أكبر من

نفعه، وهو يهدم أكثر مما يشيد، ويضر أكثر مما يفيد، وهو - للأسف - ما يصنعه كثيرون من الخطباء الذين تضج منهم المنابر، وتشكو المساجد.

إن المسجد إذا قام برسالته كما ينبغي، يستطيع أن يحدث انقلاباً سلمياً في حياة المسلمين، حين يوعيههم بواجبهم، ويعايشهم في همومهم، وينبههم على نقاط ضعفهم ليقووها، وعلى ثغرات حياتهم ليجتهدوا أن يسدوها، فهو يفقههم بحقائق دينهم، ويرقيهم في أمر دنياهم.

والمطلوب من الخطيب هنا أن يقوم بهذه الرسالة العظيمة في غاية الرفق والحكمة، حتى لا يتنبه له محترفو السياسة فيحسوا أن في هذه التوعية المستمرة، والتوجيه القوي الدائم، خطراً على كراسيهم وعلى سرفهم وترفهم وانحرافهم عن نهج الإسلام السوي، فيعملوا على إبعاده عن منبره، وإسكات صوت كان ينطق بالحق، ويدوي بالخير، ويدعوا إلى العمل وإلى الصراط المستقيم.

لقد شعر رجال التنصير في أوائل هذا القرن (العشرين الميلادي) في مصر بأهمية خطبة الجمعة ولقاء الجمعة، فكتب أحد قاداتهم في تقرير له قال في ختامه ما معناه: إن الإسلام سيظل صخرة عاتية، تتحطم عليها محاولات التبشير المسيحي، ما دام للإسلام هذه الركائز الأربع: القرآن، والأزهر، واجتماع الجمعة الأسبوعي، ومؤتمر الحج السنوي.

ولذا حاولوا إضعاف تأثير هذه الأربع بأساليب شتى لا يتسع المقام لذكرها هنا.

فلا بدّ للخطباء أن يدركوا منزلتهم وأهميتهم في المجتمع

المسلم، وإن لم يأخذوا حقوقهم المادية كما يجب، فهذا جزء من الخطّة المرسومة.

ونصيحتي لأبنائي وإخواني الخطباء أن يجددوا معلوماتهم باستمرار، وأن يظلوا يقرؤون، كما كان السلف يفعلون، فليس هناك وقت يقف فيه المرء عن القراءة، فالعلم بحر لا ساحل له ولا قرار، والله تعالى يقول لرسوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

فلا بد للخطيب الذي يواجه الناس كل أسبوع أن يقرأ ويستزيد ويستنير، حتى لا يكرر نفسه، ويمل سامعيه، ولا بدّ له من أن ينوّع قراءاته ما بين دينية وأدبية وتاريخية وإنسانية وغير ذلك من أنواع الثقافات التي ذكرتها في كتابي «ثقافة الداعية».

ولا بدّ له قبل ذلك أن يجرد نيته لله تعالى، وأن يجاهد نفسه للتخلص من حظوظها في حب الظهور ومראה الناس، فإن الناس لن يغنوا عنه من الله شيئاً، وليجعل شعاره: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فهذا الإخلاص هو الذي يجعل لكلامه حرارة، ويمنحه قوة التأثير في الآخرين، فقد قيل: إن الكلام إذا خرج من القلب دخل إلى القلوب، وإذا خرج من طرف اللسان لم يتجاوز الآذان، وفي هذا قيل: ليست النائحة الثكلى!

وينبغي للخطيب أن يكون على سجيته، لا يتكلف أن يقلد غيره، وأن يكون نسخة من فلان أو علان من الناس، حتى لا يفقد أصالته على أنه لن يكون مثل الأصل الذي يقلده مهما حاول.

وينبغي للخطيب أن يحترم المنبر الذي وقف عليه رسول الله ﷺ

فلا يستخدمه في غير أهداف الدين، وتوعية المسلمين، وتجميع صفوفهم على الهدى، وكلمتهم على التقى، وقلوبهم على المحبة، ونياتهم على الصدق، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل، كما ينبغي له أن يتجنب إثارة المسائل الفرعية الخلافية التي من شأنها أن تفرق الجماعات، وتنشئ الحزازات، وتزيد الأمة انقساماً، وأن يتناول ذلك عند الحاجة في دروسه بعلم وموضوعية وروح أخوية بناءة.

كما ينبغي للخطيب أن يكون كلامه صورة لنفسه، ومعبراً عن سلوكه، وألا يدعو الناس إلى شيء، يعمل هو بضده، وينهاهم عن أمر هو متورط فيه، فيقول له الناس في قرارة أنفسهم، وربما بألسنتهم: يا طيب داو نفسك أولاً.

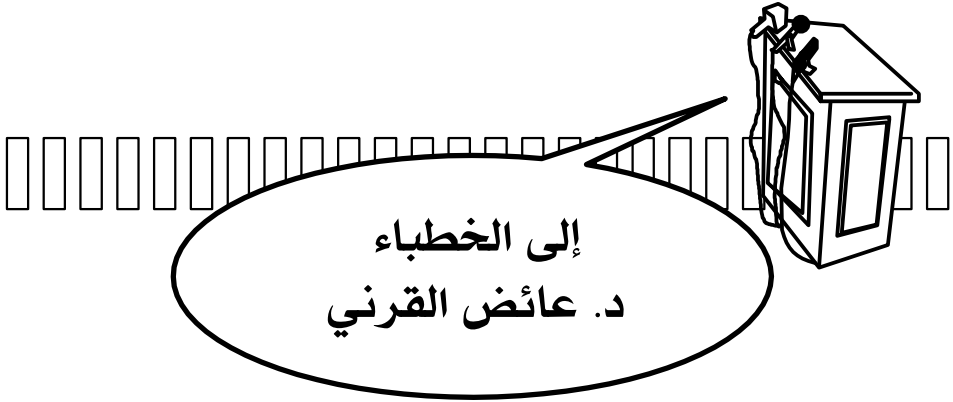
يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها تعيب دنيا وناساً راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها

والله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقال لبني إسرائيل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤].

ثم على الخطيب أن يكون دائم الضراعة والابتهال إلى الله عزَّ وجلَّ، موصول الحبال بربه، يسأله سبحانه أن يسد لسانه، ويثبت قدمه، ويرزقه التوفيق والعون من عنده عزَّ وجلَّ، فما التوفيق إلا بالله، وما العون إلا من الله، ورحم الله الشاعر الذي قال:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهداه!

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



إلى الخطباء د. عائض القرني

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

أنا أعلم أنني لا زلت شاباً والكثير يكبرني سنّاً ويفوقني علماً ونبلاً وفضلاً، لكنني قرأت كتباً ورسائل في فن الخطابة لمسلمين وغير مسلمين، وسوف أذكر بعضها في هذا البحث.

وعشت زمناً أحاول أن أطبق ما أقرأ من فن الأداء والإلقاء والأسلوب والعرض، فأصيب حيناً وأخطئ أحياناً.

فأقمت في مدن كثيرة فلم أجد ذلكم الخطيب الذي يخلب الأبواب ويهزُّ القلوب ويملك المشاعر.

نعم! هناك علماء وقضاة ودعاة، ولكن لم ألق خطباء بمعنى هذه الكلمة إلا الواحد أو الاثنين أو الثلاثة مع ملاحظات.

من هو الخطيب الذي يمكن أن يسكب في قلوبنا الحياة والتأثير والإقناع؟

من هو الخطيب الذي نسلم له نفوسنا ليصقلها ويطوِّعها ويهديها سواء السبيل؟

من هو هذا الخطيب الذي يصل بصوته إلى ضمائرنا فيجتث منها الخواطر الخاطئة والأفكار المغلوطة، ويصل بحجته إلى قلوبنا فيقتلع منها هواجس السوء ووساوس الشيطان؟!

لقد قرأت عن عشرات الخطباء المسلمين وغير المسلمين، شرقيين وغربيين، تركوا في أممهم أثراً بيّناً بخطبهم ومواعظهم، ولكن هل تحسُّ منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً؟

كل هذا الخلق غرٌّ وأنا منهم فاترك تفاصيل الجمل رأيت على المنابر من يقرأ علينا صحفاً اكتتبها فهي تُملَى عليه بكرةً وأصيلاً.

يسردها علينا سرداً بلا تأثير ولا جاذبية، ولا أداء ولا حرارة، ولا ظل ولا ظل.

ورأيت من يغطي وجهه بأوراقه عند الإلقاء فهو محجوب عن الناس طيلة الخطبة، يريد أن ينتهي من هذه الأوراق ليلقي عن نفسه تبعة الخطبة.

وهناك من يخطب فيتلعثم من شدة الخوف ويرتبك من الخجل والوجل، يكاد إذا صعد المنبر أن يولي فراراً ويمتلى رعباً.

نعم... العلم شيء والخطابة شيء آخر.

أجل... التقوى والفضل والمكانة محاسن، والخطابة حسنة أخرى.

في هؤلاء من يحسن الإلقاء والأداء، ولكنه ضحل المادة بخيل في عطائه ومحصوله، فكأنه ما قال شيئاً.

وفيهم صاحب الحجة والبرهان، الحافظ المطلع على كنوز الميراث وذخائر العلوم، ولكنه بارد.

في صوته خيوط النعاس ومقدمات الكرى.

وأظن أن الخطابة ليست جمعاً لأطراف الموضوع بلا فصاحة وأداء وإلقاء وتأثير.

وليس صوتاً صارخاً صاحباً بلا حجة وإقناع وجاذبية.

إن الخطابة قلب شجاع، ولسان فصيح، ومادة حيّة، وذاكرة واعية، وبديهة لمّاحة، وإشارة موحية، ونبرة فخمة، وأداء خلّاب، وحجة بالغة، ونفس متوثبة مجنحة.

وهي استيلاء على المشاعر، وامتلاك للعواطف، وقدرة على جذب النفوس.

وفكر لا اعوجاج فيه، ونفس صحيحة من الأدواء، وعقل مسدد، ولسان سليم من عيوب الأداء.

وشخصية قديرة متألقة، وبرهان يقذف به على الباطل والزيف فيدمغه.

نحن بحاجة إلى مِران طويل على مخاطبة الناس، ودُرية واسعة على الإلقاء والتأثير، تقوم بهذا مؤسسات ومدارس وجامعات تُعنى بهذه الجوانب عنايةً فائقةً.

إنَّ الجموع فقيرة إلى خطيب مفوّه تصل كلماته إلى الأعماق، ولكل نبأ مستقر.

وإن دعاة الفضيلة هم بحاجة ماسة إلى معرفة الطرق إلى القلوب، والسبل إلى النفوس، بقراءة مكامن التأثير والتأثر، والاطلاع على أسرار الجذب والإقناع.

إن الخطبة جمعية من المواهب والقدرات تجتمع في شخص واحد يملك ناصية البيان وزمام الفصاحة والتميّز في الإيقاع.

يقولون: إن الخطيب الملهم الفصيح يجد الناس في صوته وأدائه وعرضه متعة لا يجدونها في مشاهدة الحداثق الغناء أو سماع خريير الجداول وهمس النسيم وهديل الحمام.

وسيد الخطباء وأنبل العظماء هو رسولنا ﷺ، ومن أراد بيان ذلك فعليه أن يطالع في خطبه، ويطالع كلماته وأحاديثه، ليجد البيان في أبهى صورته، والفصاحة في أوج علوّها.

وكذلك خلفاؤه الراشدون، وجمع من السلف الصالح: كابن عباس وابن الزبير ومعاوية وعبد الملك بن مروان.

ومن بعدهم: كأبي جعفر المنصور والمأمون وكثيرون لا يُحْصَوْنَ

عدداً، ومن أراد المزيد فعليه بكتاب محمد أبي زهرة في «الخطابة»، وكتاب «خطباء صنعوا التاريخ» لأحمد نور، و«فن الخطابة» لدليل كارنيجي، وغيرهم كثير.

والقاسم المشترك بين هؤلاء جميعاً هو القدرة على الاستيلاء على المشاعر وامتلاك العواطف والاستحواذ على النفوس.

هناك قطعة من البيان يقولها شخص فلا تقع موقعها ولا تتجاوز صوت قائلها، وهي في نفسها بديعة باهرة.

ويلقي هذه القطعة شخص آخر فيوصلها إلى نفوس السامعين، فيخاطب الأغوار والأعماق ويهبط إلى القرار... والكلام هو هو ولكن شتان ما بين الخطيبين.

المبادئ الحقة تقوم في غالب أحوالها ومجمل أطوارها على أيدي خطباء لُسن.

زرع الفضائل واقتلاع الرذائل، فنُّ يقدمه الخطباء.

إشعال الحروف والزحف إلى الموت، واحتساء المنيّة ينسجها خطيب مؤثر.

إسكات غضب النفوس وإطفاء الشائرة، وقتل الأحقاد وبتر الضغائن، يضطلع بها خطيب نابغة.

لماذا لا يكون الخطيب مشبوب العاطفة، عارم الفطنة، جيّاش الخاطر، مُلهب الإحساس، متّقد الضمير، لَمّاح الإشارة، خاطفاً للأضواء، حيّ البديهة، هادر الصوت، ساحر الأداء، حلو الإيراد، قوي البرهان، غزير المادة؟

وما أقل اجتماع هذه المواهب في شخص: إن حُسْن الإعداد ضعف الإلقاء، وإن انقذحت البديهة ارتبك اللسان، وإن جنحت الروح خفت الصوت.

□ اللسان المعبر:

دعا موسى عليه السلام ربّه فقال: ﴿وَأَحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ [طه: ٢٧]، إن اللسان الفصيح يفعل في القلوب فعل السحر، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «وإن من البيان لسحراً»^(١).

اللسان الفصيح هو الذي يخلب الألباب ويسري أثره إلى أعماق النفس ويخاطب الوجدان.

اللسان الفصيح آلة طيّعة يمتلكها الخطيب الفذُّ القدير، يصوغ بها هالات من المعاني ويرسم بها لوحات موحية من البيان.

اللسان الفصيح هو الذي يقدم الحروف للسامع سليمة من العيوب، وصحيحة في مخارجها، صادقة في جرسها، أخّاذة في إيقاعها، ينطق الكلمات بلا عجمة ولا لحن ولا تعثر، بعيداً عن الارتباك والالتواء والبرود.

اللسان البليغ يدمغ بالحجج، ويفلج بالبراهين، وتنثال منه الجمل طليقة هادرة.

لسان فخم وفيه جاذبية.

قوي وفيه أسر.

(١) أخرجه البخاري برقم (٥١٤٦، ٥٧٦٧)، وأحمد برقم (٤٦٣٧، ٥٢١٠، ٥٢٦٩)، وأبو داود برقم (٥٠٠٧)، والترمذي برقم (٢٠٢٨)، وغيرهم.

صارخ وفيه سحر.

نافذ وفيه حلاوة وطلاوة.

اللسان الفصيح كالسيف البتار يجلو الشبه، ويقطع خيوط
الأوهام، ويفصم عرى الباطل.

يقول الله عز وجلّ لرسوله ﷺ: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا
بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، وهذا واجب الداعية أن يُبدع في مقاله
ويُحسن من لفظه ويُصلح من لسانه.

إن العي مرض في اللسان يذهب رونقه وبهاءه ومضاءه، فلا يكاد
يُبين.

ولا بدّ من شحذ اللسان بالدُّربة والمران والتقويم والتهذيب،
وإمرار المحفوظات والمقطوعات عليه كثيراً.

إن سرّ نباهة الخطيب في لسانه الذي يسعفه في الأزمات وينقذه
في الورطات.

يزمجر به في الجموع، فله في الحشود جلجلة الرعد، وهدير
السيول، وقصف الصواعق، وجلبة الريح الهوجاء التي لا تلوي على
شيء.

يتدفق بالجمل والعبارات في نسق جميل وفي نظام بديع بلا
ركاكة أو برودة أو ثقل.

يملاً الآذان مخافةً والقلب هيبةً، والمكان حضوراً، بل يأسر
المشاعر أسراً، فإما مناً بعد وإما فداء.

□ شجاعة الخطيب:

تكن شجاعة الخطيب في رباطة جأشه وسكون خاطره واطمئنان نفسه، فهو يواجه الجموع وعليه السكينة واثقاً من نفسه مؤمناً بما يقول، قديراً على ضبط الموقف.

الخطيب الشجاع يهدأ أحياناً في موقف الهدوء فيلطف صوته وتخف نبرته، ويزمجر في موقف الإثارة والقوة فيشد الحاضرين.

ويلهب القلوب بسياط وعظه، ويصكُّ صوته الآذان فتصل حرارة كلماته إلى سويداء القلوب.

إن أول الفشل هو جبن الخطيب وخوره، فما أن يشعر بالضعف والانhezam وترتجف أعضاؤه ويتلعثم لسانه ويسيل عرقه، حينها تسأل كم هو الإحراج الذي يعيشه سامعوه فضلاً عنه، وهذا هو سقوط الخطيب صراحة.

كيف يؤثر في الجموع من يرهبها؟ وكيف يستولي على قلوبها من يخجل منها؟

إن قوة القلب في مواجهة الناس مدد عظيم يمنحه الله أهل القدرات والمواهب، فيجدون في مخاطبة الجماهير سلوةً وحياءً ومتعةً، فكلّما كثر الجمع زاد أحدهم قوةً وجاذبيةً وتوقداً ولموعاً.

ولقد قرأت لخطيب شهير وهو يقسم قسماً أنه كلّما كثر الجمع عليه وازدحم الناس إليه كلّما زاده ذلك قوة في الأداء، وزيادة في العطاء، وجودة في الإلقاء، وسخاء في الجمل، وبراعة في العرض.

ابن الزبير يخطب في أتباعه وبروق المنيا فوق الحرم، وقذائف المنجنيق تهوي عليه من جبال مكة، وقلبه في عنفوان ثباته بارد الأعصاب، متماسك القوى؛ لأنه يحمل مبدأ.

وذلك طارق بن زياد يستعرض جيشاً مدججاً بالسلاح فينثر عليهم خطبة حية من أبرع خطب التاريخ، وهو يرتجلها في يوم عصيب.

أول الفشل الشعور بالفشل.

والإخفاق ابنُ بارٌّ للجبن.

والتفوق تاج للمُقدِّمين الشجعان.

□ بديهة لمّاحة:

من أبرز صفات الخطيب الفائق أنه صاحب بديهة حاضرة تسعفه أبداً، كلّما احتاج لها يعود إليها، كلّما احتدمت خواطره وتدافعت أفكاره ووقع في لبس تقدح له بديهته زند العطاء بلا تأخر.

إن هناك مواقف تمرُّ بالخطيب لم يضرب لها حساباً تفجؤه فيها، وحوادث وقضايا وطوارئ وأفكاراً، فإن لم تكن لديه بديهة وقع في الارتباك وأفحم وانقطع.

إن اللحظات المفاجئة لا تنتظر من يحضر لها ويتمهل في طلب الإجابة.

لا... بل الآن تريد إجابة سريعة مناسبة.

خطباء التاريخ أهل بدائيه، يجدون في أذهانهم مدداً لكل مناسبة، وحديثاً لكل حادثة. يقول أحدهم فلا يخطئ، ويجيب فلا يبطئ.

ماذا يفعل الخطيب البارد لو قاطعه رجل لسن ذو جدل وخالفه في قضية وأورد عليه إشكالاً لم يكن في حسبانته؟! حينها يقع الفشل أمام الجمع ويحصل الانحدار بل السقوط.

□ بداية مناسبة:

يبدأ الخطيب الذكي هادئ الصوت خافت النبرة، ثم ينتعش رويداً رويداً، فيعلوا صوته ثم يعلو ثم يتعاضم، ثم يتفجّر في وسط خطبته إن كانت من الخطب الزاجرة الرادعة المهيجة.

ليس للخطيب أن يبدأ صارخاً مفجوعاً.

لماذا؟ وما هي المناسبة؟

كان الحجاج مضرب المثل في جودة الخطابة، يقف على المنبر وأيديه في أكمام ثوبه، فيتكلّم فلا يسمعه إلا من كان قريباً من المنبر، ثم يعلو صوته ويهدر ويتهدّج وتبرز يده، فيمتلك المكان بدويّ صوته الضخم حتى يسمعه أهل الأسواق.

والمقصود هنا البداية الهادئة المطمئنة.

□ نفس متوثبة:

لا بدّ أن تكون نفس الخطيب حية متوثبة مفعمة بما تقول، تكاد تسيل مع كلماته وعباراته، ترسل على السامعين حرارةً وأثراً؛ لأن النفس الباردة لا تصلح أن تقدم عطاءً للآخرين.

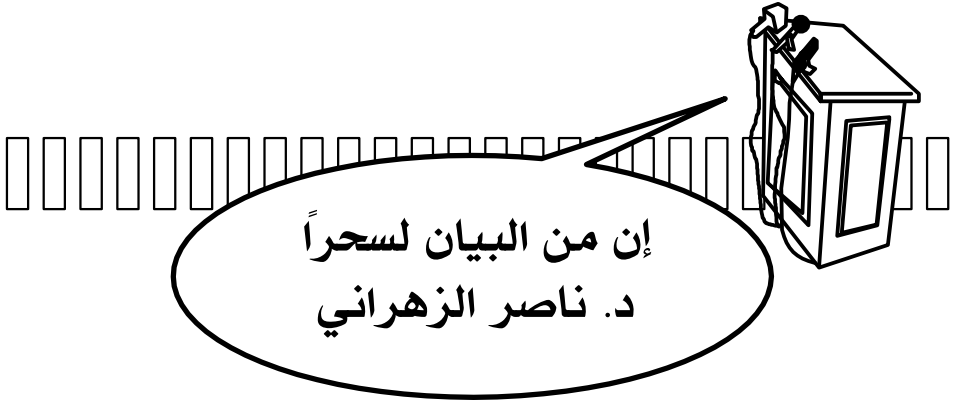
إن تفاعل الخطيب بما يقول هو أول باب من أبواب النجاح والتفوق واللموع.

إن النفس الغافلة عما يقول صاحبها، البعيدة عن حديثه وكلماته، لا تشعُّ على الآخرين ولا تتصل بنفوسهم ولا تمازج وجدانهم.

فلا ينبغي للخطيب أن يواجه النَّاسَ بنفس فاترة كاللَّه، فإن هذا العيب يجري على الكلام فيلقي الكلام ببرود.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.





إن من البيان لسحراً
د. ناصر الزهراني

كلما أجلت طرفك في كلام بديع، وأسلوب رفيع، زاد إيمانك بهذا الأثر النبوي البديع: «إن من البيان لسحراً» رواه البخاري.

إن الألفاظ العاطرة، والمعاني الآسرة، والجمل المناسبة، والتراكيب الجذابة المجللة برداء الإخلاص، الممزوجة بعبير الصدق، تملك لبك، وتهزّ إحساسك، وتوقظ مشاعرك.

من الكلام ما يهزّ القلب هزاً، ويرجّه رجاً، ويجعل قواه هباءً منبثاً.

ومن الكلام ما يكون كالطيف الهادئ، والظل الوارف، يستمتع المرء بجماله، ويتفياً ظلاله. ومنه ما يكون عذاباً فزاً، هنيئاً مريئاً، سقياً رحمة لا سقياً عذاب.

ومن الكلام ما يكون شرباً سائغاً، وشهداً مذاباً. إن بعض الناس أوحى ربك إليهم أن يتخذوا من المعاني الحسان بيوتاً، ومن الألفاظ العذاب قوتاً، ومن العلم ومما يعرفون، ثم يقطفون من أحلى الثمرات، فيخرج من أفواههم بيان مختلف ألوانه، فيه شفاء للناس، وفيه تذكرة لقوم يتفكرون.

بيان يلامس الأسماع فتطرب، ويداعب الأفئدة فترقص، ويطرق القلوب فتنادي هيت لك.

إن الكلام الجميل الصادق لروعة معدنه، ونقاء مصدره، وعذوبة مشربه، يبقى خالدًا على مرّ الدهور، وتعاقب العصور، بل كلما تقدم به الزمان زاد أريجه، وحسُن عبقه، وعظمت قيمته، تتضمخ به القلوب الطاهرة، وتتطيب منه الأنفس الطيبة.

ألم تر أني كلما زرت زينباً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب
إن الخطيب الصادق إذا ضرب بحر المعرفة بعصا الإخلاص، انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وإذا أقبل فراغته الشرك وجنود الرياء ابتلعتهم أمواج الصدق، وبددتهم فلول الذكر، فكانوا من الخاسرين، وإذا ألقى سحرة المبادئ حبالهم وعصيهم، يُلقى عليهم عصا التوحيد واليقين فإذا هي تلقف ما يأفكون.

الخطيب الناجح هو الذي لديه إلمام بقوانين الخطابة، وأصول الكتابة، وفنون الإلقاء، وجمال الأداء وحسن اختيار الأسلوب وانتقاء الكلمات، وجودة التحضير، والانفعال في مواطن الانفعال، والهدوء في مواطن الهدوء، ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

الخطيب الناجح هو الذي يعيش الموضوع وينفعل به ويمتزج بدمائه، يجب أن تكون الخطبة كالقصيدة من حيث وجوب الانفعال بها، وأن تنبع من القلب، وينطق بها الوجدان، وتنفعل بها المشاعر، وإلا جاءت باهتة باردة ميتة.

الخطيب الناجح يحرص على الإيجاز قدر الإمكان، فكلما طالت الخطبة، كلما ضجّ بها الناس، وأنسى آخرها أولها، وبدأ

الملل على النفوس، والقلق على المصلين، فمهما أوتي الخطيب من قوة وأعطي من أسلوب يجب أن يراعي عامل الزمن اقتداءً بالنبي ﷺ وهو أفصح الخلق، وأعظم من خطب، وأجمل من نطق، وأصدق من تكلم، وقد قال ﷺ: «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئة من فقهه، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة، وإن من البيان لسحراً» [أخرجه أحمد ومسلم].

الخطيب الناجح يتعد عن مصادمة الناس بأخطائهم، ومهاجمتهم في مخالفاتهم، بل يجب معالجة الأخطاء بأسلوب غير مباشر، وتصحيح التصورات بطريقة علمية هادئة هادفة ناصحة، دون هجوم أو تجريح، ودون توتر أو تعنيف «ما كان الرفق في شيء إلا زانه» [صحيح الجامع].

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

الخطيب الناجح يجب أن يكون قلباً نابضاً، وفكراً نيراً، وضميراً متوقداً، وإحساساً مرهفاً، يعرف مكانته، ويقدر رسالته، ويقوم بواجبه، ويؤمن بمسؤوليته، ويؤدي أمانته.

قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ وَالْكَلِيمُ السُّحْتِ لِبَسِّ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

الخطيب المؤمن عقل مدبر، وقلب واع، ولسان ناطق، وبيان صادق، ويقين واثق، يستلهم الوحي، ويتضلع من العلم، ويسيح في بستان السنّة، ويغوص في أعماق البحور، فيأتي بالدرر، ويقبل بالؤلؤ،

ويجود بالمرجان، ثم يتوَجَّ ذلك كله بإخلاص القصد، وصفاء النية، وسلامة الطوية.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

الخطيب الناجح لا يقع فيما يحذر الناس منه، ويخالفهم إلى ما ينهاهم عنه، فالدعوة بالقدوة أصدق من أيِّ موعظة، وأجمل من أجمل خطبة.

الخطيب الناجح يبتعد عن الأمور التي تضر ولا تنفع، وتسيء ولا تحسن، وتهدم ولا تصلح، فكثير من الأمور ليس المنبر مجالها، ولا الخطابة ميدانها، ويبتعد عن ذكر الأشخاص، والحديث عن الأفراد بل يمضي على نهج: «ما بال أقوام...» [صحيح الجامع: ٩٧٦/٢].

الخطيب الناجح هو الذي يشدّ الأذهان بحسن عرضه، ويهزّ القلوب بجميل لفظه، تعيش معه القلوب، وتتطلع إليه الأفئدة، وتشخص إليه الأبصار.

الخطيب الناجح هو الذي يعيش في أعماق الناس، ويشعر بشعورهم، يتلمس آمالهم وآلامهم، يناقش القضايا الحية، والموضوعات المعاصرة، ويضرب على الأوتار الحساسة، يطرح القضية ويوجد الحل، ويبين الداء ويصف الدواء.

الخطيب الناجح يتحرى حسن اختيار الموضوع، والتنوع في الطرح والتجديد في العرض، والبعد عن الرتابة المملة، والتقليدية الباهتة.

أنت مع الخطيب الناجح تحيي نفسك، ويصحو ضميرك، ويزكو وجدانك. إنك تتنقل معه في رياض نضرة، وبساتين أنيقة، وحدائق

غناء، تارة تجدك أمام هزة عنيفة، وصيحة منذرة، وموعظة بليغة،
تزلزل الكيان، وتهز الوجدان، فتنزل على القلب بسوط لاذع، وصارم
قاطع، ووعيد رادع.

وتارة تجدك أمام طيب حاذق، ومدادٍ ماهر، ووصيف حكيم،
يسقيك جرعة من رضاب البيان فتقتل الداء، وتبعث الشفاء، وتفيد
الصفاء.

وتارة تجدك أمام روحاني عريق، ورباني رفيق، وخاشع رقيق،
يُظلك بسحاب الورع، ويهمي عليك بغيث التقوى، ويجلّك برداء
الخشوع، ويجملك بلباس الخضوع، ويروي غلتك بزالال الوعظ،
ويذهب ما في قلبك بذكر الحبيب، ووصف الجميل، ولقاء الجليل،
فاذا بجوى الحب في القلب يستعر، وفُتحت مآقي العيون بماءٍ منهمر،
وفُجرت النفس عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قُدر.

وتارة تجدك أمام مُحِبٍّ والهِ، وعاشق مدنف، ومغرم متيم، قد
براه الحب، وتيممه الهوى، وشغف بمعبوده حباً، تاه فكره، وذهب
لُبُّه، وطاش عقله، وتحرقت وجناته، وفاضت عبراته، وعظمت
حسراته، فيروي لك طرفاً من قصة الحب، وبعضاً من أحاديث الغرام،
فينساب دفتها إلى القلوب، ويتسلل عبيرها إلى النفوس، فتذكي نار
الحب، وتشعل حُرق الغرام، وتُوجج لواعج العشق.

إذا كان حب الهائمين من الورى بليلى وسعدى يسلب اللب والعقلا
فما عسى أن يصنع الهائم الذي سرى قلبه شوقاً إلى الملاء الأعلى

وتارة تجدك أمام ربٍّ للبيان، وإمام للكلام، ومالك لزمام اللغة،
ونافث لبديع الشعر، وكأن تحت لسانه هاروت ينفث فيه سحراً.

وكلامه السحر الحلال لَوَ أَنَّهُ لَمْ يَجْنِ قَتْلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرِّزِ
إِنْ طَالَ لَمْ يُمْلَلْ وَإِنْ أُوجِزَتْهُ وَدَّ الْمَحْدَثُ أَنَّهُ لَمْ يُوَجَّزِ

إِنَّ الْمَنْبَرَ الْيَوْمَ هُوَ قَنَاةُ الْمُسْلِمِينَ الْوَحِيدَةِ، وَزَاوِيَتِهِمُ الْفَرِيدَةِ
الَّتِي يُبَثُّ مِنْ خِلَالِهَا الْعِلْمُ وَيُنْشَرُ الْهُدَى وَيُسَدَّى النُّصْحُ وَتَذَاعُ
الْفُضِيلَةُ وَتَحَارِبُ الرَّذِيلَةُ، وَإِنَّ الْخُطِيبَ النَّاجِحَ يَكُونُ شَأْنُهُ مَعَ
قَنَوَاتِ التَّضْلِيلِ وَمَنَابِرِ التَّدْجِيلِ كَشَأْنِ عَصَا مُوسَى مَعَ حِبَالِ السَّحَرَةِ
وَعَصِيَّتِهِمْ، يَرْسِلُ نَفَحَاتِ الْحَقِّ وَكَلِمَاتِ الْيَقِينِ وَعِبَارَاتِ الْإِيمَانِ
وَمَوَاعِظِ الْقُرْآنِ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ، وَتَدْمِرُ مَا يَشِيدُونَ،
وَتَنْسِفُ مَا يُصْنَعُونَ.

إِنَّ الْعَاقِلَ الَّذِي يَتَأَمَّلُ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْبَشَرِيَّةُ الْيَوْمَ لِيَحْرَقَ أَسَى،
وَيَذُوبَ حَيَاءً، وَيَكْتَوِيَ لَوْعَةً، وَيَلْتَهَبُ حَرَقَةً، وَيَرْتَعِدُ خَوْفًا، وَيَرْتَجِفُ
فَرْقًا، حَقٌّ لِلْقُلُوبِ الْمُؤْمِنَةِ أَنْ تَتَقَطَّعَ الْمَاءُ، وَأَنْ لِلْأَنْفُسِ الطَّاهِرَةِ أَنْ
تَتَمَزَّقَ نَدْمًا، وَحَانَ لِلْأَعْيُنِ الصَّادِقَةِ أَنْ تَبْكِيَ دَمًا، فَكَيْفَ يَهْنَأُ الْمُؤْمِنُ
زَادًا، وَكَيْفَ يَسِيغُ شَرَابًا، وَيَتَبَسَّمُ ضَاحِكًا، وَيَمْضِي سَالِبًا، وَيَعِيشُ
هَانِتًا، وَيَنَامُ قَرِيرًا وَهُوَ يَرَى مَا يُمَرِّضُ الْأَجْسَامَ، وَيَمَزَّقُ الْأَفْتَدَةَ، وَيَبْدُدُ
الْقُلُوبَ مِنْ اعْتِدَاءٍ عَلَى الْحَرَمَاتِ، وَانْغِمَاسٍ فِي الشَّهَوَاتِ، وَتَحَدُّ لِرَبِّ
الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَمَجَاهِرَةٍ بِالْقَبَائِحِ، وَإِعْلَانٍ بِالْفَضَائِحِ؟ لَقَدْ
كَانَ ﷺ يَغْضَبُ غَضَبًا شَدِيدًا إِذَا انْتَهَكَتْ حَرَمَةٌ مِنْ حَرَمَاتِ اللَّهِ، كَيْفَ
ظَنَّاكَ بِهِ لَوْ اطَّلَعَ عَلَى هَذَا الْإِنْتِهَاكِ الْمُرِيرِ وَالْإِعْتِدَاءِ الْخَطِيرِ الَّذِي لَمْ
تَعُدْ تَرَاعَى فِيهِ حَرَمَةٌ، أَوْ يَحْتَرَمُ شَرْعًا، أَوْ يَسْتَحْيِي مِنْ رَبٍّ - إِلَّا مِنْ
رَحْمِ اللَّهِ -.

إِنَّ أَفْضَلَ وَاعِظَ كِتَابِ اللَّهِ، وَأَصْدَقَ حَدِيثِ كَلَامِ اللَّهِ، وَخَيْرَ
الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِنَّ هَذِهِ الْقَطْرَاتِ مِنْ ذَلِكَ الْغَيْثِ الْهَنِيِّ،

وهذه القنوات من تلك البحور الزاخرة، والأنهار الرقراقة، وهذه الومضات من ذلك النور الأتم، والهدي الأكمل.

وإن هنالك من البشر من لا تهزه كلمة، ولا تنفعه موعظة، ولا توقظه ذكرى، ولا يؤثر فيه بيان، ولو ابتغيت نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء لتأتيهم بآية بينة، وأدلة قاطعة، فإنهم لا يسمعون، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه،
ومن دعا بدعائه واهتدى بهداه، أما بعد:

فإن الخطيب والواعظ له دور كبير وأثر بالغ في بيئته ومجتمعه
وسامعيه وقومه، فهو قرين المربي والمعلم، ورجل الحسبة والموجه،
وبقدر إحسانه وإخلاصه يتبوأ من قلوب الناس مكاناً، ويضع الله له
قبولاً قد لا يزاحمه فيه أصحاب الوجاهات ولا يدانيه فيه ذوو
المقامات، ومرد ذلك إلى حسن الإجابة وجودة الإفادة والقدرة على
التأثير المكسو بلباس التقوى والمدثر بدثار الإخلاص والورع.

وهذه كلمات في إعداد الخطبة وصفات الخطيب.

حرصت أن تكون شاملة لخصائص الخطيب والخطبة ووجوه
التأثير في الخطبة وإحسان إعدادها مقدماً لذلك بمقدمة في مهمة
الخطيب الشاقة وتعريف الخطبة وأنواعها وبيان أثرها.

والله وحده الموفق والمعين وهو حسبنا ونعم الوكيل.

مقدمة

مهمة الخطيب مهمة شاقة ولا ريب، مشقة تحتم عليه أن يستعد الاستعداد الكافي في صواب الفكر وحسن التعبير وطلاقة اللسان وجودة الإلقاء.

مطلوب من الخطيب أن يحدث الناس بما يمس حياتهم ولا ينقطع عن ماضيهم، ويردهم إلى قواعد الدين ومبادئه، يبصرهم بحكمه وأحكامه برفق ويعرفهم آثار التقوى والصلاح في الآخرة والأولى، مهمته البعد عن المعاني المكرورة وجالبات الملل.

والدعوة إلى التجديد والتحديث والبعد عن المكرورة، لا يغير من الحقيقة الثابتة شيئاً وهي أن حياة الناس وأحوالهم في كل زمان ومكان صورة واحدة من تصارع الغرائز واضطراب النفوس وغليان الأحقاد، وفي مقابل ذلك تلقى أحوالاً من البرود والانصراف والغفلة وعدم المبالاة.

والخطيب عليه أن يهدي الشائر، ويبعث الفاتر، ويطفئ ثورة الغريزة، ويخفض حدة الأحقاد، ويشيع روح المودة، ويبث الإخلاص والتعاون.

نعم، إن حياة الناس صورة معادة وتغيرات متناوبة فأحداث اليوم هي أحداث الأمس، والبواعث والمثيرات في الماضي هي ذاتها في الحاضر.

فإنسان الغابة هو إنسان المدنيّة، غير أن الأول يحارب بحجر والثاني يرمي بقنبلة، والأول قد يقتل واحداً أو اثنين والثاني يقتل عشرات ومئات، القوي في الغابة يستولي على مرعى أو بئر، أما قوي

المدينة يستولي على قطر بأكمله، ويأكل قوت شعب بأكمله وشعوب برمتها ويستبد بمصادر طاقة وموارد حياة مصيرية.

إذا كان ذلك كذلك فكيف يكون الحال لو نجح الدعاة المصلحون في تهذيب الغرائز والتسامي بها؟

إن خطيب المسجد وواعظ الجماعة أشد فاعلية في نفوس الجماهير من أي جهاز من أجهزة التوجيه والحكم في المجتمع سواء أكان والياً أو رجل عسكر أو حارس أمن... إن الجمهور قد يهابون أمثال هؤلاء لكنهم قد لا يحبونهم، أما الخطيب بلسانه ورقة جناحه وتجرده، فيقتلع جذور الشر في نفس المجرم ويبعث في نفسه خشية الله، وحب الحق، وقبول العدل، ومعاونة الناس، إن عمله إصلاح الضمائر، وإيقاظ العواطف النبيلة في نفوس الأمة، وبناء الضمائر الحية، وتربية النفوس العالية في عمل خالص وجهد متجرد، يرجو ثواب الله ويروم نفع الناس.

ومن هذا فإنك ترى أن أداء الخطيب عمله على وجهه يكسوه بهاءً وشرفاً، ويرفعه إلى مكان عليّ عند الناس.

ولتعلم أن هذا ليس إطراء ولا مديحاً، ولكنه تنبيه إلى شرف العمل ومشقته وعظم مسؤوليته ونقل رسالته، وما تتطلبه من حسن استعداد وشعور صادق بالمسؤولية.

وكيف لا يكون ذلك وهذه هي رسالة الأنبياء والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقاً؟ ولا غرابة أن يصادف إيذاء وعداء وحسبه أن يكون مقبولاً عند الله والصفوة من عباد الله.

مدخل

لا يقصد من الكتابة عن الخطابة وأسسها ومبادئها وآدابها أن تكون مادة يدرسها الدارس لتجعل منه خطيباً مفعّوهاً ومتحدثاً مصقّعاً، إن الكتابة والأبحاث والمناهج لا تجعل من العبي فصيحاً ولا اللسان المعقود طليقاً، ولكن هذه الكتابات والدراسات والبحوث نبراس ومنار يضيء لصاحب الموهبة والاستعداد، مشعل ينمي الموهبة ومصباح ينير السبيل فلا يكون حاطب ليل.

هذه الكتابات والبحوث يتكون منها علم ينير الطريق ولا يحمل على السلوك، يرشد إلى الدرب ولا يقسر على السير.

وأنت خبير بأن السراج المنير لا يستفيد منه غير البصير أما ذو الرمد فغير منتفع، ويكفيك إشارة بأن الكاتب في علم الاقتصاد والعالم في أسسه وقواعده قد يكون أقل الناس مالأً وأضعفهم مورداً.

ومن حكم أفلاطون: «لكل أمر حقيقة، ولكل زمان طريقة، ولكل إنسان خليفة، فالتمس من الأمور حقائقها، وأجرِ الأزمنة على طرائقها، وعامل الناس على خلائقها».



تعريف الخطبة وأغراضها وأثرها

تعريف:

الخطبة: بضم الخاء كلام منشور مسجوع ومرسل، أو مزدوج بينهما، غايته التأثير والإقناع.

ويقصد بها هنا الخطب التي تلقى على المنابر يوم الجمعة، بقصد حمل الناس على الخير، وترغيبهم فيه، وصرفهم عن الشر ودواعيه، وتبصيرهم بأحوالهم وواقع أمرهم حسب ما يقتضيه أمر الشرع.

والخطبة من جانب الخطيب مقدرة على التصرف في فنون الكلم، مرماها التأثير في نفس السامع ومخاطبة وجدانه.

أغراضها:

الدعوة إلى الإصلاح والإصلاح، والاستمسك بأمور الشريعة، وإقامة الحق العدل، ونشر الفضائل، وتسكين الفتن، وفض المشكلات، وتهذئة النفوس الثائرة، وإثارة النفوس الفاترة، ترفع الحق، وتخفض الباطل، هي صوت المظلومين، وواعظ الظالمين، ولسان الهداية، ولقد نادى موسى عليه السلام ربه، ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ﴾ (٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ (١)، فجاءه الجواب الرباني: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ (٢).

(١) طه، الآيات (٢٥ - ٢٨).

(٢) طه، الآية (٣٦).

والغرض هنا الإشارات إلى مجمل الأغراض، وسوف يزداد الأمر بياناً من خلال الحديث عن أنواع الخطب وخصائص الخطب المنبرية، والفقرة التالية في أثر الخطبة تعطي مزيد بسط في المقصود.

أثرها:

لا يكاد ينجح صاحب فكرة، أو ينتصر ذو حق، أو يفوز داعية إصلاح، إلا بالكلمة البليغة، والحجة الظاهرة، والخطبة الباهرة.

الخطيب المفوه يلحق بحجته، ويسبق إلى غايته، فيعلو سلطانه، ويتسع ميدانه.

ولهذا؛ فإن القائد المحنك في الجيش يتميز فيما يتميز بذراية لسانه وحسن خطابه، فيكون خطيباً مصقلاً ولساناً مفوهاً، ولا يذكر حين يذكر إلا منذر الجيش نبينا محمد ﷺ ومن بعده خطباء أصحابه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ثم من بعدهم من صالح سلف الأمة وأئمتها من علوا المنابر فأصغت لهم الآذان ودانت لهم الرقاب.

ولئن كانت الخطبة في بعض مساريها أو مساراتها طريقاً للمجد الشخصي، فإنها في نبل غايتها وعظيم أثرها طريق للنفع العام والإصلاح الشامل.

والخطابة مظهر حضاري للمجتمع الراقي المستنير، يعلو قدرها،

ويروج سوقها برقي المجتمع، وانتشار الثقافة فيه، كما أنها تخبو حين ضعفه وذلتها.

وتمت جانب في التأثير آخر ينبغي مراعاته، وهو أن تأثير الخطيب في سامعيه ليس بالإلزام أو الإفحام، بل مرده إلى إثارة العاطفة، وحمله على الإذعان والتسليم، ولا يكون ذلك بالدلائل المنطقية تساق جافة، ولا بالبراهين العقلية تقدم عارية، ولكنه بإثارة العاطفة ومخاطبة الوجدان.

ومن هذا؛ فإن الخطيب قد يستغني عن الدلائل العقلية ولكنه لا يمكن أن يستغني عن المثيرات العاطفية، ولعلك تدرك أن أكثر ما يعتمد عليه الخطيب في حمل السامعين على المراد مخاطبة وجدانهم والتأثير في عواطفهم.

إن الخطيب المرموق - كما هو معلوم - يأخذ سامعيه باستدراجه اللبق وكلماته الساحرة وصوته العذب المتردد انخفاضاً وارتفاعاً وإثارةً وهدهوءاً ينشئ جواً عاطفياً مشحوناً، وهذا معين في التأثير لا ينضب ولا يمل.

أما البراهين العقلية فجافة تجلب السآمة.

وحينما يذكر خطاب العاطفة وأثرها فلا يخطر بالبال أن ذلك يعني دغدغة العواطف بالكذب والتزييف، ومخالفة الأقوال للأفعال فهذا حبله قصير بل ضعيف واه، وهذا ما سيبدو موضحاً في صفات الخطيب إن شاء الله.

أنواع الخطبة

الناظر في أغراض الخطبة ومقاصدها ومتطلبات المجتمع من ذلك يستطيع إدراك أنواعها، وهذا سرد لأهم أنواعها:

١ - **الخطب النيابية:** وهي الخطب التي تكون في دور النيابة والشورى عاكسة ما يجري داخل هذه القاعات من مناقشات ومداولات وأسئلة واستجابات مؤيدة ومعارضة.

٢ - **الخطب الانتخابية:** وهي خطب تعد وتلقى من أجل الترشيح والتزكية لشخص أو حزب أو مبادئ، مع ما يشتمل عليه ذلك من رد على المعارضين.

٣ - **الخطب الثقافية:** وهي ما يلقي في النوادي الثقافية والأنشطة العلمية والجامعية، وهي في العادة تتخذ مساراً ثقافياً وأدبياً وعلمياً واجتماعياً وتوجيهياً بما يبتعد عن الأغراض السياسية والقضائية والوعظ، وتعلو النبرة فيه بما يعرف بالمعارك الأدبية بين المنتدين حسب اتجاهاتهم الأدبية، شعراً ونثراً وتليداً وجديداً، وهو في العادة خطاب لطبقة مثقفة متأدبة ذات تميز ثقافي خاص.

٤ - **الخطب القضائية:** ويظهر هذا النوع في دور القضاء وقاعات المحاكم، حين ينبري المدعون بإلقاء حججهم والسعي في إثبات دعواهم، فيقابلهم المحامون بالدفاع عن موكلهم بأسلوب خطابي بليغ مؤثر ذي ألفاظ وإلقاء متميز وحركات مدروسة.

٥ - **الخطب العسكرية:** وهي ما يلقيه قائد العسكر على جنده وزملائه بغرض بث الروح المعنوية والقتالية فيهم وبيان شرف موقعهم،

وكرم موقفهم وشرح خططه العسكرية والميدانية بأسلوب انفعالي مؤثر.

٦ - **خطب المنبر والمواعظ:** وهذا هو محل البحث والنظر والتفصيل هنا، وهذا النوع يتجلى في أبهى صورته وكامل هيئته وانتظام شكله في خطب الجمعة المنبرية، وهي خطب أسبوعية دورية تتخذ أغراضاً عدة وترمي إلى مقاصد متنوعة نشير في هذا التعريف إلى نماذج منها، إذ من المعلوم أن هذه المقاصد والأغراض تتجدد وتتغير حسب حاجات الناس وتغير الأحوال وتقلب الظروف ودواعي التذكير.

*** من هذه الأغراض:**

- تثبيت العقيدة وتقوية الإيمان.
- الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه وبيان مزاياه.
- خطب الإصلاح ومحاربة المنكرات.
- خطب ذات موضوع خاص أو مسألة مفردة من مسائل الإسلام: كالصلاة والصوم وحقوق الوالدين والجوار وحرمة الزنا والخمر والسرقة ونحو ذلك، مما مقصد التذكير والوعظ والتعليم ونحو ذلك.
- معالجة القضايا المستجدة بنظرة شرعية.
- ٧ - **أنواع أخرى:** الأنواع السابقة ليست أنواعاً حاصرة ولكنها تشير إلى الأنواع البارزة السائدة المتميزة في موضوعاتها ومقاصدها، وثمت أنواع أخرى غير شهيرة ذات موضوعات ومقاصد أخرى: كخطب النكاح والصلح والمدائح والمراثي والمناسبات الاجتماعية والمحافل الشعبية.

إعداد الخطبة وبنائها

بعد ما سبق من مقدمات وممهّدات في تعريف الخطبة وغرضها وأنواعها وأثرها هذا دخول في جزء مهم من مقاصد هذا البحث، ذلكم هو جزء الإعداد والبناء، وسوف ينتظم ذلك الحديث عن: عناصر البناء وطريقة البناء.

□ توطئة:

لا يتوهم متوهم أن في إعداد الخطبة وتحضيرها ما يعيب القدرة أو يشكك في الأهلية، ولكن المعيب أن يتفوه المتصدر للخطابة وحديث الناس بكلام مبتذل لا قيمة له، هزيل في معناه، متهدم في مبناه.

على الخطيب أن يعلم أنه كالحائض غمار معركة عليه أن يتدرب بدروعها ويتترس بتروسها ويلبس لها لأمتها، ولا يكون ذلك إلا بالاستعداد والتهيؤ وأخذ العدة لكل موقف.

إن ذا الاطلاع الواسع والعلم الغزير إن لم يراجع نفسه حيناً بعد حين ويفكر طويلاً فيما يعتزم قوله ويزوق في نفسه أو قرطاسه من الألفاظ والعبارات المناسبة، فلسوف يهتز موقفه، ويضعف أسلوبه، ويتراخى أدائه، ويتناقص عطاؤه، وينحدر في منحرف الابتذال السحيق وتكون معالجاته سطحية تفقد تأثيرها وتخسر جمهورها.

عناصر البناء

من المعلوم مما سبق ويتأكد فيما سيأتي أن الخطبة وسائر الأعمال العلمية والأدبية تحتاج إلى أسس ثلاثة:

قلب مفكّر، وبيان مصوّر، ولسان معبّر.

فالأول: يكون به إيجاد الموضوع وابتكاره وتوليده، وبالثاني: تنسيقه وترتيبه ورصّه، وبالثالث: عرضه والتعبير به. وهذا بسط لهذه العناصر.

الإيجاد والابتكار:

(القلب المفكر): وقد يعبر عنه بالاختيار (اختيار الموضوع).

من المعلوم أن بواعث الاختيار متعددة، والخطيب كلما كان صادقاً في قصده، مهتماً بجمهوره وسامعيه، جاداً في طرحه محترماً لنفسه، فسوف يحسن الاختيار، ويقدح زناد فكره بجدية نحو الابتكار وحسن الاختيار، يضاف إلى ذلك الظروف المحيطة، والأحوال المستجدة، والأغراض الباعثة التي تستدعي الحديث عن بعض الوقائع والتعليق على بعض الأحداث والتفسير لبعض المواقف وتصحيح بعض المفاهيم، ونظر الخطيب الحصيف يده على تقديم بعض وتأخير بعض وحسن التفسير ونوع التعليق.

التنسيق والترتيب:

(البيان المصور): لا يخفى أن طريق البيان المصور هو الأسلوب. للأسلوب سلطان لا يضعفه العقل وأثر لا يمحوه الدليل، الأسلوب ألفاظ وجمل ينطق بها المتكلم ويتحدث بها الخطيب لا تكاد

تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين وتمتد الأعناق له احتراماً، ألفاظ وجمل تثير في النفوس صوراً لا حد لها ولا انحصار، محفوفة بالإكبار والتقدير، إذا كان هذا هو بعض أثر الأسلوب وتأثيره فكيف يكون الشأن في المعنى المحكم وقد كسي بلفظ جميل وألقي بلفظ منسجم وعبارات تثير في النفس أخيلة وأمانى.

وينبغي أن يلحظ أن ثمت فرقاً بين أسلوب الخطابة وغيرها من ألوان الكتابة والآداب، فالمستمع يتوجه نحو الخطيب بسمعه وذوقه وفكره، فللكلمات أثر على السمع، وللجرس في النفس وقع، وللعقل فيه إدراك.

ومن أجل هذا؛ فينبغي أن تكون ألفاظ الخطبة سهلة النطق لا يتعثر اللسان في إبرازها، ولا تتزاحم حروفها فلا تتقارب مخارجها ولا تتباعد، كما ينبغي أن تكون ذات جرس خاص يهز النفس ويشير الشعور، وتكون الجمل ذات مقاطع قصيرة كل جملة كاملة في معناها.

إن من أهم خصائص الأسلوب الخطابي: عنصر الشعور والوجدان والإثارة والتشويق، وإذا فقد ذلك فقدَ أكبر خصائصه.

أسلوب التكرار والتفنن في التعبير عنصر في الخطابة هام، فالخطيب محتاج إلى تكرار فكرته ومغايرة تصويره، فمرة بالتقرير، ومرة بالاستفهام، وأخرى بالاستنكار، ورابعة بالتهكم.

أما فن الإيجاز والإطناب؛ فيختلف من حال إلى حال، فيراعى حال السامعين في إقبالهم ومللهم ونوع الموضوع وظروف الإلقاء، وردود الفعل عند السامعين.

أما ألفاظ الخطبة وعباراتها؛ فينبغي أن تتسم بالوضوح والبيان لتكون سهلة الإدراك من السامعين، سريعة الإيصال إلى المقصود، بعيدة عن الوحشي والتكلف.

وفي ذات الوقت تبقى محترمة غير مبتذلة تحفظ للخطيب وخطبته الهيبة والوقار، وللموقف مكانته وجلاله.

فهي ألفاظ منتقاة في غير إغراب في أسلوب سهل ممتنع يفهمه الدهماء ولا يجفو عنه الأكفاء.

ومن الحذق في المعرفة أن يدرك الخطيب أن خطاب الحماس غير خطاب التألم، وحديث الترغيب غير حديث الترهيب، وأسلوب تعداد المفاز وزرع الثقة غير أسلوب التواضع وذم الكبر والمتكبرين، والخطيب المتمرس هو الذي يضع كل نوع في موضعه ويختار لكل كلمة قلبها وميدانها.

أما السجع؛ فيجمل منه ما ليس بمتكلف قصير الفقرات، سهل المأخذ يخف على السمع، ويحرك المشاعر بحسن جرسه، ويكون خفيفاً سهلاً إذا سلم من الغثاثة وجانب الركاقة، اللفظ فيه تابع للمعنى وليس المعنى تابعاً للفظ، ذلك أن السجع حلية والحلية لا تحقق غرضها في الجمال ما لم تكن قليلة غير متكلفة حسنة التوزيع، تبرز المحاسن ولا تغطيها.

ويرتبط بالسجع رعاية المقاطع والفواصل فتكون جُملاً قصيرة نظراً للفائدة عند الوقوف في آخرها، والجملة إذا طالت وتأخرت إفادتها للسامع أدركه الثقل والملل، وضاعت عليه الفائدة وحسن المتابعة.

(اللسان المعبر): ويقصد به الإلقاء وحسن الإجابة فيه، وقبل أن نبسط القول فيه يحسن التطرق لحديث مقارنة بين الارتجال والكتابة.

بين الارتجال والكتابة:

كثير من الكاتبين والناقدين يستحسنون في الخطيب أن يلقي خطبه ارتجالاً، فهذا عندهم أعظم أثراً وأكثر انفعالاً، وأقدر على إعطاء الموقف متطلباته من خفض ورفع وتهدة وزجر، وقد يدون المرتجل عناصر مقولته في كلمات أو جمل يعاود النظر إليها بين فينة وفينة.

وقد يوجد في الخطباء من يعد الخطبة ويحسن تحبيرها ثم يحفظها حفظاً عن ظهر قلب.

والارتجال بأنواعه وطرقه لا يكون مؤثراً ما لم يسبقه إعداد محكم وحبك للعناصر في النفس على نحو ما سبق في الكلام على الأسلوب.

وثمت فئة من الناس تكتب الخطبة وتلقيها من القرطاس وهو مسلك مقبول، ولكن ذلك لا يؤتي ثمرته ولا يحقق غايته، ما لم يكن الخطيب أحسن الإعداد وتأمل فيما كتب وأعاد النظر فيه تأملاً وقراءة وإصلاحاً وتخييراً للألفاظ وانتقاءً للعبارات، بحيث يكون في إلقائه متفاعلاً مع ما يقول، مستوعباً لما يلقي ليحرك المشاعر ويشير العواطف، ويستحسن أن يكون في قراءته وإلقائه مشرفاً على السامعين بنظره بين فترة وأخرى ليعرف حالهم ويسبر مشاعرهم وانفعالاتهم.

الإلقاء:

هو الغاية التي ينتهي إليها الإعداد والبناء، وهو الصورة التي

يتلقى بها السامع حصيلة ما جاد به خطيبه، فلا يبقى للخطبة أثرها ولا لحسن الأسلوب وقعه ولا لجودة التحضير ثمرته ما لم يصب في قالب من الإلقاء يحفظ الجهد ويبقي المهابة ويشنف الأسماع، ومن أجل تحقيق ذلك يحسن مراعاة ما يلي:

جودة النطق:

فيخرج الحروف مخارجها من غير تشدق أو تكلف، فيلقاها حسنة صحيحة واضحة في يسر وترفق وتدفق.

مجانبة اللحن:

ينبغي للخطيب أن يعتني عناية تامة باللغة العربية صرفاً ونحواً فينطق لغة عربية صحيحة فصيحة، فاللحن يفسد المعنى ويقلب المقصود.

وإذا فسد المعنى أو التبس ذهب رونق الخطبة وبهاؤها وحسن وقعها، إضافة إلى فساد المعنى من حيث يدري أو لا يدري.

التمهل في الإلقاء:

النطق السريع المتعجل يفقد المتابعة كما أنه قد يشوه إخراج الحروف فيختلط بعضها ببعض وتتداخل المعاني وتلتبس العبارات، وقد يؤدي به التعجل إلى إهمال الوقوف عند المقاطع ورعاية الفواصل.

ومن جهة أخرى؛ فإن التمهّل والترسل في الأداء من أول الدلائل على رباطة الجأش فيجمع للخطب الهدوء في الكلام، والأناة في النطق، والجزالة في الصوت.

وهذا التمهّل الذي ندعو إليه لا ينبغي أن يقود إلى هدوء بارد

وتثاقل مميت، ولكنه تمهل لا يعارض ما يطلب من الخطيب من خفض ورفع وعلو نبرات، مما يبعث على الحياة وحسن المتابعة ودفع السامة.

الحركات والإشارات :

للإشارات والحركات أثرها أثناء الحدث والخطابة، ومن هذه الحركات ما هو لا إرادي فالغضب يقطب جبينه ويعبس وجهه، وذو الحماس تنتفخ أوداجه وتحمر عيناه، ومنهم من تنقبض أصابعه وتنسبط، ومنهم من يبكي خشوعاً ورقةً ويعلو صوته حماساً وتفاعلاً.

وبعضها إرادي من إشارات توجيهية يحتاج إليها في تنبيه لبعيد أو قريب، إشارات تعكس الانفعال والمشاعر وتعين على مزيد من المتابعة والتوضيح.

وينبغي أن تكون إشارات منضبطة بقدر معقول وانفعال غير متكلف ومتساوقة مع الشعور الحقيقي.



طريقة البناء

تبنى الخطبة عادة من ثلاثة أجزاء: المقدمة والموضوع والخاتمة. وهي عناصر لا يصحح بها أثناء الكتابة أو الإلقاء، كما أنها عناصر متداخلة متناسقة، يبلغ الترابط بينها جودته حسب مقدرة الخطيب وغزارة علمه وخبرته؛ فتتظم أجزاء الخطبة ويحكم تركيبها.

وهذا الانتظام والإحكام يجعل المعاني واضحة والمقاصد ظاهرة، ويضمن للمتحدث حسن الإصغاء من سامعيه وكمال الانتباه من جالسيه.

وقد لا يلزم مراعاة هذه الأجزاء في كل خطبة لكن خطبة الجمعة غالباً ما تحتاج إليها نظراً لأنها خطبة طويلة غير قصيرة.

□ المقدمة:

ينبغي أن يهتم الخطيب بمقدمته وافتتاحيته، فيأتي بعبارات الاستهلال التي توحى للسامع بمقصود الخطبة، مما يشد الانتباه ويهيئ النفوس، وقد يكون ذلك بآيات قرآنية زاجرة أو مرغبة أو بعض الحكم البليغة، والافتتاحية هي أول ما يلقيه الخطيب على جمهوره، فإذا ما فاجأهم بحسن التقديم استطاع متابعة بقية خطبته بانطلاق ونشوة، وعاش مع جمالها اللفظي وسبكها الفني ومعناها الدقيق.

وإن الناظر في افتتاحيات أوائل السور في القرآن الكريم يدرك ما تثيره في النفس من الإجلال والشوق والرغبة في المتابعة، فترى الافتتاح حيناً بالثناء على الله عزَّ وجلَّ وتسبيحه وتنزيهه، وحيناً بالنداء أو الاستفهام أو القسم مما يولد الرغبة في المتابعة ويولد اللفتة في الاستكشاف لدى كل ذي ذوق رفيع وحس مرهف.

والمقصود أن يكون في صدر الكلام ما يدل على غاية المتحدث، على أن من المعلوم أن خطبة الجمعة تفتتح بحمد الله والثناء عليه والشهادتين والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، ويكون في هذه الألفاظ من حسن الانتقاء ما يدل على موضوع الخطبة ومقصودها.

ومعروف عند المتقدمين من السلف رحمهم الله أن ما لا يتبدأ بالحمد فهو الأجذم الأبتَر، وما لم يزين بالصلاة على رسول الله ﷺ فهو المشوه.

□ الموضوع:

وهو مقصود الخطبة الأعظم، وقد أشرنا في الكلام على أنواع الخطب إلى معظم مقاصد خطبة الجمعة.

وقد يكون من المناسب التصريح به في مبتدأ الخطبة كأن يقول: أريد أن أحدثكم عن كذا.. إذا كان من قضايا الساعة التي يخوض فيها المجتمع ويتطلع إلى كلام شاف فيها.

وقد لا يحسن التصريح به، إما لأنه شائك أو يوجب انقسام الناس، وفي هذه الحالة ينبغي أن يدخل إليه الخطيب دخلاً متدرجاً، ويتناوله تناولاً غير مباشر، ليأخذ السامعين بتسلسل منطقي فيصل إلى مبتغاه باعتدال وتوازن متحاشياً الإثارة والانقسام، ومن ثم يبلغ الخطيب غايته من تهيئة النفوس إن كانت عنه معرضة وإليه غير مقبلة أو كان حديثاً في غير ما تألفه نفوسها.

وموضوع الخطبة عادة ما يبتنى على ركنين أساسيين هما التعريف والإيضاح والاستدلال.

□ التعريف والإيضاح:

أما التعريف والإيضاح: فلا يقصد به ما يعتني به الباحثون المختصون من اللغة والاصطلاح، ولكنه يكون بذكر الصفات والخواص والمزايا لذات الموضوع وقد يكون الاستعارات والتشبيهات وضرب الأمثال والإجمال ثم التفصيل وبالصلة والتضاد والتقابل. وانظر إلى هذا التعريف من علي رضي الله عنه للمتقين من خلال أوصافهم ونعوتهم فهو يقول: «المتقون هم أهل الفضائل، منطقتهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيتهم التواضع، غضوا أبصارهم عن الحرام، ووقفوا

أسماعهم على النافع من العلم، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتّي نزلت في الرخاء، ولولا الأجل الذي كتب لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب».

□ الاستدلال:

أما الاستدلال: فغالباً يحتاج الموضوع إلى ما يدعمه بالأدلة والحجج والبراهين والشواهد وهي عادة ما تكون من الكتاب والسنة وأقوال السلف، وإيراد بعض الوقائع والأحداث من باب القياس والاعتبار بل إن زيادة الإيضاح والبسط والبيان نوع من التدليل وكسب إقناع المستمعين بصدقها أو أهميتها أو خطورتها، ومما يدخل في هذا الباب دخولاً أولاً ربط الحاضر بالماضي وبخاصة تاريخ السلف الماضين، فإن من النفوس من تحفظ تقديراً وإكباراً لسلفها المجيد، وأصحابه الأماجد، ولأمر ما قال الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ عَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾^(١)، وقالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ عَابَاءَنَا﴾^(٢).

وفيفيد في هذا الباب النقل عن مشاهير الأئمة وحكمائها ممن عرفوا بالصلاح والإمامة والمروءة والزهد والشجاعة والورع حسبما يقتضي المقام ويناسب المقال.

□ الخاتمة:

بعد أن يفرغ الخطيب من عرض موضوعه، وسوق أدلته، وضرب أمثله، وبيان دروسه وعبره، وترغيبه وترهيبه، يحسن أن ينهي

(١) الزخرف، الآية (٢٢).

(٢) البقرة، الآية (١٧٠).

خطبته بخاتمة مناسبة تجمع أفكاره، وتلخص موضوعه بعبارات مغايرة، وطريقة مختصرة، لأن الإطالة في هذه الحالة تجلب الملل وتشتت الفكر. ولا ينبغي أن تحتوي على أفكار جديدة وأدلة جديدة لأنها حينئذ لا تكون خاتمة وإنما جزء من الخطبة وامتداد لها.

وتكون الخاتمة قوية في تعبيرها وتأثيرها، لأنها آخر ما يطرق سمع السامع ويبقى في ذهنه، وإذا كانت ضعيفة في تركيبها فاترة في إلقائها، ذهبت فائدة الخطبة، ذلك أن من نجاح الخطيب أن يلقي خاتمته بثقة وطريقة مؤثرة ومقنعة، وكأنه يشعر جمهوره بأنه قد انتهى إلى رأي ومسألة لا تقبل الجدل ولا تحتمل النظر.

وقد تكون الخاتمة آيات قرآنية لم يسبقها من قبل، تجمع موضوعه في الترغيب أو الترهيب أو التدليل والإثبات، وقد تكون حديثاً نبوياً يفيد ما تفيد الآيات القرآنية.

وقد يكون إعادة لعناصر الخطبة بأسلوب مغاير - كما أسلفت - وبطريقة جامعة واضحة ذات تأثير قوي.

هذا ما يتعلق في بناء الخطبة، وثمت مسائل لا يسع الكاتب إغفالها من أجل استكمال التصور الشامل عن الخطبة وحسن إعدادها وهي مسائل ثلاث: وحدة الموضوع، الجودة والتغيير، طول الخطبة.

وحدة الموضوع:

ينبغي الاقتصار على موضوع واحد تستوفى عناصره، وتحبر كلماته، وتعمق معالجته، لأن تشعب المواضيع وتعدد القضايا في المقام الواحد يشتت الأذهان، وينسي بعضها بعضاً، ويقود إلى الإطالة المملة والصورة الباهتة وسطحية المعالجة.

الجدّة والتغيّر:

ويعني ذلك ألا يلتزم الخطيب طريقاً واحدةً أو وتيرةً واحدةً في أسلوبه وطريقة إلقاءه، بل يكون استفهامياً تارة، وتقريراً أخرى، وضرباً للأمثال، وتلمساً للحكم والأسرار، مع ما يطلب من معاشة الأحداث، ومتابعة المتغيرات، وتلمس حاجات الناس وتوجيههم وتبصيرهم تمشياً مع أثر هذه المتغيرات عليهم.

على أن الخطب المنبرية بطبيعتها قد تستدعي تكراراً لبعض مواضيعها إن لم يكن كثيراً منها؛ لأن من أعظم أغراضها ومقاصدها الدعوة والتذكير. والتذكير في حقيقته يعني الحديث عن شيء سبق علم السامع به فهو تنبيه لغافل، وحث لمقصر، مما تستدعي التجديد في الطرق والأسلوب والمعالجة، كالتوحيد والعبادة والصلاة والصوم والزكاة وبر الوالدين والمحرمات من الربا والزنا والخمر والزور وأكل أموال الناس بالباطل وأمثالها مما يجب مراعاة التجديد في طرقها والتغيّر في عرضها.

طول الخطبة:

من المعلوم أن معالجات المواضيع تختلف باختلاف محتواها وظروفها وسامعيها، ففي بعض الظروف يحسن البسط والإطناب، ويكون السامعون مستعدين لاستماع، كما هو مشاهد في ظروف الأزمات والأوضاع ذات النقاشات الحادة والأحوال المتوترة، كما أن بعض الخطباء عنده من الجاذبية وحسن العرض والإلقاء ولطف التودد والأخذ بالألباب ومجامع العقول ما يجعلهم يطلبون المكوث حول خطيبهم ويقبلون منه الإطالة، إن هذه ظروف وأوضاع لا تنكر ولكن الحال الأغلب والواقع الأعم أن النفوس لها حد تحسن فيه الاستماع

وتدرك فيه المعاني، بعده تتشعب وتقف ويصبح الكلام عندها مملولاً، والكلام ثقيلاً، وينسي بعضه بعضاً، فالوصية العامة للخطباء: أن يجتنبوا الإطالة، ويجنحوا إلى الاعتدال وتغليب جانب الاختصار على الإطناب في أعم الأحوال، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه»^(١).

ويحسن من الخطيب أن يعود سامعيه على زمن معتدل ثابت يلتزمه فإنهم إذا خبروه بانضباطه ودقة التزامه أحبوه ولازموا حضوره.

ومن الخير للخطيب وجمهوره أن ينفضوا وهم متعلقون بخطيبهم من غير ملل أو سامة.



صفات الخطيب وأدابه

لكل خطيب متميز خصوصيته:

مهما كانت الأفكار بديعة، والابتكارات متميزة، والاختيارات قوية، والأسلوب رصيناً، والإلقاء عالياً، فلن تتحقق المثالية والأنموذجية للخطبة بهذه العناصر وحدها؛ لأن هناك عاملاً مهماً لا يجوز إغفاله، إنه خصوصية الخطيب وانفراديته، وبعبارة أخرى انصهارية هذه العناصر وانسجامها، وهذا لا يتأتى إلا من خلال الخطيب وشخصيته وتكامل موهبته وخصائصه العلمية والفنية.

(١) مسلم «الجمعة» (٨٦٩)، أحمد (٢٦٣/٤)، الدارمي «الصلاة» (١٥٥٦).

إن الخطبة كاللباس المفصل على القامة لا يظهر جماله ولا يتكامل بناؤه إلا بقدر انسجامه على بدن اللابس.

إن جودة اللباس وحسن لونه ونوع خياطته ودقة تفصيله لا تكفي في إعطاء الملبس الحسن إلا بعد اتساق ذلك مع قامة اللابس وبدنه، ولهذا؛ فإن الخطبة الجيدة مستوفية العناصر لو ألقاها غير صاحبها لما ظهرت بذات القوة والتأثير والجمال والتأثر.

إذا كان الأمر كذلك فينبغي للخطيب المتطلع للنبوغ والإبداع أن يعرف مواهبه الخاصة ويحسن صقلها وتنميتها، ويستقل بالابتكار والاختيار والأسلوب والإلقاء، لأن المداومة على التقليد والمحاكاة وإطالة الاقتباس لا تنتج خطيباً متميزاً ذا خطب مثالية، والله المستعان على الإحسان والإخلاص.

وهذا عرض لما ينبغي أن يكون عليه الخطيب من صفات وما يتحلى به من آداب.

□ صفات الخطيب:

تنقسم الصفات المبتغاة في الخطيب إلى نوعين: صفات فطرية وصفات مكتسبة.

الصفات الفطرية:

ويقصد بها الصفات الذاتية لدى الخطيب من الاستعداد الفطري والسليقة الطبيعية، من طلاقة اللسان، وفصاحة المنطق، وثبات الجنان، وصوت جهوري، وأداء متوثب، ولسان مبين سليم من عيوب الكلام كالفأفة والتأتأة. مخارج الحروف عنده صحيحة.

والخطيب كغيره من المربين والموجهين يحتاج إلى عقل راجح يقوده إلى البحث المركز، والملاحظة الدقيقة، وحسن المقارنة، والمعرفة بطبائع الأشياء، وسلامة الاستنتاج، مع يقظة حية وبديهة نيرة يضم إلى ذلك الجرأة والشجاعة والثقة بالنفس ورباطة الجأش وهذه الصفات تتوثق مع قوة التكوين العلمي وجودة التحضير وطول الخبرة.

الصفات المكتسبة:

وهي صفات ينالها الخطيب بالدراسة والمران والدربة ويمكن تفصيل ذلك فيما يلي:

١ - القراءة والاطلاع والتحصيل الكافي من العلم:

لا بد للخطيب صاحب الموهبة الفطرية من تهذيب فطرته هذه وصقلها بالعلم والدراسة ويتركز ذلك في عدة مسارات:

(أ) علوم القرآن والسنة: وهذا هو لب بضاعته، والسبيل إلى تحقيق عنايته، ينضم إلى ذلك إلمام بالسيرة وتاريخ الأمة وأئمتها ودراية بأحكام الشريعة، وقد تحسن العناية بأنواع من العلوم التي تفيد في معرفة أحوال الأمم وسنن الله في التغيير: كالعلم بمناشئ الأمم، ومراحل التاريخ وعلم الأخلاق والنفس والاجتماع.

(ب) الإكثار من الاطلاع على الكلام البليغ والنظر في أقوال البلغاء، متأملاً في مناحي التأثير وأسرار البلاغة، متذوقاً جمال الأسلوب وحسن التعبير، فهذا مما يشحذ القريحة ويذكي الفطنة.

(ج) تحصيل ثروة كثيرة من الألفاظ والأساليب، فالخطيب يحتاج إلى عبارات وأساليب متنوعة للمعنى الواحد ليتمكن من إيصال المعنى لطبقات السامعين ورفع السامة عن نفوسهم، ولا يخدمه في ذلك إلا ثروة لغوية ثرة من أجل أن يأخذ بنواصي البيان، فيلقي جملاً تثير خيال النفس، وتهز مشاعر الوجدان، فتنشط الأسماع وتشرّب الأعناق وتفتح القلوب للعبارات المحكمة والمعاني المتقنة، وبهذا ينطلق اللسان، ويظهر البيان، وتتشنف الأسماع.

٢ - الدربة والمران:

الخطابة ملكة لا تتكون في دفعة واحدة بل إنها معاناة وممارسة ومران، وإذا كانت الخطابة فكرةً وأسلوباً وإلقاءً محكماً؛ فإن المران ينبغي أن ينتظمها كلها. ففي باب الفكرة عليه أن يتعود ضبط أفكاره ووزن آرائه وحسن الربط بينها ليأخذ بعضها برقاب بعض ويوصل بعضها إلى بعض بتسلسل منطقي مرتب.

وفي باب الأسلوب - كما سبق - الإحاطة بالقول البليغ وحفظ كثير من عيونه وحسن استخدامها.

أما الإلقاء - فكما سبق أيضاً - يجمل بالخطيب إجادة الدقة في مخارج الحروف وحسن أدائها بترسل وتخير نبرات الصوت الملائمة انخفاضاً وارتفاعاً غير هباب ولا وجل.

وإذا ما تم له ذلك أصبح واثق العلم رصين الأسلوب، رابط الجأش، مطمئن النفس، ثابت الجنان، ولو حصل عكس ذلك أو قل مرانه لأحاط به الاضطراب والضعف وهان في أعين الحضور واضمحل تأثيره، وذهب كلامه هباءً وتصبب عرقاً وغرق في الحيرة والدهشة وعلاه الارتاج والإفحام.

❑ إضافات وصفات وآداب عامة:

إضافات:

هذه أساسيات التحصيل العلمي والدربة وهناك ملاحظات متعلقة بها يحسن بالخطيب رعايتها، منها:

تجنب الخوض فيما لا يعلم: على الخطيب الابتعاد عن الخوض فيما لا يعلم؛ فإن هذا موقع في الارتباك والحديث غير المفهوم، فتضيع الهيبة والوقار ويصبح محل التندر مما يمنع الاستفادة والقبول وينفر الجمهور.

مخاطبة الناس بما يعرفون: من الخطأ وقلة الفقه في خطاب الناس الخوض في دقائق العلوم والمعارف، وتفاصيل المباحث إثباتاً أو نفيّاً ونقاشاً علمياً، والغوص في الخلافات العلمية والفقهية مما مجاله حلق العلم وقاعات الدراسة، ناهيك بمن يخوض في العلوم التجريبية والعلوم البحتة: من طب وتشريح وفلك وجيولوجيا ودقائق خلق الإنسان والحيوان ومكونات الأرض والصخور، مما لا تدركه فهم عموم المستمعين؛ فهذا يمنع الفائدة ويُجرّئ على الاستهانة بالخطيب وموضوعه.

مراعاة مقتضى الحال وأحوال السامعين:

لكل مقام مقال، ولكل جماعة لسان، فالحديث إلى العلماء غير الحديث إلى الأغنياء، والحديث إلى العامة غير الحديث إلى العلية، وخطاب الأميين غير خطاب المثقفين، والكلام في حالات الأمن يختلف عنه في حالات الخوف، وقل مثل ذلك في اختلاف الظروف

وتقلبات الأحوال من غنى وفقر وصحة ومرض ورخاء وجذب، ومخاطبة الثائرين غير مخاطبة الفاترين، فالثائر يقمع والفاتر يستثار.

والمتكلم المجيد يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار السامعين وأقدار الأحوال، فيجعل لكل طبقة كلاماً ولكل حال مقاماً، فيقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني وأقدار المعاني على أقدار المقامات.

ناهيك بمراعاة الفروق بين خطاب أهل القرية النائية والمدينة المكتظة، فصخب المدينة وأحداثها غير عزلة القرية ومحدوديتها.

آداب يلتزم بها:

يضاف إلى ما سبق من الصفات فطريها ومكتسبها بعض آداب تفيد في تحقيق النفع وبلوغ الأثر وحصول القبول.

صدق اللهجة:

لا بدّ أن يظهر الخطيب مخلصاً صادقاً حريصاً على قول الحق والعمل به والدعوة إليه، فهذا ينبت الفقه، فلا يسرف في مدح ولا ذم ولا وعد ولا وعيد، يبتعد عن فاحش القول وبذيئه، يستغني بالكناية عن التصريح فيما يستهجن فيه الإيضاح، فعفة اللسان ونزاهته دليل على نزاهة القلب وصفائه.

التودد للسامعين:

ينبغي للخطيب أن ينحو منحى الرفق والتبشير والتيسير قدر المستطاع، فمن أظهر المحبة كان أجدر بأن يستجاب له، ومن أغضب واستثار كان أحرى بأن يرد قوله.

ومما يدخل في هذا الباب البعد عن العجب والحديث عن النفس وتجنب الأغراض الشخصية، فظهور الغرض الشخصي يجعل للريبة مدخلاً، فحقه أن يسبقهم في المكارم، ويقدمهم في المغارم، ويقدمهم في المغانم.

الورع والصلاح:

الورع والتدين والعفة والصلاح من أدل الدلائل على الصدق والإخلاص وتجرد الإيمان والبعد عن الأغراض والأهواء، فعلى الخطيب أن يتسربل بسربال التقوى، ويتدثر بدثار الاستقامة.

اليقين العميق والاعتناء الشخصي:

يجب أن يكون الخطيب شديد الثقة بما يقول، صادق اليقين بما تفيض به نفسه وينطق به لسانه، إذ لا يؤثر إلا المتأثر، وما كان من القلب فهو يصل إلى القلب.

إن قوة الاعتقاد وصحة اليقين تكسب الكلام حرارةً، والصوت تأثيراً، والألفاظ قوةً، والمعاني روحاً، وكل ذلك يولد جواً عاطفياً حول الخطيب يجعل كلامه متصلاً بوجدانه.

صفات وآداب عامة:

ما سبق لم يكن حصراً للصفات والآداب، ولكنها إشارات بينها ترابط في ثناياها إشارات إلى غيرها مما قد تراه مبسوطاً في مراجع أخرى، فالحديث في ملك هذه الصفات والآداب يعمق ويتشعب، وبخاصة في مثل الخطيب والموجه المربي والمعلم ورجل الدعوة فهم أمثلة تحتذى ويوجهون بأعمالهم وصفاتهم قبل أقوالهم وعلومهم، وهما

سرداً لبعض الصفات لتدلك على ما قلنا، مما لا ينبغي أن يغفل عنه الخطيب وأمثاله ويتعاهد نفسه بفحصها وتجديد تقويتها في ذاته والالتزام بها من الحلم، وسعة الصدر، والتواضع، والصبر، والقوة، والحنو على الناس، وخدمتهم وإظهار الشفقة عليهم، وتجنبهم الجدل والخصام، وأثر ذلك على عمله ومهمته وقومه لا يخفى إيجاباً في الالتزام وسلباً في الخلل والتقصير، والله المستعان.



مصادر الخطبة

يتم إعداد الخطب المنبرية وجمع عناصرها من المصادر والمراجع الإسلامية، والكتابات الاجتماعية والتربوية والثقافية، وإليك استعراض إجمالي لبعض هذه المصادر وكيفية الاستفادة منها:

١ - القرآن الكريم وتفسيره:

ويمكن أن تكون الاستفادة في تقديري على طريقتين:

أحدهما: باستعراض النصوص القرآنية وجمعها وحسن ترتيبها، وهذا يكون في موضوعات الخطب التي عرض لها القرآن بتفصيل واسع، كالإيمان والتوحيد والتقوى وأحوال القيامة واليوم الآخر والجنة والنار وقصص الأنبياء وأشباه ذلك، فجمع الآيات واستعراضها يعطي تكاملاً وشمولاً وبياناً لدى السامع، قد لا يدركه لو قرأ الآيات في مواضعها من المصحف.

ويتبع الجمع الاطلاع على تفسير هذه الآيات ألفاظاً وإجمالاً،

ومن ثم الربط بين هذه الآيات، ومن المعلوم أن حسن الربط يعطي مزيد إيضاح وبيان حتى كأن السامع لم يقرأ الآيات من قبل.

ثانيهما: إذا كان موضوع الخطبة مما لم يرد تفصيله في القرآن الكريم ولكن ليستدل له بآيات من القرآن، فهذه يفيد فيها استعراض المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ليكون الاستيعاب أتم وأوفى، فاللفظة ترد في القرآن الكريم على وجوه وتصريفات متعددة، ومن المفيد جداً استعراض هذه الوجوه وتدقيق النظر فيها وربطها بنظائرها، ومراجعة أقوال أهل العلم من المفسرين وغيرهم، وسوف يجد الخطيب إشارات قرآنية بليغة، وفهوماً للعلماء دقيقة، وأسراراً من المعاني عميقة تجعل خطبته تحتل مكاناً مرموقاً لدى سامعيه ومتابعيه.

وغني عن البيان أن كتب التفسير تتنوع في تناولها وطرائق تفسيرها، فمنها ما يهتم بالمأثور ومنها ما يعتني بالرأي، وفيها اللغوي والإجمالي، وغير ذلك من أنواع التفسير في كتب التفسير قديمه وحديثه.

٢ - الحديث الشريف وشروحه:

ما قيل في القرآن الكريم يقال في الحديث الشريف فهو المصدر الثاني من مصادر الإسلام، والحديث النبوي أكثر تفصيلاً وسعة من القرآن الكريم فهو شارح القرآن ومبينه، وقد حوى من التفصيل والبيان ما زخرت به مدونات السنّة يضم إلى ذلك شروح أهل العلم وفهومهم واستنباطاتهم، مما يوفر للخطيب معيناً لا ينضب فيما يتوجه إليه من موضوعات.

٣ - مصادر إسلامية قديمة:

وهي ما عدا التفسير وشروح السنّة من كتب العقائد والأحكام والمواعظ والأخلاق والرقائق وغيرها، يختار منها الخطيب ما يناسب موضوعه تأصيلاً واستدلالاً وأسلوباً، ويذكر على سبيل المثال: «مدارج السالكين»، وزاد المعاد لابن القيم رحمه الله «ومجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية، و«الإحياء» للغزالي ومختصره، مع ما ينبغي من الحيطة في بعض ما في الكتاب من ملاحظات، و«صيد الخاطر» لابن الجوزي، و«أدب الدنيا والدين» للماوردي و«روضة العقلاء» للبستي، و«جامع العلوم والحكم» لابن رجب.

٤ - كتب الأدب القديم والحديث:

وهذه يعتني بها الخطيب من أجل رقي الأسلوب، وتخير الألفاظ، وانتقاء الكلمات والعبارات الجزلة الأخاذة ذات الوقع المتميز على السامع، ومن هذه الكتب القديمة «البيان والتبيين» للجاحظ، و«صبح الأعشى» للقلقشندي، و«الخطب المنسوبة» لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فأسلوبها متميز والصناعة اللفظية فيه عالية، على ما يتعين على الخطيب من ملاحظة المعاني الصحيحة التي لا تخالف مقاصد الشرع وأصوله.

ومن الكتب الحديثة: مؤلفات الرافعي، والخضر حسين، ومحمد محمد حسين، والعقاد، وأحمد حسن الزيات، والسيد أحمد الهاشمي وأمثالها.

٥ - الكتب المؤلفة في الإسلام والقضايا المعاصرة:

تزرخ الساحة العلمية والأدبية بكتب إسلامية معاصرة جيدة، توفر

للخطيب ثروة هائلة في إعداد مواضيعه وبخاصة الاجتماعية منها والتربوية وقضايا العصر وأحداث الوقت، فهي تتحدث بلغة معاصرة جيدة وبمعالجات مناسبة يحسن من الخطيب كثرة المطالعة فيها، وبخاصة كتب المعروفين بحسن إسلامهم، وصحة منهجهم، وسلامة قصدهم، مثل: محمد الخضر حسين، وسلسلة دعوة الحق التي تصدرها رابطة العالم الإسلامي وغير ذلك.

٦ - المؤلفات في الخطب:

وهي مؤلفات خاصة تشتمل على خطب الجمعة، ألقاها مؤلفوها في مواضيع متنوعة، والسوق المكتبية ملأى بهذا النوع من المؤلفات يجدر بالخطيب وبخاصة في بدايات عمله الخطابي أن يطلع عليها، وهذه المؤلفات غالباً ما تحتوي على مواضيع متشابهة في الطرح من الإيمانيات والمواعظ والقضايا الاجتماعية، مما يتيح للخطيب المبتدئ فرصة المقارنة بين مناهج الخطباء وطرق عرضهم وأساليب طرحهم مما يعينه على رسم خط متميز لنفسه، ولهذا ينبغي الاطلاع على هذه المؤلفات في بدايات الممارسة الخطابية، حتى إذا اشتد عوده واتسعت مداركه ومعارفه استقل بنفسه، وتوجه إلى المصادر الأصلية، فصار ينشئ الخطب ويرسم لنفسه خطاً خاصاً وطريقاً منفرداً، ومن المؤلفات في هذا الباب: خطب المراغي، والبيحاني، والشيخ عبدالله خياط، والشيخ محمد بن عثيمين، والشيخ صالح الفوزان، والشيخ محمد بن سبيل.

٧ - الصحف والمجلات:

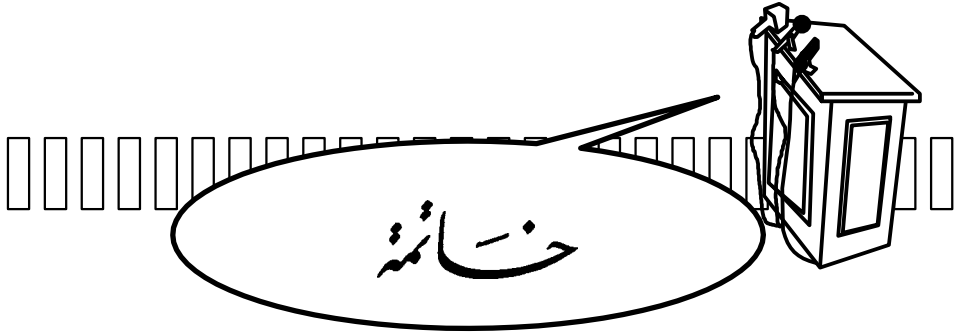
يجدر بالخطيب مواكبة الأحداث ومسايرة الوقائع، ويفيده في ذلك الاطلاع على الصحف والمجلات ليتابع الأحداث المستجدة،

ويمعن النظر في المقالات والتعليمات والتعليقات التي تواكب الحدث، ففيها ثراء وتوسيع لمدارك المتابع، وبصر بتفسير الأحداث، مما يهدي الخطيب إلى النظرة المتوازية وبخاصة إذا كثر اطلاعه على الكتابات والتعليقات الصحفية للكتاب المرموقين.

وقد تكون المجلات أكثر إفادة لأنها تعالج بعمل أكبر، فإذا كانت الصحافة تهتم بالحدث اليومي السريع، فإن المجلة تدخل إلى الحدث بعمق أكبر.

وهناك مجلات إسلامية وعلمية متخصصة ينبغي مزيد الاعتناء بها لما تحتويه من مادة علمية مؤصلة مدللة تعين الخطيب على غايته، مثل: مجلة البحوث الإسلامية، والدعوة، والبيان، والإصلاح، والمجتمع.





ويحسن في الختام أن أنبه في خلاصة إلى بعض الأمور التي يجدر مراعاتها في خطبة يوم الجمعة. فهو يوم يجتمع فيه المسلمون كل أسبوع ليشهدوا الخير، ودعوة المسلمين، والتذكير بما يرقق القلوب ويلقح الفهوم، ويجمع على الهدى والحق والطريق المستقيم.

١ - يحسن الاختصار على موضوع واحد غير متشعب الأطراف ولا متعدد القضايا، إذ إن ذلك في الغالب يشتت الأذهان وينسي بعضه بعضاً، فمهما كانت العبارة بليغة، والأسلوب منمقاً، والفكر متدفقاً، فإنه لا يستطيع مع الإطالة وتنوع الموضوعات إعطاء صورة متكاملة مجتمعة الأفكار واضحة المعالم.

٢ - ينبغي عدم التعرض لذكر الخلاف في الفروع، والانطلاق من المسلمات في الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم، وفي ذلك متسع في الوعظ والإرشاد والتوجيه، وبهذا تؤدي الخطبة دورها في جمع الكلمة والتمسك بشعب الإيمان، وما أكثر الفضائل والعزائم التي تناسب ميادين التوجيه والتذكير والمواظ.

٣ - الحرص قدر الإمكان أن يلائم موضوع الخطبة الأحداث الجارية والملابسات الواقعة في دنيا الناس ومخاطبة جماهير السامعين.

وإن مما يزرى بالخطيب أن تكون الخطبة في وادٍ والناس والزمان في وادٍ آخر، وإن في نزول كتاب الله منجماً ما ينبه إلى ذلك.

٤ - مجارة الأحداث والتمشي مع الواقع لا ينافي المطالبة بأن يتخول الخطيب جمهوره بالتذكير بفرائض الإسلام ترغيباً، وبمحرماته ترهيباً، من الصلاة والزكاة والصوم وحقوق الوالدين والجوار ووجوه البرِّ وأنواع الصلوات وتحريم الزنا والخمر والسرقة وأكل أموال الناس بالباطل وأمثالها، وتعطير أسماعهم بين فينة وفينة بذكر سير السلف الصالح بدءاً بالقدوة الأولى والرحمة المهداة نبينا محمد رسول الله ﷺ ثم صحابته من بعده والتابعين لهم بإحسان، وذكر أمجاد المسلمين والتنبيه إلى ينابيع الحضارة الإسلامية اليانعة المتجددة، ففي ذلك زرع للفقهِ في النفوس، وربط للمستقبل المأمول بالماضي المجيد، وتأكيد للإيمان بالرسالة العالمية وتأصيل للهوية الإسلامية.

٥ - يحتاج الخطيب في بعض الظروف والأحوال والمجتمعات إلى تنبيه المسلمين إلى الأخطار الإلحادية والفلسفات الأجنبية والنزعات المنحرفة والنحل الباطلة، وفي هذا الباب والمسلك يحسن بالخطيب أن يتوجه إلى بيان حقائق الإسلام بقوة من غير خوض في أسلوب جدلي عقيم أو تجريحي مبلبل، ففي نصاعة الإسلام وقوته - بحمد الله - ما يكفي لدحر الباطل وافتراءات أهله.

٦ - الخطيب طبيب فعليه قبل وصف الدواء تشخيص الداء، فيتعرف على العلل والأمراض الشائعة ويشخص الداء ويعرف الأعراض، فإذا استبان له ذلك رجع إلى الكتاب والسنة فوضع الدواء، وكلما دق التشخيص سهل العلاج، ومعلوم أن الواعظ غير المتبصر

سيأتي بما لا يناسب، وإذا أخطأ في تحديد العلة فقد تكون الخطبة لغواً على الرغم من شمولها على نصوص صحيحة.

٧ - اهتمام الخطيب بخطبته وعنايته بالتحضير الجيد دليل على احترامه لنفسه وسامعيه ومنبره.

٨ - الحرص على الإيجاز قدر الإمكان، والقدرة على ذلك تنبع من عمق الثقافة وقوة التحصيل ووضوح الصورة والإدراك التام لما يريد الحديث عنه والنفس البشرية لا تزكو فيها المعاني إلا إذا أمكن تحديدها وتقويمها.

أما كثرة الكلام وبعثرة الحقائق فتحول السامح إلى شبه إناء قد امتلأ وبدأت تسيل منه الكلمات مهما بلغت نفاستها، ومن الخطأ الفادح أن يظن الخطيب أن عليه أن يقول ما عنده وعلى الناس أن ينصتوا طوعاً أو كرهاً.

وبعد فهذا ما تيسر جمعه وتدوينه سائلاً المولى جلت قدرته وعزّ شأنه أن يهدي للتي هي أقوم من العمل، والأحسن من القول، ويوفّق للإخلاص في القول والعلم والعمل، وما كان من صواب هنا فمن الله وما كان خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، ورحم الله من أهدى إليّ عيوبي، ولا عدمت أخاً يدمح زلة، وينبه إلى غلطة، وكفى بربك هادياً ونصيراً، وصلى الله وسلم على خير خلقه، نبينا محمد وآله وصحبه وسلم^(١).

(١) مصادر البحث: الخطابة وأصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب: محمد أبو زهرة. الخطابة وإعداد الخطيب: د. عبد الجليل شلبي. قواعد الخطابة وفقه الجمعة والعيد: د. أحمد أحمد غلوش. كيف تكون خطيباً: عبد الرحمن خليفة.

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ
الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا
اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ
قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾ (١).





الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
(١) الافتتاح	٧
رواية المنبر الحر من الصفر إلى الصفر!	٩
(٢) في شؤون التاريخ والشخصيات	١٧
أَحَدٌ أَحَدٌ	١٨
أحمد ياسين... دروس وعبر	٣٣
وقفات مع حياة المغني الراحل	٤٨
(٣) في شؤون الأسرة والشباب	٥٧
صناعة التربية	٥٨
التفاهم هو الحل	٦٩
تحديات أمام الشباب	٧٧
فقدان الثقة	٨٤
الفتاة المهمومة	٩١
بيوت هدمها الجوال	١٠٣
(٤) في شؤون التربية والإيمانيات	١١٥
القرار الأخير	١١٦

١٢٦	 كلمة غيرت حياتي
١٣٦	 أسلحة الدمار الشامل
١٤٥	 (٥) في شؤون الفكر وقضايا المجتمع
١٤٦	 مواقف ساخنة (١)
١٥٦	 مواقف ساخنة (٢)
١٦٦	 مواقف ساخنة (٣)
١٧٨	 دعوة للحوار الجاد
١٩٠	 الصحو والوطن
٢٠٠	 الأمة بين الإفراط والتفريط
٢١١	 (٦) في شؤون المسلمين وقضايا الأمة
٢١٢	 إلى أين نتجه؟
٢٢٠	 حاجتنا إلى التخطيط
٢٢٨	 المسمار الغربي والسفينة الإسلامية
٢٤٢	 مسلمون بلا هزيمة
٢٥٢	 واقع المسلمين وواجبنا تجاههم
٢٦٠	 شاهد على العصر
٢٧١	 فرعون الأمة
٢٨٠	 السوسة
٢٨٨	 هموم أمة
٢٩٥	 نصرة المسلمين في الفلوجة
٣٠٥	 يوم هزَّ العالم
٣١٢	 أسباب قوة اليهود
٣٢١	 (٧) شؤون المواسم والمناسبات
٣٢٢	 بين رمضانين
٣٣٢	 نفحات رمضان